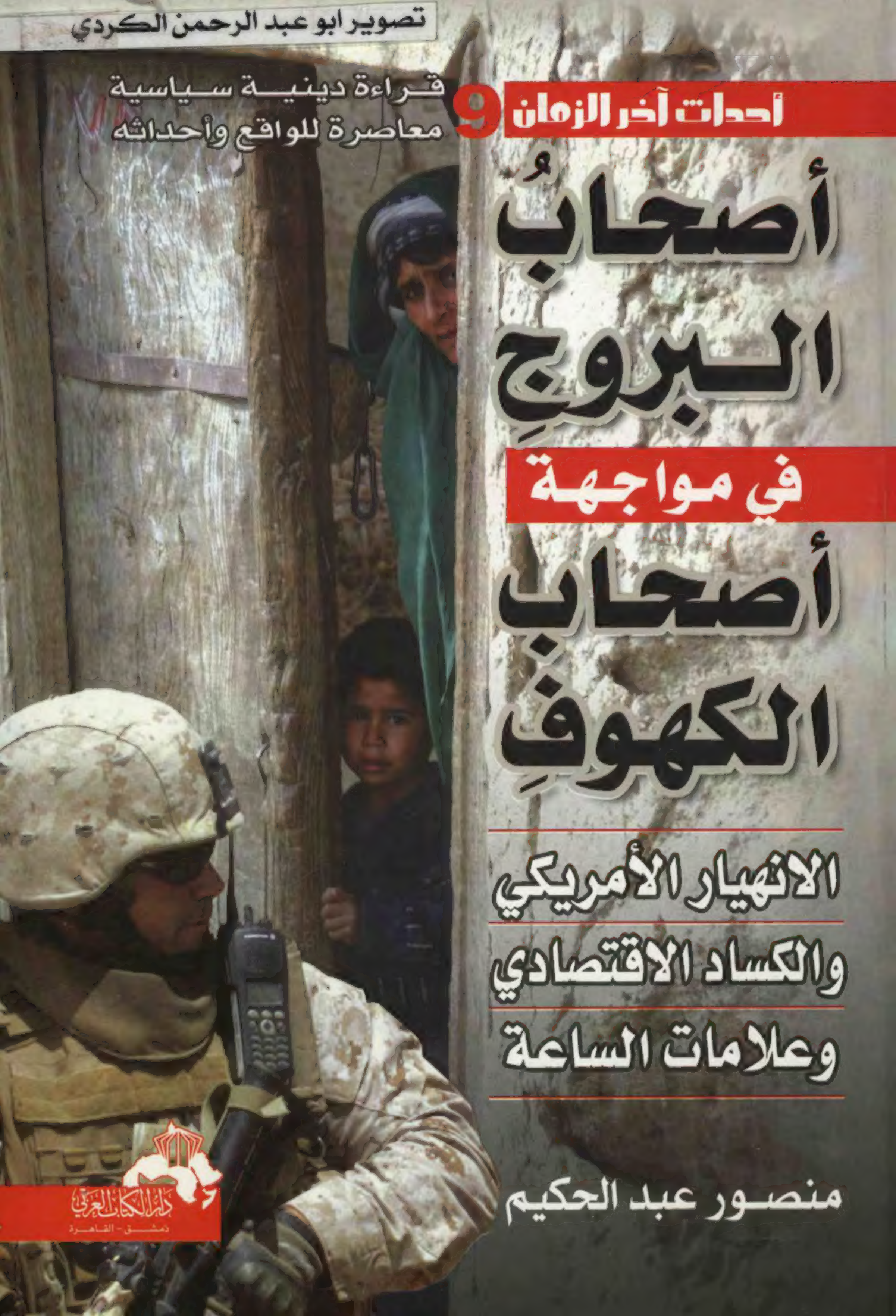


تصوير ابو عبد الرحمن الكردي
قـراءة دينيـة سياسية
معاصرة للواقع وأحداثه
أحداث آخر الزمان 9
أصحابُ البروجِ
في مواجهة
أصحابِ الكهوفِ
الانهيار الأمريكي
والكساد الاقتصادي
وعلامات الساعة
منصور عبد الحكيم
دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

اسم الكتاب : أصحاب البروج فى مواجهة أصحاب الكهوف
اسم المؤلف : منصور عبدالحكيم محمد
المراجعة اللغوية والتدقيق : طه عبدالرؤوف سعد
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠٠٨/٢٢٩٠٩
الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 376 - 447 - 8
التنفيذ الفنى: أحمد وليد ناصيف
الإشراف الفنى: محمد وليد ناصيف
الإشراف العام: أ. أسعد بكرى كوسا

تطلب كافة منشوراتنا :
حلب : دار الكتاب العربى ـ الجميلية أمام مسرح نقابة الفنانين ـ ت: ٢٢٥٦٨٧٠
دمشق : مكتبة رياض العلبى ـ خلف البريد ـ ت : ٢٢٣٦٧٢٨
مكتبة النورى ـ أمام البريد ت : ٢٢١٠٣١٤
مكتبة عالم المعرفة ـ جسر فيكتوريا ت : ٢٢٢٨٢٢٢
مكتبه الفتال ـ فرع أول ـ ت: ٢٤٥٦٧٨٦
فرع ثانى ـ ت : ٢٢٢٢٣٧٣

الطبعة الأولى
٢٠٠٩



سوريا ـ دمشق ـ الحجاز ـ شارع مسلم البارودى هاتف: ٢٢٣٥٤٠١ ص. ب ٣٤٨٢٥ فاكس : ٢٢٤٧٢٩٧
مصر ـ القاهرة ـ ٥٢ شارع عبدالخالق ثروت ـ شقة ١١ تلفاكس : ٢٣٩١٦١٢٢
لبنان ـ تلفاكس : ٤٣٤١٨٦ / ٠٥ ـ تليفون : ٦٥٢٢٤١ / ٠٣ ـ ص. ب ٣٠٤٣ الشويفات
darkitab2003@yahoo.com - darkitab-nassif@hotmail:com
www.darketab.com - info@darketab.com

أصحاب البروج في مواجهة أصحاب الكهوف

◆

منصور عبد الحكيم

◆

الناشر

دار الكتاب العربي

دمشق - القاهرة





قال تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

(الأعراف: ٩٦)

وقال أيضاً:

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾

(طه: ١٢٣ ـ ١٢٤)

وقال الحكماء:

إن الله يغضب على الظالم لظلمه،
ويغضب من المظلوم لسكوته على الظلم



المقدمــة

إن الحمد لله وحده نستعينه سبحانه ونستهديه ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا ند له ولا صاحبة له خلق الخلق وقدر الأقدار والأرزاق فلم ينس أحداً.. سبحانه وتعالى عما يشركون، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه من خلقه وخليله خاتم الأنبياء والرسل فلا نبى ولا رسول بعده.. بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وكشف الله به الغمة وتركنا على المحجة البيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك صلوات ربى وسلامه عليه وعلى آل بيته الكرام الأطهار وعلى أصحابه الكرام ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

ثم أما بعد..

فقد خلق الله الخلق ابتداء من آدم وحواء عليهما السلام، وحين انحرف ذريتهما فى أمة نوح عليه السلام عن الدين الحق وعبدوا الأوثان والأصنام أرسل إليهم عبده ورسوله نوحا عليه السلام فظل يدعوهم إلى عبادة الله عز وجل وحده وترك ما يعبدون من دونه ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلم يؤمن له إلا القليل!!

ثم كان الطوفان الذى أغرق الأرض كلها ونجَّى الله نوحا ومن آمن معه فى السفينة وهى قصة يعرفها الجميع ذكرها القرآن الكريم وأيضاً العهد القديم، وجاءت ذرية آدم من نسل نوح عليه السلام الثلاثة «يافث وسام وحام» لقوله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ (الصافات: ٧٧).

فتنوعت ذرية آدم من شعوب مختلفة الألسن والألوان والطباع، وظل الجنس الأبيض الذى جاء من نسل سام يسعى دوماً إلى السيادة وغزو إخوانه من ذرية آدم بحجة أنه الجنس الأفضل الذى يعلو غيره حتى ادعى البعض منهم أنهم جنس غير البشر

وأطلقوا على أنفسهم الجنس الأرى أو السامى.

وهؤلاء هم أصحاب البروج وإن غيرهم من بنى آدم ذوى البشرة السوداء أو الصفراء أو الخليط بين اللونين فهم أصحاب الكهوف المتخلفون عن ركب الحضارة وأطلقوا عليهم أسماءً كثيرة عبر التاريخ مثل: البربر أو الهمج أو العالم الثالث المتخلف وغيرها من الأسماء الكثيرة، ونحن نطلق عليهم أصحاب الكهوف.

وكانت المواجهات دوماً بين أصحاب البروج وأصحاب الكهوف والتى لم تنته أبداً إلى انتصار أحد الطرفين ولكن بكارثة بشرية مثل طوفان نوح.

وبوادر الصراع قد بدأت منذ القرن الماضى بالقطب الأوحد والعولمة الاقتصادية والثقافية والسياسية ومحاولة فرضها على العالم بأسره استعداداً لإعلان النظام العالمى الجديد الذى تسعى الولايات المتحدة ومن ورائها الصهيونية الدجالية فرضه على العالم.

وسوف نستعرض بإذن الله ذلك الصراع الحديث ـ القديم بين أصحاب البروج وأصحاب الكهوف الذى أصبح حقيقة حيث إن أصحاب الكهوف المواجهين لأصحاب البروج فى العصر الحالى يسكنون الكهوف فى أفغانستان وباكستان بالفعل ويشكلون حائط الصد الدفاعى الأخير أمام تلك القوى الاستعمارية الأمريكية والأوروبية.

وكذلك انهارت البروج الاقتصادية مؤخراً فى الإمبراطورية الأمريكية وتحققت النبوءات الاقتصادية التى أطلقها المحللون الاقتصاديون الأمريكان وغيرهم من توقع انهيار أمريكا اقتصاديا نتيجة سياستها الهمجية الفاشلة وكثرة حروبها، بالإضافة إلى كذبها على العالم بأنها أقوى دولة اقتصادية وعسكرية فى العالم وقد كذبوا وأضلوا من صادقهم من الدول، فكانت أكبر عملية نصب فى التاريخ البشرى حيث استولت أمريكا على أموال دول كثيرة عربية وأوربية.

وهكذا فشلت الولايات المتحدة اقتصاديا كما فشلت عسكريا أيضاً بجدارة.

هكذا هو الحال الآن.. فماذا ننتظر وممن نخاف؟

نسأل الله العظيم أن يوفقنا إلى إخراج هذا العمل على الوجه الذى يرضيه عنا وأن يتقبله منا ويجعله فى ميزان حسناتنا يوم القيامة إنه ولى ذلك والقادر عليه، وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

منصور عبد الحكيم محمد عبد الجليل

القاهرة ـ ١٠ ـ ١١ ـ ٢٠٠٨

mansor __ 2455 @ yahoo. com



1

الحرب من أجل الحضارة

- النظر إلى الماضى لقراءة المستقبل والتحولات الجذرية فى العلاقات الدولية الحديثة.
- اتحاد رجال الدين ورجال السياسة فى الحرب من أجل الحضارة.
- صراع الحضارات أو صراع الأديان والطوائف عالميا ومحليا أمر واقع.
- تطور نظرية صراع الحضارات، وبداية حرب الحضارات ومؤسس نظرية صراعات الحضارات.



النظر إلى الماضى لقراءة المستقبل

الأمة التى لا ماضى لها لا حاضر لها معلوم، ومن ثم فإن الأمةالأمريكية أو الولايات المتحدة الأمريكية وهى خليط من الأمم الأوربية والأفريقية والآسيوية، خليط غير متجانس إلا أنه يمثل كل أنواع البشر، وهذا كله يجعلها لا تختلف عن تلك الأمم مجتمعة.

ومن طبيعة الأمم السابقة كاليونان والرومان ثم الانجليزية أنها كانت تبدأ حضارتها بإعلان الحرب على غيرها من الشعوب الأخرى فى العالم ثم احتلالها ونهب ثرواتها.

وهكذا فعلت الولايات المتحدة حين أرادت بناء حضارتها الوهمية بإعلان الحرب على العالم رغم فشلها سابقاً فى كل الحروب التى خاضتها مباشرة بنفسها.

فالسياسة الأمريكية تقوم على سياسة المصالح المشتركة.

ومن خلال قراءة الماضى لتلك الأمم السابقة نرى أن النهاية المتوقعة للولايات المتحدة الأمريكية حتمية تاريخية أزلية، وقد يسأل البعض سؤالاً تقليديا: لماذا تفعل ذلك والتاريخ خير شاهد على هلاك من سبقها من الأمم الأخرى؟

والجواب يتلخص فى أن القادة الاستعماريين لا ينظرون إلى الخلف وإنما إلى الأطماع الشيطانية فلو نظر الإنسان إلى الخلف ما كانت على الأرض جريمة فردية كالقتل والسرقة وغير ذلك أو حروب بين الدول.

لقد انتصرت دول الحلفاء على دول المحور فى الحرب العالمية الأولى وحين عقدوا الصلح المنفرد وأسموه عقد السلام وضعوا فيه شروطاً مجحفة على الحكومة الألمانية جعلتها تعلن الحرب مرة أخرى بضراوة بعد عشرين سنة من تلك المعاهدة.

وقد وضعت بذور الحرب التى تخوضها الولايات المتحدة على العالم الإسلامى فى القرن الحادى والعشرين إبان الحرب العالمية الأولى حين أُعطى اليهود وعد بلفور عام ١٩١٧ لإقامة دولة لهم على أرض فلسطين العربية، فكانت تلك الدولة الدخيلة على الجسم العربى ذريعة الحروب المتتالية والصراعات المستمرة منذ القرن العشرين وحتى الآن.

أسفرت تلك الحرب الأخيرة عن غزو أفغانستان والعراق واحتلالهما بالإضافة إلى فلسطين لكى يشتعل العالم ويتوهج.

فمنذ التسعينيات من القرن العشرين والعالم بأسره يعيش تحولات جذرية فى العلاقات الدولية، وأن خارطة الطريق التى وضعتها السياسة الأمريكية حسبما يتجلى فى الواقع العملى، لم تكن مختصرة ومحددة للمشكل والصراع الفلسطينى - الإسرائيلى، وإنما العالم بأسره تعاد صياغته قد ظهرت بوادرها فى العراق.

إلا أنها قد أُعد لها منذ ربع قرن أن تشمل مساحة العالم بأسره، من العراق والمنطقة العربية والإسلامية والسيطرة على أوروبا والدول المؤثرة فى الاقتصاد العالمى مثل الصين والشرق الآسيوى.

إنه النظام الذى أعقب الحرب العالمية الثانية، وأنهى العصر الأوربى للسيطرة، واتسم بتقسيم النفوذ وتقاسم التركات والمناطق فى مؤتمر مالطا (فبراير ١٩٤٥م).

حيث ظهر على الساحة الدولية قطبان هما:

الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتى وكان لهما اليد الطولى والسطوة النافذة فى التحكم بمصير شعوب العالم من أقصاه إلى أقصاه، وسادت ظاهرة سباق التسلح وقيام التحالفات وتوازن الرعب، وإثارة حروب بالواسطة فى أقاليم العالم الثالث، واتسمت هذه المرحلة بملامح الحرب الباردة وتكريس التفاوت بين الشمال الغنى والجنوب الفقير حتى أطلق على تلك الفترة الحرب العالمية الثالثة الباردة.

وتلك المرحلة تميزت بأنها قد مرت بمراحل متعددة مرحلة الحرب الباردة التى شهدت ظهور حلف الأطلسى (١٩٤٩)، وحلف وارسو فى عام (١٩٥٥)، ونشأت كتلة عدم الانحياز فى مؤتمر باندونج فى عام (١٩٥٥) والتى شاركت فيها مصر كطرف مؤسس.

ومرحلة التعايش السلمى البارد وهى المرحلة التى حددها الزعيم السوفيتى الراحل (خروشيف) فى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفيتى، وحدد مبدأ التعايش بمبادئ ثمانية أبرزها احترام السيادة لجميع الدول والتخلى عن الحرب كوسيلة لتسوية النزاعات الدولية، وحل المنازعات بالمفاوضات وتعمقت عملاً مرحلة التعايش السلمى بعد أن استطاع القطبان تجاوز أزمة كوبا فى عام (١٩٦٢)، والمسماة بأزمة

الصواريخ، مما حدا بقمة عدم الانحياز التى عقدت فى القاهرة عام ١٩٦٤ أن تقر هذه المبادئ، فضلاً عن إقرار الأمم المتحدة لها عام ١٩٦٥).

وسادت مرحلة الوفاق الدولى وهى مرحلة الثمانينيات وبعض السبعينيات، إذ يتبلور تفاهم أعمق وانفراج فى الموقف الدولى، خصوصاً بعد انتهاء الحرب الفيتنامية فى عام (١٩٧٢).

وكل هذه المراحل غلفت بالثلج السياسى.

من خلال خطة مدروسة من الخارجية الأمريكية، التى كان يقودها كيسنجر، وكان مستشاراً للأمن القومى مع الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون. ظهر مصطلح العالم الجديد والعولمة فى تلك الفترة توترت العلاقات بين موسكو والصين رغم أن البلدين قد انتهجا المذهب الشيوعى سياسيا واقتصاديا.

انتهت هذه الفترة بظهور سمات نظام دولى جديد يريد ومن خلال آليات وإيدولوجيات وأفكار محددة إعادة صياغة العالم ابتداءً من الشرق الأوسط وانتهاء بأوربا بما ينسجم مع أهدافه ورؤيته وينفذ مشروعه هذا النظام أبعاده ونتائجه ويقف وراءه المشروع الأمريكى صاحب مشروع الشرق الأوسط الكبير.

وقد أتيح لها تنفيذ مشروعها الاستعمارى الجديد بعد القضاء على الاتحاد السوفيتى والمعسكر الاشتراكى.

ولو أردنا تحديد الفترة الزمنية التى تبلورت فيها معالم النظام الدولى الجديد، بالفعل لوجدنا أزمة الخليج كانت هى البداية.

ففى هذه الأزمة أعلنت واشنطن إصرارها الأكيد وعزمها الشديد على أن تكون القطب الأوحد الذى يستلم قيادة العالم سياسيا وعسكريا، وأن تضع يدها على أهم واردات العالم.

وتشير بعض المصادر إلى أن بوش الأب استعمل تعبير (النظام الدولى الجديد) ٢٧٤ مرة فى خطاباته الرسمية وأحاديثه العامة فى الفترة ما بين آب/ أغسطس ١٩٩٠ حتى آذار/ مارس ١٩٩١ .

وأهم ما جاء فى سمات النظام الدولى الجديد على لسان الأب وتم تحقيقه فى

عصر الانتقال نهائيا إلى نظام القطب الواحد بزعامة واشنطن بعد انهيار المعسكر الاشتراكى، انضمام المعسكر الشرقى إلى المعسكر الغربى، وتحول الصراع من صراع بين الشرق والغرب إلى صراع بين الشمال الغنى والعالم الإسلامى والعربى، وتحول الأمم المتحدة والمنظمات الإقليمية، والهيئات الدولية إلى آلات طيعة بيد السيد الأعلى والقطب الأوحد أمريكا العظمى أو الأم لكل الدول.

كان بوش الأب متحمسا لإنهاء الاحتلال العراقى للكويت، ولكنه لم يكن متحمسا لإنهاء الاحتلال الإسرائيلى للضفة الغربية وغزة، وشعر أن العراقيين لم يُعاقبوا بشكل كافٍ وسعوا إلى تحريف سجل الحرب لإثبات ذلك.

فقال (إن المأساة اليهودية ترجع فى أصلها إلى ما قامت به الأمم الغربية فى أوربا وأمريكا، وأخيراً استفاق الضمير المسيحى، يجب أن تنتهى المأساة اليهودية الطويلة عبر القرون، ولكن عندما جاء وقت دفع التعويض تكفيرا عن التقصير السابق، قررت الأمم المسيحية فى أوروبا وأميركا أن تدفع الأمة الإسلامية تلك الفاتورة).

فهناك قرى لبنانية كانت ضحية لقصة خيانة مزدوجة لقوات الانتداب البريطانية والفرنسية، عندما حدثت مذبحة ارتكبها الإسرائيليون عام ١٩٢٣ ضد رجال تلك القرى ولم ينج منها أحد، مثل قرى (النعامة والزوق وترشيحا والخالصة والكتية واللقاس) عندما كان البريطانيون يحكمون فلسطين والفرنسيون يحكمون لبنان.

واتفقت القوتان الإمبرياليتان على تغيير خط الحدود قليلاً لصالحهما، فقررت فرنسا أن تتخلى بريطانيا عن أميال مربعة قليلة من لبنان كى يتوسع الانتداب البريطانى قليلاً إلى الشمال ليستوعب القرى السابقة

وكانت هناك صفقة قذرة وراء هذا الاتفاق، إذ أظهرت السجلات القديمة فى بيروت أن تلك الأرض سُلمت لقاء اتفاقية عُقدت مع شركة فرنسية من أجل تجفيف مستنقعات فى المنطقة للاستعمال التجارى، وقد سميت فى ذلك الوقت اتفاقية حسن الجوار!!

وبعد توقيع اتفاق (أسلو) مع منظمة التحرير الفلسطينية اتخذ الصراع بعدا آخر قائما على التوظيف السياسى والإعلامى لقضية الإرهاب، وحشد العالم والغرب خاصة فى حرب يقودها الصحفيون ورؤساء الدول خلف قضايا مثل الحرب على

الإرهاب، والحرب الدائمة على الإرهاب.

وعندما يقتل الفلسطينيون الإسرائيليين يعتبر أصحاب البروج القتلة أشراراً، ولكن عندما يذبح الإسرائيليون الفلسطينيين تعتبر أميركا وسائر البلدان الغربية أنه يمكن النظر عمليا إلى هذه الجرائم بصفتها مآس وسوء فهم أو من عمل أفراد مجانين، والفلسطينيون هم المسؤولون مبدئيا عن حدوث هذه الأعمال الشنيعة، أما إسرائيل فغير مسؤولة.

ومن خلال هذا التعتيم والإرباك رُسم للشرق الأوسط إطار نظرى تبريرى جديد لا يزال قائما حتى اليوم، يكون بمقتضاه كل من يعارض سياسة أميركا فى المنطقة أو يعارض إسرائيل عدوا للسلام .

وتطور التطبيق الفعلى لأوسلو إلى مزيد من الحصار والتضييق على الفلسطينيين وإنكار القرار ٢٤٢ لمجلس الأمن، وأصبحت عودة اللاجئين ميؤوسا منها لأن إسرائيل لن تسمح لثلاثة ملايين فلسطينى بأن يعبروا حدودها ولا بد من تذكير فلسطينيى ١٩٤٨ بأن القرى الـ٤٠٠ التى نزحوا منها دمرها الإسرائيليون خلال السنتين اللتين أعقبتا رحيلهم عنها، وأن بيوتهم فى معظم الحالات لم تعد موجودة.

ومنذ مؤتمر مدريد المنعقد عام ١٩٩١ زاد عدد المستوطنين اليهود المقيمين بطريقة غير شرعية على الأرض الفلسطينية من ٨٠ ألفا إلى ١٥٠ ألفا، مع أنه بموجب اتفاق أوسلو يجب أن يمتنع الإسرائيليون والفلسطينيون عن اتخاذ خطوات منفردة.

وليس الأمر قاصرا عما يحدث فى فلسطين العربية وإنما هناك أحداث أخرى فى دول عربية انعتقت عن الاحتلال فترة من الزمن ثم عاد إليها مرة أخرى نذكر منها أنه قبل ٨٧ عاما من الإعلان البريطانى الموجه للشعب العراقى الذى يؤكد أن الجيش البريطانى جاء محررا للعراق من الاحتلال التركى.

وقبل ١٧٣ عاما من غزو الرئيس الأمريكى بوش ورئيس الوزراء البريطانى تونى بلير للعراق لـلأسباب عينها، تدفق الفرنسيون على الشاطئ فى خليج سيدى فرج الجزائرى الهادئ وهم يحملون أوهاما مشابهة، ليبدأ تاريخ الجزائر المستعمرة، الطويل والمظلم.

ويتفق معظم المؤرخين أن مجزرة سطيف عام ١٩٤٥ التى قتل فيها المستوطنون الأوربيون والدرك والقوات الفرنسية نحو ستة آلاف مسلم انتقاما لقتل المسلمين ١٠٣

أوروبيين، ساعدت على اندلاع الصراع الأساسى من أجل الاستقلال فى الجزائر الذى حصد نحو مليون شهيد جزائرى على مدار ٨ سنوات. التى اندلعت عام ١٩٥٤ وانتهت عام ١٩٦٢بالاستقلال الشكلى عن المستعمر الفرنسى لكن الحقيقة غير ذلك.

وفى باريس مات الجزائريون بالمئات عندما احتجوا فى أكتوبر/تشرين الأول ١٩٦١ على حظر التجول الذى فرضته عليهم الشرطة، فهاجمتهم بوحشية وقتلوا أكثر من ٣٠٠ منهم، وأُلقيت جثثهم فى اليوم التالى فى نهر السين.

وادعى الفرنسيون أن ذلك صراع حضارات، وكانوا بالطبع مخطئين، فقد كانوا يحاربون ضد ثورة وطنية فى الجزائر، كما وجد الأمريكيون أنفسهم يحاربون ضد ثورة وطنية فى العراق.

أما المضمون الإسلامى لحرب الاستقلال الجزائرى ١٩٥٤-١٩٦٢ تم تجاهله منذ وقت طويل، على الأقل من قبل الحكومة الجزائرية التى وجدت نفسها تحارب عدوا إسلاميا فى التسعينيات بعد فوز التيار الإسلامى هناك من الانتخابات البرلمانية عبر صنايق الانتخاب مما أثار حفيظة المستعمر القديم وعملائه.

وجد الرئيس الشاذلى بن جديد نفسه فى مواجهة ضغط من أجل الإصلاح، لم يكن مختلفا عما واجهته السلطات الفرنسية قبل حرب الاستقلال.

وعندما ألغى العسكريون الجولة الثانية من الانتخابات الوطنية عام ١٩٩٢ بعد جولة أولى أظهرت أن الجبهة الإسلامية للإنقاذ ستكسب، كان هذا القمع للديمقراطية مثيرا للسخرية فى كل تفاصيله، كما كان الفرنسيون يزورون انتخاباتهم فى الجزائر.

ثم جرى إقصاء الرئيس الشاذلى من قبل الجنرالات، وحظر الجبهة الإسلامية للإنقاذ، لتبدأ حرب عصابات بالغة العنف مازالت مستمرة أيضا حتى الآن.

كان مؤيدو الجبهة الإسلامية يشرحون سبب غضبهم ببساطة، لقد شجعوا على المشاركة فى الانتخابات، وردد الغرب أن السلطة تأتى عبر صناديق الاقتراع أكثر منها عبر الثورة إسلامية أو غير إسلامية

وقد لعبت جبهة الإنقاذ الإسلامية بأمانة البطاقة الديمقراطية والتزمت القوانين، ولكنها ارتكبت خطأ كسب الانتخابات الذى لم يكن يريده النظام ومؤيدوه الغربيون.

وأقصى الجيش الرئيس الشاذلى عن الرئاسة وأعلن أن مجلس رئاسة مؤلفا من خمسة رجال بمن فيهم الجنرال القوى خالد نزار سيدير البلاد.

استدعت السلطات بطلا من الماضى عاد من المنفى لقيادة الجزائر فى وقت الحاجة.. إنه محمد بوضياف وهو من قدامى حرب الاستقلال وأحد مؤسسى جبهة التحرير الوطنى، إلى الجزائر لتولى منصب الرئاسة استعداداً لمحاربة جبهة الإنقاذ الإسلامية بأوامر من المستعمر القديم الفرنسى.

وعندما قُتل بوضياف يوم ٢٩ يونيو/حزيران ١٩٩٢ فهمنا ذلك جميعا بشكل خاطئ، فقد قتل على يد أحد حراسه الملازم لَمبارك بومعرافى، وأصبح شائعا الآن فى الجزائر ربط اغتيال بوضياف بالمافيا، وهى عبارة غامضة استخدمت للإشارة إلى الطبقة الاجتماعية والسياسية التى اغتنت على حساب الوطن أثناء حكم الشاذلى طيلة ١٢ عاما.

أما السيدة بوضياف فقالت إنها لم تعتقد للحظة واحدة أن جبهة الإنقاذ قتلت زوجها أى أن الجبهة لا علاقة لها باغتياله وان من قتلوه هم الذين جاءوا به كى تشتعل نار الفتنة وهو ما حدث بالفعل لأن هذا هو ما أراده أصحاب البروج.

فقد كان موت بوضياف اللحظة التى أصبحت فيها حرب الجزائر وحشية، وخلال سنتين حصلت مأساة واسعة غير مصرح عنها فى أنحاء البلاد، طبيعتها معروفة جدا، لكن أبعادها ازدادت بشكل مرعب يوميا مع إراقة الدماء على مستوى لا مثيل له منذ الاستقلال عن فرنسا.

كل هذا يعطى انطباعاً واحداً أن الاستعمار الغربى. الفرنسى أو الإنجليزى لم يخرج من تلك البلاد التى استعمرها ونهب ثرواتها وأنه متواجد بأشكال مختلفة رغم اعتذار الرئيس الفرنسى مؤخراً عن فترة احتلال بلاده للجزائر.

بل إن الاحتلال العسكرى القديم عاد بشكله القبيح مرة أخرى مع مطلع القرن الحادى والعشرين فى ثوبه الجديد الأمريكى مدعياً أنه جاء من أجل الديمقراطية والحضارة!!

وكما حدث فى الجزائر سابقاً وحالياً يحدث فى العراق فقد اشتعلت نار الفتنة هناك ودمرت البلاد ونهبت ثرواتها وقتل أهلها، فالتاريخ يعيد نفسه ولا غرابة فى ذلك واقرأوا التاريخ كى تفهموا وتستعيدوا الحاضر والمستقبل.

اتحاد رجال الدين ورجال السياسة في الحرب من أجل الحضارة

نسمع كثيراً عن الفساد المترتب على اتحاد رجال المال ورجال السياسة أو ما يسمى زواج المال بالسياسة وهو زواج وفساد من حيث النشأة والأهداف والنتائج المترتبة عليه.

ومثل ذلك الاتحاد أو الزواج ظهر الاتحاد والتزواج بين الدين ورجالاته من جهة والسياسيين والعسكريين من جهة أخرى حين أيد بابا الفاتيكان السابق بولس الثانى والرئيس الأمريكى السابق «رونالد ريجان» ثم البابا الحالى بنديكت السادس عشر والرئيس الأمريكى بوش الابن فى حربه على المسلمين، وظهور التيار الأصولى الإنجيلى فى أمريكا وهو تيار مسيحى صهيونى وتزاوجه مع السلطة الحاكمة.

وهذا الاتحاد الخطير أثار الحروب الشرسة مع مطلع هذا القرن.

ولهذا ففى عام ٢٠٠٤، نادى الكاردينال راتزينغر[(١)] الكاثوليكيين الأمريكيين إلى إعادة جورج دابليو بوش إلى البيت الأبيض، حتى لو كان هذا الأخير معمدانا، وكون منافسه كيرى كاثوليكيا.

وأثناء العودة نقل السيد بوش العبارات الجميلة إلى الكاردينال راتزينغر عبر الكرادلة الأمريكيين.

من هذا المنظور، التزاوج الثنائى بين بنديكت و جورج دابليو بوش يبدو أقوى من ذلك الذى كان بين يوحنا بولس الثانى ورونالد ريجان.

وانتقدت الصحافة الغربية طويلا التعبير الصادر عن قاعة الصحافة الخاص بالكرسى الرسولى الذى أعلن أن: البابا الجديد يريد أن يكون خليفة بنديت الخامس عشر، بابا مسالما حاول منع الحرب العالمية الأولى.

من جهة بنديكت الخامس عشر لم يكن مسالما قط، كان مساندا للثلاثية الحربية،

(١) هو بابا الفاتيكان حالياً بنديكت السادس عشر.

ومن جهة أخرى، إن صدقنا فرضا أنه كان مسالما، فيجب الاستمرار بالقول إنه فشل فى تحذير المملكة المتحدة، و لا يمكن وضع بابا جديدا تحت إمارات فشل سابقة.

وفى الحقيقة، فقد وضع الكاردينال راتزينغر بنديكت السادس عشر نفسه فى خط القديس بنديت، زعيم أوربا، إذ نجد بالفعل العمل السياسى الكبير الشخصى للذى كان إلى الآن مديرا رسوليا " لعقيدة اليقين" للأبرشية داخل كنيسته.

كما نذكر لجوزيف راتزينغر نضاله المنهجى، لاجتثاث حركة التحرريين المسيحيين فى أمريكا اللاتينية.

ونتذكر خارجيا تورطه فى صياغة الميثاق الأوربى للحقوق الأساسية فى مشروع الميثاق الأوربى.

قاد جوزيف راتزينغر حملة " لوبى المنظمات الكاثوليكية" داخل المؤسسات الأوربية للتأكيد على الإرث المسيحى لأوربا فى مشروع الدستور الأوربى.

وقد نجح جزئيا إذ أن مسودة الدستور الأوربى انتهت إلى تأسيس الاتحاد على أساس إرث روحانى، إنسانى، وثقافى.

وخلافا للمظاهر الأوربية المتعارف عليها اليوم، فإن الرهان لم يكن فى وصف هذا الإرث " بالمسيحى" لأوربا الأمر الذى يعد أصلا إخفاقا للكاثوليك الذين يحاولون تأسيس أوروبا على هوية و ليس على أساس عقد سياسى أو اجتماعى، ضاربين عُرض الحائط بكل قيم الثورة الفرنسية.

ويكون الكاردينال راتزينغر قد حقق نصرا أيديولوجيا بتغييره مصدر الشرعية فى الاتفاقيات الأوربية،وحسبه فان الخيارات السياسية ليست ملكا للشعوب الذين لا يتمتعون بالسيادة، بل إن الخيارات السياسية مشروطة بالنظام الاجتماعى والتاريخ الذى تجسده إرادة الرب.

ومن هذا الالتزام الشخصى فى تحالفه مع جورج دابليو بوش، سيضطر جورج بوش الابن إلى إدخال تعديلات على المشروع الأنجلوسكسونى الخاص بأوربا.

وسوف تضطر واشنطن إلى التخلى عن مصادمة الاتحاد الأوربى بالحلف

الأطلنطى، و من ثم إدخال تركيا المسلمة فى الاتحاد.

علاوة على ذلك فإن واشنطن مدعوة للكف عن تمييز الحركات البروتستانتية وعليها على العكس، أن تساند الفاتيكان فى حربه المئوية ضد العلمانية.

على هامش هذا الإصلاح، يمكن للكرسى الرسولى أن يطهر الكنيسة الكاثوليكية من كل عناصرها المؤيدة للحوار مع الإسلام.

مشاركتها فى المشروع الأمريكى ل"حرب الحضارات" لا يشتمل إذن على حرب صليبية ضد الإسلام، لكن يشتمل على إقصاء الإسلام من أوربا للفصل بين "البذور الجيدة من تلك الفاسدة".

وهكذا نجد أن الأوضاع السياسية الدولية قد أثرت فى مسار انتخاب البابا، كما أن التغييرات التى جرت فى مجال اختيار البابا فى مرحلة التشاور، جعلت المجمع المقدس هشا أمام الضغوطات الخارجية مثل ما كان عليه الأمر قبل المرحلة الختامية لوفاة جون بول الثانى (يوحنا بولس الثانى).

وكان المد الدبلوماسى الأجنبى فى الفاتيكان مدة يبقى شاهدا على إرادة القوى السياسية الكبرى على الإرادة لارتشاء الكرادلة - الناخبين و لشراء بابا فى الأخير.

حتى و إن كان من الصعب معرفة كيف دارت الأمور، فإن المؤكد أن البابا الجديد وليد إرادة الكنيسة الألمانية الكاثوليكية الأغنى من بين الكنائس، وأنه على علاقة جيدة بالولايات المتحدة، القوة المهيمنة فى هذا العصر.

وهكذا تم الزواج بين رجالات الدين الكاثوليكى والسياسة الدولية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية.

لقد كان موت يوحنا بولس الثانى وانتخاب بنديكت السادس عشر المناسبة الكبيرة للاحتفاء بالثقافة الدينية الخاصة لشخصية لا يُعرف هل تعكس شكلا من أشكال العبادة العمياء أو شكلا من أشكال الشمولية فى القرن العشرين.

الصحافة الغربية، متناسية فجأة أدبياتها المهنية، انساقت فى التيارات القداسية.

الانتقادات الوحيدة المسموح بها انصبت فى المسائل النظامية الداخلية للكنيسة

الكاثوليكية، و لم تنصب قط على المسائل السياسية أو الاجتماعية، أما شهية كتاب الافتتاحيات غير المتدينين لمناقشة إمكانية التزاوج بين المتدينات وإحياء القداس الخاص بهن، ليس له ما يوازيه إلا عدم اكتراثهم أمام أداء الكرسى الرسولى فى مجال السياسة الداخلية للدول كما فى المؤسسات الحكومية.

فى المقام الأول، يجدر التذكير أن العمل السياسى و الدبلوماسى للكرسى الرسولى يندرج فى إطار عملية تراكمية تاريخية مهما تغير البابا،ويعد هامش التسيير الفردى للأساقفة محدودا، على أساس استخدام الممارسة يتم قراءة مساهماتهم الشخصية، والتى تندرج فى خبرتنا فى ذلك.

فى الحقيقة أن التزاوج بين السلطة الدينية والسياسة لم يبدأ مع انتخاب البابا الحالى فقد كان لجون بول الثانى دور فى انهيار الاتحاد السوفيتى، و تجاهل كل من كان يعلن معارضته للولايات المتحدة.

ولعب أيضا دورا فى انهيار جدار برلين، لعلمه أن المظاهرات التى كانت تهز ألمانيا الديمقراطية كانت مسيرة من قبل منظمات بروتستانتية، كان نصير استقلال بولونيا، التى قادها مستندا إلى نقابات تضامنية " Solidarnosc "، ليس فى إطار مواجهة مع الجنرال "ياروسلسكى"، لكن فى إطار شراكة حقيقية معه فى مواجهة السوفييت.

وأن عمله اللافت للنظر من أجل مناهضة الحرب ضد العراق عام ١٩٩١ وعام ٢٠٠٣، و دعمه القوى لمنظمة التحرير الفلسطينية فى وجه الاحتلال الإسرائيلى كان واجهة سياسية غير فاعلة يخفى وراءها تأيده للدور الاستعمارى لأمريكا حتى إذا ما جاء البابا الحالى التالى له أعلن ذلك صراحة.

وهذه الالتواءات ليست نتاج نشاطات البابا الراحل، لكنها خيار قامت به مصالح الاتصالات داخل الكرسى الرسولى لفرض خليفته.

إنها تعلمنا أن البابوية تسعى، قبل أى شىء إلى ترسيخ ما يمكن أن يعرف بالوجود الأسطورى للتحالف بين روما و الإمبراطورية الجديدة فى ذاكرة الشعوب، من أجل التمهيد لاستراتيجية " حرب الحضارات"، أو الحرب من أجل الحضارة التى يحاول الغرب المسيحى فرضها على العالم الإسلامى العدو التقليدى لهم ولكن هيهات أن

يحدث ذلك بإذن الله.

علاوة على ذلك فإن المتحدثين باسم الكنيسة الكاثوليكية، اختلقوا منذ زمن بعيد حول أسطورة الاندماج للكرسى الرسولى مع حقوق الإنسان، بينما تبقى تلك الحقوق مُدانة فى نصوص الكنيسة الرسمية. وهكذا وبمناسبة سفراته المكثفة، تم تسمية جون بولس الثانى ب" قديس حقوق الإنسان" كما لو أن تلك الدعاية كانت الهدف من تنقلاته التى كان هدفها الأساسى هو التبشير بالمسيحية فى إفريقيا بعد ظهور المد الإسلامى فيها.

ويمكن تذكر أن التاريخ يحفظ أشياء أخرى عن البابا الراحل، نفسها التى احتفظت عن " بى الثانى عشر" و صمته الحاد أمام " الحل النهائى" للمجزرة الصناعية لليهود، للغجر، للأمراض المزمنة، للمعارضين السياسيين، الخ، من قبل الرايتش الثالث (حكم الإمبراطورية الألمانية الثالثة فى النسق اللغوى الأوربى).

وفى الوقت نفسه لن يذكر التاريخ ربما عن جون بولس الثانى صمته حين كان قساوسته ينظمون الإبادة الرواندية فى إفريقيا أيضاً من أجل الحضارة.

ويبقى برنامج "بنديكت السادس عشر" يكرس الاستمرارية والتجديد هذه المرة فى الوقت نفسه لا نجد أى قطيعة مع سابقيه، وذلك فى سياق كان فيه الكاردينال "جوزيف رايتزنفر" يمارس فى الحقيقة وصاية منذ سنوات، أثناء مرض جون بولس الثانى، وهذه الملاحظة تحتوى على حقيقة انه تم تشجيع البابا الراحل للبقاء فى السلطة على الرغم من عجزه عن القيام بمهامها، و أنه أبقى حيا كى يمارس الكاردينال هذه الوصاية وتنظيم هذه الخلافة لصالحه، فى الحقيقة لم يتم تعديل مسار الكرسى الرسولى بوفاة جون بول الثانى، بل تم إنجاز ذلك أثناء مرضه.

وحين وصل إلى العرش البابوى، ورث "كارول واتيلا" - يوحنا بولس الثانى -، كنيسة كان مركز خطورتها يكمن فى أن تأثيرها امتد من أوربا إلى أمريكا اللاتينية، وابرم "بول (بولس) السادس اتفاقية مع البيت الأبيض للمكافحة الجماعية لرموز التحرر للمسيحيين. وسمح بالدخول للخماسينيين وهى إحدى التيارات المسيحية الجديدة للمذهب الكاثوليكى بغية ممارسة تخريب الكنائس الشعبية والتأثير عليها.

وتابع جون بول الثانى هذا التحالف و مده نحو أوروبا الشرقية بالخصوص فى بولونيا مشكلا الثنائى المثالى مع رونالد ريجان.

لكن بمجرد تلاشى التأثير السوفيتى، فى أوربا أو فى أمريكا اللاتينية، تبنى استراتيجية أشبه بإعادة هيكلة جعلته فى منافسة مع البيت الأبيض فى مواجهة جورج بوش (الأب) فيما يخص حرب الخليج، ثم فى وجه بل كلينتون فيما يخص مراقبة الولادات و مكافحة داء الإيدز، أخيرا فى وجه جورج بوش (الابن) فيما يخص الريادة الروحانية للعالم و غزو العراق.

إلا أن المعطيات تغيرت عام ٢٠٠٤ مع استيعاب حقيقة التفرد بالهيمنة التى فرضتها واشنطن على بقية العالم، وكذا تزايد نسبة السكان ذوى الأصول الإسبانية بالإمبراطورية الجديدة والذى سيمكن من الضغط الديمغرافى على الولايات المتحدة من طرف الأغلبية السكانية الإسبانية و الكاثوليكية.

والتقت مصالح بابا روما و الرئيس الأمريكى كما فى السابق مع مصالح الكنيسة و الإمبراطورية الرومانية، الأمر الذى قد يؤدى إلى أن تصير العقيدة الكاثوليكية الديانة الرسمية للإمبراطورية الجديدة.

وكما فى عهد الإمبراطوريات الاستعمارية، ستمتد العقيدة الكاثوليكية تدريجيا بحيث يتسنى للإمبراطورية الجديدة معاودة حملاتها الحربية وفق سياق فى الوقت الحالى يعطى الأولوية للطوائف الإنجيلية.

وبناء عليه، فى مثل هذا النوع من الأوضاع، عقدت البابوية تحالفات شخصية على أساس التبعية المتبادلة.

زيادة على ذلك، تعتبر أنها ستكون قوية بما يكفى لحماية الأنجلوسكسونيين ذوى البشرة البيضاء (White Anglo-Saxon Puritans) بجعلهم تابعين للنخبة الكاثوليكية.

إنه صراع المذاهب الدينية قبل السيطرة السياسية رغم التزاوج على أساس المصالح المشتركة، لأن زواج المصالح لا يستمر دوماً ويأتى اليوم الذى ينتهى فيه تماماً.

صراع الحضارات أو صراع الأديان والطوائف عالميّاً ومحليّاً أمر واقع

صراع الحضارات التى اقترحها (هنتنغتون) لها مقدمات مختلفة، فقد امتلأ التاريخُ بعشرات الحضارات، والتى تتمحورُ كلٌّ منها فى الغالب حول دين معيَّن. والمؤثر منها فى الزمن الحاضر ست أو سبع تتقدمها الحضارة الغربية اليهوديَّة/ المسيحية فى الإمكانيات والقيم والحيوية، من حولها الحضارات الأخرى بسلاسة وبدون تحد ظاهر، باستثناء الكونفوشيوسية - البوذية، والإسلام.

وهناك خطر قائم يتمثل فى إمكان تحالف الحضارتين الأخيرتين فى مواجهة الحضارة الغربية اليهودية/ المسيحية ولكن العقود الأخيرة شهدت تطورات فى قلب الحضارة الكونفو - بوذية تشير إلى تقارب كبير مع حضارة الغرب بسبب من نزوعها لتحقيق النجاح من طريق الانضباط واعتناق قيم الحداثة الغربية.

وبذلك يبقى الخطر متمثلا فى الإسلام الذى لا يقبل التبعية للغرب أو حضارة أخرى فهو حضارة قائمة بذاتها أخذت منها الحضارة الأوربية الحديثة مقومات وجودها.

ويرى (هنتغتون) أن تحديات القوى الجديدة لا تزال كبيرة، وأكبرها الإسلام، ولذا فالنقاش الأساسى يتمثلِ فى دعوى المركزية الحضارية أو العولمة.

وتأتى مركزية الحضارة الغربية لدى (فوكوياما) فى الظاهر من قيامها على مركزية الإنسان فيها، بما يحقق تقدمه المتمثل فى الحرية والديمقراطية.

أما عند (هنتغتون) فتأتى مركزيتها من التفوق القيمى لعنصريها التكوينيين الأساسيين: اليهودية والمسيحية.

الواقع أن الشاهد الأبرز على صحة الرؤيتين هو الغلبة ولا شىء غير الغلبة، فالغرب الأوربى والأمريكى سواء أكان سائرا حقا باتجاه ذروة التاريخ، باتجاه سواد القيم اليهودية/ المسيحية، سيطر على العالم فى القرون الثلاثة الأخيرة.

وقد توازى فى تلك السيطرة أو أدى إليها تلازم التقدم العلمى مع القوة العسكرية والاستراتيجية.

وفى كل دورة تاريخية كانت تحدث فيها تلك السيطرة لصالح إمبراطورية معينة، ينشأ لدى المنتصرين وبعض المغلوبين انطباع بتفوق دينى أو حضارى أو الاثنين معاً.

فالمغول الذين أبادوا ربع سكان العالم المعمور، سموا الجزء الشرقى من إمبراطوريتهم: دولة السلام الأبدى أو السماوى.

وهتلر سمى دولته دولة الألف عام ومع أن الانتصار يكون عسكريا فى الأساس؛ فإن المنتصرين كانوا يصرون على أن حضارتهم هى التى أزالت حضارة المغلوبين.

هكذا فعل الرومان مع اليونان. والصليبيون مع المسلمين.

وفى كل هذه الحالات ما كانت حضارة المغلوبين ولا كان دينهم يزولان، بل يستوعب الغالب أساسيات حضارة ودين المغلوبين، وتصبحان عنصرا تكوينيا فى ثقافة الإمبراطورية الغالبة.

فالصراع لا يحدث بين الحضارات، بل بين الأمم والدول، ومن أجل السيطرة على المجالات الاستراتيجية والموارد، ويأتى وهم الصراع بين الحضارات من أن الطرفين (الغالب والمغلوب)، يستخدمان مخزونيهم المادى والرمزى فى الصراع المصيرى الذى يخوضونه، ولا شك أن الأديان والرموز الثقافية والحضارية الأخرى، تأتى ضمن الأمور التى يستخدمها أصحاب الصراع على حد سواء.

والغلبة أيضا علاقة قوية بهذا الضيق الغربى والانزعاج الغربى من الإسلام، فمنذ الفوز على النازية والفاشية، وهما فكرتان ونظامان غربيان - ظلت التعددية الصراعية ضمن المنظومة الغربية هى السائدة، وتمثلت فى الاتحاد السوفيتى ومنظومته فى وجه المنظومة الرأسمالية.

وعندما شارفت الحرب الباردة على الانتهاء، تلفت المفكرون والاستراتيجيون لاستكشاف مستقبل الغلبة بعد أن اعتبروا أن الحضارة الغربية تقف الآن موحدة ومنتصرة على مشارف قرن جديد، فاعتبر أهل الغلبة من بينهم أن العالم الإسلامى

والإسلام هو الخصم الباقى أو لنقل إنه أبرز الخصوم الباقين، ومن خارج المجال الحضارى الغربى هذه المرة فكان العداء للإسلام والواقع أن ذلك لا يعود لطبيعة الإسلام نفسه، بل لأسباب أخرى، أولها المتغيرات داخل الحضارة الغربية نفسها حيث يحدث توازن دينى بروتستانتى فى الولايات المتحدة، وتظهر انكماشية قوية داخل العالم الأوربى تضيق بالتزامات ومسئوليات الانتصار وتبعاته.

وبذلك يتصاعد اتجاهان متناقضان داخل المنظومة الغربية، أحدهما يميل للاكتساح على المستوى الدينى أيضا وليس العسكرى والاستراتيجى فقط، والآخر يميل للانكماش من أجل استيعاب نتائج النصر، والتأمل فى التبعات والمتغيرات المختلطة التى ترتبت على الغلبة.

وثانى تلك الأسباب بروز القارة الآسيوية، وبخاصة شرقها باعتبارها بيئة للنهوض الاقتصادى والشراكة المفروضة على الغرب المنتصر، وقد شكل هذا المتغير البالغ الأهمية تحديا صار ضروريا أخذه فى الحسبان، وعدم المسارعة للاصطدام.

والسبب الثالث هو المشاعر السلبية فى العالم الإسلامى تجاه الغرب نتيجة تفاقم المشكلات التى تسبب بها فى مناطق مختلفة من العالمين العربى والإسلامى، فى زمن الاستعمار، وزمن الحرب الباردة.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية ازدياد حاجة الغرب المنتصر لموارد الطاقة، والممرات الاستراتيجية، من أرض العرب والمسلمين، دونما إرادة حقيقية لحل المشكلات المتراكمة على مدى القرن العشرين.

ولا شك أن هذين الأمرين، كانا بين علل الثوران الإسلامى لعكس الأسباب التى ثار من أجلها البروتستانت أو تياراتهم الجديدة، فالثوران عندهم ثوران انتصارى كبير، بينما الثوران بداخل الإسلام إنما كان سببه الإحباط ومشاعر اليأس، وقد فاقم من هذه الظاهرة استعانة الأمريكيين بها فى أفغانستان فى الثمانينيات، والإحساس بالخديعة نتيجة سياسات الأوحدية القطبية منذ التسعينيات.

ويرى البعض أن سوء العلاقة ان فى الأصل ليس له سبب دينى، وإنما هى أسباب سياسية واقتصادية واستراتيجية، لكن الطرفين - وبخاصة الطرف العربى والمسلم -

استخدما المخزون الرمزى الدينى والتاريخى بإسراف، بحيث بدا فى النهاية كأنما الصراع صراع حضارات وأديان، وهو ما كان على هذا النحو فى الأصل.

فالذى يواجهه العرب والمسلمين منذ مدة، مع الغرب بعد الحرب الباردة، أمران، وكلاهما لا يمكن التصدى له بالمعالجة، وصنع المخارج، إلا بالحوار.

لكن هذا الحوار لن يجدى نفعا لأن الحقيقة أن الصراع هو صراع بين حضارتين ودينين.

ولهذا يرى العقلاء من المفكرين ورجال الدين أنه لا سلام فى العالم إلا بالمصالحة بين كل الأديان وخاصة بين أكبر الأديان الإسلام والمسيحية، ولا سلام بين المسيحية والإسلام إلا بالتوافق على قيم مشتركة.

فالمطلوب فى هذا الصدد من خلال حوار والاتفاق على المشتركات القيمية والإنسانية والدينية، وتنحية انطباعات وأوهام نهاية التاريخ والمركزيات وصراع الحضارات، وإقامة الشراكات التى تفتح الأفق على مفهوم التعارف، أى الاعتراف المتبادل، الذى دعا إليه القرآن الكريم، وهذا أمر بعيد المنال فى ظل سيطرة الأفكار الاستعمارية الجديدة للامبراطورية الأمريكية القائمة على صراع الحضارات.

فالأسباب الحقيقية للصراعات الناشبة حالياً، وهى أسباب اقتصادية واستعمارية قديمة.

فبعد انتهاء الحرب الباردة سعت الولايات المتحدة بالحرب لأوحدية قطبية، زادت من التوتر والخراب على المستوى العالمى، وبخاصة فى مجالنا العربى والإسلامى، فالمطلوب الآن، وقد تعلم الأقوياء، أن السيطرة لا يمكن فرضها بالقوة مهما بلغت الفروق فى الامكانيات والقدرات بين الطرفين المتصارعين وأن العودة للحوار بين الحضارات القائم على الشراكات والاعتماد المتبادل هو الحل للخروج من الأزمة العالمية الحالية.

وقد جاءت الأزمة الاقتصادية المالية التى تسببت فيها الولايات المتحدة إلى ظهور هذا الرأى بقوة بعد انهيار البورصات العالمية والمحلية وظهور الكساد العالمى الذى يذكرنا بما حدث عام ١٩٢٩ وامتد لسنوات جاءت على أثره الحرب العالمية الثانية التى دمرت العالم بكل طوائفه واتجاهاته السياسية والدينية، فهل يقود الكساد الاقتصادى الحالى أيضا إلى حرب عالمية أخرى؟

هذا ما ستعلن عنه السنوات القادمة وإن كنا نرجو ألا يحدث ذلك.

وأمام هذا الصراع الحضارى الدينى الحالى العالمى قامت تحالفات لمواجهته بين القوى المتضادة فى الدين الواحد تحالف أيديولوجى استراتيجى شهدته الساحة الدولية.

صراعاتنا وتحالفاتنا ليست طائفية أو دينية، وكان أولى لها ذلك، ولكنها تبدو حضارية تصل إلى أعماق خياراتنا وبدائلنا، وهو ما قد يفسر ذلك التلاقى «العجيب» بين أقطاب متنافرة على غرار ما هو حادث حالياً.

ولكن كيف يمكن تفسير اقتراب الأضداد، وكيف يمكن فهم «التحالف» التركى - الإسرائيلى مقابل «التوتر» العربى - الإيرانى؟ وكيف يمكن «هضم» التقارب «القاعدى» - الأفغانى، مقابل «العداء» الأفغانى - الباكستانى؟

باختصار كيف يمكن تفسير هذا «المزيج» الغريب فى العالم الإسلامى؟

تقارب «المصلحة» وحده قد لا يكفى لتفسير هذه التناقضات، وفهم تشابكاتها، فهو بطبيعته تقارب «مؤقت» لا يمكن البناء عليه لفهم ديمومة تفاعلات التعاون والصراع بين الأضداد، كما أنه تقارب «متغير» لتقلّب المصلحة ذاتها وتغيّرها من فترة إلى أخرى.

كما أن التقارب «الطائفى - الدينى» يبدو عاجزاً تماماً عن تفسير هذا المزيج غير المتجانس، بل على العكس تصبح التفاعلات «التعاونية» دليل عدميته وفشله كأداة للفهم والتحليل.

جوهر هذا إذاً هو أبعد من مجرد مصلحة آنية، أو صراع طائفى معتاد، وإنما يمتد إلى ما هو أعمق، إلى التكوين القيمى والفلسفى لهذه العلاقات المتبدّلة، وبالأحرى إلى المكوّن «الحضارى» الضابط لتفاعلات التعاون والصراع فى العالم العربى والإسلامى، وإلى طبيعة التفاوت بين وحدات هذا التفاعل (دول وحركات وتنظيمات وتيارات) فى فهم هذا المكوّن وكيفية التعاطى معه.

وبتكبير الصورة، فإن صراعاتنا وتحالفاتنا الراهنة تبدو كما لو أنها دخلت مرحلة من «التدافع الحضارى»، أو بالأحرى (الصراع داخل الحضارة) بين أضداد ونظائر، باتت تعرّف نفسها كذوات «حضارية» منفصلة تسعى لتحقيق أهدافها بشكل متعصّب.

فثمة صراع كامن يشهده العالم العربى والإسلامى على الإرث الحضارى، ليس فقط من أجل مواجهة الغرب فى إطار «المعركة الكبرى» بين الحضارات كتلك التى بشّر بها صموئيل هنتنغتون قبل عقد ونصف عقد، وإنما فى مواجهة «الأنداد» داخل الحضارة الإسلامية ذاتها.

أربعة عناصر تمثل بنية حاكِمة لهذا الصراع الحضارى «الداخلى»، أولها يتعلق بالدين. فثمة صراع هائل على احتكار «رأس المال» الدينى فى العالم العربى والإسلامى، وذلك من خلال الخلاف حول تأويل النص وادعاء تمثيله سياسيّاً وحضارياً، وهنا تتصارع عدة «نماذج» للإسلام.

ولا يجمع بين هذه النماذج سوية إلا جذع الشجرة (النص الدينى)، فى حين تفرقها تأويلاته وتطبيقاته من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار أى بين الأصوليين والمتشددين والمتنورين المصلحين المتساهلين.

وفضلاً عن الصراع بين هذه النماذج، وسعى ممثلى كل نموذج لفرض نموذجهم على الباقين، فإن ثمة صراعاً داخل كل نموذج على حدة حول احتكاره والتحدث باسمه.

فعلى سبيل المثال ثمة صراع شيعى - شيعى حول مسائل ولاية الفقيه والمهدى المنتظر ومقاصد الشريعة الإسلامية... إلخ.

وفى باكستان خلاف حاد بين الإسلاميين المتشددين وغيرهم من الطوائف كـ «البرلوى» الصوفية والديبوندية السنية والشيعة... إلخ.

وفى تركيا ثمة مسافة واضحة بين حزب «العدالة والتنمية» وغيره من التنظيمات الدينية الأخرى التى لا تراه معبّراً عن نموذجها «الطوباوى»، سواء كانت من بقايا «الرفاه» و«الفضيلة»، أو التنظيمات الصوفية كالنورسية (النورانية) والنقشبندية.. إلخ.

فى حين تبدو الهوّة سحيقة فى العالم العربى بين «إسلام» السلفيين، بمختلف تنويعاتهم، و«الإخوان» المسلمين والتبليغيين والدعويين.. إلخ.

ثم تأتى الأقليات فى العالم العربى وهى بنية متصدّعة منذ أمد، ليس فقط بسبب نعرات التعصب السياسى والدينى، وإنما أيضا بسبب فشل محاولات الدمج القسرى

التى تتبعها النظم العربية والإسلامية تجاه أقلياتها وأعراقها.

وهذه البنية الأقلويَّة هى بمثابة قنابل قابلة للاشتعال السريع عرقيّاً وطائفيّاً، وهى منتشرة من أقصى العالم الإسلامى إلى أدناه.

وهى تسعى دوماً إلى إثبات ذاتيتها ووجودها ورفض محاولات دمجها فى المجتمع إلا على أساس المواطنة أى علمانية الدولة وهو ما ترفضه الأغلبية.

ولهذا نجد أن هذه الصراعات مشتعلة بالفعل كما هى الحال فى باكستان مع الطائفة القاديانية والمسيحيين والهندوس، وفى مصر مع الأقباط، وفى الجزائر مع البربر والطوارق.

وفى تركيا مع الأكراد ويهود الدونمة... إلخ.

باختصار يبدو العالم العربى والإسلامى كما لو كان بحيرة ترقد على بركان قابل للانفجار وهو ماتسعى إلى تحقيقه القوى الاستعمارية الحالية.. الولايات المتحدة الأمريكية.

ثم يأتى الميل للغرب، والصراع بين أولئك الذين يرغبون فى استمرار المواجهة «الحضارية» الكبرى مع الغرب، وبين أولئك الراغبين فى التواصل «المصلحى» مع الغرب من أجل الحفاظ على نفوذهم وبقائهم من دون دفع «الثمن» الحضارى والسياسى لذلك.

قطعاً هذه البنية الصراعيّة ليست طارئة، فهى موجودة منذ عقود، بيد أنها الآن تبدو متفاعلة ومتداخلة بشكل غير مسبوق، وتبدو إرهاصاتها كما لو كانت مقدمة لانفجار كبير على وشك الحدوث داخل العالم العربى والإسلامى. وما قد يعجّل بهذا الانفجار هو افتقاد الأطراف المتصارعة إلى الاتفاق على قواعد اللعبة، وسعى بعضها لإزالة التوازن مع بقية الأطراف.

وما يريده «الإخوان المسلمون»، ليس مجرد الاعتراف بهم كقوة سياسية شرعية، وإنما فرض رؤيتهم على الساحة الدينية العربية، كحال غيرهم من التنظيمات الدينية الدعوية والجهادية على أساس رؤية آحادية.

وما يريده إسلاميو باكستان ليس مجرد حكومة ديموقراطية غير فاسدة، وإنما حكومة إسلامية «نووية» من أجل تحرير الهند وكشمير من الهندوس.

تماماً كالذى يريده «تنظيم القاعدة فى المغرب الإسلامى» الذى يحرق الأرض والنسل من أجل إقامة «إمارته» الإسلامية فى المغرب العربى.

وهكذا يسعى كل فريق إلى تحقيق مصالحه الخاصة بعيداً عن المصالح القومية والدينية أيضاً وكل هذا يصب فى مصلحة القوى الاستعمارية الكبرى الأمريكية والغربية معاً ولهذا ينتظر جميع الفرق المتناحرة القائد المخلص لها من كل تلك الصراعات الحضارية والطائفية والمذهبية.



تطور نظرية صراع الحضارات

فى تقرير صادر عام ١٩٩٠ من طرف شهرية (أطلانتيك مونتلى)، تحت عنوان(جذور الغضب الاسلامى) توقع صاحبه بيرنارد لويس المسؤول السابق فى المخابرات البريطانية والمختص فى الدراسات الإسلامية، توقع صعود التيار الإسلامى الراديكالى، والذى سيدفع بالعالم إلى (صراع الحضارات) أى صدام الولايات المتحدة الأمريكية مع العالم العربى الاسلامى، وتوقع الكاتب النصر الأمريكى، ولبننة دول منطقة الشرق الأوسط، والتمكين لاسرائيل بالمنطقة. واسس برنارد لويس تصوراته على إمكانية استخدام المخابرات البريطانية والأمريكية للحركات الإسلامية وتوظيفها بالمنطقة لغرض التمهيد لإشعال حرب الحضارات.

هذا التصور الاستراتيجى تمت ترقيته من طرف (صموئيل هاننغتون)، مخطط. سابق لمجلس الأمن القومى، والذى بدأت تجليات أفكاره على المقالين الأوليين (صراع الحضارات) و (الغرب الوحيد، لا العالمى) واللذيْن نشرا فى ١٩٩٣ و ١٩٩٦ بمجلة (شؤون خارجية) فورين افيرز (مجلة مجلس العلاقات الخارجية).

(هاننغتون) اقترح تأمين الهيمنة الأمريكية على حساب العالم، وذلك بتقسيم هذا العالم الى حضارات عديدة وتجميع العالم المسيحى اليهودى حول الولايات المتحدة الأمريكية، ومنع كل تحالف ضدهما، وإذكاء روح الصراع بين بعض الحضارات على شرط أساسى هو إعلان الحرب المقدسة على الحضارة العربية الإسلامية.

أفكار هاننغتون لا يمكن لنا أن نجردها من تبعات تأثرها بالمحيط والظروف السياسية الداخلية والتى التفت حول هاننغتون، وقد سبق فى مقال ظهر عام ١٩٥٧ بعنوان (الجندى والدولة) أن هانتنغتون أسس لرؤية إمبريالية للولايات المتحدة، ودعا للخضوع إلى نظام ديمقراطى تحرسة الإدارة البريتورية المكونة من المنتخبين العسكريين الأمريكان. عام ١٩٧٥، حرر للجنة الثلاثية تقريرا عن تطور الولايات المتحدة الأمريكية بعنوان (أزمة الديمقراطية) حيث دعا فيه إلى مجتمع أكثر ممارسة

إلى الانتخاب، حيث يصير فيه الوصول ألى دور الجامعات شبه مستحيل، وتصير الصحافة أكثر مراقبة.

واليوم هانتنغتون يمثل الدمية الرمز لليمين الأمريكى المتطرف، هذا الأخير الذى يمول الدوائر الحكومية التى يشغلها هانتنغتون بجامعة هارفارد.

وزيادة على مناصبه الجامعية العديدة، هانتنغتون يشغل وظائف على مستوى جهاز الاستخبارات الأمريكية إذ يمثل مدير هيئة (فريدوم هاوز).

ابتداء من عام ١٩٩٦، جهاز الاستخبارات الأمريكى وضع مفاهيم (صراع الحضارات) محل التنفيذ، لتنفيذ سياسة الولايات المتحدة الأمريكية فى حربها للاتحاد السوفييتى أثناء غزو أفغانستان، وبعدها استطاع أن يحيد المعارضين لعملية (عاصفة الصحراء) فى المؤتمرات العربية والإسلامية.

وفى ١٩٩٨ يقوم بتكوين (الجبهة الاسلامية العالمية لمحاربة اليهود والصليبيين) لكن كل هذه التحركات والمبادرات المشبوهة لم تحرك من عاطفة الجماهير المسلمة والتى كان ولازال همها الكبير تحرير الأراضى الفلسطينية بدل الدخول فى حرب مقدسة ضد الولايات المتحدة.

فمنذ ١١ سبتمبر ٢٠٠١، تشكل آراء (هاتنغتون) العقيدة الرسمية للإمبراطوية الأمريكية ولوضع هذه المفاهيم محل التطبيق، لجأ بوش إلى إعلان الحرب ضد أفغانستان لاعلى أساس أنها حرب من إدارته ضد أفغانستان، ولكن على أساس أنها(الحرب الصليبية) وذلك أثناء حفل تذكارى عزائى لضحايا تفجيرات الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ بالكاتدرائية الوطنية بواشنطن.

ومن أجل إعطاء شعبية لهذه العقيدة الدينية، عمد جهاز المخابرات الأمريكى إلى تحضير تقرير للتبرير رسميا على ما ستقدم عليه الإدارة الأمريكية فيما بعد أن حضّر هذا العمل من طرف الهيئة المسماة (انستيتيو فور أمريكان فاليوز) هذه الهيئة نشرت تقريرا ترد فيه على سؤال شعبى طرحه كثير من الأمريكان بعد اعتداءات سبتمبر (لماذا يكرهنا الإسلاميون ؟؟).

وكان الجواب بديهيا ومتضمنا فى السؤال : هم يكرهوننا لأن قيمنا هى قيم الخير،

وهى التى ستمحو الشر !!!

وكان هذا الجواب قد وقع من طرف حوالى ستين من الشخصيات الجامعية من بينها بطبيعة الحال صموئيل هانتنغتون، وقد نشر التقرير فى أبريل ٢٠٠٢ فى كبريات الصحف الأمريكية والأوروبية.

وقد لاقى هذا التقرير تنديدا واستنكارا فى كثير من الدول مثل الولايات المتحدة نفسها، العربية السعودية، ألمانيا، حيث عبر الكثير عن رفضهم للتقرير بمظاهرات شعبية. و كرد فعل على الاحتجاجات.

قامت الهيئة (استيتيو فور أمريكان فاليوز) يوم ٨ أغسطس بالرد ثانية من خلال ملحق مزود بحجج أخرى تدعم توجه الإدارة الأمريكية نحو حرب حتمية كواجب معنوى على كاهل الولايات المتحدة ضد موجة (الإسلاموية)، وإلى هذا الحد يعتبر هذا المعهد من المضيقين للحريات الفردية والجنسية مدعوما من قبل جماعات متطرفة كاثوليكية تدعى (لوبيس داى) المتعاونة مع جهاز المخابرات الأمريكى وجهاز (إف بى آى) أثناء الحرب الباردة ضد الشيوعية بأوروبا وأمريكا اللاتينية.

المجلس الاستشارى لسياسة الدفاع، هذا الجهاز مكون من ثلاثين من الأعضاء معينين مباشرة من طرف السكرتير العام للدفاع، وأثناء اجتماع ١٠ يوليه ٢٠٠٢، رئيس هذا الجهاز ريتشارد بيرل (المدير السابق لجريدة جيريزاليم بوست).

تقدم ريتشارد بيرل الباحث فى هيئة (راند كوربواريشن) ببحث قال فى بعضه أن العرب لايريدون الاعتراف بأخطائهم وبدل ذلك هم يعلقون مشاكلهم وغضبهم على الغرب عموما، وعلى أمريكا خصوصا، والدول العربية لم تفلح الا فى صناعة الحروب وتكثير الإنسال من هذه المشكلة التى يريدون تصديرها حتى إلى العالم بسبب عقم تفكيرهم ونظرتهم للأمور.

هذا الوصف المشين والمسىء، قد استخدم بشكل واسع من طرف الصحافة الأنجلوساكسونية لتعزيز آراء المواطنين من مخاوف يشكلها العرب، ومن أجل إقناعهم بدمويتهم، وبضرورة الحرب الصليبية، والطعن فى ثقافات الأمم الأخرى.

فمسؤول مثل ريتشارد بيرل، أو بول فولفيتز يعمدان إلى تحوير الرأى العام

الأمريكى بوضع الخطر السوفييتى والحرب البيولوجية بواسطة أعمال اللجنة المسماة (لجنة تحديد الخطر الآتى).

إنها الحرب النفسية والثقافية التى تسبق الحروب الصليبية قديماً وحديثاً.

وفى مواجهة ثقافة الحقد هذه، فقد بات حفظ السلام والأمن مشروطا بتواصل ثقافى لبناء جسور التفاهم المتبادل والمشترك، وتعزيز العلاقات بين ما نسميه بالعالم العربى الإسلامى، وما نسميه بالعالم المسيحى اليهودى.

ومن أجل تحقيق السلام العالمى يقول الصحفى الفرنسى تيرى ميسان فى مقالة له على الإنترنت:

(وإذا كان لزاما على أن أستعمل وأتطرق إلى مفاهيم هانتنغتون، فبدافع ضرورة اللغة فحسب، لا باعتقادى بتلك المفاهيم التى تمثلها هذه النظرية، وكفرنسى لا أعتقد بالفرق بين هذين العالمين، وأنه يكفينا أن نتذكر أننا ننتمى على الأقل إلى الحضارة المتوسطية التى مثلت قمة التوصل بين اليهود، المسلمين، المسيحيين وآخرين.

وعند تحاليل هانتنغتون، أرى بلا فخر أننا قادروه على تحقيق التعايش والذى هو حاصل حاليا بين المسلمين، اليهود، المسيحيين وغيرهم من المفكرين الأحرار. ويمكنهم العمل والتفكير والعيش سويا.

بالنسبة لنا فى شبكة فولتير، حيث نقيم تصوراتنا على أساس قيم الإنسانية المشتركة والقيم الجمهورية الفرنسية، الاستراتيجية لا تعدو أن تكون فلسفة حرب حضارات، بل هى الحرب الأهلية المعممة.

وحفظ السلام يقتضى أيضا سعى الدول للتحاور فيما بينها فى إطار الاحترام المتبادل للهويات الثقافية والعقائدية لكل طرف.

ونحن نعترف أنها ليست مهمة سهلة عندما نتذكر جميعا أننا نشكل تراكيب عجيبة من المعتقدات والأفكار والأحكام المسبقة. وهذا العمل قد دعت إليه منظمة اليونسكو عندما دعت إلى لقاء عالمى للحوار بين الحضارات والثقافات، والذى حضرته كثير من البلدان الإسلامية ورفضت الولايات المتحدة الأمريكية الالتحاق به.

وخلال القرنين الماضيين، وهنا بفرنسا وعن طريق كل من الصوتين الراديكاليين الحائزين على جائزة نوبل للسلام (ليون بورجوا) و (أريستيد برياند) اللذين عززا ملف بناء العلاقات الدولية على أساس من احترام حقوق الغير، والذى يعكس فى تصورنا عالما يستشعر فيه البشر طبيعة علاقاتهم، ويتحملون فيه مسؤولياتهم تجاه بعضهم، ويمكنهم من حل مشاكلهم سلميا باللجوء إلى الهيئات القانونية المختصة فى حل النزاعات كمحكمة العدل الدولية بلاهاى مثلا، أو المحكمة الجنائية الدولية.

هذه الفلسفة، فلسفة التحاور والتسامح تتقاسمها كثير من البلدان، بينما تحاربها الولايات المتحدة، والتى لا تعترف بشرعية غير شرعيتها، والتى تتخذ من قوتها المادية وسيلة لفرض نظامها على باقى دول العالم مستغلة المشاعر الدينية لذلك.

وعليه، فيمكننا تجنب صدام الحضارات المزعوم من قبل منظرى الولايات المتحدة، والتأسيس لفلسفة الحوار، وعلينا أن نلاحظ اليوم أن الحروب المقدسة التى تخوضها الإدارة الأمريكية ما هى إلا وسائل لفرض غطرسة الولايات المتحدة الأمريكية وهيمنتها.

لايجرى الحديث عن استبعاد الفعل الدينى وتداعياته على الحياة الإنسانية، ولكن عن البحث عن الدوافع الثقافية والفكرية التى تحدد علاقات البشر ببعضهم البعض، وفلسفة حرب الحضارات تلقى بالمسؤولية علينا نحن لأجل تحرك فردى و جماعى مشترك من أجل الوقوف فى وجه استغلال الأديان لأغراض مصلحية سياسية قد تودى بالسلام العالمى الى الهاوية (١).

ظهر مفهوم الحرب العالمية الرابعة فى كتابات المحافظين الجدد الأمريكيين منذ نحو ثلاث سنوات. فهم يزعمون أن تلك الحرب اندلعت بعد، وأن العالم غرق فى أوحالها.

الغريب هنا هو أننا نعلم الحربين الأوليين، أما الثالثة فهى، فى نظرهم، الحرب الباردة التى انتصر فيها الغرب على المعسكر السوفياتى السابق.

وبناء على ذلك، فنحن اليوم، حسب تحليلهم، فى أوج الحرب الرابعة.

---

(١) تييرى ميسان رئيس تحرير شبكة فولتير ـ الإنترنت.

فالخلافات مع زعيم المعسكر الغربى، أى الولايات المتحدة، يجب أن تصبح ثانوية، وإذا كانت هناك خلافات بين الدول الأوروبية، فعليها أن تضع لها حدّاً كى لا تنال من هيبة الزعامة الأمريكية.

إذا ما قارنا الحرب الثالثة بالرابعة التى هى ضد الإرهاب، نُدرك أن الأخيرة لا معنى لها، لأن الحرب السابقة بين الشرق والغرب لم تكن حربا بالمعنى الحقيقى، إذ أن الغرب كسبها بناء على المقارنة والمفاضلة بين نظامين، وفى إطار مرجعية مشتركة بمعنى ما.

فقد اتفق الروس والأمريكيون على وضع حد لسباق التسلح ومناطق النفوذ، وهو اتفاق لا يمكن أن يتم فى (الحرب على الإرهاب).

ففى الحرب الباردة كان الطرفان واضحين.

أما اليوم، فهل نستطيع أن نحدَد من هو (معسكر الإرهاب)؟ لأنه لا توجد لديه منطقة نفوذ واضحة ولا مرجعية محددة، بل إن الأسلحة المستخدمة اليوم فى الحرب ضد الإرهاب لن تنفع المعسكر الغربى.

فقد كلفته اعتداءات ١١ سبتمبر٢٠٠٣، ١٠٠ مليون دولار، لكن النفقات العسكرية الأمريكية الإضافية بعد تلك الاعتداءات، ارتفعت إلى ١٥٠ مليون دولار ثم تضاعفت تلك الأرقام مع استمرار تلك الحرب.

أما اعتداءات مدريد، فكلَفت ١٠ ملايين دولار، بينما بلغت كُلفة اعتداءات بالى فى أندونيسيا ٥٠ مليون دولار، وبالتالى، نلاحظ أن استخدام وسائل محدودة نسبيا يمكن أن تسبَب صدمة نفسية قوية جدا.

ومن هنا، نستنتج أن المقارنة لا تستقيم، وأنه يراد جرّنا إلى حرب لا نهاية لها كى تعزز الهيمنة الأمريكية على العالم، والتى تلتقى مع ما قاله غورباتشوف للغرب فى سنة ١٩٨٧ (سنقدم لكم خدمة، سنحرمكم من عدوّ) فقام بحل الاتحاد السوفيتى والمعسكر الشرقى.

وفعلا لم يعد هناك خطر سوفيتى، خصوصا بالنسبة لألمانيا التى هى نموذج واضح لهذا التحول.

لكن الثقافة الأمريكية بوصفها النموذج، سيطرت على العالم بما فيه أوربا ثم العالم العربى والإسلامى من حيث أرادت أمريكا فرض نظامها...

أما البلدان الأوربية فقد أصبحت أقل اعتمادا على أمريكا سياسيا، وهى تستعيد سيادتها شيئا فشيئا.

فكل حركتها منذ انهيار جدار برلين تخضع لمسار استقلالى تجاه الولايات المتحدة، وهذا الأمر بات أوضح اليوم. فالتبعية التى توخّاها رئيس الوزراء البريطانى تونى بلير تجاه الأمريكيين كانت لها انعكاساتها الانتخابية الواضحة عليه وعلى حزبه، وزادت الأمور تعكيرا مع التفجيرات الأخيرة فى قطار الأنفاق فى لندن. كذلك الشأن فى إسبانيا، حيث خسر أزنار الانتخابات،كما أن برلوسكونى رحل من منصبه ثم عاد إليه عادته أما بلير فقد رحل إلى الأبد.

ورغم ظهور نزعات استقلالية متزايدة لدى الأوربيين، إلا أن خطر الإرهاب الذى يهدد جميع البلدان الغربية، مثلما أظهرت ذلك تفجيرات لندن، كان عامل تقارب لتوحيد الصف مع أمريكا بوش؟

وفى أعقاب انهيار الشيوعية ظهرت ثلاثة أنواع من الأخطار الواحد بعد الآخر وقد ترافقت مع خطابات متباينة، لكنها تلتقى فى البحث عن عدو بديل للشيوعية المهزومة.

ففى بواكير التسعينيات، اتجهت الأنظار إلى (الخطر الآتى من الجنوب)، وبناء عليه، حصلت إعادة صياغة للخطر الإستراتيجى استوجبت توجيه فوهات الدبابات والصواريخ المتجهة شرقا نحو الجنوب، واعتبرت حرب العراق نموذجا لهذا التعديل الإستراتيجى.

هكذا بدا الجنوب بالمفهوم الاقتصادى حاقدا على الشمال، وطبقا لتلك النظرية كان هناك "جنوب" متبلور يجمع بين إفريقيا الجنوبية والبرازيل والصين فى تحالف استراتيجى، وهذا طبعا كلام بلا معنى. فهو بقايا رؤية عنصرية، تعتمد على تقسيم العالم إلى (شمال) و(جنوب) وفقا لخط البحر المتوسط.

وعندما اكتشفوا أن هذه الرؤية سخيفة، استبدلوها بأخرى أسبغوا عليها مسحة "فلسفية" مع ظهور نظرية صامويل هنتنغتن عن صراع الحضارات.

وطبقا لهنتنغتن، فإن حدود الإسلام دموية وناشرة للخطر.

فإذا كانت الحروب التى اندلعت بين الأيديولوجيات فى القرنين التاسع عشر والعشرين وضعت الأمم وجها لوجه، فإن حروب القرن الحادى والعشرين ستضع الحضارات وجها لوجه.

وقد استند على حرب الخليج الثانية (١٩٩٠ - ١٩٩١) لكى يُبرهن أن حدود الإسلام (دموية) وعلى أنه (أعنف من الديانات الأخرى)، وبالتالى، فلابد من الوصول إلى الصِّدام بين الحضارة الغربية المسيطرة من جهة والإسلام المتمدَد، لكن الواقع تحت الهيمنة من جهة ثانية.

ويرى باسكال بونيفاس فى كتابه عن الحرب العالمية الرابعة أن استعراض وقائع القرن العشرين أن الإسلام لم يكن له ضلع فى الحربين العالميتين، ولا فى ظاهرة (الغولاغ) الروسى أو (الغولاغ) الصينى، ولا فى مذابح كامبوديا أو رواندا.

كما أن استقراء التاريخ يؤكّد أن الإسلام لم يخترع السِّباق من أجل التسلح، ولم يصنع كارثة هيروشيما.

ومن هنا، فلا يجوز أن نُضفى عليه طابعا أكثر عنفا من الحضارات الأخرى، وإلا فإنها تكون عملية ضحك على الذقون.

مع ذلك، سارع هنتنغتن لتوظيف حرب الخليج الثانية من أجل تأكيد أطروحته رغم أنها لم تكن حربا بين الإسلام والعالم الغربى، بل كانت، فى المنطلق، بين بلدين عربيين: العراق والكويت.

وخلال الحرب، تشكّل تحالف دولى لتحرير الكويت ضمّ بلدانا مختلفة، من فرنسا إلى مصر، ومن السينغال إلى السعودية وسوريا، وهذا ما يُثبت تهافت النظريات الأمريكية حول صراع الحضارات.

لكن ذلك لم يمنع من أن تلك النظريات مازالت تستهوى نخبا كثيرة حتى فى بلدان الجنوب.

صحيح أن (الصدام بين الحضارات) أصبح الفكرة المحورية لنظرية العلاقات

الدولية فى العقد الأخير من القرن العشرين.

فلم يعد يعقد مؤتمر دولى إلا وكانت هى فى قلب المناقشات، لكن لم تتعرض نظرية للنقد والرفض مثلما تعرّضت له هذه النظرية. هذه مفارقة أولى.

أما الثانية، فهى الجنوح للتعميم، إذ علينا الحذر من اعتبار الصِّدام حتميا بين العالمين، الإسلامى والغربى المسيحى.

التاريخ بالنسبة للحضارات تماما مثلما هو الشأن بالنسبة للدول ليس مكتوبا سلفا. إنه من صنع البشر والشعوب والقادة. وأعتقد أن هنتنغتن لو كتب ما كتب فى الخمسينيات، لقال بحتمية الصِّدام بين الألمان والفرنسيين بحكم قيام ثلاث حروب بينهما (١٨٧٠ و١٩١٤ و١٩٣٩). لكن ما نراه اليوم هو العكس.

وأضاف (بونيسفاس): عندما باشرت الدراسات الإستراتيجية قبل عشرين عاما، كان هذا الصراع واحدا من النزاعات العالمية التى يستخدمها الشرق والغرب كل من زاوية مصالحه مع وجود جذور إقليمية له، لم يكن يختلف عن النزاعات فى أمريكا اللاتينية أو إفريقيا.

لكنه غدا اليوم فى قلب قضية صراع الحضارات.

ومع ذلك، لم يخصص له هنتنغتن سوى أربعين سطرا من أصل ٦٥٠ صفحة كى يقول إن وضع الفلسطينيين مُشابه لوضع الإسرائيليين.

وإذا كان يُعاب على السياسة الأمريكية فى مناطق عدة من العالم قلة الحزم والسلبية، فإن ما يؤاخذ عليه الأمريكيون فى النزاع الفلسطينى - الإسرائيلى ليس سلبيتهم، وإنما تواطؤهم مع إسرائيل.

فلو لم يحصل الإسرائيليون على ضمانات سياسية وعسكرية ومالية من الولايات المتحدة، لما تجاسروا على المُضى فى سياسة القوة وتحدّى الشرعية الدولية.

وبرأيى، هذا الصراع هو المحك، فإن وُضِع على سكّة الحل، تفادينا صِدام الحضارات، وإن استمر فى الاستفحال بالوتيرة الحالية، فإننا نتقدم بثبات نحو هاوية الصِّدام.

بداية حرب الحضارات الكبرى
أو القطيعة بين الحضارات

لقد كانت أحداث ١١سبتمبر ٢٠٠١ من منطق إدارة بوش بمثابة " مؤامرة إسلامية"، مما جعل الأمريكيين و الأوروبيين يترجمون الأمور كلها على أساس أنها حالة " قطيعة بين الحضارات".

كانت تبدو الأمور و كأن العالم العربى والإسلامى قد دخل فى حرب ضد العالم اليهودى والمسيحى.

هذه المواجهة لم تكن لتجد الحل إلا فى انتصار أحد الأطراف على حساب الآخر، أى المتعلق بالإسلام مع فرض الخلافة العالمية (أى الإمبراطورية الإسلامية)، أو ذلك المتعلق " بالقيم الأمريكية.

وانطلقت شرارة حرب الحضارات التى يقصد بها القضاء على كل الحضارات والأديان وخاصة الدين الإسلامى تحت مسمى نظرية المؤامرة الإسلامية و القطيعة بين الحضارات وهذا دفع أمريكا أن تقود العالم بعد نهاية الاتحاد السوفييتى.

لم يعد هنالك صراع الشرق/غرب بين قوتين عظميين تنشطهما الإيديولوجية المضادة، ولكن ثمة حرب بين حضارتين، أو بالمعنى الدقيق بين الحضارة المتقدمة و أخرى تأخذ شكل البدائية البربرية.

إن فرضية أن الإسلام فى حالة حرب ضد القيم الأمريكية، يقصد بها أن الإسلام غير قابل للتمدن وأنه لايصلح لهذا الزمان.

وانه قد أغلق باب التطور منذ القرن الثامن والتى صاغت الإجراءات، و بالخصوص تلك المتعلقة بقانون المرأة وأن الشريعة استمدت تطورها بواسطة العنف بأسلوب الحروب التى كان يقودها الرسول ﷺ وان الإسلام انتشر بالسيف وغير ذلك.

تلك النظرية تقول أيضا أن " أمريكا" حاملة للحرية والديمقراطية والرقى. وأنها تمثل التمدن والمدى المطلق للتطور وان من لايتبعها يصبح عدوها.

ويُـــعد تاريخ ١١ سبتمبر ٢٠٠١ المعركة الأولى فى حرب الحضارات، تماما مثلما اعتُــبرت حادثة "بيرل هاربر" أول معركة فى الحرب العالمية الثانية من منظور الولايات الأمريكية.

بمعنى أن تلك الحرب لا تشبه سابقيها. فخلال الحربين العالميتين الأولى والثانية، كان الحلفاء يقومون بمعركة العمالقة.

وخلال الحرب الباردة، تحول الصراع العسكرى الى مناطق أيديولوجية بين قوتين عظميين.

وخلال الحرب العالمية الرابعة التى بدأت للتو، اختفت المعارك العسكرية التقليدية.

هذا الصراع للخير و الشر يجد سببا لبلورته فى القدس التى تعد مربط الفرس وكذلك عودة المسيح التى تسجل انتصار " المصير المحتوم" للولايات الأمريكية. " الأمة الوحيدة الحرة فى الأرض" التى تحمل على عاتقها المهمة المقدسة" نور التطور للعالم".

ومن ثمة فإن الدعم المطلق وغير المشروط لإسرائيل لمواجهة الإرهاب الإسلامى بمثابة الواجب القومى والدينى لكل مواطنى الولايات الأمريكية، حتى إن لم يجد اليهود رجاء السلام إلا إن دخلوا فى العقيدة المسيحية وتلك عقيدة الإنجليين الجدد أو الأصوليين الجدد فى الولايات المتحدة وقد ناقشناه فى اكثر من كتاب(١).

هذا العرض لنظرية المؤامرة الإسلامية والقطيعة بين الحضارات لا تؤثر على الخط المرسوم.

بل هى وفية للعقيدة الإعلامية بالنسبة للإعلام وللأحزاب السياسية داخل الولايات الأمريكية. يمكننا طبعا التساؤل عن القناعة التى تتأسس عليها، والعلاقات الداخلية وطبيعتها غير العقلانية.

(١) انظر من يحكم العالم سرّاً، الناشر دار الكتاب العربى.

القناعات التى يحملها كل من العالم العربى والإسلامى، والعالم اليهودى والمسيحى تبدو نفسها قابلة للنقد.

عادة فإن عبارة " يهودى مسيحى" لا تعنى جماعة اليهود ثم المسيحيين، بل العكس، تعنى العقيدة التى تأسست عليها المسيحية الأولى أيام كانت يهودية، قبل أن يفرق المعبد فيما بينهما.

ولكن مع نهاية الستينيات، أى بعد التقارب الإسرائيلى الأمريكى فى حرب الستة أيام، أخذت الأمور مأخذا سياسيا.

استطاع أن يصنع القطب الأطلنطى، الذى يسمى بالغرب، فى مواجهة القطب السوفييتى المسمى: شرقاً.

نلاحظ هنا إعادة صياغة للعقيدة. الغرب الذى بقى تقريبا نفسه الى يومنا، بينما الشرق المنافس اختفى ولكنه صار شرقا أوسطيا. هذه المعتقدات ليس لها علاقة لا مع الجغرافية و لا مع الثقافة و لكن لها علاقة بالدعاية.

لهذا فإن استراليا و اليابان يعدان سياسيا غربيين، كما فى الدول الأوروبية التى لها شعبية مسلمة، مثل الترك و البوسنة و الهرسك.

فى العديد من الدول التى تحيط بالبحر الأبيض المتوسط، من الصعب اليوم التعرف على الحضارة اليهودية المسيحية و الحضارة العربية الإسلامية.

صراع الحضارات يعنى فرض واقع الحرب الأهلية لأجل تفرقة الشعوب.

من هذا المنطلق، فقد تم تجربة الأمر فى يوغسلافيا.

الاعتقاد بأن الإسلام لا يتطابق و لا يتماشى مع التحضر والديمقراطية يكشف الكثير من الجهل.

بحيث أن عبارة " العالم العربى والإسلامى" ترمز إلى أن الإسلام اليوم أوسع من العالم العربى، و لكن فى الوقت نفسه تبدو النظرة الجديدة التى أعطيناه له تكمن فى أنها نظرة غارقة فى مزيد من الكارثة.

والولايات الأمريكية تعرف أن أندونيسيا هى الدولة الإسلامية الأولى فى العالم.

هل من المعقول القول أن أبو ظبى أو دبى أقل تقدما من الكنساس؟

هل يمكن القول أن البحرين أقل ديمقراطية من فلوريدا؟

أول مفاهيم ذلك الخطاب هو مقارنة بين الإسلام فى البلاد العربية إبان القرن الثامن عشر.

الثورة الأمريكية عبارة عن حركيات معقدة أين تختلط الإيديولوجيات المختلفة. و لكنه فى الأساس مشروع دينى ومن هذا المشروع انبثقت الإدارة الحالية.

يثير قسم الولاء سارى المفعول منذ الحرب الباردة جدالا على مستوى المجلس الأعلى للقضاء، و الذى يراد به جعل الله مواطنا أمريكيا.

جورج دابليو بوش وصل إلى البيت الأبيض و هو يقدم إيمانه بالمسيح كمشروع سياسى. ومارس قناعاته الأساسية التى يعتقد أن الإنسانية خلقت قبل ملايين السنين دون الحاجة الى تطور الأجناس.

فتح مكتب المبادرات مؤسسا على الإيمان بالبيت الأبيض.

رجل القانون "جون أشكروفت" جعلها عملته الخاصة " ليس لنا ملك آخر سوى المسيح". الأمين العام للصحة ألغى برامج تنبئية فى مجال الصحة باسم قناعاته الدينية. سكرتير الدفاع أرسل قساوسة من كنيسة القس غراهام إلى قوات التحالف فى العراق ومهمتهم إدخال العراقيين إلى الديانة المسيحية... الخ.

وبالنظر إلى كل هذا، يمكننا أن نتساءل بوعى هل الولايات الأمريكية دولة متحضرة، متفتحة و متسامحة، أم أنها تمثل و تجسد الفكر غير المتسامح والكائل بمكيالين.

بالطبع هى دولة تكيل بأكثر من مكيال فى سياستها الدولية وهذا أمر واضح لمن له عينان وخاصة فى تعاملها مع مشكلة الشرق الأوسط بين العرب وإسرائيل، بالإضافة إلى ما فعلته فى العراق وأفغانستان.

فهى دولة استعمارية من الطراز الأول القديم كالإمبراطورية الرومانية.

أما عبارة " القطيعة بين الحضارات" ظهرت لأول مرة فى مقال كتبه المستشرق "برنارد لويس" عام ١٩٩٠، تحت عنوان " جذور الغضب الإسلامى. قائلا إن: " الإسلام لا يعطى شيئا ذا نفع، والضغينة تتحول إلى غضب ضد الغرب. لكن النصر الأمريكى مؤكد، كذلك لبننة (نسبة الى الحرب الأهلية اللبنانية) الشرق الأوسط، مع تقوية إسرائيل.

هذا ما يطمح إليه المفكر الأمريكى الاستعمارى.

يبلغ من العمر اليوم ٨٨ سنة فقد ولد برنارد لويس فى المملكة المتحدة.

تابع دراسته فى القانون و تخصص فى دراسة الإسلام.

إبان الحرب العالمية الثانية، خدم فى مصلحة الاستعلامات التابعة للجيش، و فى المكتب العربى التابع ل" فريغن أوفيس". فى الستينيات، صار خبيرا مسموعا فى المؤسسة البريطانية Royal Institute of International Affairs التى ظهرت كمؤسسة اختصاصية فى التدخل الإنسانى البريطانى فى الإمبراطورية العثمانية وآخر المدافعين عن الإمبراطورية البريطانية. تحت رعاية السى إى آى (مكتب الاستعلامات الأمريكية) شارك فى المؤتمر لأجل حرية الثقافة الذى سمح له بإصدار كتابه " الشرق الأوسط و الغرب"

فى سنة ١٩٧٤ هاجر إلى الولايات الأمريكية.

عمل كأستاذ فى "برانستون" ثم أخذ الجنسية الأمريكية وصار فيما بعد متعاونا مع " بيغوين برزينسكى " مستشار الأمن القومى للرئيس كارتر.

عملوا معا على صياغة نظرية " قوس اللاتوازن" و وضع قيد العمل خطة تفكيك النظام الشيوعى فى أفغانستان.

فى فرنسا، تقلد برنارد لويس منصب عضو فى مؤسسة " سانت سيمون" الأطلنطية التى أدارها فى عام ١٩٩٣، أصدر كتيب " الإسلام والديمقراطية". أجرت معه جريدة اللوموند حوارا، و فى خضم الحوار، نفى الإبادة العرقية الأرمينية، مما أدين من طرف القضاء .

لكن مصطلح قطيعة الحضارات، تطور بسرعة.

انتقل من الخطاب الكولونيالى الجديد حول سمو الرجل الأبيض، إلى رسم معالم الصراع الدولى غامض المنفذ.

ذلك القبول سببه الأستاذ "صاموئيل هنتانغتون " الذى لم يكن مختصا فى الشؤون الإسلامية، و لكنه كان يدرك الاستراتيجية التى وضبها فى مقالين: لم يعد الأمر فقط محاربة المسلمين، و لكن جعلِهم يتحاربون ضد أنفسهم أولا، و من ثمة ضد العالم الغريب. تماما مثل الأسطورة، بحيث أن الولايات الأمريكية تعمل على القضاء على كل أعدائها واحدا تلو الآخر لأجل ما تعتقده نصرا نهائيا.

ويعد صاموئيل هنتنغتون واحدا من كبار المفكرين فى زمننا، ليس لأن كتبه ناجحة وذات بعد فقط، بل لأنه يشكل واحدا من الذين صاغوا أيديولوجية فاشية مرتبطة بالحاضر.

فى كتابه الأول "جندى الدولة" الصادر سنة ١٩٥٧، حاول أن يثبت أن ثمة طبقة عسكرية متحدة أيديولوجيا فى الوقت التى يبدو فيه المدنيون منقسمون واستطاع أن يطور رؤيته للمجتمع ويجب أن تكون التجارة مرنة، وتكون السلطة السياسية بين أيدى مستتيرين من جنسيات متعددة تحت إمرة حرس القائد العام.

سنة ١٩٦٨، أصدر كتابه " القانون السياسى فى المجتمعات المتغيرة" و هو بحث يؤكد فيه أنه وحدها الأنظمة القوية قادرة على تطوير العالم الثالث .

شارك سريا فى صياغة جملة من الأفكار التى هى عبارة عن تقرير للمترشح للرئاسيات، ريتشارد نيكسون، حول الطريقة المثلى لدعم العمليات السرية التى يقوم بها مكتب الاستعلامات «السى. آى. إيه» هذه الجماعة تتكون من فرانس باتون، ريتشارد بيسل، روجيه فيشر، صاموئيل هنتانغتون، ليمام كيركباتريك، هنرى لومى، ماكس ميليكون، لوسيان بى، ادوينغ ريشوير، أدام يارمولنسكى، و فرانكلين ليندساى.

فى عام ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠، نصبه "هنرى كيسنجر" الذى كان معجبا بحبه للعمل السرى، نصبه فى اللجنة الرئاسية للتطور الدولى.

كرس اللعبة المزدوجة بين مؤسسة الدولة و الأمم الأخرى: الأولى ،مطالبة بفرض ضغوطات على الدول فى طريق النمو لأجل تبنى قوانين ليبرالية عبر تخليهم عن الفكر القومى، بينما الثانية تعنى استغلال ما اكتسبوه من الدول التى انغرسوا فيها، التحق فيما بعد بمركز " ويلسون ".

أسس مجلة " السياسة الخارجية" Foreign Policy فى عام ١٩٧٤، نصبه هنرى كيسنجر فى لجنة العلاقات الأمريكية اللاتينية.

شارك فى تنصيب نظام الجنرال "أوجستو بينوتشى" فى التشيلى، و "جورج رافائيل فيديلا" فى الأرجنتين.

جرب لأول مرة نموذجه الاجتماعى و أثبت أن سياسة اقتصادية مشوهة تضاهى وتوازى ديكتاتورية عسكرية.

بالتوازى مع ذلك استطاع صديقه " زبيغنيو برززنسكى " أن يدخله فى مجموعة خاصة جدا،اللجنة الثلاثية.

كتب تقريرا بعنوان" أزمة الديمقراطية" الذى من خلاله أبدى انحيازا نحو المجتمع النخبوى وأنه يصعب الالتحاق بالجامعة وأن تصبح حرية الصحافة مراقبة.

بينما طرد جيمى كارتر أعضاء إدارتى نيكسون وفورد ، و بينما حدث الانقلاب السياسى فى أمريكا اللاتينية، استطاع "هنتنغتون" أن ينقذ من جديد من قبل صديقه "برزنسكى" الذى صار مستشار الأمن القومى.

ففى هذه المرحلة الذى بدأ يتعامل بشكل أضيق مع "برنارد لويس" واعتبر ضرورة السيطرة على المناطق البترولية قبل الهجوم على الصين الشيوعية.

ذلك لم يكن له مفهوم " القطيعة بين الحضارات" و لكنه كان يشبهه.

لكن البروفيسور " صامويل هنتانغتون" تعرض لفضيحة، تم الكشف أنه كان يأخذ راتباً من قبل مكتب الاستعلامات السى آى إيه مقابل نشر مقالات فى المجلات الجامعية مبررا اللجوء إلى العمل السرى لحفظ الأمن فى الدول التى يقرر فيها

الديكتاتوريون الأصدقاء التنازل عن الكرسى فجأة.

هذا المسلسل، نصبه "فرانك كارلوتشى" فى اللجنة المزدوجة لمجلس الأمن القومى ووزارة الدفاع لأجل استراتيجية طويلة المدى.

تقريره استغل لتبرير برنامج "حرب النجوم".

«هنتانغتون» يعمل اليوم فى " بيت الحرية" Freedom House وهو مؤسسة مناهضة للشيوعية يرأسها جامس وولسى، المدير السابق لمكتب الاستعلامات «السى. آى إيه».

إنه الرجل صاحب نظرية صراع الحضارات والذى تبناها بوش الأب والابن فى صراعهما مع العالم الإسلامى خاصة وباقى الحضارات الأخرى.



2

الصراع فى لعبة الأمم

- الحروب فى مفهوم الزعماء والرؤساء والشعوب والكتّاب والمثقفين قديماً وحديثاً.
- الاستراتيجية الأمريكية فى حربها فى أفغانستان.. وماذا حققت؟

الحروب فى مفهوم الزعماء والشعوب

الحروب دمار وخراب للغالب والمغلوب إلا أن الزعماء والرؤساء الذين يخوضون تلك الحروب يرونها خيراً للبشرية!!

ويدللون على ذلك بأن الحضارة الأوربية انتعشت بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية وتمت إعادة وبناء الدول التى شاركت بالحرب حتى المنهزمة منها مثل اليابان وألمانيا.

وهذا بالطبع منطق عجيب وغريب إلا أن زعماء الحروب قديماً وحديثاً قد تبنوه وآمنوا به وآخرهم كان بوش الابن الرئيس السابق للولايات المتحدة الأمريكية، ولهذا فقد حث الشعب الأمريكى وشعوب العالم على السير خلفه من أجل حرب عالمية شاملة على الإرهاب الذى صنعه هو بنفسه.

ووصف بوش فى كلمة متلفزة بمناسبة الذكرى السنوية الخامسة لهجمات الحادى عشر من أيلول/سبتمبر الصراع القائم بأنه (صراع من أجل الحضارات وليس صراع حضارات).

وقال إن (أمن امريكا يعتمد على نتيجة المعركة فى شوارع بغداد).

وأضاف أن الشرق الأوسط واجه (دولا إرهابية وديكتاتوريين متطرفين مسلحين بأسلحة نووية).

ومن ناحية أخرى اتهم نواب ديمقراطيون بوش بأنه استغل كلمته فى أغراض سياسية قبل الانتخابات الرئاسية.

وفى تعقيبه على كلمة بوش اتهم السيناتور الديمقراطى إدوارد كنيدى الرئيس الأمريكى باستخدام الذكرى السنوية لهجمات ١١ سبتمبر لمحاولة كسب الدعم لحرب لا تحظى بتأييد شعبى.

وقال كنيدى (يجب على الرئيس أن يشعر بالخجل من استخدام يوم وطنى للحداد لاغتصاب موجات الأثير وإلقاء خطبة ليس هدفها توحيد البلاد وتخليد ذكرى

الضحايا بل التماس الدعم لحرب فى العراق اعترف هو بأنها لا علاقة لها بهجمات ١١ سبتمبر).

واضاف (سيأتى وقت لمناقشة سياسات الرئيس فى العراق).

ومن ناحيته قال بوش فى خطابه الذى ألقاه من المكتب البيضاوى بالبيت الأبيض إن بلاده ستواصل الحرب على الإرهاب حتى تحقيق الانتصار.

وأكد بوش على أن الحرب لم تصل إلى نهايتها ولن تصل إليها قبل القضاء على من أسماهم بالإرهابيين ومن يؤونهم.

ووجه بوش كلمة إلى أسامة بن لادن زعيم تنظيم القاعدة قال له فيها (سنلاحقك حتى نقدمك للعدالة.)

وقال إن الولايات المتحدة باتت أكثر أمنا منذ خمس سنوات، لكنها ليست آمنة بشكل كامل.

وأثنى على شجاعة الأمريكيين يوم الهجمات من أناس عاديين وموظفين ورجال إطفاء ورجال شرطة.

وقال إن الولايات المتحدة تعلمت الكثير عن (العدو) الذى قال إنه (مجموعة من القتلة الذين لا يرحمون ويحثون على إقامة إمبراطورية إسلامية تحبس النساء فى البيوت وتقوم على شبكة استبدادية ديكتاتورية).

وأضاف إن الحرب على الإرهاب هى أكثر من مجرد حملة عسكرية، وأنها تهدف إلى إحلال العدل ونشر الديموقراطية فى العالم لاسيما فى الشرق الأوسط.

وعدد إنجازات إدارته فى الحرب على الإرهاب بدءاً من إقصاء حركة طالبان التى كانت تحكم فى أفغانستان مرورا بملاحقة فلول القاعدة وصولا إلى إلقاء القبض على عدد من قادة القاعدة ونقلهم إلى قاعدة غوانتانامو.

وقال إننا إن لم نحقق النصر فسنترك لأطفالنا شرق أوسط فيه العديد من الدول الإرهابية).

وبرر غزو العراق وإقصاء الرئيس صدام حسين عن السلطة رغم عدم وجود علاقة

بينه وبين القاعدة بالقول إن ذلك جاء لأن نظام صدام حسين كان تهديدا مباشرا للولايات المتحدة.

وأكد على التزام إدارته بمساعدة العراق على الوقوف فى وجه التطرف والإرهاب وبناء الديموقراطية والحرية، وأكد على ثقته بالنصر لأن قواته كما قال (لا تقارن).

وبرر تغيير الإدارة الأمريكية لسياساتها نحو الشرق الأوسط بعد هجمات الحادى عشر من أيلول/سبتمبر بالقول إن الهدوء الذى كان هناك كان سرابا لذا غيرنا سياستنا من أجل نشر الديموقراطية والحرية، وأعطى أمثلة على ذلك ما جرى فى أفغانستان والعراق ولبنان.

وأعرب بوش عن تطلعه لأن تدرك شعوب الشرق الأوسط أن ثرواتها الحقيقية تكمن فى قدرات أبنائها الخلاقة وليس فى النفط المدفون فى باطن الأرض.

وكانت الولايات المتحدة قد أقامت عددا من الاحتفالات فى أماكن متفرقة بمناسبة الذكرى الخامسة للهجمات الانتحارية التى نُفذَت ضد عدد من الأهداف داخل البلاد فى الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ .

ووقف الآلاف صامتين لدقائق متفرقة فى موقع برجى مركز التجارة العالمى، اللذين سقطا بعد أن استهدفتهما طائرتان مختطفتان تحملان ركابا مدنيين.

وحضر بوش احتفالا لرجال المطافئ أقيم تخليدا للذكرى فى بنسلفانيا، حيث وضع أكاليل من الزهور فى موقع سقوط الطائرة الثالثة، وفى مقر البنتاغون فى واشنطن.

هكذا ظهر بوش فى مسرحية هزلية كلفت العالم الكثير والكثير من الأرواح والأموال مثلما فعل هتلر وموسولينى فى الحرب العالمية الثانية، وها هو يرحل ولم يحقق ما وعد به الأمريكان من الأمن والرخاء الاقتصادى.

ترك الهزائم المتوالية فى أفغانستان والعراق ودماراً وكساداً اقتصاديا فى بلاده وبلاد العالم الأخرى.

وإذا سلمنا بأن الغاية من وراء شن الحروب هى تحقيق أهداف سياسية، فإن المارشال (مونتجمرى) يؤكد لنا هذه الحقيقة بقوله، إن الحرب ليست دبابات تتصادم وليست

مدافع تهدر وليست جنود مشاة يحتلون مواقع، وإنما هى إرادة تعلو فوق إرادة .. وبالتالى لابد أن تكون لها مشروعيتها التى تحدد أطرها الإستراتيجية، وهى الأمن والمصالح.

فمسألة الحرب من الإشكاليات الهامة التى نالت اهتمام الفلاسفة والمفكرين، وكذلك الزعماء والقادة فى جميع العصور التى شهدتها البشرية وتعود هذه الأهمية لعدة اعتبارات، من ضمنها أن الحرب تعد العامل الرئيس، أو الحاسم، فى إعادة تشكيل العلاقات بين الشعوب أو الدول أو الحضارات.

ذلك أن الحرب، كما يصفها الفيلسوف الإغريقى (هراقليط)، هى أم جميع الأشياء، فهى تجعل من بعضهم آلهة، ومن آخرين عبيدا أو رجالا أحرارا.

هكذا كانت الحرب قديماً ومازالت حتى بعد إلغاء العبودية الجسدية وظهور العبودية السياسية والاقتصادية ومن ثم سوف يكون من الصعب، فهم طبيعة الصراعات بين الأمم، سواء فى الحقب الموغلة فى القدم أو فى العصور الحديثة، إذا لم نفهم الأسباب الكامنة وراء قيام الحروب ودوافعها.

فالطبيعة المعقدة للمجتمعات البشرية، جعلت ظاهرة الحرب من مظاهر الاجتماع والعمران الجديرة بالتأمل والدراسة، لأنه بالحرب تزول الحضارة وقد لا تعود إلا بعد سنوات من العناء،كما حدث بعد الحرب العالمية الثانية..

وأكد الفيلسوف أرسطو فى كتابه السياسة Les politiques، بأن فن الحرب مهارة طبيعية للسيطرة والتملك.

فالحرب إذن ثقافة ومهارة قتالية، لهذا لابد من إدراك أبعادها العميقة، حيث حظيت بالاهتمام من جانب المؤرخ وعالم الاقتصاد وعالم الاجتماع.

وقد اهتم عالم الاجتماع الفرنسى (جاستون بوتول) بالموضوع من زاوية التأسيس لعلم اجتماع الحرب Polémologie، وهو علم يتناول الحرب كظاهرة اجتماعية، سواء من حيث أشكالها، وآثارها ووظائفها، ولابد من أن نميزه عن علم الحرب الذى يدرس فى المدارس العسكرية ..

فعلم الحرب الاجتماعى، يدرس الحرب باعتبارها ظاهرة اجتماعية، لتحديد

أسبابها ووظائفها، وبالتالى فإن الدراسات الخاصة بالحرب War Studies، وكذلك المباحث الاجتماعية للحرب Etudes Polémologiques، تسعى إلى الإحاطة بالموضوع من كل جوانبه وزواياه المتعددة، بغية فهم تأثيراته وتحديد أبعاده.

ولكن لابد من التأكيد على أن الحرب صراع سياسى بالدرجة الأولى، بحيث تتداخل فى هذا الصراع السيناريوهات العسكرية والأبعاد الاجتماعية والسياسية والاقتصادية أو القومية.

ويكشف لنا الدكتور إسماعيل صبرى مقلد فى كتابه (الإستراتيجية الدولية: المفاهيم والحقائق الأساسية)، عن بعض خصائص الفكر الإستراتيجى، فيرى أن النظريات الإستراتيجية تعددت وتعقدت إلى الحد الذى أصبحت معه مزيجا متداخلا من الآراء والتصورات لكل منها مقوماته ومبرراته.

ومن أمثلة هذه النظريات نظرية الحروب الإستراتيجية العامة، والحروب التكتيكية الصغيرة ونظرية الردع، ونظرية التصعيد ونظرية الحروب الوقائية وحروب الاستنزاف ونظرية الحروب الدعائية والحروب النفسية ونظرية الصراع الممتد، ونظرية الاحتواء ونظرية توازن الرعب النووى.

عندما تختل الموازين، وتتغير العلاقات، فإن موازين قوى جديدة تنتصب وأوضاع جديدة تتشكل ومصالح تتوزع.

ولفهم هذه الصيرورة، لابد من العودة لمفهوم الحرب لمعرفة مدى مساهمة عامل (القوة) فى حسم الصراعات بين مختلف الجماعات البشرية عبر العصور المتطاولة..

ثم لابد كذلك من أن ندرك ونعى أن مفهوم الحرب، عرف تطورا كبيرا ودخل فى منظومة المعرفة الإستراتيجية أو الفكر الإستراتيجى الذى يحدد الطريقة التى تصاغ بها السياسة الرشيدة.

وأيضا كيف تستخدم الدولة قوتها العسكرية لتحقيق أهدافها.

وفى هذا الصدد يرى أكبر فلاسفة الحرب فى العصر الحديث (كارل فون كلاوزفتز) بأن الإستراتيجية هى فن إعداد المعارك ووضع الخطط العامة للحرب، لأن

الحرب هى فن استخدام القوة للوصول إلى أهداف سياسية.

وقد عرف العالم القديم حروبا فظيعة ومهولة يتم فيها استعباد الشعوب المهزومة، وقد وصفها المؤرخ (توسيديد)، بأنها هم لا يزول وغم لا نهاية له.

وقال (هيرودوت) عن الحرب الفارسية اليونانية، إنها أحلت ببلاد اليونان مصائب أكثر مما حل بها خلال العشرين جيلا.

وترجع أسباب قيام الحروب فى العالم القديم إلى اضطراب النظام السياسى، وكذلك إلى الفوضى التى كانت تعم العالم ومن خلال صفحات التاريخ نستخلص موجزاً لأهم الحروب قبل الميلاد.

- فى الألف الثالث (ق.م)، كان هناك عدد من الدول الصغيرة المتحضرة، وفى نفس الوقت عدد كبير من الإمبراطوريات.

- أما فى الألف الثانى (ق.م)، فكانت هناك العديد من الإمبراطوريات.

- فى الألف الأخيرة (ق.م)، نجد العديد من المدن الإغريقية الصغيرة، بينما فى الشرق الأوسط إمبراطوريات واسعة الانتشار.

وفى جميع الحالات، لابد من القوة العسكرية لحماية استقرارها السياسى، وعندما يغيب التوازن تنشب الحروب وتسود الفوضى.

وقد ظلت المدن اليونانية حريصة على حريتها واستقلالها وممارسة سيادتها على أراضيها، كما أنها حاولت أن تكون مكتفية اكتفاء ذاتيا وقد أدت غيرة الدويلات اليونانية وشدة تمسكها بهذه المبادئ إلى وجود نوع من الفوضى السياسية، ذلك أن بلاد اليونان كانت مكتظة بالدويلات المتجاورة وكان أقل احتكاك بينها يؤدى إلى اندلاع الحرب.

وكان سبب الخلاف دائما هو إما النزاع على الحدود، أو على بعض الأراضى الزراعية.

وغالباً ما كانت تتدخل (قوة أجنبية) متحالفة مع مدينة إغريقية ضد أخرى، ومن هنا فإن الدويلة القديمة، تحولت إلى آلة حرب دائمة، لأنها ترفض التنازل عن أى شرط من الشروط المتمثلة فى الحرية والسيادة فالشعوب كانت تتمسك بحق الاستقلال لأن التجارب تظهر أن المدن، ما كانت تستطيع أن توسع من ممتلكاتها، أو

تزيد من ثرائها إلا إذا كانت مستقلة.

وكان أسلوب الإمبراطوريات، أشد قسوة وأكثر تخريباً، فالإمبراطوريات كانت تقوم بضم الدول المغلوبة، ومن ثم إزالتها من الخريطة، وتحطيم هويتها.

وتعليقا على هذا الأسلوب الشرس الذى يعتبر السمة البارزة لجميع الإمبراطوريات عبر التاريخ يرى المؤرخ البريطانى الشهير (أرنولد توينبى) صاحب كتاب (تاريخ البشرية)، بأن وحشية العسكرية الأشورية حكمت على الإمبراطورية الأشورية بالموت المبكر، وقد نشب نزاع حاد بين البابليين والمصريين على أسلاب الإمبراطورية الأشورية.

أما الإمبراطورية الفارسية، فقد وقعت بكاملها تحت سيطرة (إسكندر المقدونى)، وبعد وفاته سنة ٣٢٣ ق.م شبت صراعات وحروب ضارية بين خلفائه لتقطيع ملكه، وقد استمرت حروب خلافة الإسكندر أربعين سنة، سادت فيها فوضى سياسية عارمة، مما أدى إلى دخول العالم القديم من الهند غربا إلى حوض البحر المتوسط الغربى فى حقبة الصراعات المدمرة.

وظهرت (روما) كقوة عظمى فى الحرب الرومانية القرطاجنية بين (٢٦٤ و٢٤١ ق.م)، حيث جندت الأساطيل والجيوش على نحو لم يسبق له مثيل فى تاريخ الحرب فى حوض البحر المتوسط.

وانتهت هذه الحرب الكبرى باستيلاء روما على صقلية، وكامل شبه الجزيرة الإيطالية، وكان من نتائج هذه الحرب أن أصبحت (روما) القوة البحرية النافذة، فى الحوض الغربى للبحر المتوسط.

وعمدت (روما) إلى تمزيق عالم البحر المتوسط، ثم أعادت بنائه ووفقا لشروطها ومصالحها، الأمر الذى مهد (ليوليوس قيصر) بتأسيس الإمبراطورية الرومانية التى قامت ببسط سيطرتها على أرجاء واسعة من العالم القديم شرقا وغربا، وذلك بالاعتماد على قوتها العسكرية.

وحول الطريقة التى اتبعها الرومان فى حروبهم يرى (نيقولا مكيافيلى) فى كتابه (المطارحات) Discours، أن الرومان لم يشتبكوا قط فى حربين كبيرتين فى آن واحد

وأن حروبهم تميزت بطابع الامتزاج بين الحظ والشجاعة والروية، وذلك فى أوسع الحدود، وأعلاها، ولو لم تكن شجاعتهم من طراز رفيع للغاية لما تمكنوا من التغلب على الأوضاع التى واجهتهم فى جميع أنحاء العالم.

ويرى (مكيافيلى) صاحب كتاب الأمير، أن الرومان اتبعوا فى حروبهم طريقة مخالفة للأساليب المعروفة والمعهودة بحيث كانت الطريقة الجديدة فى شن الحروب تستهدف الفتح أو المجد فإما الحصول على شىء ما، أو الحفاظ على ما كسبوه.

وكانت حربهم قصيرة ساحقة تجنبا للخسارات الكبيرة والإنفاق الكثير، الأمر الذى يؤدى إلى إنهاء الحرب، وإقامة الصلح حسب شروط المنتصر.

إن هناك ثلاثة أمور ضرورية للحرب، وهى وفرة الجنود البواسل وحكمة القادة وحسن الطالع.

ذلك أن الحرب تنشب إما من أجل قيام الإمبراطورية وإما عن طريق الاجتياح، بهدف الاستعمار ونهب خيرات الشعوب أو طرد أصحاب الأرض أو إبادتهم.

ومن هذا المنطلق، فإن (تيت ليف) يضفى الشرعية على ظاهرة الحرب، بقوله: (إذا كانت الحرب ضرورية فهى عادلة).

ويرى كل من (الفين توفلر ALVIN TOFFLER، وزوجته هايدى فى كتابهما الحرب ونقيض الحرب War And Anti War.

أننا مندفعون نحو عصر مظلم، تملؤه أحقاد قبلية، وأحزان عالمية، وحروب تلد حروبا.

ومن ثمة لابد من خلق الظروف التى تعرقل الحرب أو تحد من قيامها، وقد تكون الحرب ذاتها، أداة لمنع حرب أكبر، أو دمارا أما نقيض الحرب فيتضمن الاستخدام الإستراتيجى، للقوى العسكرية والاقتصادية والمعلوماتية، لتقليل العنف، الذى يرتبط بما يحدث على المسرح العالمى.

إن هناك اقتصاداً جديداً يرتكز على المعرفة يطل علينا الآن .. وهذا التغير فى اقتصاد العالم، سيؤدى إلى ثورة موازية، فى طبيعة الحروب، الأمر الذى يتطلب أيضا

ثورة فى أدوات السلام.

ويستخدم المؤلفان مصطلح (الموجات)، لتفسير الصراعات التى تشهدها مختلف الحضارات.

ويريان أن الحضارة هى جملة من العوامل تضم التكنولوجيا، الحياة العائلية، الدين، الثقافة، السياسة، شؤون الأعمال، السلطة، القيم، الأخلاقيات الجنسية، المعرفة، وثمة تغيرات سريعة وجذرية تحدث الآن فى كل هذه المجالات بلا استثناء، ولابد من التأكيد بأن لكل حضارة متطلباتها الاقتصادية والسياسية والعسكرية، فحضارة الموجة الأولى توفر الموارد الزراعية والمعادن.

وحضارة الموجة الثانية توفر العمل الرخيص والإنتاج المكثف.

وحضارة الموجة الثالثة تبيع العالم المعلومات، والأفكار، والإدارة، والثقافة والتكنولوجية المتطورة، وبرامج التعليم، والتدريب والرعاية الصحية والخدمات المالية وأيضا الحماية العسكرية.

لقد بلغت الحرب حدودها القصوى، بمعنى القدرة على القتل، والسرعة التدميرية لأدوات الحرب، وهذا التغير الخطير فى طبيعة الحرب مع بداية حضارة الموجة الثالثة (ما بعد الصناعية)، سيؤدى إلى تغيرات كبرى على كافة المستويات: التكنولوجية، والثقافية والإستراتيجية.

والثورة الزراعية أدت إلى تكوين مجتمعات مستقرة، وبدأت تظهر الأفكار الاجتماعية، وأهمها (فكرة الحرب)، لأن الزراعة مكنت المجتمعات من إنتاج فائض اقتصادى يمكن الصراع حوله.

وكانت الحرب قبل الثورة الفرنسية صراعا بين حكام، فأصبحت بعدها صراعا بين شعوب ودول، ثم إن التصنيع أدى إلى تطوير الأسلحة وإلى تحسين الموانئ ومخزون الطاقة والاتصالات، مما وسع دائرة العمليات العسكرية، كان هدف الحرب هو تحطيم العدو فى ساحة المعركة، فأصبح كل شىء هدفا حربيا.

وقد أدرك العديد من المفكرين، مع بداية حضارة الموجة الثالثة، أن السباق على التسلح وصل إلى أقصى مداه، من حيث القدرة التدميرية للأسلحة، بما فى ذلك

السلاح النووى .. وأصبح المطلوب ثورة حقيقية فى التفكير العسكرى، تستجيب لمتطلبات الموجة الثالثة، باستخدام المعرفة استراتيجيا.

فتدفق الأفكار الجديدة، وتزايد عدد المنتوجات، وتنوعها يتطلب بالضرورة صورا جديدة من القيادة ونظاما متطورا للتعامل الجهازى، وإنشاء شبكات الكترونية أفضل وأسرع، تكلف بلايين الدولارات.

ومن الأدوات العصرية الملازمة لتلك الموجة الحضارية الأقمار الصناعية التى كثر استخدامها فى الحروب من أجل تحريك وتوجيه القوات، والتقاط الصور وتجديد المواقع، وكشف الاتصالات الإلكترونية.

وباختصار فإن تكنولوجيا الفضاء، أصبح لها دور رئيسى، فى كل نشاط، مما أدى إلى تغيير موازين القوى العسكرية.

وبالتالى فإن من يحكم القمر يهيمن على الفضاء حول الأرض ويتحكم فى النظام الأرض - قمرى، حتى ظهرت فى عهد ريحان ما عرف بحرب النجوم..

إن الدراسات المستقبلية تؤكد أن العالم يتجه إلى الاعتماد الكامل على التكنولوجيات الجديدة، الأمر الذى ستترتب عليه ثورة فى مجال الإستراتيجيات العسكرية مما سيؤدى إلى قلب موازين القوى العسكرية ويدفع بالصراع إلى دائرة المعرفة التنافسية.

فالعالم يتجه إلى عصر سوف تكون فيه الحرب محدودة وخاطفة، ولكنها فى نفس الوقت قاسية ومدمرة، وعلى الفكر أن يبحث فى ضوابطها الأخلاقية والشرعية والحقوقية من أجل معالجة آثارها ودفع أسبابها إلا أن الحرب هى الحرب وهذا ما أكدته تجربة الأمريكان والبريطان فى العراق وأفغانستان وفشلهما فى تحقيق نصر دائم.

وحول علاقة الحرب بالأخلاق، يقدم لنا الأستاذ (محمد حسنين هيكل) فى كتابه (زيارة جديدة للتاريخ)، وجهة نظر القائد البريطانى الشهير المارشال (برنارد مونتجيمرى)، فهو يرى أن أخلاقية الحرب هى التى تصنع مشروعية الحرب، فلا بد من وجود حقوق مشروعة للدفاع عنها لا تستطيع أن تشن الحرب، لمجرد أنك رفعت العلم وطلبت من الأمة أن تتبعك، فالحماسة بنت لحظتها والحرب ليست حالة نفسية،

وإنما هى عبء طويل ممتد لابد أن يتقبله الناس وأن يضحوا فى سبيله، ولن يفعلوا إلا إذا آمنوا بوجود حقوق مشروعة.

ويضيف بأن التاريخ ملىء بحروب خاسرة ضاعت، لأن الذين شنوها عجزوا عن تقديم أسباب مشروعيتها لشعوبهم.

ويقول أيضا إن الصراع على العقول، يبدأ قبل الصراع على الأرض، لأنه إذا اقتنع العقل مشى وراءه الضمير ودخلت الأمة إلى الحرب واثقة من هدفها.

فإذا كانت الغاية من وراء شن الحروب هى تحقيق أهداف سياسية، فإن المارشال (مونتجمرى) يؤكد لنا هذه الحقيقة بقوله، إن الحرب ليست دبابات تتصادم وليست مدافع تهدر وليست جنود مشاة يحتلون مواقع، وإنما هى إرادة تعلو فوق إرادة.

وبالتالى لابد أن تكون لها مشروعيتها التى تحدد أطرها الإستراتيجية، وهى الأمن والمصالح .

الهدف السياسى لأى حرب، هو الوصول إلى نظام للسلام يحقق الأمن والمصالح بشكل متواز ومتوازن، وهكذا ما لم تحقق أى حرب على مر التاريخ.

وأهم حروب هذا العصر هى حرب تورابورا فى أفغانستان التى انتهى باحتلال الأمريكان وحلفاؤهم بمساعدة المنشقين الأفغان على البلاد، إلا أن الاستخبارات الأمريكية فى أفغانستان استبد بها الإحباط المتزايد، خاصة بعدما تبين لها أنه لا مخرج لها من (الدوامة) التى وقعت فيها.

لذا بادرت وزارة الدفاع الأمريكية بالتحرك نحو إشراك بعض عناصر من حركة طالبان - إنقاذا للوضع الأمريكى فى أفغانستان، إذا نأوا بأنفسهم عن تنظيم القاعدة.

وقد بدأ العمل بهذه الإستراتيجية. ومن المحتمل أن يُنصح وزير الدفاع، روبرت غيتس، والقائد العام الجديد للقيادة المركزية الأمريكية، الجنرال ديفيد بتريوس، الرئيس الأمريكى الجديد باتباع هذه الإستراتيجية، باعتبارها أكثر الطرق فاعلية لتحقيق الاستقرار فى أفغانستان.

ومن المرجح أيضا أن يُطلب من الرئيس الأمريكى دعم أكبر لمبادرة دبلوماسية

إقليمية، أوسع نطاقا، تهدف إلى طمأنة باكستان بشأن مخاوفها الأمنية، وخاصة فيما يتعلق بالنفوذ الهندى فى أفغانستان، الذى ازداد بدرجة كبيرة، منذ الغزو الأمريكى لأفغانستان.

ومع توغل المقاومة (البشتونية) بعمق فى جنوب وشرق باكستان، وحتى فى كابول نفسها، خلال العامين الماضيين، توصل الخبراء إلى نتيجة مفادها، أن حركة طالبان وحلفاءها لا يمكن أن يهزموا، طالما أن إسلام آباد لا تزال توفر لهم الملاذ الآمن وغيرها من المساعدات فى المناطق القبلية عبر الحدود.

إن (إستراتيجية) المشاركة، التى نصح بها البنتاغون، نُشرت فى تقرير، تضمن قدراً كبيراً من التفصيل.

فى مقال بعنوان: (من اللعبة الكبرى إلى الصفقة الكبرى)، فى مجلة الشؤون الخارجية ذات النفوذ. وكتب التقريرين، كلا من المحلل الباكستانى أحمد رشيد، والأستاذ فى جامعة نيويورك، أستاذ بارنيت روبين، وتحظى وجهات نظرهما حول المنطقة بتقدير كبير.

وقد ذكرت صحيفة (واشنطن بوست)، أن المحلل السياسى الباكستانى أحمد رشيد، واحد من أهم الخبراء الذين يشاورهم الجنرال ديفيد بتريوس، وفريق عمله، الذى كُلف بوضع خطة لحملة جديدة فى أفغانستان، من المقرر أن تكتمل فى غضون حوالى ١٠٠ يوم، أو بعد فترة وجيزة من انتخاب الرئيس الجديد.

ووفقا لصحيفة نيويورك بوست، فإن الجنرال بتريوس أمر الفريق بالتركيز على موضوعين أساسين: (المصالحة التى تقودها الحكومة مع مقاتلى حركة طالبان فى أفغانستان وباكستان، والاستفادة من المبادرات الدبلوماسية والاقتصادية مع البلدان المجاورة، المؤثرة فى الحرب).

وذلك هو بالتحديد، ما ركز عليه رشيد وروبين فى تقريرهما، كخطوة مهمة حاسمة لتحقيق (الصفقة الكبرى).

ووفقا لصحيفة نيويورك تايمز، فإن تقييم المخابرات الوطنية - وثيقة تحظى بتوافق الآراء من جميع وكالات المخابرات الأمريكية الـ ١٦ - خلص إلى أن الحالة الأمنية فى

أفغانستان غرقت فى (دوامة)، إلا أنه أشار إلى تفشى الفساد فى حكومة الرئيس حامد كرزاى، والانتشار الواسع لتجارة المخدرات، التى تشكل الآن أكثر من نصف اقتصاد البلاد.

كما صرح قائد القوات البريطانية فى أفغانستان، العميد مارك كارلتون سميث، لصحيفة صنداى تايمز، أنه لا يعتقد أن الحرب فى أفغانستان يمكن الفوز بها.

فبعد (كارلتون سميث)، أكبر قائد عسكرى بريطانى فى أفغانستان، يعود أحد أبرز الوجوه السياسية فى بريطانيا إلى انتقاد الطريقة التى اعتمدها الغرب فى حربه تلك. ونعنى به ديفيد ديفس النائب البرلمانى ووزير الداخلية فى حكومة الظل (وهى حكومة المحافظين المعارضة) وأحد الزعامات البارزة فى حزب المحافظين، الذى نشرت له الإندبندنت مقالا يعرب فيه عن رأيه فى ما آلت إليه الأمور فى أفغانستان، والتى زارها لمدة عشرة أيام.

ويبدأ السياسى البريطانى مقاله بالقول (إن الوقت حان لمواجهة الحقائق فى أفغانستان).

وهذه (الحقائق) ـ فى نظر الكاتب ـ تتعدى أوجه المحنة اليومية التى يعانى المواطن الأفغانى العادى منها، من تصاعد العنف والجريمة وتدهور الخدمات العمومية واليأس من الحكومة الأفغانية وانتشار قوات أجنبية تضايق المدنيين، دون أن تحرز أى انتصار، إلى أعمق من ذلك: إلى الفساد المستشرى فى جهاز الدولة الأفغانية من قمة رأسها إلى أخمص قدميها.

فشقيق الرئيس الأفغانى مشتبه فى أن يكون (أحد أباطرة المخدرات)، بينما ابتزاز الشعب ممارسة مستشرية بين ثلاثة أرباع الشرطة الأفغانية.

ويضيف: (ويبدو أن الحكومة الأفغانية أنشئت من أجل خدمة عشرين من الأسر الأفغانية)، تدر عليها ريعا متنوع المصادر من إتاوات وإكراميات نظير منح صفقات ووظائف حكومية مثلا، وهكذا تسيد الفاسدون الحكم فى الدولة وترحم الناس على فترة حكم حركة طالبان.

حتى أصبحت المناصب العليا فى البلاد يتم بيعها كأى سلعة.

فسعر منصب قائد الشرطة فى منطقة تنتشر فيها زراعة الأفيون يناهز ١٥٠ ألف دولار.

وعلى الرغم من الارتفاع النسبى لمثل هذا المبلغ، فإن الكثير مستعد لدفعه لاعتقاده أن صرف مثل هذا المبلغ استثمار، أنه سيستعيده أضعافا مضاعفة من ابتزاز المزارعين للأفيون.

وقد بلغ (الجشع) بالموظفين الحكوميين حدا من العبث.

فإذا رغب أى مواطن أفغانى فى نقل بضاعته مثلا من (لشكر غاه) عاصمة إقليم هلمند إلى قندهار جنوبى البلاد، فعليه أن يمر بـ١٢ نقطة مراقبة طرقية، حيث سيتعرض للابتزاز والسرقة من قبل أفراد قوات الأمن. فى مثل هذه الظروف، كل بضاعة غير الأفيون هى بضاعة خاسرة.

كل هذا أعطى لحركة طالبان دعماً وتأييداً شعبيا بل وتعاوناً جعل لها اليد العليا على القوات الحكومية والغازية على السواء وحققت انتصارات كبيرة فى الآونة الأخيرة وشعوراً بالإحباط عند القادة الأمريكان والبريطانيين وغيرهم من القادة والغزاة.



3

الصراع فى قلب القوقاز

ـ الصراع فى قلب منطقة القوقاز بالقرب من منابع البترول فى بحر قزوين بين أرمينيا وأذربيجان على إقليم «ناغورنى» (ناجورنو كارباخ)، وسيناريوهات الحل من أصحاب البروج.

الصراع فى منطقة القوقاز بالقرب من مناطق النفط ينذر باشتعال حرب كبرى بين الدول الكبرى

من أهم مناطق الاشتعال فى العالم بخلاف الشرق الأوسط منطقة القوقاز المليئة بالنفط حيث يدور صراع قديم حول السيادة على تلك المنطقة بين القطب القديم الذى انهار فى أواخر القرن الماضى (القطب الروسى) والقطب الحالى الأكبر الولايات المتحدة الأمريكية الملقبة بأصحاب البروج.

أما البيادق أو أصحاب الكهوف طرفا النزاع الحقيقى فهما أرمينيا وأذربيجان.

وسبب النزاع هو إقليم ناغورنى قره باغ (ناجورنو كاراباخ) الذى يطالب معظم سكانه بالانفصال عن دولة أذربيجان ذات الأغلبية المسلمة.

وتقوم دولة أرمينيا ذات الأغلبية المسيحية بمساندة ذلك الإقليم ودارت بينهما الحروب.

أما الدولتان العظميان فهما المحركان اللاعبان.. المحركان للبيادق فى خضم اللعبة، إنهما روسيا وأمريكا.

وما زالت دولة أذربيجان تطالب بضم الإقليم الذى انفصل عن سيادتها مرة أخرى إليها.

فما هى تلك القصة والهدف وراء ذلك الصراع وهذا الإقليم؟

فقد حصدت الحرب بين أرمينيا وأذربيجان بسبب ذلك الأقليم حوالى ٣٥ ألف نسمة خلال الفترة من ١٩٩٢ حتى ١٩٩٤ وتشريد نحو حوالى مليون آخرين وما زال القتال مستمراً على الحدود بينهما.

ومساحة الإقليم المتنازع عليه تعادل نصف مساحة دولة لبنان.

(ناغورنى) كلمة روسية تعنى مرتفعات وتعنى فى الوقت نفسه جبال، أما كلمة

قره باغ فتعنى الحديقة السوداء، أى أن ناغورنى قره باغ هى ترجمة لمرتفعات الحديقة السوداء.

ويطلق الأرمن الذين يعيشون فى الإقليم عليها اسم (آرتساخ) وهى كلمة مكونة من مقطعين الأول (آر) نسبة إلى (آرا) إله الشمس عند الأرمن القدماء، و(تساخ) وتعنى غابة أو كرمة. وبذلك تعنى كلمة (آرتساخ) غابة أو كرمة الإله (آرا).

أما (الأذر) فيعرفونها باسم (يوخارى قره باغ)، أو (قره باغ العليا) بالمعنى الحرفى.

وإقليم ناغورنى قره باغ هو أحد أقاليم أذربيجان، وعاصمته ستبانا كيرت (نسبة إلى الزعيم البلشفى الأرمنى ستيبان شاهوميان) ويقع الإقليم غرب العاصمة الأذرية باكو بحوالى ٢٧٠ كلم. وتبلغ مساحته حوالى ٤٨٠٠ كيلومتر مربع.

والإقليم منطقة يغلب عليها الطابع الجبلى، وتعتبر قمة جبل (جياميش) التى يبلغ ارتفاعها ٣٧٢٤ مترا هى أعلى قمة جبلية هناك. وفى الإقليم كذلك مجموعة من الأنهار تستخدم مياها فى الرى وفى توليد الطاقة الكهرومائية.

ويتنوع المناخ فى إقليم ناغورنى قره باغ حسب المكان والارتفاع. ففى المناطق الجبلية إلى الغرب والجنوب الغربى تتراوح درجة الحرارة فى الشتاء بين ٦ و١٠ درجات مئوية، وفى السهول والمرتفعات الأقل انخفاضا تتراوح بين ٢ و٣ درجات مئوية.

أما متوسط تلك الدرجات فى أشهر الصيف فيتراوح بين ١٠ و١٥ درجة مئوية فى الجبال وبين ٢٠ و٢٥ درجة على المرتفعات الأقل انخفاضا.

الصيف فى إقليم ناغورنى قره باغ ممطر، وتبلغ كثافة هطول الأمطار السنوية ما بين ٤٠٠ و٦٠٠ ملم على السهول وتصل ٨٠٠ ملم أو أكثر فى الجبال.

والمناخ فى السهول والمرتفعات المنخفضة شبه جاف مما يساعد على نمو الشجيرات شبه الصحراوية والأعشاب والنباتات ذات الطابع الصحراوى فى المرتفعات المنخفضة. أما فى الجبال ذات الارتفاعات العالية فإن الأشجار العريضة الأوراق تفسح المجال للمروج، كما تكسو الغابات والأشجار الصغيرة حوالى ثلث الأرض.

الموارد الاقتصادية والنشاط البشرى

وإقليم ناغورنى قره باغ فقير فى موارده ويعتمد على الزراعة التى يعمل بها أغلب سكانه كما يعتمد على تصنيع بعض الأغذية وبعض الصناعات الخفيفة.

ففى المناطق السهلية تغلب على نشاط السكان تربية الماشية وزراعة الحبوب والقطن والتبغ. والحال لا يختلف كثيرا بالنسبة للمناطق الجبلية حيث يربى السكان الماشية للحومها وأصوافها.

وهنالك نشاط زراعى آخر يشمل زراعة العنب لعمل النبيذ وتربية دود القز للمنسوجات الحريرية، وتتركز هذه الصناعة بشكل أساسى فى سفوح التلال والمناطق الجبلية الأقل انخفاضا.

والنقل البرى فى ناغورنى قره باغ صعب للغاية، فلا يوجد غير طريقين داخليين تقطعان الإقليم، ومعظم المناطق تقطعها وديان الأنهار.

وأسباب الصراع يكمن فى توليفه السكان الأرمن والأذربيجان، ويقدر عدد سكان ناغورنى قره باغ بـ ١٤٥ ألف نسمة، ٩٥٪ منهم أرمن والـ ٥٪ الباقية من أعراق أخرى. ونظرا لموقع ناغورنى قره باغ وكونها نقطة التقاء بين الإمبراطورية العثمانية والفارسية والروسية فقد شهد هذا الإقليم عددا كبيرا من الحروب وتنقلات وعمليات هجرة ونزوح بين السكان، لذا فليس مستغربا فى التاريخ الديمغرافى لناغورنى كارابخ أن تكون إحدى الجماعات العرقية أو الشعوب فى قرن من القرون أغلبية وفى قرن آخر أقلية.

وقبل اشتداد العداوات بين العرقين الأذرى والأرمنى كان الأرمن يسكنون العاصمة ستبانا كيرت ويمثلون أغلبية السكان، فى حين كانت مدينة شوشا -مركز قره باغ فيما قبل العهد السوفياتى- تضم غالبية أذرية.

لكن بعد حرب عام ١٩٩٢ بين أذربيجان وأرمينيا وبعد أن سيطر الجيش الأرمنى على ناغورنى قره باغ أجبر جل سكان الإقليم من الأذر على الرحيل.

وكان أغلب الأذر فى ناغورنى قره باغ قبل التهجير، من المسلمين الشيعة وبينهم بعض السنة الأكراد.

أما الأرمن فهم مسيحيون ينقسمون مذهبيا بين الكاثوليكية والأرثوذكسية.

تشبه اللغة الأذرية الأناضولية التركية بشكل كبير.

أما اللغة الأرمينية فهى لغة هندو أوروبية لها أبجدية فريدة.

وتختلف لغة الأرمن فى قره باغ عن تلك التى يتحدث بها الأرمن فى جمهورية أرمينيا، ومع ذلك فكل منهما يفهم الآخر.

فأساس تلك المشكلة هى الصراع بين السكان المسيحيين والمسلمين هو الصراع الأزلى.

وناغورنى قره باغ جمهورية غير معترف بها دوليا.

تأخذ بالنظام الرئاسى منذ نوفمبر/تشرين الثانى عام ١٩٩٤ .

والرئيس هناك هو رأس الدولة ويتمتع بسلطات واسعة، فهو الذى يختار رئيس الوزراء الذى يشكل الحكومة، ومدة الرئاسة خمسة أعوام تجدد لفترة واحدة فقط.

والرئيس فى قره باغ هو الذى يحدد السياسات الخارجية والدفاع.

الرئيس الحالى ووفقا لنتائج الانتخابات الرئاسية التى جرت فى يوليو/تموز ٢٠٠٧ هو باكو سهاكيان وقد خلف أركاد غوكاسيان بعد أن انتهت فترة رئاسته للإقليم.

وللإقليم حكومة تتركز فى يدها السلطة التنفيذية، وتتكون من رئيس الوزراء ويعاونه وزراء للصحة والدفاع والتعليم وغير ذلك، ورئيس الوزراء مسؤول أمام كل من رئيس الجمهورية والمجلس الوطنى (البرلمان).

وكذلك البرلمان يطلق عليه المجلس التشريعى ويتكون من ٣٣ عضوا بعد أن كان ٨١ عضوا قبل عام ١٩٩١، وقد جرت أول انتخابات لهذا المجلس فى أبريل/نيسان عام ٢٠٠٠ ومدة عضوية النائب خمسة أعوام. ويختار الأعضاء رئيس البرلمان باقتراع سرى.

وتختلف وجهات نظر المؤرخين والمهتمين بالصراع بين أرمينيا وأذربيجان -المتمثلة

أبرز معالمه فى التنازع على ناغورنى قره باغ- فى تحديد طبيعته على النحو التالى:

❖ إنه صراع عرقى.

❖ إنه تنافس جيوبوليتيكى لا يشمل الأرمينيين والأذربيجانيين وحدهم بل يتعداهم إلى الأتراك والروس والولايات المتحدة وإيران والاتحاد الأوربى.

❖ إنه استمرار لعداء تاريخى محمل بإرث كبير من الكراهية الدفينة بين الأرمن وكل من الأذر والأتراك.

وروح العداء بين الأرمن والآذر فى منطقة القوقاز قديمة ولها أسبابها العرقية والدينية والتاريخية، وبالأخص إبان بسط الإمبراطورية العثمانية سيطرتها على تلك المناطق قبل عدة قرون.

لكن بوادر تفجر الصراع فى إقليم ناغورنى قره باغ تحديدا تعود إلى العشرينيات من القرن الماضى.

ولفهم أبعاد الصراع يجدر القول بداية إن هذا الإقليم من الناحية الجغرافية يقع فى قلب أذربيجان لكن من الناحية الديمغرافية تسكنه أغلبية أرمينية بنسبة ٩٥٪.

وكانت سياسة رئيس الاتحاد السوفيتى السابق جوزيف ستالين تقوم على بث الفرقة بين الجماعات العرقية داخل جمهوريات الاتحاد المترامية الأطراف، لتظل تلك الأعراق بحاجة دائمة إلى حماية الحكومة المركزية فى موسكو.

ولأن أذربيجان وأرمينيا كانتا جمهوريتين تابعتين للاتحاد السوفيتى فإن ستالين أقدم عام ١٩٢٣ على ضم إقليم ناغورنى قره باغ إداريا إلى جمهورية أرمينيا، رغم أنه يقع فى قلب أذربيجان.

وفى المقابل فقد ضم ستالين إداريا منطقة ناختشيفان التى تقع جغرافيا فى قلب أرمينيا وتسكنها أغلبية أذرية إلى أذربيجان، وبهذا بدأ الصراع فى ناغورنى قره باغ واستمر.

لكن الكراهية الدفينة فى قلوب الأذر والأرمن ظلت كامنة بفعل الخوف من رد الفعل السوفيتى إذا اندلعت قلاقل، فبقيت الأمور على السطح هادئة لكن نيران

الغضب كانت تمور فى الأعماق.

وفى عام ١٩٨٨ وتحديدا فى العشرين من فبراير/شباط كان إقليم ناغورنى كاراباخ بأكمله يقف عند مفترق طرق.

فى ذاك اليوم طلب المجلس السوفيتى القره باغ من موسكو الموافقة على انضمام الإقليم نهائيا إلى أرمينيا.

هنا سارع النواب الأذر الممثلون فى المجلس إلى الاعتراض، فتوترت الأجواء وتحول الحقد التاريخى المكتوم إلى أعمال عنف سرعان ما تحولت إلى حرب أهلية فى الإقليم سقط فيها مئات القتلى وآلاف الجرحى من الطرفين.

وفى العام التالى (١٩٨٩) ذهب الأرمن بصراع ناغورنى قرع باغ خطوة إلى الأمام وذلك حينما اتخذ المجلس السوفيتى الأرمينى قرارا بإعلان اتحاد قره باغ مع جمهورية أرمينيا.

ثم فى الخامس والعشرين من ديسمبر/كانون الثانى عام ١٩٩١ تفكك الاتحاد السوفيتى وانفرط عقد جمهورياته، وفى أوائل عام ١٩٩٢ أعلنت كل من أرمينيا وأذربيجان استقلالهما.

وعلى الدرب نفسه فاجأ القادة السياسيون فى إقليم ناغورنى قره باغ العالم بإعلان استقلالهم ورغبتهم فى قيام جمهورية مستقلة غير تابعة لا إلى أذربيجان ولا إلى أرمينيا.

واعترضت أذربيجان على إعلان استقلال قره باغ واعتبرته انفصالاً وتمرداً، بل ذهبت أبعد من ذلك واعتبرت ما قام به الانفصاليون هناك (مسرحية) تمت بالاتفاق المسبق مع أرمينيا.

وأعلنت أرمينيا دعمها للقادة السياسيين الأرمن ومدهم بالمال والسلاح، وهو ما نظرت إليه أذربيجان على أنه بمثابة إعلان الحرب، فاندلع القتال بينهم بالفعل واستمرت الحرب طوال الفترة من ١٩٩٢ حتى التوصل لوقف إطلاق النار عام ١٩٩٤،

وكانت نتائج تلك الحرب -خاصة على الجانب الأذرى- فوق الاحتمال.

وأصبحت مشكلة اقليم مشكلة دولية اشتركت فيها الدول الكبرى والمصالح الإقليمية والدولية وتشابكها واتساع الهوة بين مواقف هذه الأطراف تباعد بين ناغورنى قرة باغ وفرص الحل السلمى.

فتركيا تقف بجوار أذربيجان فى تشديد الحصار على أرمينيا، ولا عجب فى ذلك لأن هناك عداء تاريخيا بين الأرمن والأتراك واتهام الأتراك بارتكاب مذابح فى الأرمن إبان الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٥م.

لا تخفى تركيا - شقيقة العرق واللغة والديانة لأذربيجان - دعمها للأخيرة فى مواجهة أرمينيا.

ويعمد الباحثون الأرمن والروس إلى التأكيد على خطورة الدور الذى تلعبه تركيا بتكاتفها مع أذربيجان فى حصار أرمينيا، وجعلها تعانى من عجز اقتصادى شديد بسبب وقوعها فى موقع حبيس لا مخرج لها منه.

ويرى إدوارد واكلر - الباحث بجامعة ستانفورد بالولايات المتحدة - أن التاريخ العدائى بين الأرمن والأذريين يسد الطريق على آمال التسوية المستقبلية، فيجب ألا يغيب عنا - والكلام لواكلر - أن الأرمن ينظرون إلى الأذريين باعتبارهم شركاء الدين الإسلامى واللغة والقومية التركيتين. ومن هم الأتراك؟ هم أولئك الذين تسببوا فى قتل أكثر من مليون ونصف أرمنى!

وفى كل وقت ومكان لا يملُّ الأرمن - ولا سيما أرمن الشتات، خاصة فى الولايات المتحدة - من تذكير العالم "بالمذابح الأرمنية" التى اقتُرفت بحقهم خلال الحرب العالمية الأولى حينما كان الأرمن يخضعون للإمبراطورية العثمانية، وقاموا بعدة ثورات لتحسين وضعهم الدينى داخل الإمبراطورية.

ومن شأن ذلك أن يسكُب مزيداً من الزيت على نيران العداء التركى - الأرمنى، ويتسبب تصديق أى دولة على فكرة "المذابح" إلى إساءة علاقة هذه الدولة بتركيا.

وليس أدل على ذلك مما أصاب العلاقات التركية - الفرنسية من سوءٍ بَعد تأكيد

جهات قضائية فرنسية على إبادة الترك للأرمن.

وليس أبلغ من تأكيد التحالف التركى الأذربيجانى من خروج الرئيس الأذربيجانى "عليف" بعد هذا الموقف الفرنسى ليقول - حسبما نقلت "البيان" الإماراتية عن وكالات الأنباء فى ٢٠٠١/١/٢١: "لقد كنا دائما نعارض القرارات الظالمة والتلميحات التى ترجّح أن تركيا ارتكبت إبادة فى حق الأرمن. واليوم من جديد نحتج ونتضامن مع تركيا، فالحجر الذى ترشق به تركيا يصيبنا نحن أيضا".

ولا تستطيع تركيا أن تمضى فى موقفها من أرمينيا حتى النهاية، فعليها التزامات دولية واقتصادية ربما تغير من موقفها، وعلى رأس هذه الالتزامات مناداة الولايات المتحدة تركيا بضرورة تطبيع العلاقة مع أرمينيا، والضغط الأوربى على تركيا كشرط لقبولها عضوا فى الجماعة الأوربية.. ناهيك عن المشروعات الأذربيجانية - التركية بمد خط الأنابيب من باكو إلى ميناء جيهان التركى على البحر المتوسط. ومثل هذا المشروع - الذى يشبع نقصاً فى موارد الطاقة التركية - يتوقف، فى جزء منه، على تسوية الأزمة.

وعلى الجانب الآخر تضع تركيا فى اعتبارها ضرورة الالتزام "بقواعد اللعبة" وهى تتعامل مع أرمينيا الحليف الرئيسى لروسيا، ومن هى روسيا؟ هى ببساطة المورد الأساسىُّ للنفط والغاز لتركيا.

روسيا وكاراباخ:

تشغل روسيا أكثر من مقعد فى الأزمة الكاراباخية، ففى الوقت الذى يصنفها المحللون كحليف وداعم سياسى وعسكرى لأرمينيا، تجدها أحد الوسطاء الدوليين الثلاثة مع فرنسا والولايات المتحدة التى ترأس مجموعة منسك المنبثقة عن الاتحاد الأوربى لحل المشكلة. لدرجة تساءل معها البعض عن مدى حقيقة الدور "المحايد" لروسيا فى الصراع الكاراباخى.

والتحالف بين أرمينيا وروسيا تاريخى قبل أن يكون إستراتيجيا. فمنذ أن كانت روسيا القيصرية تعادى تركيا العثمانية وأرمينيا تحتل مكانة هامة فى تحالفات منطقة

القوقاز. ويمكن لنا أن نقدر حجم الدور الروسى لأرمينيا من خلال تطوير روسيا لأعمدة الاقتصاد الأرمينى، وعلى رأسها إنشاء محطات الطاقة النووية، وخاصة منذ وقف إطلاق النار فى كاراباخ.

وقد تمثلت أبرز صور التعاون الاقتصادى بين البلدين فى اتفاقية الشراكة المبرمة بين البلدين فى ١٩٩٧ برأس مال ٣٠ مليون دولار، التى تضمن تدفق النفط والغاز إلى أرمينيا.

وعسكريّاً تسعى روسيا إلى تحقيق الأمن القومى الأرمنى فى مواجهة أذربيجان الساعية إلى دحر القوات المحتلة لبلادها. وتعدُّ اتفاقية مارس ١٩٩٥ أساسا لإنشاء قواعد عسكرية روسية على الأراضى الأرمينية والحماية المشتركة لحدودها مع تركيا. ويسرى مفعول هذه الاتفاقية حتى عام , ٢٠٢٠ كما أن هناك مشروعاً أرمينيا طموحاً لانضمام أرمينيا إلى الوحدة الروسية - البيلاروسية المنتظرة (هذا على الرغم من عدم وجود أية حدود مشتركة بين أرمينيا والدولتين المذكورتين).

وليس خافياً أن الموقف القوى الذى تقفه أرمينيا فى صراعها السياسى مع أذربيجان حول كاراباخ مستمد من التسليح الروسى، بل والقواعد الروسية فى أرمينيا، ناهيك عن تسليح القوات الجوية الأرمينية بأحدث الأسلحة الروسية.

وقد باعت روسيا لأرمينيا - حسب دراسات روسية - أسلحة بمليار دولار، وهو ما فجَّر توترا بالغا فى العلاقات الروسية الأذربيجانية.

ومما يشجع روسيا على توجهها لدعم أرمينيا التسليح القوى لتركيا وتمركز قواعد الناتو بأراضيها وعلى مقربة من النزاع الكاراباخى.

ويرى جادجييف - أستاذ العلوم السياسية الروسى - أن من الأوهام التى تسيطر على البعض المبالغة فى تصوير أذربيجان التى ستلتهمها روسيا، فمثل هذا الفكر الذى يسيطر على أدمغة بعض القادة الأذربيجانيين وفى أوساط النخبة الثقافية والاقتصادية هدفه تأصيل ابتعاد أذربيجان راديكاليّاً عن روسيا.

ونستشف من مقولة جادجييف أن روسيا رغم دعمها لأرمينيا فإنه يقلقها التحالف الأذربيجانى مع الغرب.

ومثل هذا الفهم جعل روسيا تنتبه فى السنوات الأخيرة - وبالتحديد منذ تولى بوتين الرئاسة فى عام ٢٠٠٠ .

إلى أنه "لا داعى لمزيد من ارتماء أذربيجان فى أحضان الغرب؛ لأن ذلك ببساطة لا يصب فى مصلحتنا".

وقد يطرأ على التحالف الروسى - الأرمنى بعض التغيرات وعلى رأسها احتمال تحول أرمينيا إلى أوربا والولايات المتحدة.

والأخيرة تبدى تعاطفاً تجاه أرمينيا لأسباب يرجعها البعض إلى كسب أصوات الجالية الأرمنية فى الولايات المتحدة، حيث يشكل الشتات الأرمن تجمعاً خاصا فى جنوب ولاية تكساس.

إيران ودبلوماسية النفط

عادت إيران مع تبدد الشيوعية إلى منطقة النزاع الكاراباخى حاملة معها رائحة التأثير وبعد أن اتفقت إيران وتركيا على مواجهة الشيوعية فى الإقليم عادا - بعد زوال ما جمعهما - إلى الافتراق والتنافس فى السيادة على الإقليم.

ويسجل أن إيران دعمت أرمينيا فى أزمة كاراباخ لأسباب اقتصادية.

أولها أن أرمينيا تحتاج النفط الإيرانى، بينما أذربيجان تبيع النفط كإيران.

وثانيها أن أذربيجان، فى بداية استقلالها، تحالفت مع تركيا؛ ليس فقط سياسيّاً وعسكريّاً بل وأيديولوجيّاً حينما تم الترويج لإحياء فكرة الجامعة التركية فى ١٩٩٢-١٩٩٣، التى كان يعنى نجاحها إزاحة إيران كلية عن المنطقة.

هذا فى الوقت الذى تمثل فيه إيران شريان الحياة لأرمينيا فى ظل حصار الأخيرة من الشرق بأذربيجان ومن الغرب بتركيا.

ومن المشكلات الأخرى سكان إيران من الأذريين، فعدد الأذريين فى إيران يفوق ٨ ملايين نسمة، وعددهم فى شمال إيران وحده يقترب من عدد سكان أذربيجان ذاتها (٦,٥ ملايين نسمة)، وتبالغ المعارضة الأذربيجانية لإيران فى هذا الرقم، ويصلون به إلى ٣٠ مليون نسمة!.

وفى ذلك يرصد المراقبون أنه عندما يطالب الأذريون الإيرانيين بامتيازات لهم داخل إيران (يصل بعضها إلى مستوى الحكم الذاتى أو الاستقلال) يمكن لنا أن نتخيل حساسية الدور الذى تلعبه إيران فى أزمة كاراباخ، فإن هى أغرقت فى التعاون مع أرمينيا يمكن أن تحرك النار من تحت الرماد لدى الأذريين فى شمال إيران، ولكنها لا تستطيع أن تقف ساكنة أمام تزايد النفوذ التركى الذى تمثل أذربيجان الموصل الحرارى الجيد له فى المنطقة.

ويبقى أن روسيا - حليفة إيران حاليًا - تساند، بمساعدتها أرمينيا، التوجه الإيرانى نحو "الميل" تجاه أرمينيا والمعارض لتعاظم دور تركيا والغرب فى المنطقة.

غير أن "دبلوماسية النفط" قد تغير من سياسة إيران، فالتعاون الإيرانى مع دول بحر قزوين - وأذربيجان من بينها - حول اقتسام الثروة يمكن أن يلطف من الموقف مع تكرار الزيارات الرسمية واللقاءات المتكررة مع قادة الدول المطلة على هذا البحر.

فرائحة النفط تغرى الدول الأوربية كما أغرت أمريكا فجعلتها محل اهتمام الكبار من أصحاب البروج فى بحث قام به المعهد الأمريكى لدراسات السلام عام ١٩٩٩ أى فى نهاية القرن الماضى جاء فيه أن الدول الأوربية الغربية تسعى لحل مشكلة الإقليم للوصول إلى النفط فى بحر قزوين ولكن المشكلات تحول دون ذلك الحل.

فالقوى العظمى لا ترغب فى حل المشكلة وتؤججها وتسعى للسيطرة بمفردها على منابع النفط دون منافس وجعل الولايات المتحدة منفردة تقدم سيناريو للحل تستفيد منه وحدها.

وأدى الأمر أيضاً إلى تهديد الرئيس الأذربيجانى بإعلان الحرب لاستعادة الإقليم الذى أعلن انفصاله عن سيادة الدولة الأذربيجانية.

وقال الرئيس الأذريبجانى (إلهام علييف) إن باكو لن توافق على منح كاراباخ المتنازع عليه الاستقلال. ويعد النزاع الاذربيجانى - الأرمنى حول كارباخ واحداً من النزاعات القومية المستعصية فى فضاء الاتحاد السوفيتى السابق.

وأعلن الاقليم استقلاله من جانب واحد عن اذربيجان فى تسعينيات القرن الماضى، وخاض الطرفان حربا هزمت اذربيجان فيها، ووافقت على وقف اطلاق النار الذى مازال سارى المفعول.

وقال علييف فى حديث لإذاعة صدى موسكو: إن كاراباخ، ذات الأغلبية الأرمنية، أرض أذرية ولا يمكن التنازل عنها.

ويرى علييف أن على أذربيجان أن تعزز اقتصادها وأن تكون أكثر نشاطا على الجبهة الدبلوماسية. وعليه برأيه تصبح دولة ذات أهمية أكبر من أرمينيا من أجل أن يزيد وزنها على ثقل اللوبى الأرمنى المنتشر بالعالم.

وأفاد بأن الموازنة العسكرية فى العام المقبل ستعادل موازنة الدولة برمتها. وأوضح أن أذربيجان اقترحت منح إقليم ناغورنى كاراباخ عدة نماذج بما فى ذلك التمتع بحكم ذاتى وإدارة مستقلة ووضع إدارى رفيع المستوى.

وبرأيه فإن دولة بتعداد ٦٠ ألف نسمة، فى إشارة إلى كاراباخ، غير مهمة لأى كان، منوها أن يكون أحد مكونات السكان أقلية لا يمنحها حق تقسيم أرض البلاد.

ويرى علييف وجود إمكانية العثور على تسوية نزاع كارباخ فى أطر وحدة الأرض الذربيجانية. ويعتقد الرئيس الأذرى أن مفتاح حل مشكلة ناغورنى كاراباخ بيد موسكو.

وتنظر باكو حسب تأكيده، إلى مجموعة منسك التى تضم روسيا وفرنسا وأمريكا كجهاز موحد عند البحث على تسوية للنزاع حول كاراباخ. مؤكداً أن قضية كاراباخ قضية أذربيجانية ولا ينبغى تكليف أحد بها؛ (وعلينا حلها بنفسنا).

وأما خسائر الحرب بين البيادق أو أصحاب الكهوف.. أرمينيا وأربيجان أعداد القتلى الأذر غير محددة بدقة من بين إجمالى من سقطوا من كلا الجانبين.

لكن الثابت أن أغلب الخسائر البشرية تركزت فى الجانب الأذرى وذلك لأن أذربيجان خرجت من هذه الحرب منهزمة، فقد خسرت ٦ مقاطعات إضافة إلى إقليم ناغورنى قره باغ وهو ما يمثل فى مجموعه ٢٠٪ من مساحة أذربيجان الكلية ولا تزال هذه المقاطعات حتى العام ٢٠٠٨ محتلة.

كذلك أُجبر ما بين ٦٠٠ إلى ٧٠٠ ألف أذرى على ترك مناطق عيشهم نتيجة للحرب وما صاحبها من عمليات تطهير عرقى. من بين هؤلاء ٦٠ ألفا من إقليم ناغورنى قره باغ وحده وأربعة آلاف أذربيجانى من أصول كردية من منطقتى لاتشين وكيلباجار وعدة آلاف من جماعات عرقية مختلفة أغلبهم من الروس والبقية من المقاطعات المحيطة بقره باغ.

وتركز تقارير حقوق الإنسان الضوء على معاناة شرائح واسعة من هؤلاء اللاجئين والنازحين، فتذكر أن حوالى ١٣٥ ألفا منهم لا يزالون يقطنون المخيمات المؤقتة والمبانى غير المكتملة وعربات القطارات القديمة المتهالكة.

وتتحدث تلك التقارير أيضا عن الظروف المعيشية لهؤلاء وكيف أن تلك الملاجئ لا تحميهم من هطل المطر وبرودة الطقس، والانتشار الكبير لأمراض سوء التغذية لا سيما بين الأطفال منهم فضلا عن قلة الخدمات التعليمية والصحية المقدمة لهم والبطالة السائدة فى أوساط الغالبية منهم.

أما خسائر الأرمن من القتلى فهى غير معروفة على وجه الدقة لكن أعداد النازحين جراء حرب ١٩٩٢- ١٩٩٤ تقدر بنحو ٣٠٠ ألف نازح، جلهم جاء من مناطق كانوا يسكنونها داخل أذربيجان.

ويعانى هؤلاء النازحون مثل نظرائهم الأذر من قسوة الظروف التى يعيشون فى ظلها وما يصاحبها من مظاهر الفقر والبطالة ونقص الخدمات التعليمية والصحية.

وتتحدث تقارير المنظمات الدولية عن التسرب من التعليم وانتشار لبعض الأمراض لا سيما المتعلقة منها بقلة الطعام ورداءة نوعيته وغير ذلك مما هو شائع فى حالات اللجوء والنزوح والتشريد والترحال المتزامن مع نقص المساعدات الحكومية والدولية.

كما أن هناك عوائق تحول دون التوصل إلى تسوية للصراع بين أرمينيا وأذربيجان على ناغورنى قره باغ، توجد فى الوقت نفسه محفزات يرى بعض المراقبين أن بالإمكان تعظيمها والبناء عليها للتوصل إلى التسوية المنشودة.

لكن الارتياب وانعدام الثقة وإرث العداء التاريخى بين الأرمن والأذربيجانيين، فضلا عن الدماء التى سالت بين العرقيين على مدى السنوات الطويلة الماضية.

وكذلك فقدان الشعور بالأمن لدى الأذربيجانيين بسبب احتلال الأرمن سبعة من أقاليمهم.

بالإضافة مطالبة أذربيحلن قبل الدخول فى أى مفاوضات باستعادة تلك الأقاليم، وهو شرط ترفضه كل من أرمينيا وقادة قره باغ مما أعاق التوصل إلى تسوية حتى الآن.

رفض الأرمن التنازل عما بين أيديهم من الأرض التى احتلوها فى حرب ١٩٩٢-١٩٩٤، والتى يعتبرونها (استعادة) لأرض تاريخية ذات أغلبية أرمينية، فضلا عن شعورهم بأن أمنهم القومى مهدد إذا فقدوا السيطرة على تلك المناطق، وذلك لإحاطتهم بمن يتعبرونهم أعداء ألداء هما الأذربيجانيون والأتراك.

ورغم كثرة عوائق التوصل إلى حل سلمى فإن هناك عوامل تشكل حوافز يمكن البناء عليها لإيجاد حل لمشكلة هذا النزاع منها أن الإقليم - كما يرى بعض المحللين - ليس إقليما مركزيا محددا للهوية القومية أو التاريخية سواء للأرمينيين أو الأذربيجانيين، فهو مجرد إقليم وهناك أقاليم ومدن أخرى فى الدولتين لها جذور تاريخية وحضارية أكثر عمقا وتأثيرا منه، وبالتالى يسهل التوصل إلى نوع من التسوية تقوم على التنازل عن بعض الأراضى هنا أو هناك.

محللون آخرون يخالفون هذا الطرح وينظرون إلى الإقليم على أنه مركزى فى الهوية الأرمينية كما أن له وزنا استراتيجيا كبيرا.

بالإضافة تضاريس إقليم ناغورنى قره باغ نفسه وما يغلب عليها من طابع جبلى مرتفع كاشف لسهول أذربيجان الشرقية لها تأثير كبير فى منع أذربيجان من شن هجوم عسكرى مباغت مما يجعل الفرصة متاحة للتسوية لأن الحسم العسكرى

بالنسبة لها صعب المنال.

وكذلك الضغوط الاقتصادية ولاجتماعية التى يمثلها استمرار الصراع على كلا الطرفين تحفزهما للإسراع بالتوصل إلى تسوية.

وأرمينيا وأذربيجان من الناحية الرسمية فى حالة حرب رغم توصلهما إلى وقف لإطلاق النار عام ١٩٩٤ فى أعقاب الصراع على ناغورنى قره باغ. وعلى مدى ١٤ عاما تغيرت أوضاع واستجدت أمور دفعت البعض إلى التفاؤل بقرب حل النزاع والتوصل إلى تسوية سلمية.

لكن دواعى التفاؤل وسيناريوهات الحل الكثيرة المعروضة تقف أمامها عراقيل ليست هينة.

فالثروة النفطية لأذربيجان جعلت هذا البلد فى بعض الأحيان يشعر بأنه أقل حماسا للوصول إلى تسوية، بل إن هناك من المحللين من يرى أن أذربيجان يمكن لها أن تستخدم عوائد النفط فى شراء أسلحة تحسم بها الصراع وتستعيد أراضيها المحتلة عسكريا.

فى حين أن خطوط الأنابيب التى تمر عبر القوقاز يمكن أن تصبح (رهينة) فى أيدى الأرمن يمكنهم أن يوجهوها حسب مآربهم الخاصة، إذ يستطيعون استغلال خطوط أنابيب النفط للضغط على الأطراف الإقليمية والدولية فى الصراع للوصول إلى تسوية سياسية لقره باغ لكن بشروط أرمينيا.

أرمينيا تعيش اقتصادا صعباً، كما أن ضعف أداء الزعماء السياسيين وفقدانهم الثقة لدى شرائح وقطاعات واسعة من الشعب الأرمنى أدى إلى تصلب موقف النظام السياسى الرسمى تجاه نزاع قره باغ ، إذ أضحى هذا النزاع ورقة رابحة بيده يستغلها لإهاجة المشاعر القومية ويستغلها لزيادة شعبيته المتآكلة.

أما النظام السياسى فى أذربيجان فإن نحو ٢٠٪ من أراضيه محتلة وهو يواجه شعورا لدى قطاعات واسعة من الشعب الأذرى بالخوف من احتمال إمكانية تفكك دولتهم وأن هذا التفكك يبدأ بضياع قره باغ والأقاليم الستة الأخرى.

وبالتالى فهم يوقنون بأن مستقبل وحدة أراضيهم يكمن فى القرار الملائم المتعلق بنزاع ناغورنى قره باغ ومن هنا يواجه النظام الأذربيجانى صعوبة فى القبول بأى سيناريو من سيناريوهات التسوية المعروضة التى قد لا ترقى لتلبية رغبات شعبه وتهدئة مخاوفه.

ويمثل غياب الضمانات الأمنية المقدمة للأرمن والمطروحة على مائدة التفاوض إحدى مشكلات السلام. ومما يعقد هذه المشكلة سيطرة الأرمن على ٢٠٪ من أرض الأذربيجانيين مما يجعلهم غير مهتمين حاليا بالحصول على ضمانات لأن هذه الأراضى المحتلة بالنسبة لهم هى خير ضمان.

وهناك حلول كثيرة وسيناريوهات متعددة لحل مشكلة ناغورنى قره باغ، كان أهمها وأبرزها ما يعرف بخطة منسك وهى الخطة التى عرضتها مجموعة منسك التابعة لمنظمة الأمن والتعاون فى أوروبا، والخطة الأميركية لحل الصراع.

فى خطة منسك يتعين على الأطراف الثلاثة أرمينيا وأذربيجان وناغورنى قره باغ الاتفاق على ضرورة الاعتراف بوحدة أراضى أذربيجان مقرونا بنظام حكم ذاتى لقره باغ من قبل الأرمن المحليين.

أما سيناريو البروج للحل والخروج من الأزمة:

قدمت الولايات المتحدة سيناريو لحل الصراع فيتأسس على أن تعترف جمهورية أذربيجان باستقلال إقليم قره باغ وتتعامل معه على أنه دولة مستقلة ذات سيادة، وتؤول السيادة المطلقة على ممر لاتشين إلى أرمينيا وينتهى النزاع حوله ويتوقف القول بأنه أرض محتلة من قبل الجيش الأرمنى.

وفى مقابل ضياع هذه المساحة من الأراضى الأذرية تعوض أرمينيا أذربيجان بمنحها السيادة على منطقة (مِغْرِى) وهى المنطقة المهمة إستراتيجيا لأذربيجان لأنها تفصل بين أراضيها ومنطقة ناختشيفان الأذرية الواقعة فى قلب الأراضى الأرمينية مع منح أرمينيا حق المرور عبر هذه المنطقة إلى إيران.

ولم يكتب النجاح والقبول لهذه الخطة حيث شعرت أرمينيا بأن وصل ناختشيفان

بأذربيجان سيحول بينها وبين إيران وبالتالى ستخسر أرمينيا الممر الوحيد والمنفذ الحيوى لها للفكاك من سيطرة أذربيجان- تركيا فضلا عن ذلك فإن منح أذربيجان منطقة مغرى ومنح الأرمن حق المرور عبرها إلى إيران غير كاف بالنسبة لأرمينيا، لأن منطقة مغرى ستخضع فى النهاية إلى سيطرة وتحكم الأذر. كذلك لم يكتب النجاح لهذه الخطة لأنها من وجهة نظر أرمينية منحت أذربيجان أراضى كانت بحوزة أرمينيا ولم تحصل فى المقابل على ما يغريها بالتنازل.

لكن هذه التصورات لم يكتب لها النجاح حتى الآن نظرا للتعقيدات والمحاذير السابقة وتداخل وتشابك المصالح الإقليمية والدولية، ولا يزال هذا الصراع الطويل بين أرمينيا وأذربيجان على ناغورنى قره باغ ينتظر نهاية قد تكون غير سعيدة لكل الأطراف أو لبعضها مع اقتراب الساعة فى عصر المهدى.. والله أعلم.



4

الأقليات قنبلة موقوتة

- الأقليات الدينية والعرقية سلاح خطير يستخدمه الكبار أصحاب البروج.
- إمكانية حل مشكلات الأقليات بالطرق السلمية أمراً ممكناً.
- خطورة التدخل الخارجي لحل مشاكل الأقليات على الأمن والسلم العالمي.

الأقليات العرقية أو الدينية فى العالم قنابل موقوتة يستفيد منها أصحاب البروج فى صراعاتهم الدولية

لاشك أن الأقلية فى أى مكان تتبع الأغلبية، حسب قواعد اللعبة الديمقراطية، أما فى المجتمعات الدولية فكل جماعة أو طائفة فى أى دولة تحافظ على وضعها وتقاليدها ودينها خاصة ولو كانت تلك الأقلية أقلية عرقية كما هو حادث فى وضع الأكراد فى العراق وسوريا وتركيا وإيران.

ومشاكل الأقليات فى كل البلاد مسكوت عنها إلا حين ترى الدول الكبرى أصحاب البروج إثارة المشاكل لدولة معينة.

أما الأقليات الدينية فمشاكلهم يتم حلها بإعطائهم كافة الحقوق فى ممارسة شعائرهم الدينية ومعاملتهم معاملة المواطن من الدرجة الأولى حيث تشكو تلك الأقليات الدينية من عدم المساواة كما هو حال كل الأقليات بوجه عام، فكل ما تسعى إليه الأقليات الدينية المساواة والمواطنة.

أما الأقليات العرقية فهى تسعى إلى الانقسام والاستقلال عن الوطن الأم كما هو حال الأكراد فى العراق وتركيا ورغبتهم فى تكوين دولة لهم تجمع العرق الكردى فى العراق وسوريا وتركيا وإيران رغم كون الأكراد مسلمين وتلك الدول تدين بالإسلام ورغم حصولهم على الحكم الذاتى منذ زمن بعيد فى العراق.

ومن الملفت للنظر أن موضوع الأقليات من الموضوعات المسكوت عنها فى كل الدول المتواجد بها تلك الأقليات حيث تحوطه الدول بقدر كبير من التحفظ.

إن وجود الأقليات فى المنطقة العربية هو حقيقة قديمة، أولاً بسبب اتساع رقعة المنطقة واتصالها بحواف عوالم مختلفة (آسيا وأفريقيا وأجزاء من أوروبا) من جهة، ومن جهة أخرى قدم السكنى فى المنطقة العربية وتعرضها لهجرات متنوعة على مر

السنين. فمنذ قدم التاريخ سكنت هذه المنطقة أقوام عديدة، اندثر بعضها وبعضها اندمج وانصهر مع غيره مولداً أقواماً جديدة.

وولّدت الإمبراطورية الإسلامية نفسها عدداً كبيراً من الطوائف الدينية، كما أغرت عدداً من الأجناس بالإقامة فى المنطقة أو جلبهم عنوة إليها.

لكن على عكس الدولة فى الغرب التى نجحت (بعد حروب وتطاحن على مدى قرون) فى التحول إلى دولة قومية، صهرت الأجناس والطوائف بداخلها، فإن الدولة العربية التى لم تر النور إلا حديثاً، لم يتسن لها ذلك، وحافظت على طابعها الفسيفسائى.

وما إن انبلجت مرحلة الاستقلال الوطنى، وبداية تشكل الدولة الوطنية حتى انتقلت إليها مجموعة الأقليات، ككتل اجتماعية بامتداداتها التاريخية والثقافية.

ولما كانت الدولة العربية الحديثة، ولما كان الواقع العربى نفسه يقوم على أسس قبلية وطائفية ومناطقية، سواء على مستوى أنظمة الحكم أو توزيع القوة والنفوذ داخل المجتمع، فإنه من الطبيعى أن تشعر الأقليات بالحاجة إلى حماية نفسها وتأمين مصادر قوتها الخاصة.

ومن الطبيعى أن تبدأ فى التفتيش عن حلول لمشكلتها، شأنها فى ذلك شأن باقى أطراف المجتمع المحرومة.

وليس من باب الصدف أبداً أن نرى فى الكثير من فترات التاريخ السياسى العربى أن أبناء الأقليات ينخرطون بكثافة فى الحركات المعارضة، أو ينشأ تحالف طبيعى بين هذه الأقليات (ككتل اجتماعية) مع القبائل أو الطوائف أو القوميات أو أبناء المناطق المستبعدة من الحكم والحقوق.

لقد اعترفت الدولة العربية عموماً بالوجود الاجتماعى للأقليات على أراضيها، مثلما اعترفت بهم إلى حد ما على صعيد التاريخ، لكنها رفضت الاعتراف بهم سياسيا وثقافيا.

أسباب عدم الاعتراف

يرى كثير من الحكومات العربية أن الاعتراف السياسى بالأقليات وما يترتب عليه من حقوق وواجبات، يستهدف تقسيم الدولة والمجتمع، كما يعرضها إلى مطالبات قد تمس سيادتها، مثل الحكم الذاتى وتقرير المصير وما شابه.

ولهذا السبب تم وضع مشكلة الأقليات فى مصاف القضايا المصيرية، وفى إطار مواجهة الاستعمار والقوى الخارجية، ونظر إليها كمحاولة من جانب هذه القوى للنيل من هذه الدولة أو تلك.

بيد أن الجهود الكبيرة التى بذلتها الدولة العربية فى هذا المجال، لم تحل مع ذلك دون تفجر قضية الأقليات بين حين وآخر.

كما أن النقاش حولها وإن لم يظهر على السطح فإنه لم يتلاش.

وكان من نتائج عدم الاعتراف بالمشكلة أن تم إبعادها لعقود عن أى إمكانية للحل بصورة حقيقية وجادة، ومن ثم دفعها إلى اتخاذ أشكال سياسية ومجتمعية أكثر تعقيداً.

فمن المعلوم أنه لا تخلو دولة فى العالم من الأقليات.

ولكن مفهوم الأقليات فى ظل مشاريع تفكيك الأرض والهوية والشعب بات يحتمل فى بلادنا الكثير من المعانى المتناسلة، وكأن الوطن كله قد أمسى حيزاً لتداخل أقليات بلا هوية جامعة، يطغى فيها الخاص دوماً على العام.

والأقلية بالأساس إما أقلية عددية كبعض المجموعات العرقية أو الدينية كالأفارقة الأمريكيين أو الكاثوليك فى الولايات المتحدة مثلاً، وإما أنها أقلية بحكم وضعها الاجتماعى أو السياسى أو الاقتصادى المهمش بفعل طغيان الأغلبية المهيمنة.

ولذلك، تعتبر المرأة فى الغرب مثلاً أقلية مع أنها أكثر قليلاً من نصف المجتمع.

وسواء اعتمدنا مقياس الأقلية العددية أو مقياس التهميش، فإننا يمكن أن نشتق عدداً لا نهائياً من الأقليات عملياً من أية مجموعة تعتقد بأن لديها قضايا مشتركة

تميزها عن غيرها. فالطلاب بهذا المعنى أقلية، وكذلك المتقاعدون ومن يزاولون أية مهنة من المهن يبقون أقلية فى المجتمع.

وفى الغرب يعتبر المثليون جنسيّاً أقلية، وكذلك يعتبر المعاقون حركيّاً أو ذهنيّاً، وهناك أقليات اقتصادية مثل العاطلين عن العمل أو الفقراء من العمال هذا بالإضافة للأقليات العرقية والدينية كما ذكرنا من قبل.

وينشط اليهود فى أمريكا بالترويج لاستنساخ الأقليات من كافة الأنواع فى مواجهة شريحة اجتماعية محددة تُقدَّم بأنها المالك الفعلى لمفاتيح الثروة والسلطة: فئة الرجال البيض البروتستانت ذوى الأصل الأنجلوساكسونى من الفئة العمرية المتوسطة (أى لا شباب ولا عجزة ولا نساء ولا أقليات عرقية أو دينية أو اقتصادية)، ويعتبر أغنياء هذه الفئة وممثلوها السياسيون ومثقفوها هدفاً مفضلاً لنقمة الأقليات الحقيقية والمفبركة ووسائل الإعلام والترفيه المسيطر عليها يهوديّاً.

ويفيد هذا النمط من تهجين وتناسل الوعى الأقلوى إلى ما لا نهاية فى تفكيك وحدة الأكثرية وتحقيق أفضل الشروط لهيمنة النخبة الحاكمة على الشعب، وبالأخص، لتعزيز وضع اليهود ككتلة متماسكة فى المجتمع الأمريكى إزاء الشرائح الأخرى من النخبة الحاكمة الأمريكية.

وهو ما خلق ردود فعل عنيفة ضد اليهود فى أمريكا من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، خاصة أنه ترافق مع نزعة العولمة لتفكيك السيادة الوطنية والهوية القومية.

ولكن إن كان هذا النوع من تفكيك الأغلبية فى المجتمع الأمريكى على أسس عرقية وغير عرقية مفيداً لليهود، كأقلية امتيازات تتصرف بوعى مصلحتها المنفصلة عن المجتمع، أو مفيداً فى تعزيز سيطرة رأس المال المالى على المجتمع إذ تحيرك مؤسساته بسخاء تبرعاتها لقضايا (الأقليات).

فمن المستفيد يا ترى من تفكيك مجتمع مثل المجتمع العربى لم يحقق وحدته السياسية بعد كالأمة الأمريكية، وما برح لم يبلور حتى الآن وعياً قومياً متماسكاً كالوعى القومى عند الشعب الأمريكى؟!

ففى الوقت الذى تُفتعل فيه الأقليات افتعالاً كل يوم فى المجتمع العربى، يصر بعض الناشطين السياسيين والمنظمات غير الحكومية الممولة أجنبيا بأن التركيز على المطالب العملية واليومية (للأقليات) يمثل (برنامج عمل ملموس ومباشر) مقابل (البرامج الشعاراتية العمومية الجوفاء) للتغيير السياسى والاجتماعى الشامل.

ولا ينفى ما سبق أن هناك أقليات حقيقية فى الوطن العربى ذات مطالب وقضايا عادلة، ولكن ما يجرى اليوم لا يتعلق بحقوق أقليات، بل بمشروع حقيقى للتفكيك، وتقسيم الدول العربية إلى دويلات يسهل القضاء عليها فى أى وقت، فيتم تقسيم السودان إلى ثلاث دول شمال وجنوب وشرق ومصر إلى دولتين احدهما مسلمة والأخرى مسيحية والعراق إلى ثلاث دول كردية وسنية وشيعية وهكذا.

ومن هنا نجد إن حقوق الأقليات شىء، والاستقواء على الأمة بقوى الهيمنة الخارجية شىء آخر مختلف تماماً.

ومن حق الأقلية على الأغلبية أن تتمتع بحقوق مواطنة كاملة، ومن حق الأغلبية على الأقلية أن لا تمد يدها أبداً للخارج أو لأعداء الأمة.

لكن إن الأساس هو الانتماء والولاء للأمة وللهوية العربية-الإسلامية.

وتشمل العروبة غير المسلمين، ويشمل الإسلام غير العرب.

كما تشمل الثقافة الإسلامية كل العرب مسلمين وغير مسلمين، والثقافة الإسلامية وعاء للجميع، وهى تختلف بالتعريف عن مشاريع الإسلام السياسى.

مع أن إزالة الظلم عن الأقليات، حيثما وجد، كما يجب إزالة الظلم والاحتلال والتخلف الواقع على كاهل الأغلبية، ولا تحرر للأقليات فى المجتمعات المسحوقة، فعليها أن تعمل مع الأغلبية من أجل القضية المشتركة إن أرادت أن تنال حقوقها فعلاً.

أما الضغط على الحكومات الوطنية من قبل الأقليات الدينية خاصة للحصول على مكاسب معينة فى ظل ظروف معينة وادعاء وجود اضطهاد واقع عليهم فهو أمر خطير لكلا الطرفين الأقلية والأغلبية، ولذلك كان لازما على الأقليات الدينية المشاركة مع

قوى المعارضة الوطنية لتحقيق مطالب عامة.

فإن الأمور السياسية لا تستقر دوما وهى متغيرة على الساحة الدولية مما يجعل تحقيق المستحيل ممكناً كما حدث حيث تفكك المعسكر الشيوعى الشرقى عقب انهيار الاتحاد السوفيتى.

فقد كان حتى نهاية عقد الثمانينيات لم يكن ينظر لمشاكل الأقليات بصورة منفصلة عن أية مشكلة داخلية أخرى تخص هذه الدولة أو تلك. لكن انهيار الاتحاد السوفييتى السابق وبروز قضايا الأقليات إلى السطح، سواء فى جمهوريات هذا الاتحاد (أرمينيا، أذربيجان، الشيشان، جورجيا) أو تلك التى تدور فى فلكه (جمهورية يوغسلافيا السابقة) دفع المجتمع الدولى إلى التفكير بجدية فى وضع حلول لهذه القضية وإن كان تفكيك تلك الدول أمراً مقدراً له من جانب المعسكر الأمريكى الغربى الذى يسعى إلى تحقيق ذلك فى العالم الإسلامى.

وتقوم هذه حلول مشاكل الأقليات على أساس الحق الطبيعى للأقليات فى المطالبة بحقوقها التى تكفلها لها القوانين والمواثيق الدولية، مع الرفض غير المشروط لاستخدام القوة أو التلويح بها ضد هذه الأقليات.

وفى جميع هذه الحالات اعتماد الحوار والتفاهم لغة وحيدة فى التعامل.

وعلى إثر الحلول التى طبقت فى يوغسلافيا السابقة، تشجعت بعض الأقليات فى العالم (تيمور الشرقية مثلاً) على المطالبة بحق تقرير المصير.

وهكذا أصبح اليوم ثمة إرث سياسى وقانونى وعسكرى للتعامل مع هذه القضايا، ليس من السهل التشكيك فيه أو اختراقه.

ومن هنا باتت قضية الأقليات فى العالم العربى ترتدى أهمية جديدة، بالنظر إلى أن المجتمع الدولى بات يتفهم بصورة أكثر جدية مطالب ومشاكل الأقليات ويرفض استخدام القوة ضدها من جانب الدول المسيطرة.

وزادت الولايات المتحدة فى النيران، بحيث تكفلت بإجراء تقييمات خاصة بها، على نحو ما يدل على ذلك «تقرير الحالة الدينية» فى العالم، الذى اقترحته إدارة الرئيس

الأمريكى السابق بيل كلينتون ووافق عليه بحماس مجلس الكونغرس الأمريكى الذى دعا إلى تقسيم تلك الدول إلى دويلات على أسس عرقية ودينية.

وبات هذا التقرير يرصد جميع الحالات فى العالم، التى تتدرج أو يمكن أن تتدرج فى إطار الاضطهاد الدينى وحرمان الأقليات من حقوقها الدينية والمجتمعية.

ويتوقع أن يجرى التوسع مستقبلاً فى هذا التقييم، وربما تم تبنيه من جانب الأمم المتحدة كأحد المعايير التى تحدد مدى أحقية النظر فى هذه القضية أو تلك.

ولهذا وجب على تلك الدول الإسلامية السعى حثيثاً لحل مشاكل الأقليات بالطرق الودية بالحوار والديمقراطية حتى لايحدث لها ما حدث للمعسكر الشرقى والشيوعى عقب انهيار الاتحاد السوفيتى الذى كان من وراثة أصحاب البروج.



التدخل الخارجى لحل مشاكل الأقليات وخطورة ذلك على الأمن والسلام العالمى

الصراعات الأقليمية والعرقية تزداد فى السنوات الأخيرة وتشتعل لا سيما فى الدول التى تلعب فيها العصبية القبلية دوراً هاما كما حادث فى أفريقيا وآسيا ودول القوقاز.

والتغيرات الدولية منذ نهاية الثمانينيات شجعت الدول الاستعمارية الجديدة لها، وقد لعبت الصهيونية العالمية دوراً خفيا بإمداد الأطراف المتنازعة بالسلاح وهو أمر معروف لدى الخاصة والعامة.

وخلقت تلك الصراعات حروباً أهلية وانفصالية دموية ما زالت مستمرة منذ التسيعنيات من القرن الماضى فى بلاد عديدة مثل البوسنة والشيشان وكشمير وتيمور الشرقية وجنوب السودان وغيرها الكثير.

وإذا كانت التحولات العالمية الراهنة قد مارست تأثيراتها على العالم الإسلامى فى المجال الاقتصادى، والعسكرى، والسياسى، والثقافى، والحضارى، على نحو يفرض تحديات هامة؛ فإن مجال إدارة الصراعات الإقليمية والصراعات الأهلية قد تأثر بوضوح، وذلك نتيجة التغير فى مصادر الصراعات وفى أنماط التدخل الخارجى فيها.

فقد أضحى النمط السائد هو التدخلات الجماعية الدولية، بمبادرة وقيادة أمريكية وتحت إطار الشرعية الدولية (الأمم المتحدة) أو تحت أطر أخرى (حلف الأطلنطى) ولقد اقترن دائما هذا النمط بمبررات أساسية وهى: التدخل لحماية حقوق الإنسان، التدخل لاعتبارات إنسانية، التدخل لحماية القيم التى يدافع عنها الغرب، التدخل لحماية حق تقرير المصير، التدخل لتخفيف عواقب الحروب على الشعوب.

وإذا كانت الأداة العسكرية أداة أساسية فى تحقيق أهداف هذه التدخلات إلا أنها استخدمت بدرجات مختلفة، كما وظفت إلى جانبها أدوات أخرى اقتصادية ودبلوماسية.

وإذا كان تدشين هذه الموجة من التدخلات فى بداية التسعينيات قد فجر جدالا سياسيا وفكريا حول الدوافع والمبررات، وحول العواقب وخاصة على سيادة الدول، فإن تكرار هذه التدخلات قد أفسح السبيل للمقارنة على نحو يساعد فى استخلاص بعض التعليمات و الدلالات حول آثار هذه التدخلات على مصير الدول والشعوب المسلمة.

إن التاريخ القديم يوضح لنا أن مصير هذه المناطق وهذه الشعوب قد سبق وتشكل خلال مرحلة تدهور القوى الإسلامية المعينة تحت تأثير تدخلات القوى الكبرى وتنافساتها، فخلال تصفية الحكم العثمانى من البلقان ومع تسويات الحربين العالميتين تحدد مصير البوسنة وكوسوفا فى القرن العشرين.

وها هو يتشكل من جديد مع تغير التوازن العالمى، كذلك تشكل مصير القوقاز وآسيا الوسطى منذ منتصف القرن ١٩ بعد فشل روسيا القيصرية فى سياسة التوجه غربيا للمشاركة فى اقتسام الإرث العثمانى الأوربى.

ومن ثم فإن ما يحدث من تغيرات خلال نهاية القرن العشرين إنما يرتهن ويتوقف على حالة توازن القوى العالمية الجديدة الجارى تشكيله، وعلى وضع (العالم الإسلامى) فى مخططات هذه القوى واستراتيجياتها.

واستدعاء تفاصيل كل حالة ووقائعها الخاصة بتطورات الصراع وبأدوات إدارته من جانب القوى الخارجية ونتائجه، ثم تقييمها على ضوء معيار أساسى. يرتهن بقواعد لعبة المصالح الكبرى وليس القيم الكبرى.

ومن هنا كان تكرار الحديث عما يسمى المعايير المزدوجة، أم هل هناك اختلاف فى تكييف الحالات: حرب أهلية، حرب إقليمية، شأن داخلى، تهديد للأمن والسلام الدوليين، انتهاك للشرعية الدولية.. يترتب عليه اختلاف الاستجابات؛ وخاصة من

حيث الأدوات المستخدمة، ومن حيث الغاية من التدخل.

فمثلا فى حالة الحرب فى البوسنة بالرغم من وضوح العدوان الصربى ووحشيته وسعيه لتغير الأمر الواقع فإن التدخل الدولى فى إطار الأمم المتحدة استند إلى أدوات اقتصادية وسياسية، ولم يصل توظيف الأداة العسكرية إلى ما كان مفترضا فيه من حيث الحجم والسرعة.

فقد اقتصرت القوات الدولية على علاج عواقب الحرب وليس وقفها، ولم يتصاعد توظيف الأداة العسكرية الذى شارك فيه حلف الأطلنطى إلا ببطء شديد (حصار جوى، مناطق آمنة) فى وقت فرضت القوة العسكرية الصربية الغاشمة الأمر الواقع على أرض البوسنة لتقسيمها، وذلك أمام أنظار مراقبة القوى الكبرى إبادة شعب البوسنة وتقسيم أرضه.

ومن ثم فإن اتفاقية دايتون - التى ساهمت فى التحرك نحوها ضربات حلف الأطلنطى لمواقع صربية محددة - لم تكن إلا تكريسا لهذا الواقع الجديد الذى فرضته القوة. وليظهر حلا قسريا جديدا فى نهاية القرن العشرين.

ومن ناحية أخرى وإذا كان التدخل العسكرى الكثيف فى كوسوفا (فى إطار حلف الأطلنطى) لم يتأخر كما حدث فى البوسنة إلا أنه جاء على النحو الذى تفاقمت معه مأساة شعب كوسوفا الذى عايش - خلال شهور الضربات العسكرية - أكبر عملية تهجير شهدها القرن العشرون.

وفى المقابل كانت هذه الضربات ضرورة لتحقيق أهداف استراتيجية حيوية للحلف فى جنوب شرق أوربا، وذلك فى نفس الحلف فى جنوب شرق أوربا، وذلك فى نفس الوقت الذى دشنت فيه هذه الضربات الطريق أمام حل قسرى جديد لمشكلة كوسوفا لا يستقيم مع أهداف شعبها فى التحرير والاستقلال.

أما الموقف تجاه حرب الشيشان (٩٤ - ٩٥) - ثم الحرب الآن فى الداغستان والشيشان من جديد - فلم تتعد (فى مواجهة الاستخدام الروسى العنيف للقوة العسكرية فى تدمير جروزنى ١٩٩٤م، وفى تدمير قواعد مجاهدى داغستان فى

الشيشان ١٩٩٩م) الإدانة الشفوية الواهية لانتهاك روسيا لحقوق الإنسان، ولم تمتد إلى أى نوع من العقوبات أو الضغوط الاقتصادية أو الضغوط السياسية الظاهرة من أجل التفاوض.

وحين اندلعت أزمة كشمير الأخيرة فى صيف ١٩٩٩م فى ظل تداعيات توازن القوى العسكرية الجديدة بين الهند وباكستان عقب تفجيراتهما النووية فى صيف ١٩٩٨م ثارت التساؤلات حول أهداف باكستان تجاه التدويل الفعلى للقضية وحول مآل الجولة الراهنة من جهاد مقاتلى كشمير.

ولذا فإن ردود الفعل السلبية فى داخل باكستان تجاه اتفاق واشنطن بين نواز شريف والولايات المتحدة ليبين آثار الضغوط الاقتصادية والسياسية التى تعرضت لها باكستان.

أما بالنسبة لأكراد تركيا فإن مطالبهم الاستقلالية ترجع إلى عقود سابقة، إلا أن الوضع الراهن الذى أحاط بالقضية بسبب تفجر أزمة عبد الله أوجلان - زعيم الأكراد - وحتى القبض عليه ومحاكمته قد أفصح عن أبعاد مواقف القوى الكبرى تجاه القضية الكردية فى تركيا.

فإن هذه المواقف - وخاصة الأوربية الجماعية - قد وظفت القضية الكردية كذريعة لعدم قبول عضوية تركيا فى الاتحاد الأوربى، ولكن لم يتم اللجوء إلى الضغط على تركيا بورقة حقوق الإنسان وتداعيات انتهاكها للوصول إلى حلول تفاوضية تحفظ لأكراد تركيا حقوقهم الذاتية، بل إن تركيا أضحت خلال العقد الحالى حصان طروادة الغربى فى الشرق الأوسط وفى آسيا الوسطى والقوقاز.

وفى نفس الوقت يستمر توظيف ورقة أكراد العراق، وما تحمله من تهديد لوحدة أراضى العراق فى عملية المواجهة المستمرة مع النظام العراقى منذ ١٩٩١م.

وأما جنوب السودان فالمواجهة بين النظام السياسى فى السودان وبين القوى الغربية مستمرة. واتخذ التدخل فى شؤون السودان شكل الحصار والعقوبات وشكل توظيف ورقة انفصال الجنوب والحرب الأهلية فيه وشبكة التوازنات الإقليمية من حوله.

ولطالما ارتفعت مؤخرا التقارير المهددة بالتدخل العسكرى الدولى لوقف انتهاكات حقوق الإنسان فى جنوب السودان، وخاصة بعد ظهور مشكلة دارفور واحالة الرئيس السودانى البشير للمحاكمة الدولية.

أما تيمور الشرقية فقد تزامن تفجرها مع تداعيات الأزمة المالية فى جنوب شرق آسيا على الكيان الإندونيسى برمته وعلى النظام الاقتصادى، والنظام السياسى ووحدة أراضيه والسلام بين طوائفه.

وكان القبول بإجراء الاستفتاء على الحكم الذاتى أو الاستقلال، ثم إعلان القبول بنتائج الاستفتاء وقبول التدخل الدولى العسكرى (فى إطار الأمم المتحدة وبقيادة استرالية) لوقف دائرة العنف التى تفاقمت واشتدت، بعد أن جاءت نتيجة الاستفتاء المطالبة بالاستقلال، كل ذلك يعطى مؤشرات واضحة عن ماهية الضغوط الاقتصادية والسياسية التى واجهتها إندونيسيا حتى ترضخ وتقبل بانفصال الإقليم عنها.

إن الحروب والأزمات المشار إليها تتصل بشعوب أو دولة مسلمة، وفى حين تقود القوى الكبرى الغربية الاستجابات تجاهها فإن الدول الإسلامية فى صورة فردية وخاصة الكبرى منها أو فى صورة جماعية (منظمة المؤتمر الإسلامى) تكتفى بالأدوار الثانوية المكملة فى بعض الحالات، أو تلتزم الصمت وعدم الحركةفى مواجهة حالات أخرى تحيط بها التحذيرات بعدم تدخل الدول الإسلامية.

إن قراءة كل ما سبق قد تقود البعض إلى القول: هل هذا خطاب يتغلف بدوره برداء المعايير المدوجة؟ هل يقبل استقلال أو انفصال أقليات مسلمة عن دول غير مسلمة، ويرفض استقلال أقلية غير مسلمة عن دول مسلمة، أو أقلية مسلمة عن دولة مسلمة ذات أغلبية قومية مختلفة؟

قد تقود هذه القراءة البعض الآخر إلى القول هل هو خطاب يسعى للتنبيه إلى عدم إطلاق مقولة التدخلات الدولية لاعتبارات إنسانية وقيمية؟ وقد تقود فريقا ثالثا إلى البحث فى واعد وأسس الأصول الإسلامية، وخبرة ممارسات التاريخ الإسلامى واجتهادات فقهاء الأمة ومفكريها حول وضع الأقليات المسلمة وحول وضع غير

المسلمين فى الدول المسلمة للوصول إلى اجتهاد فقهى معاصر للواقع الحالى.

أثناء القرن الماضى، أنشأت القوى الإمبراطورية معظم الدول العربية وعينت حدودها، بالشكل الذى نعرفها فيه اليوم، وكان ذلك أحياناً بشكل جائر تماماً.

كان على الحكومات العربية التالية أن تشتبك مع المشاكل الناجمة عن هذا الوضع، وأن تحاول صياغة الجماعات القبلية والعرقية والدينية المتعددة فى أمة.

هذا الميراث الاستعمارى، بالرغم من تفاوت طبيعة ومدى المشكلة من بلد إلى بلد، هو واحد من العقبات الكبيرة أمام مقرطة المنطقة ككل، وهو السبب الكبير الذى سيكون وراء انتهاء السياسة الأمريكية فى العراق على الأرجح إلى كارثة.

فالأقليات فى العالم العربى تتضمن: الآشوريين، الأرمن، الأقباط، الأكراد، البربر، التركمان، الصحراويين، الطوارق، العبيديين، الكلدان، المارونيين، اليهود - وهى على أية حال قائمة مجهدة. من الصعب العثور على أرقام يعتد بها لتعداد هؤلاء الناس، رغم أن اكبرهم، البربر والأكراد، يصل تعدادهما إلى عشرات الملايين.

وانعدام البيانات الرسمية موحى فى حد ذاته، بأن الحكومات العربية تقلل من شأن وجود الأقليات من اجل التأكيد على وحدة بلدها القومية.

وبينما يميل الأمر إلى انعدام الثقة فى الأقليات بجميع الأنحاء أو خشية جانبهم أو حتى يبلغ الكراهية، ولكنهم ليسوا دائما مهمشين، ففى بعض البلاد العربية قد تسيطر أقلية على الباقين: يعطى سببا آخر، للمدى الذى تهتم به السلطات، للتقليل من شأن القضية كلما جاء ذكر لها فالتعتيم من وجهة نظر الحكومات يصب فى مصلحتها ولا يفيد تلك الأقليات.

وفى حالة الإقرار بوجود الأقليات، ونادراً ما يتم لا يناقش علناً، ويعلن حينئذ فقط كيف أن الجميع يؤلف بينهم شعور واحد وأنهم على أحسن ما يكون من انسجام ولا بأس أن يتعانق الرموز وتبقى الفتنة متقدة تحت الرماد..

اهتمام الحكومات العربية بالوحدة الوطنية قابل للفهم إذا ما أخذنا فى اعتبارنا

تاريخ المنطقة والطريقة التى أقيمت بها عديد من دولها بواسطة القوى الخارجية، ولكن بدلا من مخاطبة قضية الأقليات بطريقة سليمة، تحاول السلطات فى أغلب الأوقات أن تضع الغطاء عليها من خلال تدابير أمنية مشددة. وقد ينجح هذا الأسلوب لبعض الوقت، ويمكنه حتى النجاح لوقت طويل، ولكنها فى النهاية طريقة مقضى عليه بالفشل.

عندما تبدأ إحدى البلاد فى التحرك نحو الديمقراطية يصبح حل القضية مطلوبا على وجه سريع. فالمسائل التى تثار حينئذ تكون هى:

كيف تحافظ على الوحدة الوطنية دون فرضها بالقوة على أقليات قد أعطيت الحرية فى التعبير وفى تنظيم نفسها.

كيف تضمن أن الأحزاب السياسية تتطور بشكل يعكس الاختلافات على مستوى السياسة وليست الانقسامات العرقية والدينية والإقليمية.

كيف تبنى نظاما سياسيا يسمح بسيادة إرادة الأغلبية بينما يحمى فى نفس الوقت حقوق الأقليات.

فى كثير من الدول العربية، مفهوم الوحدة الوطنية يختلط مع مفهوم النمطية، ويأتى من هنا قمع الاختلافات أو التظاهر بعدم وجودها.

إلا أن الوحدة الوطنية الحقيقية لا تعتمد على نمطية صنع الإيمان.

إنها تتحقق من خلال الانفتاح - منع التمييز ضد الأقليات فى المقام الأول وأيضا من خلال ضمان دور متناسب لهم، غير خاضع ولا مستبد، على كل مستويات الحياة القومية، فى المجال السياسى، والاجتماعى، والاقتصادى.

والطريق للحل يأتى من خلال حوار قومى مفتوح عن قضايا الأقليات، لا يهم كيف يبدو مؤلما حاليا، ثم فرز المشاكل التى تم تعريفها.

الجزء الأصعب هو تناول شكاوى الأقليات بوسائل ترضيهم بدلا من الوسائل التى تشعل مطالب جديدة قد تؤدى بهم فعلا إلى طلب الانفصال.

وهناك أمثلة لدول تكونت من اقليات مختلفة اتحدت وصارت فى بوتقة واحدة مثل الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة - إنجلترا- وعلى سبيل المثال فقد بدأت انجلترا كتجمع لممالك صغيرة وأصبحت بلدا واحدا فى القرن العاشر. اكتمل اتحاد انجلترا بويلز المجاورة عام ١٥٣٦ وجاءت الوحدة مع اسكتلندا فى ١٧٠٧ والتحقت ايرلندا الشمالية بالاتحاد فى ١٩٢١ .

وهكذا فإن اتحاد الأقليات ممكن وسهل بإذن الله إن صلحت النوايا للجميع فالاتحاد قوة.

واليوم يمثل الاسكتلنديون ١٠٪ من سكان بريطانيا بينما يقدر أهالى ويلز بحوالى ٥٪ والايرلنديون ٢٪. وبالرغم من العشرة الطويلة مع انجلترا، حافظت الأقليات الاسكتلندية ومن ويلز ومن الايرلنديين كثير من تقاليدهم الثقافية الطعام والموسيقى والرقصات وهلم جرا وأبقت اسكتلندا على نظامها التشريعى الخاص منفصلا، حتى اليوم.

أجل إن الأمر ممكن ويحتاج لدراسة ونوايا صادقة.

كذلك لدينا اختلافاتنا اللغوية. فى ويلز، يفضل كثير من أهل ويلز الحديث بلغة ويلز عن التحدث بالإنجليزية، ومن هؤلاء بعض من ٣٠ - ٤٠ الفا يتحدثون لغة ويلز فقط. وتستطيع سماع اللغة الغالية فى الاستعمال اليومى فى الأجزاء القصوى من اسكتلندا، بينما تتحدث أعداد ضئيلة فى بريطانيا تتحدث لغات اخرى عتيقة القدم مثل الكورنية والمانكس.

ربما يعتبر الاسكتلنديون وأهالى ويلز والايرلنديون هم أقلياتنا (القديمة)، فى المقابل توجد الأقليات الجديدة التى قدمت إلى بريطانيا منذ الحرب العالمية الثانية، أساسا من الأطراف النائية لإمبراطوريتنا السابقة - الهند، باكستان، أفريقيا، الكاريبى.

احضر هؤلاء الناس تقاليدهم الثقافية الخاصة إلى داخل الخليط الوطنى، وفى حالات كثيرة، أحضروا أديانهم الخاصة، مما نتج عن أن يكون الإسلام هو ثانى اكبر ديانة فى بريطانيا، بما يزيد جيدا عن مليون مسلم.

لقد كان لدى بريطانيا بعض المشاكل مع أقلياتها، بالذات فى ايرلندا الشمالية. قصص النجاح فى ويلز واسكتلندا لا تعرف جيدا فى العالم العربى، ولكن ربما تحمل

هذه القصص دروسا مفيدة، حيث مرت كل من هاتين الأقليتين بمشاعر وطنية نامية منذ الستينيات فصاعدا.

تأججت القضية فى اسكتلندا جزئيا بسبب اكتشاف البترول والغاز على الساحل الاسكتلندى.

وكان ذلك يعنى، فى نظر الوطنيين، أن اسكتلندا تزود الحكومة فى لندن بكميات هائلة من العوائد وتحصل منها بطريقة غير متناسبة على القليل فى المقابل - وهى حجة شائعة بين الأقليات فى أجزاء كثيرة من العالم.

الحل الذى اتخذته بريطانيا كان تحويل بعض سلطات الحكومة المركزية إلى البرلمان الاسكتلندى الذى خلق حديثا، لتسمح باتخاذ القرار محليا فى المسائل المتعلقة باسكتلندا بشكل خاص.

فى ويلز كانت القضية الرئيسية هى اضمحلال اللغة المحلية فى ويلز، التى يراها الكثيرون جزءا مهما من ميراثهم الحضارى.

وتم التصدى لها بزيادة استعمال هذه اللغة فى الأغراض الرسمية: علامات الطرق فى ويلز كتبت بالإنجليزية ولغة ويلز، الإعلانات الحكومية المتعلقة بويلز تصدر باللغتين، وهكذا. فى عام ١٩٩٣، أعلن البرلمان إعطاء لغة ويلز (مكانة مساوية) مع الإنجليزية (بالرغم من أنها ظلت «لغة غير رسمية»).

مثل هذه التدابير وغيرها بدا أنها قد هدأت من الأوضاع بين أهل ويلز وبالتأكيد سحبت البساط من تحت أقدام الحركة القومية هناك.

ففى عام ١٩٩٧، عندما أقامت الحكومة استفتاء على خلق مجلس لويلز، كان الكثير قد فقد الاهتمام. اقر الناخبون فى ويلز المجلس بأغلبية صغيرة جدا بلغت ٥٠,٣٪، ولم يهتم على الأقل نصف الناخبين بالتصويت من الأساس.

فى معظم فترات القرن الماضى، فى معظم الديموقراطيات كانت الأحزاب منقسمة بين اليمين واليسار، طبقا أما إذا كانت تميل نحو الرأسمالية أم نحو الاشتراكية. اليوم فى البلاد العربية، الخطوط السياسية المقسمة عادة ما ترسم الاختلافات

الدينية (كل أشكال الأحزاب، بالأحزاب التى تكتسى بالعلمانية كبديل)، أو العرقية وفى بعض الأحيان، القبلية. وتصبح النتيجة أن التصويت يصير تأكيدا للهوية أكثر من كونه اختيارا عقلانيا بين القادة والسياسات.

وإليك مثلاً من عالمنا العربى فى العصر الحديث انها بلاد اليمن السعيد فقد تشكلت اليمن لسنوات عديدة من دولتين (شمالية وجنوبية) وهما من إنتاج الإمبرياليتين البريطانية والتركية.

عندما اتحدت الدولتان أخيرا فى ١٩٩٠ وبدأت البلاد فى التحول الديمقراطى، ظهر نظام سياسى مكون من حزبين سياسيين تابعين لنفس الانقسام الجغرافى القديم: مؤتمر الشعب العام، الذى يمثل أساسا الشمال، والحزب الاشتراكى، الذى يمثل أساسا الجنوب.

والمشكلة التى صاحبت ذلك هو أن تعداد سكان الجنوب يقترب من ربع سكان الشمال - والنتيجة هى أن الحزب الاشتراكى، مهما حاول، لا يمكن له أن يظفر بأغلبية برلمانية، بينما يضمن حزب الشمال تقريبا الأغلبية مدى الحياة.

ونتيجة لإحباطهم من تلك الحقيقة حاول الاشتراكيون فى ١٩٩٤ إنشاء دولة انفصالية فى الجنوب ونشبت الحرب التى لاقوا فيها هزيمة محققة وانتصر الإتحاد فى نهاية الأمر.

والحالة فى العراق اليوم حالة مماثلة، حيث تقوم مؤسسات تؤطر الانقسامات الدينية والعرقية فى النظام السياسى الجديد.

بجانب الانقسام الشيعى - السنى - الكردى الأساسى، يقوم التركمان والآشوريون بإنشاء أحزابهم الخاصة أيضا.

فور حدوث مثل هذا الأمر من الصعب أن تمنعه من الوجود.

السياق الأفضل أن تخاطب قضايا الأقليات بشكل سليم وتمنع حدتها قبل محاولة المقرطة.

وحماية حقوق الأقليات من إجحاف الأغلبية أمر يتطلب قدرا كبيرا من الإرادة والجهد، المستمرين لفترة طويلة.

قد تكون القوانين المناهضة للتمييز هى البداية (كم من الدول العربية لديها مثل هذه القوانين؟) ولكن يجب أن تصحبها أيضا إجراءات اخرى مثل رفع وعى المسئولين من خلال التدريب وحملات تربية الجمهور.

أول مكان يطبق منه ذلك هو الوظائف الحكومية، الخدمة المدنية، القوات المسلحة، والشرطة، وهكذا.

ففى بريطانيا، على سبيل المثال، لجأت الشرطة إلى ضم أفراد من الأقليات العرقية إلى صفوفها، بالإضافة إلى تطهير صفوفها من الضباط العنصريين.

فى نفس الوقت، تم إعطاء ضباطها دورات تدريبية على التعامل مع قضايا الأقليات بطريقة تراعى الحساسيات. ومن بين أمور أخرى، يتضمن هذا تطوير علاقات طيبة بقيادات مجتمعات الأقليات واستشارتهم بشكل دورى، وليس فقط عندما تنشأ المصاعب.

ويمكن اكتشاف مقاربات مماثلة فى أغلب المواقع الحكومية الأخرى، على كلا المستويين المحلى والقومى. الآن، يدرب الموظفون الجدد بالخارجية، مثلا، على (رفع درايتهم عن الإسلام) متضمنا زيارتهم إلى جامع.

وكذلك فى وزارةالخارجية، التى اعتادت على أن يكون كل موظفيها من البيض، وغالبا رجال من خلفيات اجتماعية نمطية (ميسورين ومن خريجى أكسفورد أو كمبريدج)، بدأت هى الأخرى فى تعيين أناس من جماعات الأقليات.

تطور هام آخر، ساعد على تغيير الشعور العام لدى جمهور أوسع، وهو زيادة مشاهدة أناس من خلفيات عرقية من الأقليات فى وسائل الإعلام، والترفيه والرياضة والتلفزيون أمر هام بشكل خاص فى هذا المقام.

ولا ننسى فى هذا المضمار أن أحداث بومباى الهندية كانت بسبب موضوع كشمير ذلك الإقليم المتنازع عليه بين الهند وباكستان ورغبة الأقلية المسلمة فى الاستقلال عن الهند ذات الأغلبية الهندوسية.



5

البترول والسياسة

- استخدام البترول كسلاح فى مواجهة الدول الكبرى أصحاب البروج سلاح قديم انتهى دوره.
- محاولة إيران إعادة فعالية البترول كسلاح فعال فى مواجهتها مع أصحاب البروج وفى شأنها الداخلى ونجاح سياستها الخارجية وتحالفها مع روسيا.

عدم فعالية البترول كسلاح فى مواجهة القوى العظمى أصحاب البروج

لعب النفط دوراً فعالاً فى الماضى كسلاح خطير استخدمته الدول المنتجة له من العالم الثالث أو أصحاب الكهوف فى مواجهة القوى العظمى أصحاب البروج وذلك فى الماضى القريب وخاصة فى حرب عام ١٩٧٣ بين العرب وإسرائيل واستطاعت الدول العربية تحقيق النصر العسكرى والسياسى حين هددت بقطع تدفق النفط إلى أوربا، فكان النفط سلاحاً لا يستهان به مثل الطائرات والقنابل والمدافع الثقيلة وغيرها من أسلحة الحرب.

لكن الدول الكبرى التى هددت بسلاح النفط استطاعت فيما بعد إبطال فعالية هذا السلاح الهام على مدار السنوات التالية لحرب ١٩٧٣، سياسيا واقتصاديا.

والمدهش أن الولايات المتحدة الأمريكية استطاعت سرقة أموال النفط لديها بإعلان إفلاس بورصتها وبنوكها المودع فيها تلك البنوك فى الأزمة الاقتصادية التى افتعلتها مؤخراً مع نهاية عام ٢٠٠٨، فالخاسر فى هذه الأزمة الاقتصادية هى دول النفط.

بل واستطاعت أمريكا بصفتها زعيمة عالم أصحاب البروج من إخافة العالم كله بما أسمته الكساد الاقتصادى العالمى الذى ذكر الجميع بالكساد الاقتصادى العالمى عام ١٩٢٩ قبل الحرب العالمية الثانية فى الماضى.

وعودة إلى ما بعد حرب عام ١٩٧٣، تبين بوضوح كيف صارت القضايا العربية محط اهتمام عواصم العالم، إذ برزت اهتمامات واسعة بالقضايا المطروحة، وتجسد ذلك الاهتمام بتحرك ملموس لمعالجة قضايا الصراع العربى-الإسرائيلى فى طرح المبادرات من جانب مختلف التكتلات الإقليمية ومن جانب الدول، كما تجسد الاهتمام بالقضايا العربية فى أطروحات الحوار مع العرب وكان منها الحوار العربى-الأوربى،

والحوار العربى - الأفريقى.

إضافة إلى مساعى الدول المنفردة فى إقامة حوار وتعميق علاقات مع الدول العربية النفطية مجتمعة أو منفردة.

والمحصلة الإجمالية لإدخال النفط العربى فى الميدان السياسى، لم تتبد فقط فى زيادة الاهتمام بالعرب وقضاياهم، بل ببذل المزيد من الجهود لإرضائهم.

ويمكن القول إن العرب فى الفترة التى أعقبت حرب تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣ شهدوا عصراً ذهبيّا، إذ صارت عواصمهم محطات فى طريق الرؤساء والزعماء ورجال السياسة والدبلوماسيين من مختلف الدول، وصارت مطالبهم وقضاياهم محط اهتمام ودرس ووعود، بل وتنفيذ فى بعض الأحيان.

ولم يكن ذلك، هو التطور الإيجابى الوحيد فى ثمار استخدام النفط العربى فى السياسة، فقد كان من جملة النتائج الإيجابية تزايد هائل فى عائدات النفط العربى بفعل ازدياد الطلب العالمى على النفط، وزيادة أسعاره، مما أدى إلى زيادة الإنتاج، وبالتالى ازدياد العائدات.

فالدول الصناعية - المستهلك الرئيسى للنفط العربى فى تلك الأيام - قد فوجئت بالموقف العربى بإدخال النفط فى معركة السياسة، ولم تكن المفاجأة كلية، بل هى جزئية، وإن تكن مفصلية وحاسمة، ذلك أن العرب درجوا على المطالبة والتهديد باستخدام النفط لدعم مواقفهم السياسية منذ سنوات طويلة، لكنهم لم يفعلوا ذلك قط - باستثناء فعل محدود فى عام ١٩٥٦- الأمر الذى أوحى للعالم، أن الموضوع مجرد مطالبات وتهديدات ليس أكثر، أما وقد صار الأمر جديًا بعد حرب عام ١٩٧٣، فلم يعد أمام الدول الصناعية، ولا سيما الولايات المتحدة وأوربا سوى مواجهة الواقع، باعتماد خطط وإستراتيجيات ذات هدفين متلازمين متكاملين.

الأول: هو البحث عن مصادر أخرى للطاقة البديلة، والثانى المنع النهائى للعرب ولكل من فى مثل وضعهم من استخدام النفط، وربما أية مواد إستراتيجية كأسلحة سياسية كذلك بنهب أموال النفط كما حدث مؤخرا بالفعل فى الأزمة المفتعلة التى

أسمتها الدول الكبرى الكساد الاقتصادى.

وإذا دققنا فى التطورات المتصلة بالموضوع منذ أواسط السبعينيات؛ لأمكن ملاحظة أن أهم تلك التطورات انصب فى خمسة سياقات:

١- إفساح المجال لتطور متنام فى مجال خلق واستثمار الطاقات البديلة للنفط، وفى عداد ذلك تزايد الاهتمام والطلب على الطاقة النووية، حيث صار فى العالم نحو ٤٣٦ مفاعلاً نووياً فى عام ١٩٩٦ سعتها ٣٤٤ ألف (كيلو وات) مقارنة بمفاعلات نووية لم تكن سعتها فى عام ١٩٧٤ سوى ٣٥,٦ ألف (كيلو وات).

ويأتى هذا التطور فى سياق اهتمام العالم المتزايد بالبحث عن طاقات بديلة ورخيصة ومنها الطاقة الشمسية، وطاقة الرياح وغيرهما.

٢- تفتيت التكتلات النوعية للنفط، بإثارة الخلافات بين الدول المتشاركة فيها، وهكذا أخذت تتوجه الضربات المتلاحقة لمنظمة الدول المصدرة للنفط "أوبك" التى تضم كبار منتجى النفط فى العالم.

ووصل الأمر فى هذا إلى دول منظمة (أوبك) العربية المنتجة للنفط، وقد تداخلت فى تلك الحرب العوامل السياسية والاقتصادية كلها إلى درجة صار من الصعب معها القول بوجود أية فعالية لهذه التكتلات، التى ما زالت تحتفظ بهياكلها وإستراتيجيتها دون تطوير ملموس.

٣- التلاعب المستمر بأسعار النفط، بحيث لا يستقر عند حدود معينة، ولا هو يرتبط بالحركة السعرية للمنتجات الإستراتيجية الكبرى فى العالم، وذلك ما يجعل الدول المنتجة، - وبخاصة تلك التى تعتمد العائدات النفطية مصدراً رئيساً للتنمية الاقتصادية الاجتماعية - عرضة للتذبذب، وعدم الاستقرار المالى والإدارى.

وإذا دققنا النظر فى حال الدول العربية المنتجة للنفط خلال العقد الأخير، لتبينا ما خلفه التلاعب بأسعار النفط فى السوق الدولية من آثار سيئة على تلك الدول، وربما تكفى إشارة إلى أن الدول العربية المنتجة للنفط فى الخليج خسرت ١٥ مليار دولار خلال الأشهر السبعة الأولى من عام ١٩٩٧ فى ضوء انخفاض سعر البرميل من

متوسط ١٨ دولارا إلى متوسط ١٣ دولارا، الأمر الذى يعنى أن الإيرادات النفطية لدول الخليج العربية وصلت إلى أدنى مستوياتها خلال العقد الأخير.

٤- الاستنزاف المستمر للموارد عمومًا وللعائدات النفطية بصورة خاصة، وهو أمر يتم بأكثر من طريقة أهمها الأسلحة والمعدات العسكرية التى تبيعها الدول الصناعية لدول النفط، والتى لا تحتاجها تلك الدول فى العادة؛ لأنها عديمة الفائدة، لا تغنى الدول عن الاستعانة بالغرب وبالولايات المتحدة على نحو ما بينت حرب الخليج الثانية.

وثمة طريقة أخرى، وهى تصعيد الصراعات السياسية، وربما تحويلها إلى صراعات عسكرية على نحو ما تم تحويل الخلافات السياسية بين إيران والعراق بعد الثورة الإسلامية عام ١٩٧٩ إلى حرب مدمرة استنزفت قدرات وطاقات ظاهرة وكامنة لبلدين من أهم البلدان المنتجة للنفط فى المنطقة فى حرب قدرت تكاليفها بنحو ٦٠٠ مليار دولار.

وهو مبلغ يقارب تكاليف حرب الخليج الثانية التى انخرطت وتأثرت بها كل دول الخليج بصورة أو بأخرى، وإن كان أساسها اجتياح العراق للكويت، ثم الحرب الدولية على العراق.

٥- التلاعب المستمر على حقيقة الأهمية الحقيقية لمواقع إنتاج النفط الرئيسية لاسيما فى منطقة الخليج، إذ أن الدول الصناعية والغرب الأوربى - الأمريكى بخاصة بين وقت وآخر يأخذ فى تصعيد الأهمية النفطية لمناطق خارج المنطقة العربية، ومن ذلك الحديث عن أهمية نفط بحر الشمال، أو أهمية نفط الاتحاد السوفييتى السابق بعد أن تم تفكيكه.

ثم الحديث الراهن عن أهمية نفط بحر قزوين، الذى تزعم التقديرات الأمريكية أن احتياطيه النفطى يتجاوز ٢٠٠ مليار برميل، فى حين لا يزيد التقدير الأوربى لهذا الاحتياطى على ما بين ٥٠- ١٠٠ مليار برميل، وثمة تقديرات أخرى تصل به إلى ما بين ٢٥ -٣٥ مليار برميل، وفى كل التقديرات لا يوازى ذلك إلا أقل من ثلث

احتياطيات الدول العربية لعام ١٩٩٧، وأكثر من ٦١ بالمائة من الاحتياطى العالمى.

إن الدلالة العملية لأهمية نفط الخليج فى إنتاجه وفى احتياطيه تتجسد فى السياسة العملية للغرب وللولايات المتحدة إزاء الخليج، وهى السياسية التى بلغت الأوج فى حرب الخليج الثانية.

وكان فى نتائجها فرض هيمنة سياسية - عسكرية - اقتصادية أمريكية على المنطقة فى إطار عزل النفط عن السياسة، وتمرير عائداته فى مسارات تحد من دوره فى التنمية الاقتصادية - الاجتماعية، والمؤشرات تتوالى فى العجز المتزايد فى موازنات الدول الخليجية.

مما يؤدى إلى ضعف فى حجم الاستثمار، وخفض فى التقدمات الاجتماعية، ولعل ذلك بين تعبيرات تراجع دور النفط فى الحياة العربية، وخطوة لإخراجه من الاقتصاد بعد أن خرج من السياسة، وتحويل حضوره إلى حضور هامشى وضعيف فى حياة البلدان النفطية عموماً وخصوصاً العربية!

ثم كانت الطامة الكبرى بالاستيلاء على أموال النفط المودعة فى بنوك الولايات المتحدة وغيرها من النبوك الأوربية بدعوى إفلاس تلك البنوك ثم انخفاض سعر البرميل ودخول تلك الدول المنتجة للنفط خاصة والعالم فى أزمة اقتصادية مفتعلة تستفيد منها الولايات المتحدة وأصحابها أو شركاؤها منها مؤقتا مع ظن البعض أنها قد خسرت والصحيح أنها استفادت واستطاعت القضاء على سلاح النفط وأموال العرب فى أكبر عملية نصب فى التاريخ.

فالخسارة والمكسب فى تلك الأزمة الاقتصادية هى خسارة دفترية أى على الورق فقط وليست فى الحقيقة فالأموال موجودة، ليست فى البورصات ولا البنوك ولكن فى جيوب أصحاب البروج الأمريكيين.



محاولات إيرانية فى إعادة استخدام سلاح النفط فى مواجهتها لأصحاب البروج

إن أهمية العلاقات الدولية بين الدول تقدر من خلال عاملين رئيسيين:

أولهما: ما لدى كل من الطرفين ليتبادله مع الآخر وما النفع أو الضرر الذى يمكن أن يحصل عليه كل طرف من هذا التعاون المشترك بينهما.

والثانى تأثير هذه العلاقة على علاقة كل منها بالدول الأخرى.

والعلاقات السياسية الدولية ليست أبدية، ولكنها متغيرة حسب المصالح التى تخص كل دولة، ففى عالم السياسة يصبح العدو صديقاً والصديق عدواً إلا فى الصراعات الدنية - السياسية كما هو الحال فى الصراع العربى الإسرائيلى مثلاً.

والمتأمل للواقع السياسى والعسكرى الآن يجد أن إيران تلعب دوراً هاما وفعالاً فيه بشكل فعال ومتميز.

وفى مواجهة عنيفة مع الولايات المتحدة الأمريكية ومن يؤيد إسرائيل من الدول الغربية فى أعمالها العدوانية، قرَّرت إيران استخدام النفط فى دخول الحوار السياسى والإعلامى؛ وذلك تدعيمًا لوجودها الفعَّال فى المنطقة، ولكسب التأييد السياسى من الشعوب العربية.

حيث إن وجود النفط بكميات كبيرة فى إيران، والحصول على عائد كبير منه خلال القرن الماضى وجعله تدريجيّاً أحد أهم عناصر القوة فى تشكيل ذلك التاريخ وتوجيه سلوك الإيرانيين.

فمنذ أن وقع الإنجليزى «ويليام نوكس دارسى» عقدًا مع الحكومة القاجارية عام ١٩٠٦م لتسويق النفط الإيرانى الذى كان يتدفق بغزارة فى منطقة «مسجد سليمان»، وإنشاء «شركة النفط الإيرانية البريطانية»، وإقناع الحكومة البريطانية بشراء جزء من

أسهم هذه الشركة، بدأ النفط يتخذ موقعًا مؤثرًا على السياسة الإيرانية، حيث إن الحكومة الإيرانية - مع حصولها على أموال حق امتياز استخراج وتسويق النفط- أصبحت تضع سياساتها على أساس منع حدوث ما يؤثر على حصولها على هذه الأموال.

كما أن الشركات المحتكرة لصناعة النفط الإيرانى - ومن ورائها الحكومات التابعة لها- كانت تتدخل فى الشؤون الداخلية والخارجية لإيران بما يضمن لها توفير أقصى حد ممكن من الاستقرار والأمان، بما فى ذلك مساعدة الحكومة الإيرانية على قمع أى نقد أو اعتراض شعبى لهذا القطاع.

ومع تنامى الوعى الشعبى بدأت ضغوط النخبة والمستنيرين من أفراد الشعب والمؤسسات الاجتماعية والجماعات السياسية على الحكومة من أجل الإصلاح الاقتصادى، وما يتضمنه من إصلاح سياسى.

يقول أبو الحسن بنى صدر -رئيس جمهورية إيران الأسبق- فى كتابه "إيران" غربة السياسة والثروة: "إن النفط منذ ابتداء إنتاجه واستغلاله قد بقى غريبًا عن الاقتصاد الإيرانى.

وفى نفس الوقت كان أحد العوامل الرئيسية فى تفكك هذا الاقتصاد؛ لأنه سبَّب عملية تحول لنمط الحياة من خلال حاجات يتعلق إشباعها بسلع منتجة فى الخارج، كما صار عامل تتبيع لعناصر لا يمكن تتبيعها بالنظام المسيطر".

ومن الطبيعى أن تتحالف السلطة الحاكمة مع الشركات المحتكرة لصناعة النفط على تأخير الإصلاح السياسى لما له من نتائج سلبية على استثماراتها، ويرجع بنى صدر أن السيطرة تتجسد فى علاقة أربع ديناميات هى: دينامية الإلحاق بالنظام المسيطر، دينامية تفكك النظام التابع، دينامية اللاتساوى التى تجسد علاقات المسيطر والتابع، دينامية العنف، وهى النتيجة، مؤكدًا أن النظام المسيطر يلاحق -حتى آخر ريال- المبالغ المدفوعة مقابل المواد الأولية والنفط الخام.

وفى الوقت نفسه يستخدم تلك المبالغ ليعيد بناء الاقتصاد المسيطر عليه تبعًا

لمصلحته، أى أنه يفرض نظامه للحاجات مقابل استيراده للمواد الأولية والنفط، كما أن ديناميات الإلحاق والتفكيك ينتج عنها دينامية اللامساواة، وإن تطور هذه اللامساواة هى البؤرة التى يولد فيها العنف ويتسع.

وهكذا فإن التتبيع الاقتصادى والسياسى والثقافى يزيل وطنية الطبقات الحاكمة بالنسبة للطبقات المحكومة، كما أنه يعجّل باستيراد السلع الاستهلاكية والقيم الثقافية، ويشجِّع تصدير المواد الأولية والنفط والكفاءات جاعلاً البلد الخاضع له فى حالة التفكك والعجز.

ويستقصى بنى صدر عوامل تتبيع الاقتصاد الإيرانى متطرقًا إلى النفقات العسكرية باعتبارها القوى المحركة لتبعية الجيش والاقتصاد، فالأسلحة المتقدمة لا يمكن صناعتها فى إيران، كذلك فإن صيانتها وقطع غيارها ترتبط بالاقتصاديات الصناعية المسيطرة.

ومن هنا فإن النفط لا يسدِّد ثمن التسليح، فحسب بل يساهم فى ربط الجيش بمصدر السلاح وبالتالى إبقاؤه فى حالة استعداد وقوة فى مواجهة أى أخطار محتملة بعكس ماحدث فى العراق قبل الغزو الأمريكى له.

وفى إطار ذلك ومع ازدياد الدخل الناتج عن صادرات النفط تتعمد الحكومة التساهل فى عملية فرض الضرائب والإهمال فى جمعها، ولا شك أن الضرائب من العناصر التى توجد ارتباطًا ماديًا بين الحكومة والشعب، كما أنها عنصر شد وجذب بينهما، وأن إضعاف هذه العلاقة يقلِّل من الاحتكاك بين الحكومة والشعب.

يقول «هوشنگ نهاوندى» رئيس لجنة التحقيقات الملكية: «إن ارتفاع أسعار النفط بعد عام ١٩٧٤م جعل كل شىء يمكن شراؤه بالمال».

وقد استطاعت الحكومة الإيرانية من خلال ذلك أن تستقطب عددًا من المثقفين وبعض الجماعات السياسية للترويج لمنجزاتها أو التقليل من حجم النقد لسياساتها، كما كانت عملية إيجاد مظاهر الرفاهية فى المجتمع الإيرانى من خلال الاستثمارات الحكومية فى القطاعات الاقتصادية المختلفة التى يدعمها النمو السريع فى الدخل

القومى لإيران خاصة فى العشرين سنة السابقة على قيام الثورة الإسلامية.

وهو ما ساعد السلطة على نشر ثقافة التساهل من خلال زيادة المنتجات الثقافية فى هذا الاتجاه، وإيجاد بيئة ثقافية مناسبة لانتشار التيارات التى تعبّر عن الترف الفكرى والأدبى والثقافى.

وقد ساعدت هذه الثقافة على ظهور الجماعات الاحتكارية الموالية للسلطة فى جميع المجالات الثقافية والسياسية والاقتصادية التى سعت للمحافظة على مصالحها وزيادتها بالعمل على استمرار الظروف السائدة فى المجتمع.

وهو ما أدى إلى ظهور تحالف السلطة المشكَّل من البلاط، والحكومة، والحزب الحاكم، والبرلمان بمجلسيه النواب والشيوخ، ومعهم كبار التجار، وأصحاب الصناعات، ورجال البنوك، والسماسرة.

وفى المقابل ظهرت الجماعات المعارضة لنظام الحكم سواء داخل إيران أو فى المنفى، ولعلّ الأحداث التى وقعت بين عامى ١٩٥٠ و١٩٥٣م تمثل وقفة شعبية كبيرة ضد تأثير النفط على الإصلاح السياسى، ففى هذه السنوات ذاق الإيرانيون طعم الحكومة الوطنية بعد أول دورة مستقرة للنظام النيابى، وكان الدكتور محمد مصدق فى الماضى هو زعيم الحركة التى كان أحد أهم أهدافها مواءمة الاتفاقات النفطية مع المصالح الوطنية.

وقد أدت مساعى الدكتور مصدق ورفاقه فى مواجهة الشركات النفطية والحكومات التى تساندها وصمود الحكومة الوطنية أمام تهديدات أصحاب المصالح النفطية إلى إقرار قانون فى مجلس النواب فى ٢٠-٣-١٩٥١م يقضى بتأميم كل ما يتعلق بعملية اكتشاف النفط واستخراجه والاستفادة منه بأى وجه من الوجوه.

لكن تحالف أصحاب المصلحة فى صناعة النفط تمكنوا من هزيمة مصدق ورفاقه بانقلاب ضد حكومته الوطنية فى ١٩-٨-١٩٥٣م قاده الجنرال "فضل الله زاهدى" بدعم من حلفاء النفط.

ثم عقدت المباحثات مع الحكومة الجديدة، فأسفرت عن توقيع اتفاق مع مجموعة

شركات احتكارية تضم خمس شركات أمريكية، وشركة بريطانية، وشركة شل، وشركة فرنسية.

وقد صدر القانون الجديد للنفط عام ١٩٥٧م يقر الوضع الجديد لأعمال صناعة النفط لمدة عشرين سنة.

وكان النفط وتأثيره على السياسات الاقتصادية أحد أهم موضوعات نقد المعارضة الوطنية لنظام حكم الشاه عشية قيام الثورة الإسلامية.

يقول بنى صدر: «إن التقدم الذى يتكلم عنه النظام الملكى الحاكم ليس سوى خدعة دون مضمون حقيقى؛ لأنه يتلخص فى عملية استهلاك واردات مدفوع ثمنها من الصادرات النفطية، وهو تبذير لثروات البلاد، خاصة وأن الواردات ليست حيادية؛ لأنها تؤثر على الاقتصاد بطريقة تؤدى إلى تدميره».

وهكذا كانت فكرة بنى صدر عن إعادة دمج النفط بالاقتصاد الإيرانى أحد أهم الأسباب التى جعلت «آية الله الخمينى» -زعيم الثورة الإسلامية- يقربه إليه ويجعله المستشار الاقتصادى لأول حكومة بعد نجاح الثورة فى إيران، ثم يدعمه ليصبح أول رئيس للجمهورية الإسلامية، من أجل أن يحل خلال قيادته للحكومة مشكلة تأثير النفط على الإصلاح السياسى.

وإيران إذ تحتفل باليوم الوطنى للنفط فى ذكرى تأميمه لتدرك أنه أحد الأسباب الهامة لقيام الثورة الإسلامية.

كما تؤكد على أن حركة تأميم النفط تمثل أحد المفاخر الكبيرة للشعب الإيرانى خلال تاريخ كفاحه الوطنى.

وإن تملك حكومة وطنية لكل العمليات الأساسية فى صناعة النفط من اكتشاف وحفر وإنتاج ونقل ومد الأنابيب والتكرير، مدين لهذه الحركة العظيمة بكل تجاربها الحلوة والمريرة، حيث أدت هذه التجارب إلى اعتماد فلسفة سياسية متميزة تخرج النفط من كونه سلعة هامة وحيوية، إلى كونه أساساً اقتصاديًا مؤثرًا أثبت فاعليته فى استمرار الثورة واستقرار نظام الجمهورية الإسلامية، ودعم النظام السياسى خلال

الحرب العراقية - الإيرانية، ومرحلة إعادة البناء والتعمير، ووسيلة لخروج إيران من عزلتها السياسية التى فرضتها عليها الولايات المتحدة الأمريكية بسياسة الاحتواء المزدوج، ووسيلة لدخولها النادى النووى.

لقد كان أهم الشعارات الاقتصادية لحكومة الثورة الإسلامية هى وقف اعتماد الاقتصاد الإيرانى على النفط كمنتج وحيد للتصدير، إلا أنها لم تستطع تطبيق هذا الشعار بشكل واضح نتيجة ظروف الحرب العراقية - الإيرانية، والحصار الاقتصادى، وصعوبات إعادة البناء، وأزمة السيولة النقدية.

لكنها استفادت من دخل النفط كقوة محركة لكثير من الوحدات الإنتاجية، ووحدات البنية التحتية، والتوسع فى صناعة البتروكيماويات.

كما تم إنشاء جامعة للبترول ساهمت فى أن تكون عمليات الحفر والتنقيب كافة بالقوى البشرية الإيرانية، واكتساب خبرات وطنية فى مجال إعادة بناء حقول النفط ومجال صناعات البترول.

وإنشاء معملين جديدين للتكرير فى "بندر عباس" بطاقة ٢٤٠ ألف برميل/ يوم، وفى "أراك" بطاقة ١٧٠ ألف برميل/ يوم، فضلاً عن زيادة إنتاج الغاز واستهلاكه فى المشروعات والخدمة العامة، وتصديره إلى كل من تركيا وأرمينيا والهند وأذربيجان وباكستان، إلى جانب روسيا الاتحادية.

مع نجاح الإصلاحيين فى الوصول إلى إدارة البلاد وتولى الرئيس محمد خاتمى زمام الأمور بمساعدة برلمان يسيطر عليه غالبية من الإصلاحيين، طرح مشروع المجتمع المدنى كأولوية فى برنامج الإصلاح السياسى، ومع إجماع الجماعات السياسية على عناصر المشروع برزت الدعوة للإصلاح الاقتصادى وتحديد موقع النفط فى خدمة هذا المشروع؛ ليس كعنصر داعم للتنمية الاقتصادية فحسب، بل كحصن مانع للتبعية الأجنبية.

وفى هذا الإطار يؤكد الدكتور «محسن نور بخش» -الرئيس العام للبنك المركزى الإيرانى وأكثر المتبصرين من المسؤولين التنفيذيين بالاقتصاد الإيرانى- أنه كلما اتجه

سعر النفط لأعلى فإن كل شىء يصبح مشرقًا، وعندما يتجه إلى أسفل تتقبض النفوس، وتعبس الوجوه، ويقع النشاط الاقتصادى تحت الضغط، وهو ما ينعكس أثره على الجماهير.

وفى إطار العمل على إشراك الجماهير فى عائدات النفط، وكنوع من الإصلاح السياسى، أعطت الحكومة أولوية مطلقة للقطاع الخاص فى مجال الاستشارات النفطية والمقاولات الخدمية الكبيرة لصناعة النفط.

كما عملت على حل مشكلات صغار المقاولين فى هذا الحقل، فضلاً عن استثمارات القطاع الخاص فى مجال البتروكيماويات.

ثم طرحت الحكومة أسهم شركات البتروكيماويات فى سوق الأوراق المالية؛ لجذب مزيد من استثمارات القطاع الخاص، كما أنها أعطت لهيئة التأمين والمعاشات ملكية الشركة الوطنية لحفر آبار النفط والشركة الوطنية لناقلات النفط فى مقابل مديونيات الحكومة لهذه الهيئة.

وقد دافع "بيژن نامدار زنكنه" -وزير النفط- عن سياسة الحكومة فيما يتعلق بخصخصة شركات النفط بقوله: "إنه طبقًا للخطة الخمسية الثالثة، فلن يكون هناك مجال للاحتكار إلا فى المواضع التى حددها الدستور، وواجبنا أن نمنع احتكار الحكومة على ضوء الخطة الخمسية الثالثة من ناحية، والمنطق الاقتصادى لحكومة الثورة من ناحية أخرى".

وإن كانت إيران لم تستطع -حتى الآن- أن تحقق طموحاتها فى استخدام النفط وعائداته كوسيلة لتحقيق الإصلاح السياسى إزاء ضغوط الأوضاع الاقتصادية المعاكسة، فإنها قد خطت خطوات كبيرة فى هذا المجال.

فالتجربة الإيرانية فى هذا المجال يجب أن يقف المتخصصون العرب عليها لدراستها والاستفادة منها وخاصة فى البلاد العربية التى أضاعتها الأزمة الاقتصادية أو الكساد الاقتصادى مؤخراً وأطاح بعائدات النفط.

فقد خطت إيران خطوة أوسع فى مجال استخدام النفط لإصلاح سياستها

الخارجية ودعم هذه السياسة، حيث كانت تحرص دائمًا على الضغط سلبًا وإيجابًا بسلاح النفط للخروج من عزلتها السياسية مع كسر الحصار الاقتصادى، ولتحقيق مكاسب سياسية مثل اتفاقها النفطى مع روسيا الاتحادية الذى جعل لها حليفًا سياسيًا قويًا يصمد أمام الضغوط الأمريكية لصالح إيران

كذلك استخدمت إيران النفط لتنفيذ إستراتيجية سياسية خاصة بها فى المنطقة العربية مثل اتفاقاتها النفطية مع كل من سوريا ولبنان، وفضلاً عن ذلك استخدمت النفط لتوثيق سياستها الخارجية تجاه الدول المختلفة، مثل اتفاقها النفطى مع تركيا ومع الهند أيضًا.

بل عملت على تحقيق المصالحة مع بعض الدول التى توترت علاقاتها معها من خلال النفط، مثل اتفاقها النفطى مع باكستان ومع أرمينيا.

واستطاعت أيضاً أن تفلت من جدوى العقوبات الاقتصادية التى هددها بها دول الغرب الأوروبى والأمريكى أصحاب البروج حين قررت دخول النادى الدولى النووى فى عهد الرئيس الحالى أحمدى نجادى.

بل وكانت عائدات النفط الإيرانى عاملاً أساسيّاً مؤثراً فى محاولات إيران صناعة القنبلة النووية الإيرانية التى أخافت بها العالم الغربى الأمريكى وجعلته يتخبط ويترنح ويقف عاجزاً على اتخاذ القرارت الفاعلة ضدها بعكس ما حدث مع كوريا الشمالية التى كان من السهل إيقاف برنامجها النووى ببعض الحوافز المالية والاقتصادية لأنها لا تملك سلاح النفط مثل إيران.

واستفادت إيران ايضاً من سلاح النفط فى الدولية الخارجية مع الدول المجاورة لها مثل روسيا ومن أمثلة ذلك الاتفاقات التى وقعها الرئيس الإيرانى السابق محمد خاتمى - خلال زيارته لموسكو - تتويجًا للجهود الإيرانية فى سبيل مواجهة الضغوط الأمريكية التى تمارس ضدها لتوفير احتياجاتها العلمية والتقنية والعسكرية التى تراها ضرورية من أجل الحفاظ على ثورتها، والإبقاء على وجودها فى الساحة السياسية الإقليمية والدولية، بل وتحقيق التوازن الداخلى فى مواجهة المشكلات التى

تكاد تعصف بالنظام وتهدد استمراره.

واستمرت الجهود الدبلوماسية التى حققت أهدافها والتى أقرها على خومينى زعيم الثورة والنظام خلال اللقاء الذى عقده مع خاتمى عشية سفره إلى موسكو.

وكان "مهدى سفرى" سفير إيران لدى روسيا الاتحادية - قد أشار إلى أن الرئيس الإيرانى فى لقائه مع نظيره الروسى سوف يؤكد مدى التقارب الإيرانى - الروسى ونوعية العلاقات التى ترتبط البلدين كعلاقات إستراتيجية؛ وأن المباحثات بين الطرفين سوف تتطرق إلى جميع الموضوعات التى تهم الطرفين فى جميع المجالات» ومازالت تلك الجهود الدبلوماسية تؤتى ثمارها بعد رحيل خاتمى ومجىء نجاد إلى سدة الرئاسة الإيرانية.

وإزاء شمولية المباحثات التى أجراها خاتمى وبوتين أكد يوجنى بريماكوف - رئيس الوزراء الروسى السابق - أن هذه الزيارة أهم حدث فى تاريخ العلاقات الإيرانية - الروسية.

كما أكد جنادى سليزنيف - رئيس الدوما (البرلمان) الروسى - أن هذه الزيارة جاءت فى وقتها ومصحوبة بقوة دفع كبيرة نتيجة اتفاق القيادات الإيرانية على تفاصيل الزيارة وتوجهات المباحثات فى المجالات المختلفة.

وقال: "إن إيران قد طوت سنوات الحرب المريرة بشكل مشرف، وهى تمضى الآن فى مسيرة التنمية، مما جعل العلاقات الإيرانية - الروسية علاقات شفافة تقوم على أساس المعايير الدولية.

ومن هنا، فإن زيارة الرئيس الإيرانى لروسيا تزيل كل نوع من سوء التفاهم المحتمل وجوده فى علاقات أى دولتين فى العالم - وهو إنجاز كبير - حيث إن العلاقات الروسية - الإيرانية من العلاقات القديمة؛ كما أن للبلدين رؤى متشابهة تجاه كثير من القضايا الدولية والإقليمية فى الوقت الراهن، مما يزيد تقاربهما يومًا بعد يوم".

كذلك وصف نيكولاى ريشكوف - عضو مجلس الدوما الروسى - هذه الزيارة بأنها عنصر تحرك جديد فى العلاقات بين البلدين.

كما انتقد قيام آل جور وتشرنوميردين بتوقيع اتفاق يتضمن الموافقة على الحد من التعاون الفنى والعسكرى بين روسيا وإيران، مؤكدًا أن هذا الاتفاق كان دائمًا موضع انتقاد أعضاء مجلس الدوما المؤيدين للتعاون مع إيران.

كذلك وصف سرجيو يوشنكوف - وكيل لجنة الشؤون الدفاعية فى مجلس الدوما الروسى - هذه الزيارة بأنها حدث هام للغاية، مؤكدًا أنها سوف تكون ذات أثر إيجابى على جميع أبعاد العلاقات الروسية - الإيرانية، وتحمل فى طياتها خطوات أكثر فعالية وقيمة فى مجال تنمية التعاون بين البلدين.

كانت البداية التى حققت ثمارها فى الأزمة الراهنة سابقة على ذلك أكد محمد جواد لاريجانى - خبير الشؤون السياسية ورئيس لجنة السياسة الخارجية فى مجلس الشورى الإسلامى فى دورته الخامسة - أن فصلاً جديدًا من العلاقات الإيرانية - الروسية قد بدأ مع الرسالة التى وجهها الزعيم آية الله الخومينى إلى الزعيم الروسى جورباتشوف، ودخل مرحلته التنفيذية بزيارة الرئيس السابق هاشمى رفسنجانى لروسيا.

ولذلك فإن المسألة الهامة فى إقامة علاقة جديدة بين طهران وموسكو هى تخلى موسكو عن النزعة الاستعمارية فى سياساتها الخارجية.

وأضاف: "إن إيران وروسيا فى مواجهة عالم أحادى القطبية، وهو ما يفتح أمامهما آفاقًا واسعة من التعاون على المستوى الثنائى والإقليمى والدولى.

وكذلك، فإن السياسة الخارجية الروسية لا تخلو من عناصر الضغط الحقيقى، خاصة أن روسيا قد انتقلت من النظام الماركسى إلى نظام السوق الحرة.

وفى هذا الإطار لا تتوقف الدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية عن استغلال أية فرصة لتحميل مطالبها على روسيا، سواء عن طريق البنك الدولى أو أية قناة أخرى؛ إلا أن روسيا المستقبل هى روسيا مستقلة، وسوف تجعل علاقاتها بإيران تسير فى خطى إيجابية فى المستقبل لمصلحة كلا البلدين".

وتقول إلهه كولايى - عضو لجنة الأمن القومى والسياسة الخارجية بمجلس الشورى الإسلامى -: إنه بالنظر إلى الموقع الإقليمى والدولى لإيران والظروف التى

تواجه روسيا على المستوى الإقليمى والدولى، فإن البلدين يستطيعان أن يستفيدا من المسائل التى تضع طهران وموسكو فى خط مشترك لدعم العلاقات المتبادلة بأفضل صورة، وأن روسيا اختيار مناسب لتلبية احتياجاتنا.

ويقول سعيد ليلاز خبير الشؤون السياسية والاقتصادية الإيرانى: "إن اتساع عمق النفوذ الإستراتيجى لإيران فى السنوات العشر الأخيرة وانخفاض هذا العمق فى روسيا قد أوصل البلدين إلى حدود متقاربة من الفهم المشترك للعلاقات المتبادلة، فالارتباط بين البلدين متكافئ، حيث يمكن أن تكون روسيا مصدرًا هامًا لحُقَن التقنية والتقدم النووى فى إيران ودعم البنية العسكرية، كما يمكن أن يكون الروس شريكًا شبه إستراتيجى لإيران".

فإيران وروسيا يعتبران أفغانستان مثلاً حاجزًا أمنيًا فى مواجهة التحدى غير المباشر للغرب.

ولهذا فهما لا ينظران إلى ظاهرة طالبان بعين الشك والتردد، وتتحصر المخاوف الأمنية منها فى إطار ممتد يشمل تهريب المخدرات وسائر فروع الإرهاب المنظم.

أما ما يتعلق بآسيا الوسطى والقوقاز والبلقان، فإن كلاً من إيران وروسيا ترى فيها المصالح بدرجات متفاوتة ولكنها مرتبطة معا.

هما ينظران إلى النفوذ المتزايد لشركات النفط الأمريكية فى القوقاز، والاستثمارات الكبيرة لأوروبا وتركيا فى آسيا الوسطى، والتعاون الأمنى بين تركيا وإسرائيل على أنه أمر يهدد أمنهما القومى.

فروسيا تبغى تفوق اليونان والقبارصة اليونان على الأتراك؛ ولإيران علاقات طيبة مع اليونان.

وكذلك تؤيد روسيا أرمينيا فى نزاعها مع أذربيجان حول منطقة قراباغ، وتتوافق إيران مع ذلك، هذا فضلاً عن أن كلاً من إيران وروسيا تعارضان المحاولات الأمريكية لتوجيه العلاقات الدولية، كما تعتبران أوروبا الغربية منافسًا خطيرًا لا يعتمد عليه.

ومن كل هذه المتوافقات، يمكن أن ندرك أن إيران وروسيا قد شكلتا جبهة إقليمية

ودولية غير معلنة فى شكل إستراتيجية تتدرج العلاقات المقطعية لكلا البلدين فى إطارها، ولم تدخل بعد مرحلة المناقشة والتباحث حول التفاصيل.

فإذا نظرنا إلى المصالح الاقتصادية المشتركة يمكن أن ندرك توجهيهما إلى التكنولوجيا التى من أهم مشروعاتها بناء مفاعل نووى فى بوشهر.

وإزاء أهمية ذلك، ضربتا بالتهديدات والضغوط الأمريكية عرض الحائط، وأبطلتا مفعول اتفاق آل جور - تشيرنوميردين.

ورغم التعارض فى الرأى بين روسيا وإيران حول تحديد نظام حقوقى لدول بحر قزوين حول كيفية استغلال ثرواته، فإن التقارب الإيرانى - الروسى بات يطرح نظرية استغلال المشاع للبحر بين هذه الدول، وإن كانت دول آسيا الوسطى تعارض ذلك مع تأييد روسيا لفكرة استغلال مصادر النفط البحرية قبالة السواحل.

وإن كانت كل من إيران وروسيا تختلفان أيضًا حول عملية تسوية الصراع العربى - الإسرائيلى، فإن الطرفين يدركان طبيعة موقف كل منهما ويقبلانه.

بالإضافة إلى موقف كل منهما مما يُسمّى "النظام العالمى الجديد"، حيث تعارضه إيران بينما تجد روسيا أن عليها احترامه إزاء مسؤولياتها الدولية.

ووقعت روسيا مع إيران عدة اتفاقيات للتعاون فى مجالات عدة، يأتى على رأسها التعاون التكنولوجى فى مجال الطاقة النووية، ثم اتفاق حول كيفية الاستفادة من ثروات بحر قزوين، ثم اتفاقية التعاون فى آسيا الوسطى والقوقاز.

وكانت الاتفاقية الخاصة بمحطة الطاقة النووية تؤكد على استغلال إيران للطاقة النووية فى المجالات السلمية دون المجالات العسكرية؛ وأن الاتفاق الخاص بالتسليح يخدم الأغراض الدفاعية، وليس موجهًا ضد طرف آخر.

وأن اتفاق بحر قزوين يؤكد على أنه ليس من حق أية دولة مطلة على هذا البحر أن تمد حدودها البحرية طالما أنه لم يحدث اتفاق جماعى على كيفية استغلال ثروات هذا البحر؛ مع معارضة أى تواجد لأية قوة أجنبية فى هذا البحر، فضلاً عن الاستخدام السلمى لثرواته والمحافظة على بيئته، وعدم مد خطوط أنابيب النفط

خلاله.

وتأكيدًا لتعميق العلاقات الروسية - الإيرانية، فقد تضمن برنامج الزيارة قيام خاتمى بزيارة غازان عاصمة إقليم تتارستان المسلم بموازاة زيارته لمدينة سان بطرسبرج، ولقائه مع مفتى المسلمين بموازاة لقائه بابا المسيحيين الأرثوذكسيين فى روسيا.

وهكذا فإن العلاقات الروسية - الإيرانية قد دخلت مرحلة جديدة لن يتوقف تأثيرها عند البلدين فحسب، بل إنه سوف يمتد إلى دول المنطقة، وربما لمساحات أخرى من العالم.

وسوف تبين الفترة المقبلة عن تحولات جديدة تحت تأثير هذه العلاقات، لا على مستوى إيران وروسيا الداخلية فقط بل على مستوى المنطقة كلها، ومازالت آثار تلك العلاقة وذاك التعاون تؤتى ثمارها وظهر ذلك فى الأزمة الإيرانية مع أمريكا وأوروبا حول مشروعها النووى وعدم استطاعة تلك الدول مجتمعه اتخاذ قرار دولى ضدها كما فعلت مع دول أخرى مثل كوريا الشمالية والعراق.



6

العولمة وأصحاب البروج

- العولمة من وجهة النظر الأمريكية هى وسيلة للسيطرة على العالم اقتصادياً ودينياً وسياسياً ثم عسكرياً.
- العولمة من وجهة النظر الإسلامية رحمة ورخاء وسلام.

العولمة من وجهة النظر الأمريكية هدفها السيطرة على دول العالم اقتصاديّاً وسياسيّاً وثقافيّاً ودينيّاً ثم عسكريّاً

النظرية الميكيافيلية تقتضى بأن الغاية تبرر الوسيلة، ومن هذا المنطلق تسعى أمريكا العظمى أو الإمبراطورة الأمريكية إلى السيطرة على العالم بوصفها القطب الأوحد الجديد الساعى لامتلاك كل الخيوط كأى مستعمر منذ الزمن القديم والحديث.

ومن هذه الوسائل الحديثة.. العولمة، وهى كلمة براقة تأخذ بلب العقول وهى أيضاً خداعة حين تفسرها القوى الاستعمارية على أنها تجمع الشعوب وتجعل العالم قرية صغيرة كما يقولون، وهذا هو الكذاب والخداع للشعوب.

فما هى تلك العولمة الغربية الأمريكية وإلى ماذا تسعى؟ إنها عولمة دينية.

والعولمة الدينية التى تسعى إليها أمريكاوالغرب عموماً هو جعل شعوب العالم خاصة العالم الإسلامى يدخل فى الدين المسيحى عن طريق التبشير أو بالقوة العسكرية كما هو حادث فى العراق بعد احتلالها، حيث جاء المبشرون على الدبابات، ويمارسون عملهم التبشيرى فى العراق بحرية وأيضاً فى الدول الإسلامية والأفريقية وهذا هو الهدف الأسمى من العولمة، بالرغم من زعم الأصوليين والإنجليين فى أمريكا أنهم يسعون لعودة المسيح مرة ثانية للحكم الألفى(١).

وللوصول إلى الهدف المنشود رفعت الدول الرأسمالية شعارا اقتصاديا يرغب فيها وهو دعه يمر ويكسب وأنشأت المنظمات الدولية التجارية لهذا الغرض.

يقال: عولمة، على وزن قولبة، واللفظ مشتق من العالم، والعالم قد يكون اسم جنس

(١) اقرأ كتابنا «الهرمجدون ونهاية أمريكا وإسرائيل» ـ مشترك، الناشر دار الكتاب العربى فهو قراءة دينية فى السياسة فى الكتب المقدسة.

جمعى لا مفرد له كالجيش والنفر والزيت والماء، وهو مشتق من العلامة على ما قيل، وقيل: مشتق من العِلم، وذلك على تفصيل مذكور فى كتب اللغة.

فالعولمة كالرباعى فى الشكل فهو يشبه (دحرجة) المصدر، لكن (دحرجة) رباعى منقول، أما (عولمة) فرباعى مخترع - إن صح التعبير-.

وهناك جماعة من اللغويين يقولون بجواز اختراع ألفاظ وكلمات فى اللغة العربية على وزان الألفاظ والكلمات الموجودة فيها، كما يقولون بجواز الزيادة والنقيصة على حسب الزوائد أو النقائص اللغوية الأخرى.

مثل: صرف الباب الثلاثى إلى باب الانفعال، أو التفعيل، أو المفاعلة، أو الاستفعال، وكذلك أبواب الرباعيات ونحوها، فإنه كما يقال: عولمة، يقال: تعولمنا، وتعولمتُ، وتعولمتِ البلاد وهكذا، من قبيل تدحرجنا، وتدحرجتُ، وتدحرجتِ الكُرات وما أشبه ذلك.

إن العولمة على ما سبق مشتق من العالم، أى: صرنا عالميين، ومعنى العالمية: أن تتحد كل شعوب العالم فى جميع أمورها على نحو واحد وهيئة واحدة فى الجملة، فيكونوا كبيت واحد، وأسرة واحدة، فلا يكون هناك شعب فقير وشعب غنى، ولا شعب أُمى وشعب مثقّف، ولا شعب متخلف اقتصادياته أو سياسياته أو ثقافياته أو اجتماعياته أو سائر شؤونه - كشؤون التربية والسلوك وما أشبه ذلك - عن شعب آخر، أى: كما كان عليه الحال قبل الآلة الحديثة، حيث الأسفار البعيدة، والاتصالات المنقطعة أو شبه المنقطعة، وإنما يكون الانتماء للعالم كلّه كالانتماء إلى دولة واحدة كلها.

فكما يقال: بغدادى وبصرى، يقال: عراقى ومصرى، أو شرقى وغربى أو ما شابه ذلك، فإن البلاد وإن كانت مختلفة ولم يتصل بعضها ببعض، لكنّ الفكر يكون واحداً، والاتصال موجوداً، ويبقى الاختلاف قليلا وبشكل جزئى فى بعض النقاط وفى المناطق الصغيرة من أطراف العالم.

إذن: العولمة التى أصبحت اليوم كلمة شائعة فى العلوم الاجتماعية، ومستخدمة كثيراً فى الأدب المعاصر، يمكن تعريفها بما يلى: إعطاء الشىء صفة العالمية، من حيث النطاق والتطبيق.

وقالوا: العولمة اسم شمولى مصطلح للدلالة على حقبة نفوذ تتميز بأدوات أوسع من الأدوات الاقتصادية، تهم الثقافة والحضارة حتى البيئة - مع احتفاظ الاقتصاد بعمودها الفقرى - لديها قدرة التأثير على العالم، وذلك بغلبة من الرأسمالية الغربية التى تجتاح العالم وتسيطر على أسواقه المالية والفكرية، وهو التعريف المراد بالعولمة من وجهة النظر الأمريكية.

ومنهم من عرفوا العولمة بتعريف ثالث، قالوا: العولمة هى الحركة الاجتماعية التى تتضمن انكماش البعدين: الزمانى والمكانى، مما يجعل العالم يبدو صغيراً إلى حد يُحتّم على البشر التقارب بعضهم من بعض.

وهناك تعريف رابع وهو: التداخل الواضح لأمور الاقتصاد والاجتماع والسياسية والثقافة والسلوك، دون اعتداد يذكر بالحدود السياسية للدول ذات السيادة، أو انتماء إلى وطن محدد، أو لدولة معينة، ودون حاجة إلى إجراءات حكومية.

فقالوا: إن المفهوم الدقيق للعولمة يعنى هيمنة نمط الإنتاج الرأسمالى وانتشاره فى الصميم مضافاً إلى انتشاره فى الظاهر أيضاً.

وبعبارة أخرى واضحة يعنى: هيمنة النمط الرأسمالى الأمريكى، ليتلازم معنى العولمة فى مضمار الإنتاج والتبادل المادى والرمزى، مع معنى الانتقال من المجال الوطنى أو القومى إلى المجال العالمى أو الكونى، وذلك فى ضمن مفهوم تعيين مكانى جغرافى: وهو الفضاء العالمى برمته.

وتعيين زمانى تاريخى: وهو حقبة ما بعد الدولة القومية، أى: الدولة التى أنجبها العصر الحديث إطارا كيانيا لصناعة أهم وقائع التقدم الاقتصادى والسياسى، والاجتماعى والثقافى.

فالعولمة المتداولة يعنى: وصول نمط الإنتاج الرأسمالى إلى نقطة الانتقال من عالمية دائرة التبادل والتداول، والتوزيع والتسويق، والتجارة والتمويل، إلى عالمية دائرة الإنتاج وإعادة الإنتاج ذاتها.

فظاهرة العولمة المتداولة هى بداية عولمة الإنتاج، والرأسمال الإنتاجى، وقوى الإنتاج

الرأسمالية، وأخيراً علاقات الإنتاج الرأسمالية أيضاً، وترويجها فى كل مكان مناسب خارج مجتمعات المركز الأصلى ودوله.

فالعولمة التى تقصدها أمريكا للعالم هى حرية أصحاب رؤوس الأموال، لجمع المزيد من المال فى سياسة اقتصادية قديمة، كانت تعتمد على الإنتاج الذى يؤدى إلى تحقيق الربح، وانقلابه اليوم إلى الاعتماد على تشغيل المال فقط دون خسائر من أى نوع، للوصول إلى احتكار الربح وبالتالى الوصول للهيمنة الغربية على العالم الثالث ثقافيا واقتصاديا وسياسيا وعسكريا بل ودينيا أيضاً.

وتجمع المراجع على أن مفهوم العولمة Globalization حديث الظهور جدا، فى جميع اللغات، ولا ترجع بداية استعماله إلى أبعد من الثمانينيات من القرن العشرين.

وحسب ناعوم تشومسكى، فإن (عدوى العولمة Globalization، قد انتشرت كل ما يتصل من تفكير فى العلاقات الدولية منذ نهاية حرب الخليج الثانية التى أعلنت ولادة النظام العالمى الجديد).

ويقولون بأن العولمة واقع أو مسار وسيرورة دولية قديمة فى التاريخ الإنسانى العام؛ ولكن لا يقولون بقدم المفهوم أو المصطلح، وهو ما تشهد به القواميس والمعاجم والدراسات السياسية المعاصرة؛ إذ هى خالية من ذكر هذا المصطلح.

وما هو مؤكد أن التوجه الحضارى الإنسانى فى العلاقات الدولية الحديثة والمعاصرة، كان يعرف قبل ظهور مفهوم (العولمة) بمسميات أخرى مثل: (الدولية) و(التدويل) و(امبريالية) و(العالمية) و(الكونية) و(نظام الاستعمار المباشر القديم) و(نظام الاستعمار غير المباشر الجديد).

فقد وصفت العلاقات الدولية بأنها (دولية) أى علاقات بين الدول، حيث ساد هذا المصطلح خلال القرون من الثامن عشر إلى القرن العشرين، إثر ظهور (الدولة - الأمة) أى كمفهوم وظاهرة أوربية بالأساس.

ونظرا لأن (الدولة) كمفهوم مستخدم عالميا إلى جوار مفهومى (الأمة) و(القومية) إلا أنهما لا يمكنهما وحدهما - تفسير حقيقة العلاقات الدولية بمجالاتها وفاعليها.

عموما فإن مفهوم (العلاقات الدولية) يعنى التدفق من كل نوع ومن كل المصادر، عبر الحدود، تدفقات تجسد وجود مجموعات أو هويات سياسية مستقلة، بدون أن تصبح التبادلات المذكورة فاقدة لصفة (الدولية).

وعبارة (العلاقات بين الأمم أو القوميات) تعانى من مشكلتين: الأولى إنها تصف مجموعة من الظواهر وفى نفس الوقت، العلم الذى يسعى للتعرف عليها. والثانية غموض مفرداتها: (الدولة) و(الأمة) وعدم الاتفاق على تعريفها.

وهنا تفرض كلمة (التدويل) نفسها: فمثلا يعتبر (س. الماند وأ. وينبرغر) أن التجارة الدولية وصلت إلى درجة (التدويل) بعد الحرب العالمية الثانية وبدأ التبادل ينتقل من مرحلة (العالمية) بين بعض الشركات أو الدول إلى (التدويل) (يشمل جميع الدول) جاعلة من العالم مجرد قرية واحدة لجميع سكان الكوكب الأرضى.

ف (عملية تدويل رأس المال قد تسارعت منذ أن قامت إدارة نيكسون (١٩٦٩ - ١٩٧٤م) بتفكيك نظام بروتن وودز التى غيرت الأدوار إلى حد ما بالنسبة للمنافسة بين الدول المختلفة، ويكفى أن نذكر مؤشرا واحدا، وهو أنه بينما هبط نصيب الولايات المتحدة من مجموع الصادرات العالمية من عام ١٩٦٦م إلى عام ١٩٨٤م، فإن نصيبها من الشركات المتعددة الجنسيات قد زاد، وتزداد هذه العوامل قيمة فى النظام العالمى الأمريكى الجديد.

فعملية التدويل للاقتصاديات جعلت وجود أنظمة تنموية متمركوة على ذاتها أمرا غير ذى جدوى، حيث كان دور الدولة بارزا وترابها الوطنى مجالا طبيعيا لعملية تراكم الثروة.

هذه الديناميكية التدويلية تفرض على كل اقتصاد أو فى طور النمو أو يعيد تحديد مكانته ووظيفته فى الاقتصاد العالمى.

فمفهوم التدويل والعابر للدول القومية يظلان منذ القرن الماضى يعبران عن التدفقات العابرة للقوميات بمختلف أشكالها، اقتصادية، مالية، إعلامية بفضل التكنولوجيات الاتصالية، التى تحدت السيادة الوطنية للفاعلين الدوليين، بعدة طرق

جعلت الدبلوماسية الحكومية غير عملية بشكل مستقل.

وبالرغم من أن العولمة قد ضربت بجذورها فى الأعماق فى بعض الميادين، وتخطت السيادة القومية للدول فى بعض القطاعات، كالمال، والإعلام، والثقافة، إلا أن هذه المرحلة تمثل تطورا جديدا للنظام الرأسمالى العالمى منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية وليس نظاما للعولمة.

إذ أن أمريكا والدول الرأسمالية الكبرى، هى الدول القومية الأكثر نفوذا، وتأثيرا فى هذا النظام من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية وأن الدولة القومية، مازال لها كلمة الفصل فى مسائل أخرى كالدفاع وحتى التجارة الخارجية، ويعتبران أن ما يجرى هو تدويل واختراق للدول.

فالعولمة مازالت غير واضحة (المعالم) لا من حيث تحديد المفهوم ولا من حيث اختبارها على الواقع لذا يحذر من المبالغة بأهميتها فهى كظاهرة تلغى التمايز القومى إلغاء تاما لصالح الشركات المتعددة الجنسيات التى تقف خلف القوى الكبرى والمنظمات الدولية كمنظمة التجارة العالمية وصندوق النقد الدولى.

فقد وصفت العلاقات الدولية المتجهة نحو التوحد أو العولمة بالأساليب القسرية، القهرية بمفهوم (الإمبريالية) و(الاستعمار الجديد)، بأشكالها (المرنة) المختلفة: التجارية، الثقافية، المعلوماتية..

فهى ليست سوى الوجه الآخر للهيمنة الإمبريالية على العالم تحت الزعامة المنفردة (للولايات المتحدة الأمريكية).

إنه منطق العلاقات اللامتكافئة بين المجتمعات الصناعية (مهما كانت الإيديولوجيا التى تعتنقها) والمجتمعات غير الصناعية فالوقائع تؤكد أن القوى الاقتصادية تسرف بطريقة أو بأخرى فى استخدام سلطتها التفاوضية عندما تتعامل مع الأمم الأقل قوة.

ويأتى الدور المهيمن للشركات الأجنبية على جزء كبير من إنتاج الدول السائرة فى طريق النمو، بينما مركز قرارها يتواجد فى بلدانها الأصلية.

وهى نادرا ما تأخذ فى اعتبارها مصلحة الدولة المضيفة، مع الإبقاء على حالة التخصص ضمن قواعد التقسيم الدولى للعمل فى منتوجات وحيدة نقدية تتحكم فى أسعارها الدول الاستعمارية سابقا).

ورغم التراجع الواسع لاستخدام مفهوم (الإمبريالية) بعد نهاية الحرب الباردة، حيث كان يعبر عن ممارسة أوربية قبل الحرب العالمية الأولى، وتحول إلى التعبير عن ممارسة سوفياتية وأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية.

إلا أن المفهوم أخذ فى الظهور من جديد، فى الأدبيات السياسية الغربية فى ظل العولمة والسباق الجديد. وهو ما يجعل الإمبريالية تجدد أثوابها من جديد: فالمفكر الأمريكى (دافيد روتكوف) يستخدم فى دراسة صدرت له بمجلة (سياسة خارجية) بعنوان: (فى مديح الإمبريالية فى عصر المعلومات، أن تربح معركة التدفقات العالمية للمعلومات بالسيطرة على الموجات، كما سيطرت بريطانيا العظمى على عشر البحار فى الماضى.

وبنفس المنطق والتعبير يقول: (إرفينغ كريستوا): سوف يعى الشعب الأمريكى أنه قد أصبح أمة إمبريالية كواقع.

وهو ما يسميه البعض بالأمركة أو عولمة أمريكا وتلك هى التسمية الحقيقية للعولمة.

دوما غرب إمبريالى، مهيمن؛ غرب استعمارى، قديما وحديثا و(إمبرياليته) و(استعماريته) نتاج طبيعى، أو مكون عضوى، من مكونات التكوين الاقتصادى، الاجتماعى السياسى، الثقافى للعالم الغربى عبر التاريخيين الحديث والمعاصر.

فالإمبريالية ليست مجرد (نزوع) للغرب، نزوع عارض، منفصل عن بنية حياته فى التاريخ، وإنما هو تمثيل متبلور و(تام) للرأسمالية فى الداخل والخارج فهو نزوع مستمر نحو الشمولية والاستبداد العالمى أو الدولى.

والقاسم المشترك بين مفاهيم: الإمبريالية، ما فوق القوميات، العولمة، الكوكبية، هو (السوق الحرة) (عهد السوق)؛ (وحدانية السوق).

والأسماء والمصطلحات التى تسوقها الأوساط الأكاديمية والسياسية والإعلامية الغربية، فهى فى معانيها محض تمويه وخداع وتضليل وتوظيف دعائى، سياسى، تكتيكى للمفهوم.

ويرى (جيمس روزناو) عالم السياسة الأمريكى (أنه من المبكر وضع تعريف كامل وجاهز يلائم التنوع الضخم لهذه الظواهر المتعددة.

فعلى سبيل المثال، يقيم مفهوم العولمة علاقة بين مستويات متعددة للتحليل، الاقتصاد، السياسة، الثقافة، الايديولوجيا، وتشمل إعادة تنظيم الإنتاج، تداخل الصناعات عبر الحدود، انتشار أسواق التمويل، تماثل السلع المستهلكة لمختلف الدول، نتائج الصراع بين المجموعات المهاجرة والمجوعات المقيمة.

ويعقب قائلا: (فى ظل ذلك كله، فإن مهمة إيجاد صيغة مفردة تصف كل هذه الأنشطة تبدو عملية صعبة، وحتى ولو تم تطوير هذا المفهوم، فمن المشكوك فيه أن يتم قبوله واستعماله بشكل واسع) لذلك تعددت تعاريف مفهوم (العولمة).

ويعرف المفكر الفرنسى: برترون بادى (العولمة) قائلا: هى عملية (إقامة نظام دولى يتجه نحو التوحيد فى القواعد والقيم والأهداف، مع ادعاء إدماج مجموع الإنسانية ضمن إطاره).

والمسار يعود إلى تاريخ طويل، رغم أنه يبدو جديدا، يفترض أنه لا تستطيع أية مجموعة ولا أى أرض ولا أى مجتمع الإفلات من الانخراط فى النظام العالمى الذى يهيمن على الكرة الأرضية، وقد أعوزت الاسكندر ونابليون الوسائل التقنية لتحقيق هذا الإنجاز.

إلا أن هذا المسار قفز تدريجيا فى فجر القرن الحالى، بواسطة الفتوحات الاستعمارية، كما مهدت لهذه الحركية ثلاثة قرون من الاكتشافات والاتصالات المحتشمة بين الغرب والإمبراطوريات الشرقية.

ولم يتحقق هذا المسار إلا عندما استفاد من توسع مؤسساتى: بإنشاء الأمم المتحدة غداة الحرب العالمية الثانية والتى أعلنت عن إرادة العمل على إقامة نظام عالمى من

خلال القواعد والممارسات وتقنين وتنظيم كل حلقات التبادل الإنسانى والثقافى والاقتصادى التى ينبغى تطويرها.

وفى نفس الاتجاه تقريبا، يعرف الدكتور برهان غليون العولمة بأنها: ديناميكية جديدة تبرز دائرة العلاقات الدولية من خلال تحقيق درجة عالية من الكثافة والسرعة فى عملية انتشار المعلومات والمكتسبات التقنية والعملية للحضارة يتزايد فيها دور العامل الخارجى فى تحديد مصير الأطراف الوطنية المكونة لهذه الدائرة المندمجة وبالتالى لهوامشها أيضا.

والهدف المعلن من العولمة وهو هدف لا تخفيه القوى العظمى الكبرى الأمريكية إقامة الحكومة العالمية وإعلانها بالرغم من أنها تعمل فى الخفاء وهو هدف دينى سياسى حسب زعمهم فى استقراء تنبؤات التوراة، وكما جاء فى بروتوكولات حكماء صهيون[١].



(١) اقرأ سلسلة حكومة العالم الخفية للمؤلف، الناشر دار الكتاب العربى.

العولمة من وجهة نظر إسلامية..
رحمة ورخاء وسلام للعالم

إذا كانت العولمة كفكرة بسيطة هى جعل العالم كله قرية صغيرة أصبحت أمراً واقعاً فى مجال الاتصالات وعلى الإنترنت، فإنها فى الجانب السياسى والاقتصادى قد حققت الخراب للعالم.

فالعولمة الغربية أو الأمركة وجعل العالم أمريكيا بإرادته أو بالإجبار والقوة يعنى عودة الاستعمار البغيض القديم والإمبريالية العالمية التى انتهت بمفهومها القديم فى الحرب الباردة إلا أطلت علينا بوجه قبيح باسم العولمة.

فالنظام الجديد الذى تحاول الولايات المتحدة فرضه على العالم اقتصاديا عن طريق الشركات المتعددة الجنسيات وجعل أمريكا هى البنك المركزى للعالم بأن تودع تلك الشركات والحكومات التابعة لهذا النظام العالمى أموالها ومدخراتها فى البنوك الأمريكية أصاب العالم مؤخراً بالكساد الاقتصادى وخسارة كبيرة لم يشهدها التاريخ المعاصر، وكله لصالح الولايات المتحدة نفسها لأنها هى التى أخذت المال وهى التى أضاعته أو ادعت إضاعته.

فالعولمة الغربية الأمريكية لا تعرف ديناً ولا أخلاقاً وإنما تسعى حثيثاً إلى المال الذى هو قبلتها ومبتغاها، حتى وصل الأمرإلى وجود ما يقرب من ثلاثة مليارات ونصف المليار من سكان العالم لا يحصل إلا على ٦٪ من الدخل العالمى، ويحصل باقى السكان البالغ عددهم المليارين ونصف المليار على الباقى.

وبالإحصائيات تعيش أغلبية سكان العالم بأقل من دولارين فى اليوم الواحد أى تحت خط الفقر بالمعايير الدولية، بل إن هناك أكثر من مليار لا يحصلون إلا على دولار واحد أو أقل.

ويوجد أيضاً من يموت جوعاً من الأمراض والجوع معاً، بالإضافة إلى انتشار

البطالة بكل صورها وأشكالها والسبب يرجع إلى العولمة المقيتة هى الفكر الليبرالى الجديد الذى ظهر بعد انتهاء الحرب الباردة وسقوط الشيوعية والمعسكر الاشتراكى فى أوربا الشرقية.

وكذلك تهاوى النظام الرأسمالى الجديد أو اليمينى القديم، فكان ظهور النظام الرأسمالى الليبرالى الجديد المسمى «العولمة» لظهورها بلباس الاقتصاد والحرية السياسية تحت اسم منظمة التجارة العالمية التى ضمت معظم بلاد العالم الأول والثالث.

ظهرت تلك العولمة لتغزو كل الدول، وتدعو إلى حرية انتقال رأس المال، وإلغاء الحواجز الجمركية، والإطاحة بالأنظمة، لتعزيز حرية المبادلات التجارية، بحيث أنتج نوعاً من التباعد بين النشاط المالى والنشاط الاقتصادى.

فمن أصل رأس مال قدره ألف وخمسمائة مليار دولار، تدور فى دوّامة العمليات اليومية على الصعيد العالمى، نرى أن هناك واحداً بالمائة فقط يخصص للبحث عن ثروات جديدة، بينما يدوّر الباقى فى إطار المضاربات.

ومعه تمّ تحوّل النظام الرأسمالى إلى نظام عالمى بقيادة أمريكا، والسبب فى ذلك هو أنّ هذه القيادة هى تمتلك ثروة واسعة كما أنها وديمقراطية نظاماً ولو بنسبة، ووسيعة أرضاً، وكثيرة شعباً، وهى مع كل ذلك بصدد التقدم على منافسيها والهيمنة عليهم، وإلا فسعة الصين أو الهند أكثر من أمريكا، لكنهم ليسوا بصدد القيادة فعلاً.

وقد ابتدأت أمريكا باتجاه فرض هيمنتها على العالم مع تعاظم القوة الاقتصادية أو للشركات المتعددة الجنسيات والقوميات، والتى مثّلت سلطة هذه العولمة دون أن تعلن عن هويّتها أو ولائاتها، وهذه الشركات غير خاضعة لمسؤولية معيّنة، لأنها لاتمثل السلطة الرسمية لأيّة أمة من الأُمم، ولا دولة من الدول.

وبمناسبة اجتماع وزراء أعضاء منظمة التجارة الدولية فى سياتل عام ٢٠٠٠، أخبرت الإذاعات وعكست الأقمار الصناعية، لقطات وصوراً من مظاهرات صاخبة جداً مؤلفة من مختلف طبقات الناس، وخاصة الطبقة العاملة والمزارعة، وجماعات من المثقفين من أصحاب الفكر الاقتصادى والنقابى، والاجتماعى والحقوقى.

وقد خرجت هذه الجموع تندد بالمجتمعين واجتماعهم الذى عقدوه لمدارسة الصيغة العالمية للاقتصاد العالمى، مما يدل على سخط الجماهير منها، ونقمتهم عليها وعلى العولمة الغربية الجديدة وأسلوبها الظالم.

وقد استطاع المتظاهرون رغم الحواجز الأمنية وبعد المواجهات العنيفة بينهم وبين الشرطة من احتجاز الرئيس الأمريكى الأسبق بيل كلينتون فى الفندق لمدة أربع ساعات ونصف، وشلّ أعمال التجمع لليوم الأول، وبعد أن أوصل بيل كلينتون نفسه إلى المؤتمر أشار فى خطابه إلى أنه على الدول أن تأخذ بعين الاعتبار الشعارات التى نادى بها المتظاهرون، والتى سمعها هو مباشرة خلال احتجازه فى الفندق والتى كان منها ما يلى:

الرأسمالية وحش قاتل.

الرأسمالية دولة الأثرياء.

نريد معلوماتية تخدم الإنسان.

نطالب بقيم الإنسان وليس بقيم ملاّك الشركات والمؤسسات الكبرى.

لا نريد عولمة لجمع الثروة فقط.

لا نريد حريات اقتصادية تسحق حق العيش الكريم.

الإنسان بلا ضمانات يأكله وحش المال.

النظام الرأسمالى يدفع المواطنين إلى الانتحار.

إلى غير ذلك.

وهكذا فى (ملبورن) باستراليا حيث قامت مظاهرة معادية للعولمة، وقد شارك فيها آلاف الأشخاص وأدت إلى فوضى عارمة لدى افتتاح (قمة آسيا المحيط الهادئ للمنتدى الاقتصادى العالمى) ورُددت شعارات ضد العولمة، كان منها:

لا للرأسمالية.

لا للمنفعة الفردية مقابل المجتمع.

العولمة وحش قاتل.

العولمة قانون الأقوى.

نريد سياسة لا تتأثر بالمال.

ناهضوا العولمة قبل أن يملكنا رجال الأعمال والمال.

إلى غير ذلك.

وفى بيان وقعته ١٢٠٠ منظمة من ٨٧ دولة جاء فيه: (إن منظمة التجارة العالمية فى السنوات الخمس الأخيرة قد أسهمت بدور بارز فى تركيز الثروة فى أيدى أقلية من الأثرياء جنباً إلى جنب، مع زيادة تفشى الفقر لأغلبية سكان الأرض... إن الاتفاقات التى أبرمت فى دور الاورجواى للتجارة قد استهدفت فتح أسواق جديدة لصالح المؤسسات متعددة الجنسيات، وعلى حساب الاقتصاد الوطنى والعاملين والزارعين والعدد من الفئات الأخرى والبيئة).

ولكن هل العولمة كفكر جديد كله شر.. أم أن بعضه فيه خير.. وما وجهة النظر الإسلامية فى العولمة؟

فالعولمة كمفهوم جعل العالم قرية صغيرة هى فكرة جيدة لو استفاد منها العالم الفقير قبل العالم الغنى، لكنها بالمفهوم الحالى المعروض على العالم هى «الأمركة» وهو ما يجعل الفقراء يعملون لصالح الأغنياء، فيزداد الأغنياء ثراءً والفقراء يزدادون فقراً.

فالعولمة الصحيحة هدف إنسانى سعى الإسلام إلى تحقيقه وأمر بنشره بجعل الناس يتعاونون فيما بينهم على البر والتقوى والخير والسعادة.

فالإسلام إذا ظهر على العالم بالحكمة والموعظة الحسنة عم الخير والرخاء وهذا ليس كلاماً إنشائيا.

إن النظام الاقتصادى العالمى، المعبّر عنه بالعولمة الاقتصادية، يشكل تأثيراً كبيراً على البلدان الإسلامية واقتصادياتها، إذ وراء هذه العولمة خبراء اقتصاديون وحكام سياسيون لا يفكرون إلا فى مصالحهم الشخصية ومنافعهم الفردية.

وهذا ينذر الإنسانية كلها وليس المسلمين فحسب بالشر والخطر.

وعليه فالعالم الإسلامى مهدد كله بأخطار العولمة الاقتصادية، ولكنه فى نفس الوقت نراه يعيش حياة التناحر والتآكل، والترهل والتهميش، فاقداً لأى موقف صحيح وهادف للدفاع أو للهجوم.

ومحاولات الضغط والكبت، والاستضعاف والاستثمار التى تحاك ضد البلدان الإسلامية إنما هى من أجل زلزلة أمنها، وزعزعة استقرارها، وتعطيل مؤهلاتها، وسحق كفاءاتها، كى يُلجئوها إلى الدخول فى تيار العولمة الغربية بأضرارها، وبالسباحة القهرية وفقها، والانتماء إلى التدويل الشامل للاقتصاد، أو العولمة الاقتصادية بعبارة أخرى.

وحول ظاهرة العولمة وحول أثرها الاقتصادى على البلدان الإسلامية هناك آراء فكرية مختلفة:

منها الرأى القائل بتحبيذ العولمة وتحسينها على وجه العموم، ويستدلون له بأنهم سيستفيدون من التقدم التقنى، والتطور الصناعى المتسارع، والتكامل الاقتصادى العالمى، ويأملون باستصلاح حال الناس اقتصاديا، وحصول ملايين البشر على حياة فضلى، مع إذعانهم بأن العولمة هذه تستلزم خسارة البلدان الإسلامية لبعض الشىء من سيادتها على اقتصادها وتوجيهه كما تريد وكيف تشاء.

وأصحاب هذا الرأى هم: رجال الأعمال، وأمريكا، والمؤسسات الثلاثة للعولمة: الصندوق والبنك الدوليين والمنظمة العالمية للتجارة.

وهناك الرأى القائل بواقعية العولمة وموضوعيتها، وإنها نتيجة طبيعية للتطور العلمى والتقنى، وقوى الإنتاج الرأسمالى، إنها تؤدى على التقارب بين مختلف الاقتصادات، إنهم يرون للعولمة هذه المحسنات، ويرون إلى جانبها مساوئ أيضاً، من أهمها إن الذى يحصل على منافعها قليل من الدول التى لا يتجاوز عدد سكانها ٢٠٪ من إجمالى سكان العالم، بينما أضرارها تمس أغلب البلدان النامية، وتسبب زيادة مشاكلها الاقتصادية، وتقضى على التنمية فيها.

ثم إن المدافع عن هذا الرأى هم: قسم من القوى اليسارية، وهواة الاشتراكية

المقيمين فى البلاد الرأسمالية، وبعض أصحاب الفكر القاطنين فى بلاد العالم الثالث.

وهناك الرأى القائل بشرارة العولمة ومضارها، وإنها من تبعات النظام الرأسمالى العالمى، لأنها تقصد تعويض اقتصادات الدول الرأسمالية عن تقلّص أسواقها الداخلية، بنقل أكثر عمليات الإنتاج خاصة الصناعات المنحطّة والمضرة للبيئة والناس - إلى البلدان النامية، مع إمساك قيادة الإنتاج فى العالم بيدها.

وعليه فالرأسمالية تريد حلّ مشاكلها الاقتصادية عن طريق عولمة الاقتصاد.

أى أنها تريد تصدير مشكلاتها الاقتصادية إلى بلدان العالم الثالث، لتتخلص هى منها، وتلقى بثقلها عليهم وإن أدى ذلك إلى خلق مجتمع طبقى بغيض فيهم.

وأصحاب الرأى هم: القسم الأعظم من أصحاب القوى السياسية والاقتصادية، والاجتماعية والثقافية، فى البلدان النامية، المطلعة على ما يعانيه الناس من ويلات النظام الطبقى غير العادل، المؤدى الى الفقر والحرمان، والجهل والأمية، والمرض والتبعية، والسلب والنهب لثروات بلدان العالم الثالث عن طريق الشركات متعددة الجنسيات، وبواسطة التبادل التجارى غير المتكافئ وغير العادل.

فمخاطر العولمة الحديثة وأضرارها تتمثل فى سيطرة أمريكا وغيرها من الدول الغربية على العالم، فإن هذه العولمة لا تفكّر إلاّ فى نفسها، ولا تبصر الأمور إلاّ بالمنظار المادى البحت، وتخطط للقضاء على الإسلام والمسلمين، لأنها تراهما يدعوان إلى عولمة صحيحة، لاتبنى على الهيمنة والاستثمار، والاستبداد والاستضعاف، وإنما تبنى إلى جانب النمو والازدهار على المُثل والقيَم، وعلى العدل والقسط، وعلى الرحمة والرأفة، وعلى التعاون والتوادد، وعلى التباذل والتواصل.

فهناك فرق بين الذى بنى أساسه على العدل والقسط، وفى قواعد الفطرة والعقلانية، والذى أسس بنيانه على خلاف ذلك، كان مصيره الزوال والسقوط، كما سقط النظام الشيوعى، وبادت الاشتراكية الغربية وزالت إلى غير رجعة.

ولكن مع ذلك فإن الدنيا دار أسباب ومسببات وكانت وستكون للعاملين فيها وقد قال الله سبحانه: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة: ١٠٥).

وقال عزوجل: ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ (الإسراء: ٢٠).

إن نصيب المسلمين من العولمة الغربية إذا لم ينتبهوا ولم يتداركوا الأمر بالرجوع إلى القوانين الإسلامية المنسية، هو الغزو الاستعمارى بنسبة أو بأخرى فى العديد من المجالات الاقتصادية والسياسية والثقافية وما أشبه.

وقد ذكر «بول اشميد» وهو عالم ألمانى، فى كتاب له كتبه قبل نصف قرن تقريباً يحذر فيه الغربيين من المسلمين، ويحرّضهم على إشعال الحروب الصليبية وإعادتها ضدّهم، ويعلل ذلك بأن المسلمين سوف يتغلبون عليهم لولا تدارك الأمر، وذلك لنقط القوة الموجودة عند المسلمين، ثم يلخصها فى أربع نقاط كالتالى:

١ ـ قوة اقتصادهم، للثروات الطبيعية والمعدنية التى يمتلكونها.

٢ ـ كثرة نسلهم، وازدياد عددهم، حيث إنهم يعملون بما أوصاهم نبيّهم ﷺ بقوله: «تناكحوا تناسلوا تكثروا، فإنى أباهى بكم الأمم يوم القيامة».

٣ ـ موقعهم الجغرافى المهم، فإن منطقتهم منطقة حساسة، تتربع على الوسط الرابط بين طرفى العالم، وتشرف على المياه الدافئة، وما إلى ذلك.

٤ ـ انتشار دينهم السريع، واستقطابه للجماهير، وذلك بسبب ما يحمله من سهولة ومرونة، وانفتاح وحرية، ومنطق وعقلانية، وجد واجتهاد، وحركة واستمرار، إنه يدعوهم للنشاط الدائم، والإبداع المستمر، والابتكار المتطور.

نعم إن الإسلام يؤكد على التنافس فى الخير والتقدم، قال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الحديد: ٢١).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٣).

وقال تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ (البقرة: ١٤٨).

إن الفرق بين العولمتين أعنى: العولمة الإسلامية والعولمة الغربية، هو كالفرق بين الاستقامة والانحراف، إذ فى العولمة الغربية يكون الهدف صبّ العالم فى منهج غربى خاص به اقتصادا واجتماعا، وسياسة وثقافة، وتربية وسلوكا، إلى آخر هذه القائمة، وذلك لتحصيل الربح المادى الأكثر.

إن كل ذلك الذى يحتويه المنهج الغربى من الفساد والأضرار مخالف للدليل المنطقى والقانون العقلى والفطرى، فلا الاقتصاد صحيح، ولا السياسة صحيحة، ولا السلوك سليم، ولا الثقافة سليمة، ولا الاجتماع مستقيم، ولا التربية مستقيمة، وهكذا.

والدليل على عدم الصحة والاستقامة هو نسيان جانب الروح، بل تناسيه، مع أن جانب الروح هو الجانب الأهم بالنسبة إلى بقية الجوانب فى الإنسان، فإنه على أكثر التقادير للروح نصف الأهمية، وللبدن النصف الآخر، ولكن مع كل ذلك نرى خصوصيات العولمة الحديثة منحصرة فى البدن فقط مضافاً إلى انحصاره أيضا لصالح البعض لا الإنسان بما هو إنسان.

نعم إنّ العولمة الغربية المنحصرة فى البدن والماديات مخالفة للعقل والعقلانية والفطرة السليمة، فإنهم يجعلون الآثار للشهوات المنحطة، والمُتع الرخيصة، ويتغافلون عن عواقبها الوخيمة، وتبعاتها المدمّرة، التى تجر الويلات على الفرد والمجتمع.

ثمّ إنه من الواضح أن الذى قد أخذ بزمام العولمة فى الحال الحاضر هو الغرب بما فيه أمريكا، واليابان، والاتحاد الأوروبى، بالإضافة إلى سعى أمريكا الحثيث والجاد لفرض هيمنتها فى كل الشؤون على النظام العالمى، ولا يخفى ما فى ذلك من المآخذ والمشاكل، والمآسى والويلات.

ثم إن للغرب آليات لهذا الشىء، مثل منظمة التجارة العالمية، وهى تسعى لفرض هذه الآليات على الجميع، كالشركات المتعددة الجنسيات، والحلف الأطلسى، وصندوق النقد الدولى، والبنك الدولى، ومجلس الأمن، ووسائل الاتصالات والإعلام، والأبحاث الإلكترونية، والأبحاث الكيماوية، وشبكات القنوات الفضائية، وشبكات الانترنيت، وهذا التصرف من دون ملاحظة مصالح الإنسانية غير صحيح كما لا يخفى.

أما العولمة فى الإسلام فهى نزعة إنسانية، وطريقة فطرية بشرية، قد وضع أساسها الرسول ﷺ بأمر من الله تعالى وقد صرّح القرآن الكريم بذلك ودعا إليه فى آيات متعددة كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣).

وقوله سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة: ٢).

وقوله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (البقرة: ١١٩)، حيث أطلق التبشير والإنذار، فكل انحراف وراءه إنذار، وكل استقامة بين يديها بشارة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ (سبأ: ٢٨).

فقد أرسى الإسلام أساس العلم وجعله لخدمة الإنسان، وليس العلم للعلم، أو لخدمة الظلم والعدوان، بينما نشاهد اليوم أنّ العلم صار بعضاً منه للعلم، كما فعل أصحاب النظريات العلمية الجافة والعقيمة، التى لا تمتّ إلى الإنسان ومنافعه بصلة، وبعضاً للتحريف والتدمير كما فعل مخترعو وسائل التجسس والتعذيب، وصانعو القنبلة الذرّية والنووية والجرثومية.

فالعولمة الإسلامية تمتاز بامتيازات هامة على العولمة الغربية وذلك فى مختلف الأصعدة، وجميع المجالات النظرية والتطبيقية، والمادية والمعنوية، ولعل أهم ما يميز هذه العولمة ومن جوانب متعددة هو ما يلى:

أن العولمة الإسلامية من حيث الإطار النظرى العام: المفهوم الدينى أو الوازع الإلهى الذى يهذّب النفوس ويطبع القلوب على محبة الآخرين، وإيصال النفع إليهم، ودفع الضرّ والشرّ عنهم، وذلك لأن الإسلام دين سماوى وليس موضوعاً من الموضوعات البشرية.

ويميز العولمة الإسلامية من الجانب المادى والمالى: تحريما للربا وتحليلا للتجارة وهذا هو جوهر الاقتصاد الإسلامى حيث لا يَظلم صاحب رأس المال ولا يُظلم، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ

وَلا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة ٢٧٨ - ٢٨٠).

وهذه الميزة اللاربوية هى من مفاخر وخصائص هذا الاقتصاد السماوى السليم، وبها يتميز ويتفرد وبشكل واضح عن الاقتصاد الرأسمالى وعن الاقتصاد الشيوعى والاشتراكى البائد، وقد نادى بهذا علماء الغرب من أهل الاقتصاد بعد سقوط البورصات العالمية مؤخراً.

ويميز العولمة الإسلامية من الجانب المعنوى والأخلاقى: عدم الاحتكار، فإن عدم الاحتكار هو ميزة جوهرية أخرى للاقتصاد الإسلامى، إذ ما زالت السياسة الاقتصادية العالمية الإسلامية من يومها ولا تزال حتى هذا اليوم خاضعة كلياً لحركة السوق التجارية: من بضائع وأمتعة، وأموال ونقود، ومسكوكات فضية وذهبية، ومواد غذائية وصناعية، وغير ذلك، ويحكمها قانون العرض والطلب، والتسويق والتدويل، ولم يكن للاحتكار تداولاً فى الأسواق العالمية الإسلامية.

ويميز العولمة الإسلامية أيضاً: حياد الاقتصاد فى النظام العالمى فى الاقتصاد الإسلامى، فإنه لا يعترف بالسيادة القومية أو السيادة الاقتصادية لدولة على أخرى؟.

ويميز العولمة الإسلامية عن غيرها: خضوع النظام الاقتصادى العمل التجارى الإسلامى لأحكام الدين وقوانين الشرع الحنيف، وتظهر هذه الميزة وأهميتها فى حالات الطوارئ وغيرها، فإن الاقتصاد يكون حينئذ أحد مقومات الإسلام وركائزه الركيزة عند بروز حالات المجاعة والزلازل والفيضانات وما أشبه فالإسلام يدعو للتكافل الاجتماعى.

إن العولمة الاقتصادية الإسلامية قد حملت بين جوانحها كل مقومات السعادة والحضارة، والتقدم والرقى، والإزهار والتطور، ونفى الفقر والحرمان، من الحكومة الشرعية، والاقتصاد الأمين، والقوانين المالية العادلة، والوحدة العالمية بكل أبعادها الحضارية، إلى الآداب الإنسانية الراقية، والقواعد الأخلاقية التقدمية.

العولمتان الإسلامية والغربية قد تشتركان فى بعض من الأسس العلمية، والبنى التحتية، سواء على الصعيد العلمى النظرى، أم على الصعيد الخارجى التطبيقى. والتعبير الأدق إن الإيجابيات الموجودة فهى من بركة الإسلام وتعاليمه.

فحرية الشركات الضخمة، وحرية التجارة وقوانين العمل، وحرية هجرة الأيدى العاملة، وحرية انتقال رؤوس الأموال، وحرية المضاربات التجارية، والمواد الأساسية من حقوق الإنسان، كلها أحكام شرعية بيّنها الإسلام وطُبقت فى عهد رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده.

وهذه المشتركات هى جزء من النظام الاقتصادى العالمى والإسلامى، بصورة عامة، وإن كان هناك بعد كبير شاسع فى مسألة الجانب الإنسانى والمجال الأخلاقى وما أشبه فيما بين النظامين بصورة خاصة.

ومن الضرورى فى العولمة الاقتصادية تشكيل السوق الإسلامية المشتركة، التى تعم جميع البلاد الإسلامية من دون جمارك ولا حدود ولارسومات ولا ضرائب إلا بمقدار ذكره الشارع المقدس، وهذا مما يوجب نمو الاقتصاد وازدهاره.

فإن الاقتصاد لن يكون بنظر الاقتصاديين اقتصاداً بالمعنى الصحيح ولا اقتصاداً بالمعنى السليم إلا إذا كان متطوراً نامياً، وذلك حتى يكون قادراً على حل أية مشكلة اجتماعية واقتصادية كهبوط الدخل وسقوط العائد اليومى للفرد، والبطالة وما أشبه ذلك.

مضافاً إلى أنِ شجرة الاقتصاد والتجارة والسوق معلولات اجتماعية على ما ذكره البعض، كما أن شجرة البرتقال والليمون والتفاح معلولات زراعية، ولابد لكل شجرة من النمو والازدهار وإلاّ فالذبول والخمول، ثم الموت والهمود حتمى، وشجرة الاقتصاد والتجارة لم يوجدا إلاّ لينموا ويعيشا، لا ليموتا ويضمحلاّ.

إن السوق الإسلامية المشتركة، التى هى من ضرورات العولمة الإسلامية ومرحلة أولية من مراحل العولمة الإسلامية، ليست هى أقل حظّاً ولا أضعف قدراً من السوق العربية المشتركة، فإن هذه السوق ما زالت تبدو وكأنها حبر على ورق يتجاذبها المجتمعون فى مجالس الجامعة العربية، ومعه لا يمكن لمثل هذه السوق أن تستقل لنفسها وتنمو وتزدهر.

إن العولمة الصحيحة هدف إنسانى لا غناء عنه إلا بنشره وتعميمه، ولا طريق للإنسانية أمامها إلا بالدخول فيها والانتماء إليها، علما بأنه لم يكن الدخول فيها قد بدأ فى هذه الأيام، بل منذ إرسال الأنبياء أولى العزم (عليهم الصلاة والسلام) وأخذت تتبلور وتتكامل منذ بدء عهد الرسالة الإسلامية.

ففى يوم الأحزاب عندما كان رسول الله ﷺ والمسلمون معه يحفرون الخندق حول المدينة ليأمنوا جانب العدو استعصى عليهم حجر صلد، فضربه رسول الله ﷺ بمعوله فانقدحت منه شرارة وسطع منها نور، فقال ﷺ وهو يبشر المسلمين: إنى رأيت فيه قصور الحيرة ومدائن كسرى، ثم ضربه ثانية وثالثة، فانقدحت فى كل ضربة شرارة، وسطع منها نور كذلك.

وفى كل مرة يقول ﷺ لأصحابه بأنه رأى فيها هدفا من الأهداف العالمية، حيث بشر المسلمين بأنهم يصلون إلى تلك البلاد وينشرون الإسلام فيها، فإن الإسلام دين عالمى.

وبالفعل، فقد وصلوا إلى تلك المناطق البعيدة، ونشروا الإسلام فيها، وهم فى طريقهم إلى تحقيق ما وعدهم الله من ظهور الإسلام على كل الأديان، لما فى الإسلام من محاسن الأديان كلها وخلو الأديان من محاسن الإسلام.

ويؤيد ذلك تنبؤات بعض كتاب الغرب ومحققيهم فقد قال احدهم فى كتابه: إنه لا يمر علينا مائة عام إلا ونرى البريطانيين يدخلون فى الإسلام.

وقال آخر منهم: إنه لا يمر مائة عام إلا والمسلمون يأخذون بزمام أمريكا.

هذا بالإضافة إلى أن الإمام المهدى آخر الزمان ليحقق تطبيق الإسلام على جميع أرجاء المعمورة وذلك قوله سبحانه عن دين الإسلام: (ليظهره على الدين كله) فإن الإسلام لابد له من يوم يأخذ فيه بزمام العالم كله، أخذاً صحيحاً تحت لواء الإمام المهدى والمسيح عيسى ابن مريم قرب الساعة[1].

إن رسالة الإسلام عالمية، فلم يكن الإسلام يوما للعرب وحدهم، ولم يكن القرآن يوما لقريش وحدها، ومن هنا فإن الحديث عن العولمة الإسلامية حديث جميل وشيق للغاية: إذ جاء الإسلام بها منذ أيامه الأولى، ومن حيث بزوغ شمسه المنيرة على الكون.

وقد أكد القرآن الكريم على هذا المعنى، وأيدته الأحاديث النبوية الكريمة والسيرة النبوية الشريفة، وهى كثيرة نستعرض منها ما يلى:

(١) اقرأ كتابنا «نهاية العالم وأشراط الساعة» الناشر دار الكتاب العربى.

قال الله تعالى فى وصفه القرآن الذى هو دستور السماء لأهل الأرض: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (ص: ٨٧).

وقال تعالى مباهيا بما أنزل من دستور وبمن أنزل عليه من رسول ﷺ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ (الفرقان: ١).

وقال سبحانه وهو يصف رسوله الكريم ﷺ ورسالته المباركة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

وقال سبحانه فى بيان مهمة الرسول ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ (سبأ: ٢٨).

وقال جل وعلا فى أجر الرسالة والرسول ﷺ: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (يوسف: ١٠٤).

وقال عز وجل فى صفة الكعبة والبيت الحرام: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٩٦).

قال تعالى:

﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ (ص: ٨٧ ـ ٨٨).

وقال سبحانه:

﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ (يس: ٦٩ ـ ٧٠).

ومن هذه الآيات المباركات وغيرها تتجلى الرسالة العالمية، وتتضح العولمة التى جاء بها الإسلام رحمة للناس كل الناس، وليس لطبقة خاصة، كأصحاب الشركات والاستثمارات الذين لا يرون إلا مصالحهم، ولا يعملون إلا من أجل منافعهم، وإن تضرر الآخرون من الأكثرية الساحقة.

ومن مظاهر عالمية الإسلام تلك الرسائل التى أرسلها ﷺ لملوك وحكام الأرض، بعد صلح الحديبية يدعوهم إلى الإسلام نذكر منها:

رسالته إلى هرقل عظيم الروم (قيصر الروم):

فكانت رسالة النبى ﷺ إلى هرقل.. عظيم الروم: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، عبده ورسوله إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسين ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤)(١).

رسالته إلى كسرى الفارسى:

وكانت رسالة النبى ﷺ إلى كسرى الفارسى: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس: سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، أدعوك بداعية الله عز وجل، فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس)(٢).

رسالته إلى النجاشى.. ملك الحبشة:

وكانت رسالة النبى ﷺ إلى ملك الحبشة: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشى الأضخم ملك الحبشة: بسلم أنت، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى، حملته من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وإن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى، فإنى رسول الله وقد بعثت إليك ابن عمى جعفرا ونفرا من المسلمين، فإذا جاءك فاقرهم ودع التجبر، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحى، والسلام عليكم وعلى من اتبع الهدى) (٣)

(١) السيرة النبوية لابن هشام. (٢)، (٣) المصدر السابق.

رسالته إلى النجاشى الثانى:

وكانت رسالة النبى ﷺ إلى النجاشى الثانى: (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من النبى ﷺ إلى النجاشى عظيم الحبشة: سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، وأن محمدا عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الله، فإنى رسوله، فأسلم تسلم ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤) فإن أبيت فعليك إثم النصارى).

رسالته إلى المقوقس.. عظيم مصر وحاكمها:

وكانت رسالة النبى ﷺ إلى المقوقس كبير القبط (المصريين) (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط، و﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤).

رسالة النبى ﷺ إلى صاحب دمشق:

وكانت رسالة النبى ﷺ إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى صاحب دمشق: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى شمر: سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله وصدق، وإنى أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقى لك ملكك).

رسالته إلى ملك البحرين:

وكانت رسالة النبى ﷺ إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى: سلم أنت، فإنى أحمد إليك الله

الذى لا إله إلا هو، أما بعد: فإن من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم له ذمة الله وذمة رسوله ممن أحب ذلك من المجوس فإنه آمن، ومن أبى فعليه الجزية).

رسالته إلى ملك اليمامة:

وكانت رسالة النبى ﷺ إلى هوذة بن على ملك اليمامة: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هوذة بن على: سلام على من اتبع الهدى، واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر، فاسلم تسلم، وأجعل لك ما تحت يديك).

رسالته إلى ملوك عمان:

وكانت رسالة النبى ﷺ إلى ملكىّ عمان: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام، أسلما تسلما، فإنى رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام، فإنه زائل عنكما وخيلى تحل بساحتكما، وتظهر نبوتى على ملككما).

وكان رسول الله ﷺ يراعى بالإضافة إلى العبارات الأدبية والكلامية فى رسائله، الأبعاد التبليغية، والأهداف السياسية والدبلوماسية، فترى الأمور التالية ظاهرة فى رسائله ورسله:

- الشجاعة والاعتداد الكامل بالنفس، فالشخص الدبلوماسى والرجل السياسى لابد أن يكون مطمئنا ومعتمدا اعتمادا كاملا على شخصيته فى إبلاغ ندائه وثقافته ورسالته لمخاطبيه.

- الألقاب الرسمية المناسبة فى تلك الرسائل، مثل: إلى هرقل عظيم الروم، على كسرى عظيم فارس، عظيم القبط، وغير ذلك.

وهكذا فإن دعوة الإسلام عالمية حيث يمكن تلخيص روح الرسالة الإسلامية فى شعار التوحيد وهو (لا إله إلا الله) وهذا سر علو الإسلام وعطائه العالمى.

ولا ريب فى أن أساس العقيدة الإسلامية المتمركزة فى ذلك الشعار الخالد يمتلك أروع وأقوى إمكانية على المدى المتواصل عالميا.

ثم إن انتشار الإسلام وبسرعة فائقة، ورغبة ملحة من الشعوب، فى أكثر مناطق المعمورة، هو مصداق بارز للعولمة الإسلامية التى تنسجم مع فطرة الإنسان، وبكل أبعادها الفكرية والثقافية، والدينية والتعبدية، والسياسية والعسكرية، والاقتصادية والتجارية، وغير ذلك من الأبعاد الحيوية الأخرى.

لقد حاربت كل من الإمبراطوريتين: الفرس والروم، الإسلام وأخذتا تجاهه مواقف عدائية، ورفضت الدين الجديد، والحضارة الجديدة، وذلك بدوافع من الخوف على معتقداتهم وإن كانت سقيمة، والحذر من فقدان ما تركه لهم الآباء والأجداد وإن كان هشا، فحرموا بذلك أنفسهم وشعوبهم رحمة الإسلام وعدله، حيث إنهم لم يعيروا أهمية للثقافة الإسلامية، ولا للمعلومات الحضارية، ولا للقوانين السماوية التى جاء بها الإسلام لإسعاد وإرغاد عيشه، وإعزاز شخصه فردا ومجتمعا.

إن العولمة التى جاء بها الإسلام هى آخر صيغة فى قاموس الحقوق بما فيه من حقوق الإنسان من حيث الصحة والأمانة، والجامعية والشمول، ولما كان وما يكون، ولم تكن هناك صيغة كذه تجمع بين العدل والأخلاق والنمو والازدهار.

قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣).



7

الاحتلال الديمقراطى الجديد

- مشروع الشرق الأوسط الكبير والنظام العالمى الجديد، بداية ظهوره.
- نص المشروع كما طرحه الرئيس الأمريكى بوش عام ٢٠٠٤ م.



مشروع الشرق الأوسط الكبير.. بدايته ومراحل تنفيذه بواسطة أصحاب البروج

بدأت فكرة مشروع الشرق الأوسط الكبير كفكرة تخدم إسرائيل الكبرى منذ النصف الأول من القرن العشرين بعد قيام تلك الدولة الصهيونية على أرض فلسطين ورفض العرب لها ومحاربتها عام ١٩٤٨ وكان هذا المصطلح جغرافيا يجدد المنطقة ثم مدى ارتباطها بالولايات المتحدة وبريطانيا والمصالح النفطية فى المنطقة العربية بعد اكتشاف آبار البترول فيها.

بيد أن تنفيذ هذا المشروع كان مستحيلاً حينها بعد استقلال الدول العربية من المستعمر الإنجليزى والمستعمر الفرنسى وظهور حركة عدم الانحياز مع بدايات النصف الثانى من القرن العشرين بزعامة مصر والهند ويوغسلافيا.

ولم تفلح محاولات الولايات المتحدة فى إقامة أى تحالفات فى ذلك الوقت مثل حلف بغداد.

ولكن بعد نهاية عصر الثورات وهزيمة مصر وسوريا وفلسطين فى حرب يونيه ١٩٦٧ تغيرت الظروف السياسية فى المنطقة.

ففى الثمانينيات من القرن العشرين أصدرت وكالة التنمية الأمريكية دراسة بعنوان «التعاون الإقليمى فى الشرق الأوسط» شارك فيها ثمانى وزارات وعشرة مراكز بحثية أكدت تلك الدراسة على بعدين لتحقيق مشروع الشرق الأوسط أولهما: البعد الجغرافى وثانيهما: البعد الاقتصادى[١].

والمقصود بالبعد الجغرافى هو الاعتراف بدولة إسرائيل من قبل الدول العربية والإسلامية حتى تندمج إسرائيل فى ذلك النظام الإقليمى الجديد ويضاف إلى الدول

(١) انظر الجذور التاريخية للشرق الأوسط ـ أحمد صدقى الدجانى.

العربية إيران وتركيا بوصفهما دولتين إسلاميتين.

والبعد الاقتصادى هو التعاون الإقليمى الاقتصادى لتلك الدول من خلال ثلاث مراحل هى:

المرحلة الأولى: تنمية التعاون فى مجالات علمية وتكنولوجية وإقامة محطات للاتصال وبحث بدائل للطاقة ـ النفط ـ إلى جانب السياحة والطب على المدى القصير.

والمرحلة الثانية: خاصة بمصادر المياه من خلال مشروعات مختلفة مثل البحر الميت وخليج العقبة ونهر الأردن وشبه جزيرة سيناء والشاطئ الشرقى للبحر المتوسط.

وأما المرحلة الثالثة: فيتم تنفيذها على المدى الطويل وهى مرحلة تتجاوز الخلافات السياسية التى تعيق حل الصراع العربى ـ الإسرائيلى.

ومن أبرز من كتب فى مشروع الشرق الأوسط الكبير رئيس الوزراء ووزير الخارجية الإسرائيلى السابق شيمون بيريز وهو رئيس الكيان الصهيونى حالياً حيث قال فى كلمته أمام البرلمان الأوربى فى ستراسبورغ عام ١٩٩٣: «على العرب أن يفاضلوا بين كابوسين: الأول هو بقاء الوضع كما هو ـ أى الاحتلال الإسرائيلى لفلسطين والأراضى العربية ـ والكابوس الثانى هو السلام بما يتضمنه من تنازلات وحلول وسط تشبه عملية بتر جراحية..».

وقال بيريز فى كتابه «الشرق الأوسط الجديد»: ضرورة تجاوز الاعتبارات القومية، فالاعتداد بالانتماء العربى والإسلامى هو ضرب من الجهل والتخلف».

ذلك بزعمه هو، وهو زعم باطل، لأن الحل فى الاعتداد بهذا الانتماء العربى الإسلامى.

ولذلك فإن «بيريز» يرى فى كتابه «ضرورة الإبقاء على التفوق التكنولوجى واحتكار الردع الفورى وهى أمور لازمة وضرورية لأمن واستقرار المنطقة»(١).

ولذلك فإن إسرائيل لم توقع على معاهدة الحظر النووى والتفتيش على المفاعلات النووية، وحين زار د. محمد البرادعى مدير الوكالة الدولية للطاقة النووية كى يتباحث حول مفاعلات ديمونة لم يستطع زيارة هذه المفاعلات بل شاهدها بواسطة طائرة

(١) يقصد بالطبع أمن إسرائيل لأن أمن المنطقة يقتضى إزالتها من المنطقة.

فوق المفاعل!!.

ومن خلال التطور التاريخى لمشروع الشرق الأوسط يتضح لنا أنه مشروع استعمارى قديم يتطور مع كل حقبة زمنية من المستعمر الجديد الذى يظهر على الساحة الدولية.

فقد ظهر هذا المشروع حين تم تقسيم الوطن العربى بين بريطانيا وفرنسا باتفاقية «سايكس بيكو» الشهيرة عقب انهيار الخلافة العثمانية، نهاية الحرب العالمية الأولى وظهرت حركة القوميات فيها لإنقاذ سياسة «فرق تسد» الاستعمارية، فكانت لكل دولة مقسته قومية خاصة بها تدافع عنها.

وشاعت فكرة الشرق الأوسط حينها فى السياسة البريطانية وأدبيات السياسة الفرنسية بوصفها ممثلى الاستعمار القديم فى ذلك الوقت، ومع ظهور «وعد بلفور» عقب الحرب العالمية الأولى والمشروع الصهيونى اليهودى الذى يقضى باحتلال فلسطين وبعض الدول العربية الخاضعة وقتها للاحتلالين الإنجليزى والفرنسى تطور هذا المفهوم للشرق الأوسط.

وأصبح العالم فى وجهة النظر الاستعمارية ثلاثة أضلاع: العالم الإسلامى والعالم المسيحى والعالم اليهودى.

وفشلت الأحلاف الاستعمارية التى حاول الاستعمار القديم فرضها على الوطن العربى فى فترةالخمسينيات من القرن الماضى.

(فالشرق الأوسطية) كفكرة تنسب إلى مركز خارج الشرق الأوسط هو أوربا تاريخيًا وإلى الغرب وفيه الآن الولايات المتحدة - قطبه الأكبر، وهى لم تعبر أبدًا عن نطاق جغرافى تاريخى محدد على وجه الدقة، بل تعرضت للانكماش والتوسع مع تغير المشاريع الغربية والأمريكية تجاه الوطن العربى والعالم الإسلامى.

ففى إطار سعى بريطانيا وفرنسا، ثم الولايات المتحدة لحصار المد القومى العربى بزعامة جمال عبد الناصر فى عقدى الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، تم توسيع المفهوم ليشمل دولاً إسلامية غير عربية مثل إيران فى عهد الشاه وتركيا بحيث

يصبح الشرق الأوسط نطاقًا إستراتيجيًا وأمنيًا يقوم على سلسلة من الأحلاف مثل حلف بغداد عام ١٩٥٥ .

ثم مشروع النقطة الرابعة للرئيس الأمريكى الأسبق أيزنهاور لملء الفراغ الإستراتيجى بقيادة الولايات المتحدة مع أفول نجم بريطانيا وفرنسا عام ١٩٥٧ ثم الحلف الإسلامى عام ١٩٦٥، وهى الأحلاف الاستعمارية التى هزمت ووئدت مع الصحوة القومية وتأميم قناة السويس المصرية وحركة التحرر الوطنى العربى والمد الوحدوى العربى.

معنى ذلك أن (الشرق الأوسط) هو تعبير عن منطقة (ذات جغرافيا متغيرة)!!، ويدل على ذلك أن المصطلح صار يعبر عن مدلول جغرافى آخر مغاير بعد هزيمة النظام الناصرى والمد القومى العربى عام ١٩٦٧ على يد إسرائيل والدعم الأمريكى لها، فبعد أن كان يقتصر على مصر وفلسطين والشام، صار بعد عدوان عام ١٩٦٧ وانشغال الحكومات العربية بمهمة (إزالة آثار العدوان) فى إطار قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ يشير فقط إلى الحيز الذى تشغله الدول التى دخلت حرب ١٩٦٧,

ففى عهد إدارة نيكسون وتحت تأثير سياسة وزير الخارجية الأمريكى هنرى كيسنجر استثمرت إلى حد بعيد سعى الرئيس المصرى السابق أنور السادات إلى تسوية سلمية سريعة ومنفردة مع إسرائيل بعد أن عبر منذ الأيام الأولى لحرب أكتوبر ١٩٧٣ عن عزمه على عدم إطالة أمد الحرب أو عدم توسيع مداها.

وذلك فى مراسلاته السرية مع كيسنجر، وتم ذلك الاستثمار من خلال نجاح كيسنجر فى فك الارتباط بين قضيتى النفط والصراع العربى - الإسرائيلى فى إطار مواجهته لتداعيات استخدام سلاح النفط العربى إبان حرب أكتوبر.

ومن جانب آخر وضعت الولايات المتحدة تصورًا للشرق الأوسط فى هذه الحقبة يحصره فى الأطراف العربية التى تقبل التسوية السياسية للصراع العربى - الإسرائيلى بقيادة منفردة لواشنطن ومعها كل من إسرائيل وإيران الشاه وتركيا، مع التأكيد على أهمية إقامة علاقات اقتصادية وتنسيق أمنى بين هذه الأطراف العربية وإسرائيل.

وقد تم ذلك جزئيًا مع توقيع السادات معاهدة (سلام) منفردة مع إسرائيل عام ١٩٧٩.

ومع نهاية الحرب الباردة وزوال الاتحاد السوفييتى وحرب الخليج الثانية ضد الغزو العراقى للكويت وانتصار الولايات المتحدة على المنظومة السوفييتية دون حرب أعطى كل ذلك فرصًا عديدة للمضى قدمًا فى تطبيق مشروعها المتجدد للشرق الأوسط، وخصوصًا مع قيادتها لما سُمّى عملية سلام مدريد فى أكتوبر ١٩٩١ .

وحاولت واشنطن فرض تصورها شرق الأوسطى بقضايا متداخلة بين بعدها العالمى وبعدها الإقليمى مثل التسلح واللاجئين والمياه والتعاون الاقتصادى، مع السعى لتأسيس نماذج للتعاون والتكامل الاقتصادى والأمنى على أسس جيو إستراتيجية، وجيو اقتصادية بهدف تقويض النظام الإقليمى العربى وعلى حساب قضايا ومصادر الصراع الجوهرية وهى الاحتلال الإسرائيلى للأراضى العربية والقضية الفلسطينية، وعلى حساب الانتماءات والروابط العروبية الإسلامية الثقافية/ الحضارية والتاريخية واللغوية.

وفى هذا الإطار تلاقت المصالح الأمريكية والإسرائيلية فى إعادة صياغة خريطة المنطقة عبر طرح صيغة ملائمة لإدخال إسرائيل فى (منطقة ينزع عنها مواصفات الجغرافيا التاريخية وسمات التاريخ الحضارى والثقافى، ويشدد فيها على الجغرافيا الاقتصادية المعاصرة فى نظام السوق العالمية، ليخلق فيها نواة سوق شرق أوسطية تتوسع بالتدريج انطلاقًا من إسرائيل كنواة ودورها كقوة جاذبة ومهيمنة اقتصادياً وتكنولوجياً وأمنياً ومدنياً).

وقد تقدم بهذا الطرح (شيمون بيريز) فى كتابه (الشرق الأوسط الجديد) وكذلك بنيامين نتنياهو فى كتابه (مكان تحت الشمس)، حيث تم تقديم إسرائيل لديهما كدولة متقدمة مصنعة وسط محيطها العربى، وكقوة عسكرية رادعة.

هذان الكتابان اللذان يمثلان الصقور الصهاينة قد نشرا أراءهما عامى ١٩٩٥ و١٩٩٦ وهما حصيلة فعلية لما طرحته تل أبيب من قائمة مقترحات قدمتها فى الاجتماع الأول لما عرف بالمفاوضات متعددة الأطراف فى موسكو فى يناير/ كانون

الثانى ١٩٩٢ .

ثم فى المؤتمرات الاقتصادية لما عرف بـ(الشرق الأوسط وشمال إفريقيا) فى الدار البيضاء عام ١٩٩٤ وعمّان عام ١٩٩٥ والقاهرة عام ١٩٩٦ والدوحة عام ,١٩٩٧

وتضمنت برامج للتعاون الاقتصادى فى قطاعات ومشروعات محددة: المشاركة فى الموارد الطبيعية والتكنولوجية والبشرية، التعاون فى ميادين البحث العلمى، توسيع أسواق المنطقة، جذب الاستثمارات الخارجية ومن دول النفط العربية، جذب مؤسسات التمويل الدولية للاستثمار فى تطوير البنية الأساسية الإقليمية، وتأسيس صندوق إقليمى للتنمية فى الشرق الأوسط.

كما تقدمت تل أبيب أيضًا بمقترحات للتنسيق الأمنى بين الدول العربية وبينها، وصولا إلى إقامة نظام للإنذار المبكر يقوم على جمع وتبادل المعلومات الاستخبارية والأمنية بينها وبين الأطراف العربية، وبما يكفل الحيلولة دون حدوث أزمات مفاجئة وإدارة الأزمة وقائياً.

وقد تمكنت إسرائيل من تحقيق نجاح جزئى بدعم تام من الولايات المتحدة وتركيا فى مجال التطبيع الاقتصادى وتوقيع معاهدة (سلام) مع الأردن فى وادى عربة عام ١٩٩٤ والتوصل لإعلانات أوسلو بين أعوام ١٩٩٣ و١٩٩٥ مع سلطة الحكم الذاتى الفلسطينية.

وهكذا يمكن لنا ملاحظة أن (شرق الأوسطية) كمشروع أمريكى إسرائيلى صار يتوسع ليضم مختلف الدول العربية؛ حيث تم إفهام هذه الدول أن التطبيع لا بد أن يتضمن حيزًا أوسع.

وهذا الطرح التوسيعى لـ(شرق الأوسطية) شدد عليه الرئيس الأمريكى الأسبق جورج بوش الأب فى كلمته أمام الجلسة الافتتاحية لمؤتمر مدريد عندما قال: (إن هدفنا ليس إنهاء حالة الحرب فى الشرق الأوسط، وأن تحل محلها حالة عدم الحرب، إن هذا لن يستمر، لكننا نريد السلام الحقيقى، إننى أتحدث عن الأمن والعلاقات الاقتصادية والتجارية والتبادل الثقافى).

ومن اللافت للنظر أن معظم الدول العربية ـ سارعت إلى الدخول فى هذا المشروع شرق الأوسطى الموسع تحت أوهام عديدة منها أن إدراج إسرائيل فى منظومة شرق أوسطية قائمة على التعاون والتكامل الاقتصادى والمشروعات السياحية والتنموية المشتركة، وخصوصًا بين مصر وإسرائيل والأردن مع ضغط القاهرة وعمّان على السلطة الفلسطينية للانضمام إليها، من الممكن أن يدفع تل أبيب لتنفيذ التزاماتها الواردة فى إعلانات أوسلو بشأن القضية الفلسطينية.

وبالطبع رفضت تل أبيب وواشنطن هذه (المقايضة) وصممتا على الفصل بين التطبيع الثنائى والإقليمى وبين التسوية السلمية للصراع على الجبهات الفلسطينية واللبنانية والسورية.

لكن ذلك الرفض لم تقابله النظم العربية الداخلة فى المشروع شرق الأوسطى بتجميد روابط واتصالات التطبيع مع إسرائيل لإدراكها أن بقاء صلات ما بتل أبيب مدخل مهم للغاية لاستمرار علاقاتها الجيدة مع واشنطن، وحيث حرصت على ألا تشوبها أية شائبة.

بل إنها التحقت بـ(التجمع شرق الأوسطى الموسع) بالمفهوم الأمنى الذى أرادته له كل من واشنطن وتل أبيب عندما حضرت معظم الحكومات العربية ما سُمّى (مؤتمر شرم الشيخ لمكافحة الإرهاب)، والمقصود (الإرهاب) الفلسطينى خاصة بعد عمليات استشهادية عديدة استهدفت تل أبيب وعسقلان فى عام ,١٩٩٦

انتهزت دوائر اليمين المحافظ واليمين المسيحى الأمريكية الحاكمة فى إدارة بوش الابن هجمات الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ العدوان على العراق واحتلاله والإطاحة بنظام صدام حسين لفرض تصوراتها عما أسمته (الشرق الأوسط الكبير) والذى يقوم على إعادة صياغة كاملة للخريطة الجيو إستراتيجية للمنطقة العربية تتضمن الإجهاز على ما تبقى من بقايا النظام الإقليمى العربى، والعمل على طمس المقومات الثقافية/ الحضارية عروبية وإسلامية للوطن العربى عبر تذويب هذا الفضاء السياسى الجغرافى التاريخى الثقافى المشترك فى نطاق إستراتيجى أوسع يمتد من بحر قزوين

وشمال القوقاز شمالاً وشرقًا إلى المغرب غربًا.

وقد استندت دوائر اليمين المحافظ واليمين المسيحى وحلفاء إسرائيل ومعها مراكز بحوث مؤثرة فى صناعة السياسة مرتبطة بها ارتباطًا وثيقًا إلى مزاعم وتصورات غير متناسقة ويسيطر عليها الطابع البراجماتى ومن أهمها أن (الشرق الأوسط) هو منطقة الاضطراب الكبير فى العالم ومصدر كبرى المشكلات والتهديدات القديمة والمستجدة للأمن القومى الأمريكى مثل الإرهاب وانتشار أسلحة التدمير الشامل والأصولية والتطرف والهجرة غير المشروعة... إلخ.

وساقت أدلة على ذلك منها وجود نظام صدام حسين نفسه، وكون جميع من نسب إليهم القيام بالهجمات على واشنطن ونيويورك من بلدان عربية، وساعدهم آخرون من تنظيم القاعدة وباكستانيون وغيرهم من شرق أوسطيين.

هذا إلى جانب ما كرره المسئولون الأمريكيون، بدءاً من الرئيس الأمريكى بوش الابن نفسه ونائبه ديك تشينى إلى وزير الخارجية كولين باول السابق إلى مستشارة الأمن القومى كوندوليزا رايس إلى وزير الدفاع السابق رامسفيلد وابنته إليزابيث ومستشاره (بيرل) ووكيل الوزارة (دوجلاس فايث) وغيرهم، بناء على بحوث وتقارير قدمتها مراكز بحوث يمينية مرتبطة بفريق بوش مثل (مؤسسة أمريكان إنتربرايز) و(مؤسسة هيريتاج).

ومفادها أن الطابع السلطوى للنظم العربية الحاكمة فى دول كبيرة مثل مصر وغيرها إلى جانب مناهج التعليم والسياسات الثقافية والإعلامية والفساد السياسى والمالى، وكذلك غلبة نظم للحكم وأنماط للتفكير غير عصرية، تُعَدّ كلها مسئولة عن شيوع التطرف والإرهاب والتعصب وكراهية الولايات المتحدة والغرب وموجات الهجرة إلى الدول الغربية والحرمان الاقتصادى والاجتماعى.

ومن الملاحظ أن إدارة بوش الابن صممت على أن تقوم الولايات المتحدة بنفسها بهذه المهمة مباشرة وليس عبر إسرائيل.. مهمة إعادة الهيكلة الشاملة للوطن العربى والعالم الإسلامى فيما يعرف الآن بمشروع (الشرق الأوسط الكبير).

وكانت إدارة بوش قد خيرت العالم كله بين تأييد ما يسمى الإرهاب أو محاربته، وحاول بوش الربط بين الإرهابيين وانتشار أسلحة الدمار الشامل، وصمم على أن تحتكر إدارته وحدها تحديد التهديدات المختلفة، ولم يقبل بمشاركة الآخرين بمن فيهم الحلفاء الأوربيون أنفسهم فى ذلك التحديد، بل هدّد الجميع بأن من لم ينضم إلى تصوره فى هذا الصدد إنما يدخل أتوماتيكيًا فى خانة دعم الإرهاب أو التستر عليه.

وذكر بوش أيضًا أن أحداث سبتمبر أثبتت أن المؤسسات القديمة وكذلك التحالفات والقواعد لم تَعُد مناسبة لحماية الشعب الأمريكى، وأنه إذا لم يتمكن من قمع الإرهابيين، فإن ميدان عملهم سوف يتسع، وإذا تمكنوا من الوصول إلى أسلحة التدمير الشامل فسوف تترتب نتائج خطيرة.

وخاطب بوش النظم العربية بالذات والعالم عمومًا بأن الولايات المتحدة سوف تتصرف فى الوقت وبالطريقة التى تلائمها وتراها مناسبة عندما تتوصل إلى وجود رابطة بين الإرهابيين والتكنولوجيا المدمرة. بل ذكر أنه من الضرورى هزيمة أعداء الولايات المتحدة وعدم الاكتفاء بالاعتراض على وجودهم.

ومع أن معظم النظم العربية قبلت الدخول فى المشروع الشرق أوسطى عندما كان يقتصر على التعاون الاقتصادى والتنسيق الأمنى، بل وتسابقت على المشاركة فيه، لكن عندما توالت تصريحات وأفكار إدارة بوش الابن عن أن الشرق الأوسط الكبير هدفه الرئيسى إدخال الشرق الأوسط فى دائرة الدمقرطة العالمية بالمعايير الأمريكية طبعًا والذى بدأ منذ إدارة ريجان فى بداية الثمانينيات من القرن العشرين إلى بداية عهد إدارة بوش الابن، واقتصر على شرق أوربا وروسيا وأمريكا اللاتينية.

فإذا بإدارة بوش الابن تعلن عن تصميمها على ضم الشرق الأوسط إلى دائرة الإصلاح الديمقراطى والسياسى ولو كان ذلك بالقوة، ولو أدى إلى إغضاب الأصدقاء والحلفاء من النظم العربية الموالية التى تعودت على تجاهل الولايات المتحدة لمثل هذه القضايا وتقديم مصلحتها الاقتصادية معها.

ومن هنا عبرت هذه النظم عن غضبها واستيائها من التصميم الأمريكى، وذكرت أن الديمقراطية لا تفرض من الخارج، مع أن غالبية سياسات وقرارات هذه النظم إنما جاءت وطبقت أساسًا بناء على ضغوط وإغراءات خارجية وأمريكية على وجه الخصوص.

وكانت واشنطن قد أجرت مناقشات عديدة مع بعض الوزراء الأوربيين فى العاصمة واشنطن بغرض أن يتم التنسيق بين التصور الأمريكى والتصور الأوربى الذى تقدمت به ألمانيا ممثلة فى وزير خارجيتها يوشكا فيشر فى فبراير/ شباط ٢٠٠٣ إبان القمة الأوربية التى عقدت فى ألمانيا والتى دعت إلى إصلاح ديمقراطى فى الشرق الأوسط وأساسًا فى الدول العربية، ولكن نابع من الداخل إلى جانب مشروع تنمية متكامل وإصلاح عربى وتنمية مستديمة وأثارت المبادرة الألمانية أيضًا أهمية قضية المعرفة.

تعمد الرئيس الأمريكى بوش فى خطبه منذ نهاية عام ٢٠٠٣ وحتى نهاية فبراير ٢٠٠٤ أن يغفل الحديث عن الصراع العربى الإسرائيلى أو (سلام الشرق الأوسط)، وقصرها على قضية التغيير السياسى فى هذه المنطقة التى صارت تضم أفغانستان وباكستان وإسرائيل وتركيا إلى جانب كل الدول العربية.

مشروع الشرق الأوسط الكبير عبارة عن أفكار غير معدة جيدًا ومتناثرة ولا تشبه خطة محددة أو مشروعًا متكاملاً، فمن أهم ملامح الجانب المتعلق بالتغيير الديمقراطى الذى تريده واشنطن هو ما تحدث عنه بوش فى خطابه فى السادس من نوفمبر ٢٠٠٣ عندما وصف المجتمع الديمقراطى الناجح المنشود بأنه مجتمع يضع حدودًا على سلطة الدولة وسلطة الجيش؛ لكى تتمكن الحكومة من الاستجابة لإرادة الشعب بدلاً من الاستجابة لإرادة النخبة فقط، وهو المجتمع الذى يشجع قيام المؤسسات المدنية السليمة وتشكيل الأحزاب ونقابات العمال ووجود الصحف ووسائل الإعلام المستقلة.

أما اقتصاد هذه المجتمع فهو قائم على اقتصاد القطاع الخاص ويضمن حق الملكية الفردية ويعاقب الفساد ويخصص الاستثمارات فى قطاعى الصحة والتعليم للمواطنين

ويعترف بحق المرأة، وبدلاً من توجيه مواطنيه نحو كراهية ورفض الآخرين يسعى إلى تحقيق آمال شعبه.

وبهذا المعنى أيضًا قدم «كولين باول» وزير الخارجية مبادرة الشراكة الأمريكية الشرق أوسطية، وإلى جانب القضايا الاقتصادية التى تتشابه مع ما ورد فى خطاب بوش سالف الذكر، ذكر «باول» أن هذه المبادرة صممت لدعم الرجال والنساء والشباب فى الشرق الأوسط فى سعيهم نحو الديمقراطية والحريات المدنية وحكم القانون، وجاء فى برامج واشنطن فى هذا الصدد ما يلى:

- مساعدة المنظمات غير الحكومية والأفراد المنتمين إلى جميع الفئات السياسية العاملين فى سبيل الإصلاح السياسى من خلال آليات كصندوق ديمقراطية الشرق الأوسط.

- دعم إنشاء مزيد من المنظمات غير الحكومية وشركات وسائل الإعلام المستقلة، ومنظمات إجراء الاستفتاءات ومؤسسات الفكر والرأى وغيرها.

- برامج شفافية النظم القانونية والتنظيمية وتحسين إدارة العملية القضائية.

- التدريب للمرشحين لمناصب سياسية ولأعضاء البرلمانات وغيرهم من المسئولين المنتخبين.

- التدريب والتبادل للصحفيين فى الصحف التقليدية والصحافة الإلكترونية.

ورغم أن المبادرة تعرضت لقضية الإصلاح التعليمى، فإنها أشارت فقط لبرامج لتعلم القراءة والكتابة وتحسين سبل اكتساب المعرفة ومنح دراسية للبكالوريوس فى الولايات المتحدة.

أما هدف تغيير نظم ومناهج التعليم والسياسات الثقافية والإعلامية فقد ورد غالبًا فى تقارير كشف النقاب عنها، والغرض من وراء ضغوط وإغراءات إدارة بوش وراء ذلك متعدد من أهم جوانبه العمل على إنهاء الكراهية والتعصب ضد الولايات المتحدة وإسرائيل والغرب عمومًا باعتبار أن هذه النظم والسياسات كما تزعم إدارة

بوش هى المسئولة عن تفريخ الإرهابيين وتشكيل وعيهم!!.

ثم ذكر بوش فى خطب أخرى له أنه مصمم على تقديم الدعم لأنصار الإصلاحات الديمقراطية فى البلاد العربية، وامتدح بعض النظم العربية التى أدخلت بعض الإصلاحات الديمقراطية وخص مصر بالتحديد عندما ذكر أنه آن الأوان لكى تقود مصر جهود الديمقراطية بعد أن قادت جهود ما سماه السلام من قبل.

لم يتوقف الأمر عند حد الدعوات، بل عبرت إدارة بوش عن استعدادها لخوض مواجهة عنيفة فى هذا المجال، عندما عبرت عن غضبها الشديد من قيام الحكم المصرى باعتقال ومحاكمة مدير مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية الدكتور سعد الدين إبراهيم، بل وألمحت إلى تصميمها على تخفيض المعونة الأمريكية لمصر إذا ما استمر إبراهيم فى السجن(١) .

وعبّر بوش كذلك فى خطابه فى السابع من فبراير ٢٠٠٤ بمناسبة افتتاح معرض فى مكتبة الكونجرس عن حياة القائد البريطانى ونستون تشرشل عن نفس المعنى وبصراحة أكبر عندما ربط بين مكافحة الإرهاب ونشر الديمقراطية فى العالم العربى، وأوضح أن أمريكا تتبع ما أسماه إستراتيجية لنشر الحرية فى المنطقة وبأنها تواجه أعداء الإصلاح وتتصدى لمن أطلق عليهم حلفاء الإرهاب، وأكد على أن أمريكا صارت تطالب أصدقاءها الآن بما لم تفعل من قبل.

وذكر أن الديمقراطية ينبغى أن تفرض من الداخل حتى ينفى عن بلاده أنها تفرض الديمقراطية من الخارج، بالطبع يُعَدّ هذا تطورًا بارزًا فى موقف إدارة بوش يبدو أنها توصلت إلى أن الديمقراطية لا تفرض من الخارج، وخصوصًا من قوة استعمارية تحتل العراق، بعد سماع نصائح حلفائها الأوربيين.

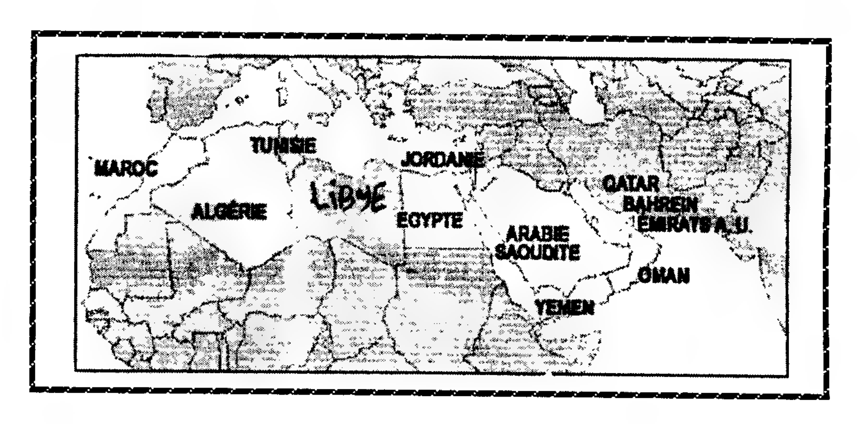
وهو أمر على كل حال يدل على إدراك هذه الإدارة ولو جزئيًا لهذه الحقيقة وهو ما أقرت به على الأغلب تحت ضغوط داخلية من الديمقراطيين فى حمى التحضير للانتخابات الرئاسية فى نوفمبر ٢٠٠٤، ولكن هذه الإدارة لم تفعل الكثير فى صدد

---

(١) وتم بالفعل الإفراج عن د. سعد إبراهيم بحكم البراءة بعد إعادة محاكمته.

التغيير الديمقراطى الفعلى وبما يقنع ولو جزئيًا المواطن العربى الذى يرى وحشية قوات الاحتلال الأمريكى فى العراق وقوات الاحتلال الصهيونى فى فلسطين.

إن الشرق الأوسط الكبير فى طبعته الأمريكية الجديدة وهى طبعة يمينية محافظة لا تدرك أهمية إيجاد حلول للصراعات الإقليمية وعلى رأسها الصراع العربى - الصهيونى وضرورة خروجها من العراق كمدخل لتخفيف حدة الاستقطاب، ولا تدرك جسامة التناقض الكائن بين عدم إمكانية التوفيق بين الضربات الوقائية التى تتبناها هذه الإدارة ومتطلباتها الأمنية فى إطار محاربة ما يسمى الإرهاب وبين الإصلاح الديمقراطى.



خريطة

والجدير بالذكر انه تم الإعلان عن مشروع الشرق الأوسط الكبير يوم ٦ نوفمبر٢٠٠٣، من قبل الرئيس جورج بوش، خلال حديثه عن (الهيئة الوطنية للديمقراطية) المعروفة اختصارا (نيد). وهى المناسبة التى يضع فيها الرئيس الأمريكى مخطط إدارته العام للتدخل فى شؤون الشرق الأوسط بغية إعادة تشكيله.وقد تم خلال المناسبة تخصيص حوالى٤٠مليون دولار دعما لجمعيات مقربة من الإدراة الأمريكية، وكذا وسائل إعلام مرشحة على أنها (قنوات الدبلوماسية الشعبية)

لكن فى الواقع العملى، يبقى هذا المشروع غامض المعالم، لكنه فى الوقت ذاته يجمع بين مخططات عدة مستعجلة بالمنطقة. كما لا ننسى كذلك مؤتمرين هامين

عقدا بدعم من هذا المشروع، الأول المنتدى الدولى بالمنامة (١٥-١٧سبتمبر٢٠٠٣)، والثانى الملتقى الاقتصادى العربى (٢٨-٣٠سبتمبر٢٠٠٣)، وغلب على طابع هذين المؤتمرين أسئلة كثيرة حول مستقبل العراق، والدستور العراقى.

ثم انه ثمة مؤتمر ثالث، عقد ببيروت(٩-، أكتوبر٢٠٠٣) حيث ضم اتحاد البنوك العربية، وقد كان الهدف من ورائه فرض أنماط تعاملات اقتصادية على البنوك العربية تهدف إلى التحكم فى عمليات تمويل الإرهاب، ومن أجل وضع نظام مالى مصرفى لبرالى جديد بالعراق.ليكون بذلك مشروع الشرق الأوسط الكبير، قد أسس للعرب اقتصادياتهم وشؤونهم المالية.

واعتمادا على تقرير هيئة الأمم المتحدة حول التنمية البشرية بالعالم العربى، راجع الرئيس بوش نسخته الأصلية المقترحة للشرق الأوسط، ليستوحى من تقرير الأمم المتحدة نسخة أكثر تطورا لمشروع يتعين عليه تقديمه فى ٢٠٠٤، أثناء لقاء القمة لمجموعة الثمانية بجورجيا، كما ذكرت جريدة الحياة وهذه النسخة المتطورة تسمى: مشروع الشرق الأوسط الكبير Greater Middle East Initiative-GMEI

فى البدايات الأولى للمشروع، قدم المشروع على أساس أنه إعادة نشر لمشروع هلسنكى، الخاص بالعالم العربى.والذى كان يتوخى منه أن يصدر الديمقراطية إلى الاتحاد السوفييتى.

وهذه المقارنة تستوحى حتما رفضا لهذا المشروع من قبل الدول المعنية، (النتائج بدت واضحة اليوم لما حدث بالاتحاد السوفييتى، فقد حصل تفكك هذا الاتحاد، ازدادت حدة المعاناة من برامج الخوصصة، وعاشت شعوب الاتحاد المأساة فى العشرينتين الماضيتين).

كما لاحظ أيضا الدكتور مروان معشر، وزير الشؤون الخارجية، قائلا (ان هدفنا أن لا يرى هذا المشروع الضوء البتة).

وعليه يظهر مشروع الشرق الأوسط الكبير، مشروعا بيروقراطيا يثير الغرابة، فهو يضم الدول المشار إليها فى مشروع الشرق الأوسط زيادة على كل من أفغانستان،

باكستان، العراق وتركيا. وهذا الفضاء الجغرافى يتناسب تماما مع الرغبة فى الحرب على الإرهاب على حسب الإدارة الأمريكية، والتى ترى فى الإرهاب خطرا حقيقيا على هذا المخطط.وفى هذا السياق، لاحظ كثير من المحللين التشابه بين هذا المشروع، وما طرحه حزب الليكود فى وقت مضى من مخططات استهدفت تقوية إسرائيل بالمنطقة، وإضعاف الدول المجاورة.

وفى وقت لاحق من مراحل هذا المشروع، أعادت الإدارة الأمريكية الاهتمام بمشروع هلنسكى، واتفاقيات هلنسكى تتمحور حول ثلاثة محاور، محور الأمن، محور الاقتصاد و محور حقوق الانسان.غير أن فى ثنايا مشروع الشرق الأوسط الكبير، تبدو الإدارة الأمريكية غير مستعدة لإثارة ملف الأمن، والذى يفضى بالضرورة إلى أزمة الأمن بفلسطين، والغزو الأخير للعراق.

ويمكننا قراءة أبعاد هذا المشروع من زاوية أخرى، فهذا المشروع قد أدى إلى خلاف حاد على مستوى الجامعة العربية، ولعل ذلك ما يفسر الخلاف الحاد حول عقد القمة العربية مؤخرا وإلغاء الرئيس بن على للقمة فى ليلة انعقادها، فى محاولة لفض النزاع حول مشروع كهذا.

إلى جانب هذا الحدث، يمكن رصد الهيئة الوطنية للديمقراطية (النيد)، والتى عقد بالتوازى لقاءها (مؤتمر الديمقراطيين بالعالم الإسلامى) باسطنبول(١٢- ١٥ أبريل ٢٠٠٤).

ولحوالى ثلاثة أيام، تحاور ما يقرب من١٩٠ نائبا من أجل الوصول إلى تدوين أرضية مشروع قانون للحكم الديمقراطى بالعالم الإسلامى.وفى هذا المؤتمر نلاحظ بوضوح مادلين أولبرايت، رئيسة المعهد الديمقراطى الوطنى للشؤون الخارجية السابقة.

وهنا تظهر الإدارة التى لم تنتخب قانونيا، والتى قزمت من حجم الحريات بأمريكا نفسها (يو إس آى باتريوت آكت)، والتى بنت معاقل للمتهمين دون محاكمة بغوانتانامو والتى تسببت فى قتل الصحفيين ومراسلى القنوات التلفزيونية العربية، والتى احتلت العراق وأفغانستان، والتى قلبت حكم رئيس شرعى منتخب بهاييتى، والتى تسكت عن

القمع والاضطهاد فى فلسطين... الخ.

هذه هى الإدارة التى تقدمت كمعلم للديمقراطية احكام العالم الإسلامى. وحماستهم. المريح أن نذكر هنا جرأة كثير من النواب الذين حضروا المؤتمر، وحماستهم فى الرد على مزاعم دروس مادلين أولبرايت، ودعاواها الواهية.

مادلين أولبرايت أوضحت رغبة من الإدارة الأمريكية فى الحفاظ على مصداقيتها فى هذا المؤتمر، فقد حيت أولبرايت تركيا، بخصوص تطورها نحو الديمقراطية، فى حين أن تركيا ذاك البلد الذى تجتمع فيه المتناقضات، فهو البلد الذى رفض برلمانه المشاركة فى غزو العراق، والذى منع حزبه (العدالة والتنمية) زمنا ما من تولى حكم البلاد بضغط من الجيش التركى وبغض الطرف من الولايات المتحدة.

فأمام أعضاء هذا الحزب وقفت أولبرايت تبث دروسها فى الديمقراطية أمام نواب حذرت من خطرهم حينا من الدهر وشككت فى إمكانية توصلهم إلى حل توفيقى بين الإسلام والديمقراطية، مستقبلة فى الوقت ذاته رئيس تركيا مع آرييل شارون بالبيت الأبيض الأمريكى للرفض المشترك غير المعلن عن حقوق مهضومة للفلسطينيين.

وفى ١٩فبراير، أعرب وزير الخارجية الفرنسى آنذاك عن موقف فرنسا الرافض له، قائلا لجريدة لوفيجارو الفرنسية (يجب أن ننطلق من حاجات شعوب منطقة الشرق الأوسط، بدل أن نملى عليها حلولا جاهزة مسبقا. ويجب أن نشرك هذه الشعوب فى تفكيرنا سعيا نحو شراكة استراتيجية متوازنة، ويجبب أيضا فى هذا السياق أن لا نعامل دول المغرب، والشرق الأوسط ودول الخليج بنفس المنطق.

ولا يمكننا أن نصب كل مخاوفنا واهتماماتنا على قضية الأمن، ولإنجاح خطة تطوير الشرق الأوسط، فيجب أن نأخذ فى الحسبان كل الملفات الحساسة السياسية، الثقافية، الاجتماعية والتربوية وإلا سيتضح أن مبادراتنا هناك لا تعدو أن تكون مبادرات تهتم بمصالحنا فقط أكثر من اهتمامنا بترقية دول المنطقة.

وإذا كنا نريد أن نحافظ على مصداقيتنا بالمنطقة، فلا يجب أن نتجاهل أزمة الصراع الفلسطينى الإسرائيلى، وخلق ديناميكية سلام أصبح شرطا ضروريا لأى

مبادرة بالمنطقة....ونحن نعارض بشدة أى استراتيجية لعالم غربى متخوف يبحث عن فرض حلول جاهزة مسبقا)[١].

نص مشروع «الشرق الأوسط الكبير»:

فيما يلى نص مشروع (الشرق الأوسط الكبير) كما طرحته الولايات المتحدة على مجموعة الدول الصناعية الثمانى، والذى يتوقع أن يبلور موقفا موحدا تجاهه خلال قمة المجموعة فى يونيو/ حزيران ٢٠٠٤ كما نشرته صحيفة الحياة اللندنية.

نص المشروع (ترجمة غير رسمية):

يمثل (الشرق الأوسط الكبير) تحدياً وفرصة فريدة للمجتمع الدولى، وساهمت (النواقص) الثلاثة التى حددها الكتاب العرب لتقريرى الأمم المتحدة حول التنمية البشرية العربية للعامين ٢٠٠٢ و٢٠٠٣ الحرية، والمعرفة، وتمكين النساء- فى خلق الظروف التى تهدد المصالح الوطنية لكل أعضاء مجموعة الـ ٨ .

وطالما تزايد عدد الأفراد المحرومين من حقوقهم السياسية والاقتصادية فى المنطقة، سنشهد زيادة فى التطرف والإرهاب والجريمة الدولية والهجرة غير المشروعة. إن الإحصائيات التى تصف الوضع الحالى فى (الشرق الأوسط الكبير) مروعة:

❖ مجموع إجمالى الدخل المحلى لبلدان الجامعة العربية الـ ٢٢ هو أقل من نظيره فى إسبانيا.

❖ حوالى ٤٠ فى المائة من العرب البالغين -٦٥ مليون شخص- أميون، وتشكل النساء ثلثى هذا العدد.

❖ سيدخل أكثر من ٥٠ مليوناً من الشباب سوق العمل بحلول ٢٠١٠، وسيدخلها ١٠٠ مليون بحلول ,٢٠٢٠ وهناك حاجة لخلق ما لا يقل عن ٦ ملايين وظيفة جديدة لامتصاص هؤلاء الوافدين الجدد إلى سوق العمل.

❖ إذا استمرت المعدلات الحالية للبطالة، سيبلغ معدل البطالة فى المنطقة ٢٥ مليوناً بحلول ٢٠١٠ .

---

(١) انظر: WWW.voltairenet.org

❖ يعيش ثلث المنطقة على أقل من دولارين فى اليوم. ولتحسين مستويات المعيشة، يجب أن يزداد النمو الاقتصادى فى المنطقة أكثر من الضعف من مستواه الحالى الذى هو دون ٣ فى المائة إلى ٦ فى المائة على الأقل.

❖ فى إمكان ٦,١ فى المائة فقط من السكان استخدام الإنترنت، وهو رقم أقل مما هو عليه فى أى منطقة أخرى فى العالم، بما فى ذلك بلدان إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى.

❖ لا تشغل النساء سوى ٥,٣ فى المئة فقط من المقاعد البرلمانية فى البلدان العربية، بالمقارنة على سبيل المثال، مع ٤,٨ فى المئة فى إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى.

❖ عبّر ٥١ فى المائة من الشبان العرب الأكبر سنا عن رغبتهم فى الهجرة إلى بلدان أخرى، وفقاً لتقرير التنمية البشرية العربية للعام ٢٠٠٢، والهدف المفضل لديهم هو البلدان الأوروبية.

وتعكس هذه الإحصائيات أن المنطقة تقف عند مفترق طرق. ويمكن للشرق الأوسط الكبير أن يستمر على المسار ذاته، ليضيف كل عام المزيد من الشباب المفتقرين إلى مستويات لائقة من العمل والتعليم والمحرومين من حقوقهم السياسية. وسيمثل ذلك تهديداً مباشراً لاستقرار المنطقة، وللمصالح المشتركة لأعضاء مجموعة الثمانى.

البديل هو الطريق إلى الإصلاح. ويمثل تقريرا التنمية البشرية العربية نداءات مقنعة وملحة للتحرك فى الشرق الأوسط الكبير. وهى نداءات يرددها نشطاء وأكاديميون والقطاع الخاص فى أرجاء المنطقة.

وقد استجاب بعض الزعماء فى الشرق الأوسط الكبير بالفعل لهذه النداءات واتخذوا خطوات فى اتجاه الإصلاح السياسى والاجتماعى والاقتصادى.

وأيدت بلدان مجموعة الثمانى، بدورها، هذه الجهود بمبادراتها الخاصة للإصلاح فى منطقة الشرق الأوسط.

وتبيّن (الشراكة الأوروبية-المتوسطية)، و(مبادرة الشراكة بين الولايات المتحدة

والشرق الأوسط)، وجهود إعادة الإعمار المتعددة الأطراف فى أفغانستان والعراق التزام مجموعة الثمانى بالإصلاح فى المنطقة.

إن التغيرات الديموغرافية المشار إليها، وتحرير أفغانستان والعراق من نظامين قمعيين، ونشوء نبضات ديموقراطية فى أرجاء المنطقة، بمجموعها، تتيح لمجموعة الثمانى فرصة تاريخية.

وينبغى للمجموعة، أن تصوغ شراكة بعيدة المدى مع قادة الإصلاح فى الشرق الأوسط الكبير، وتطلق ردا منسّقاً لتشجيع الإصلاح السياسى والاقتصادى والاجتماعى فى المنطقة.

ويمكن لمجموعة الثمانى أن تتفق على أولويات مشتركة للإصلاح تعالج النواقص التى حددها تقرير الأمم المتحدة حول التنمية البشرية العربية عبر:

❖ تشجيع الديمقراطية والحكم الصالح.

❖ بناء مجتمع معرفى.

❖ توسيع الفرص الاقتصادية.

وتمثل أولويات الإصلاح هذه السبيل إلى تنمية المنطقة: فالديمقراطية والحكم الصالح يشكلان الإطار الذى تتحقق داخله التنمية، والأفراد الذين يتمتعون بتعليم جيد هم أدوات التنمية، والمبادرة فى مجال الأعمال هى ماكينة التنمية.

أولاً - تشجيع الديمقراطية والحكم الصالح

(توجد فجوة كبيرة بين البلدان العربية والمناطق الأخرى على صعيد الحكم القائم على المشاركة ... ويضعف هذا النقص فى الحرية التنمية البشرية، وهو أحد التجليات الأكثر إيلاما للتخلف فى التنمية السياسية). (تقرير التنمية البشرية، ٢٠٠٢).

إن الديموقراطية والحرية ضروريتان لازدهار المبادرة الفردية، لكنهما مفقودتان إلى حد بعيد فى أرجاء الشرق الأوسط الكبير.

وفى تقرير (فريدوم هاوس) للعام، ٢٠٠٣ كانت إسرائيل البلد الوحيد فى الشرق الأوسط

الكبير الذى صُنّف بأنه (حرّ)، ووصفت أربعة بلدان أخرى فقط بأنها (حرة جزئيا).

ولفت تقرير التنمية البشرية العربية إلى أنه من بين سبع مناطق فى العالم، حصلت البلدان العربية على أدنى درجة فى الحرية فى أواخر التسعينيات. وأدرجت قواعد البيانات التى تقيس (التعبير عن الرأى والمساءلة) المنطقة العربية فى المرتبة الأدنى فى العالم.

بالإضافة إلى ذلك، لا يتقدم العالم العربى إلا على إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى على صعيد تمكين النساء. ولا تنسجم هذه المؤشرات المحبطة إطلاقا مع الرغبات التى يعبّر عنها سكان المنطقة.

فى تقرير التنمية البشرية العربية للعام ٢٠٠٣، على سبيل المثال، تصدّر العرب لائحة من يؤيد، فى أرجاء العالم، الرأى القائل بأن (الديمقراطية أفضل من أى شكل آخر للحكم)، وعبّروا عن أعلى مستوى لرفض الحكم الاستبدادى.

ويمكن لمجموعة الثمانى أن تظهر تأييدها للإصلاح الديموقراطى فى المنطقة عبر التزام ما يلى:

مبادرة الانتخابات الحرة

فى الفترة بين ٢٠٠٤ و ٢٠٠٦، أعلنت بلدان عدة فى الشرق الأوسط الكبير نيتها إجراء انتخابات رئاسية أو برلمانية أو بلدية.

وبالتعاون مع تلك البلدان التى تظهر استعداداً جديا لإجراء انتخابات حرة ومنصفة، يمكن لمجموعة الثمانى أن تقدم بفاعلية مساعدات لمرحلة ما قبل الانتخابات بـ:

❖ تقديم مساعدات تقنية، عبر تبادل الزيارات أو الندوات، لإنشاء أو تعزيز لجان انتخابية مستقلة لمراقبة الانتخابات والاستجابة للشكاوى وتسلم التقارير.

❖ تقديم مساعدات تقنية لتسجيل الناخبين والتربية المدنية إلى الحكومات التى تطلب ذلك، مع تركيز خاص على الناخبات.

الزيارات المتبادلة والتدريب على الصعيد البرلمانى

من أجل تعزيز دور البرلمانات فى دمقرطة البلدان، يمكن لمجموعة الثمانى أن ترعى تبادل زيارات لأعضاء البرلمانات، مع تركيز الاهتمام على صوغ التشريعات وتطبيق الإصلاح التشريعى والقانونى وتمثيل الناخبين.

معاهد للتدريب على القيادة خاصة بالنساء

تشغل النساء ٣,٥ فى المائة فقط من المقاعد البرلمانية فى البلدان العربية. ومن أجل زيادة مشاركة النساء فى الحياة السياسية والمدنية، يمكن لمجموعة الثمانى أن ترعى معاهد تدريب خاصة بالنساء تقدم تدريباً على القيادة للنساء المهتمات بالمشاركة فى التنافس الانتخابى على مواقع فى الحكم أو إنشاء/ تشغيل منظمة غير حكومية.

ويمكن لهذه المعاهد أن تجمع بين قياديات من بلدان مجموعة الثمانى والمنطقة.

ظلت التحولات فى الأراضى الفلسطينية والعراق مؤشرا مهما فى عمليات الإصلاح

المساعدة القانونية للناس العاديين

فى الوقت الذى نفذت فيه الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى والأمم المتحدة والبنك الدولى بالفعل مبادرات كثيرة لتشجيع الإصلاح القانونى والقضائى، فإن معظمها يجرى على المستوى الوطنى فى مجالات مثل التدريب القضائى والإدارة القضائية وإصلاح النظام القانونى.

ويمكن لمبادرة من مجموعة الثمانى أن تكمّل هذه الجهود بتركيز الانتباه على مستوى الناس العاديين فى المجتمع، حيث يبدأ التحمس الحقيقى للعدالة.

ويمكن لمجموعة الثمانى أن تنشئ وتموّل مراكز يمكن للأفراد أن يحصلوا فيها على مشورة قانونية بشأن القانون المدنى أو الجنائى أو الشريعة، ويتصلوا بمحامى الدفاع (وهى غير مألوفة إلى حد كبير فى المنطقة).

كما يمكن لهذه المراكز أن ترتبط بكليات الحقوق فى المنطقة.

مبادرة وسائل الإعلام المستقلة

يلفت تقرير التنمية البشرية العربية إلى هناك أقل من ٥٣ صحيفة لكل ١٠٠٠ مواطن عربى، بالمقارنة مع ٢٨٥ صحيفة لكل ألف شخص فى البلدان المتطورة، وأن الصحف العربية التى يتم تداولها تميل إلى أن تكون ذات نوعية رديئة.

ومعظم برامج التلفزيون فى المنطقة تعود ملكيتها إلى الدولة أو يخضع لسيطرتها، وغالباً ما تكون النوعية رديئة، إذ تفتقر البرامج إلى التقارير ذات الطابع التحليلى والتحقيقى.

ويقود هذا النقص إلى غياب اهتمام الجمهور وتفاعله مع وسائل الإعلام المطبوعة، ويحد من المعلومات المتوافرة للجمهور.

ولمعالجة ذلك، يمكن لمجموعة الثمانى أن:

❖ ترعى زيارات متبادلة للصحفيين فى وسائل الإعلام المطبوعة والإذاعية.

❖ ترعى برامج تدريب لصحفيين مستقلين.

❖ تقدم زمالات دراسية لطلاب كى يداوموا فى مدارس للصحافة فى المنطقة أو خارج البلاد، وتمول برامج لإيفاد صحافيين أو أساتذة صحافة لتنظيم ندوات تدريب بشأن قضايا مثل تغطية الانتخابات أو قضاء فصل دراسى فى التدريس فى مدارس بالمنطقة.

الجهود المتعلقة بالشفافية / مكافحة الفساد

حدد البنك الدولى الفساد باعتباره العقبة المنفردة الأكبر فى وجه التنمية، وقد أصبح متأصلاً فى الكثير من بلدان الشرق الأوسط الكبير، ويمكن لمجموعة الثمانى:

❖ أن تشجع على تبنى (مبادئ الشفافية ومكافحة الفساد) الخاصة بمجموعة الثمانى.

❖ أن تدعم علناً مبادرة منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية/ برنامج الأمم المتحدة للتنمية فى الشرق الأوسط-شمال أفريقيا، التى يناقش من خلالها رؤساء حكومات ومانحون و IFIsومنظمات غير حكومية استراتيجيات وطنية لمكافحة الفساد وتعزيز خضوع الحكومة للمساءلة.

❖ إطلاق واحد أو اكثر من البرامج التجريبية لمجموعة الثمانى حول الشفافية فى المنطقة.

المجتمع المدنى

أخذاً فى الاعتبار أن القوة الدافعة للإصلاح الحقيقى فى الشرق الأوسط الكبير يجب أن تأتى من الداخل، وبما أن أفضل الوسائل لتشجيع الإصلاح هى عبر منظمات تمثيلية، ينبغى لمجموعة الثمانى أن تشجع على تطوير منظمات فاعلة للمجتمع المدنى فى المنطقة. ويمكن لمجموعة الثمانى أن:

❖ تشجع حكومات المنطقة على السماح لمنظمات المجتمع المدنى، ومن ضمنها المنظمات غير الحكومية الخاصة بحقوق الإنسان ووسائل الإعلام ,على أن تعمل بحرية من دون مضايقة أو تقييدات[1].

❖ تزيد التمويل المباشر للمنظمات المهتمة بالديموقراطية وحقوق الإنسان ووسائل الإعلام والنساء وغيرها من المنظمات غير الحكومية فى المنطقة.

❖ تزيد القدرة التقنية لمنظمات غير الحكومية فى المنطقة بزيادة التمويل للمنظمات المحلية مثل (مؤسسة وستمنستر) فى المملكة المتحدة أو (مؤسسة الدعم الوطنى للديموقراطية) الأمريكية لتقديم التدريب للمنظمات غير الحكومية فى شأن كيفية وضع برنامج والتأثير على الحكومة وتطوير استراتيجيات خاصة بوسائل الإعلام والناس العاديين لكسب التأييد.

كما يمكن لهذه البرامج ان تتضمن تبادل الزيارات وإنشاء شبكات إقليمية.

❖ تمول منظمة غير حكومية يمكن أن تجمع بين خبراء قانونيين أو خبراء إعلاميين من المنطقة لصوغ تقويمات سنوية للجهود المبذولة من أجل الإصلاح القضائى أو حرية وسائل الإعلام فى المنطقة.

(يمكن بهذا الشأن الاقتداء بنموذج «تقرير التنمية البشرية العربية»)

---

(١) المصدر: arabic.cnn.com/2004.

ثانياً - بناء مجتمع معرفى

(تمثل المعرفة الطريق إلى التنمية والانعتاق، خصوصاً فى عالم يتسم بعولمة مكثفة). (تقرير التنمية البشرية العربية، ٢٠٠٢)

لقد أخفقت منطقة الشرق الأوسط الكبير ,التى كانت فى وقت مضى مهد الاكتشاف العلمى والمعرفة، إلى حد بعيد، فى مواكبة العالم الحالى ذى التوجه المعرفى.

وتشكل الفجوة المعرفية التى تعانيها المنطقة ونزف الأدمغة المتواصل تحدياً لآفاق التنمية فيها. ولا يمثل ما تنتجه البلدان العربية من الكتب سوى ١,١ فى المائة من الإجمالى العالمى (حيث تشكل الكتب الدينية أكثر من ١٥ فى المائة منها). ويهاجر حوالى ربع كل خريجى الجامعات، وتستورد التكنولوجيا إلى حد كبير.

ويبلغ عدد الكتب المترجمة إلى اللغة اليونانية (التى لا ينطق بها سوى ١١ مليون شخص) خمسة أضعاف ما يترجم إلى اللغة العربية.

وبالاستناد على الجهود التى تبذل بالفعل فى المنطقة، يمكن لمجموعة الثمانى أن تقدم مساعدات لمعالجة تحديات التعليم فى المنطقة ومساعدة الطلاب على اكتساب المهارات الضرورية للنجاح فى السوق المعولمة لعصرنا الحاضر.

مبادرة التعليم الأساسى

يعانى التعليم الأساسى فى المنطقة من نقص (وتراجع) فى التمويل الحكومى، بسبب تزايد الإقبال على التعليم متماشياً مع الضغوط السكانية، كما يعانى من اعتبارات ثقافية تقيّد تعليم البنات. وفى مقدور مجموعة الـ ٨ السعى إلى مبادرة للتعليم الأولى فى منطقة الشرق الأوسط الكبرى تشمل هذه العناصر:

❖ محو الأمية: أطلقت الأمم المتحدة فى ٢٠٠٣ (برنامج عقد مكافحة الأمية) تحت شعار (محو الأمية كحرية). ولمبادرة مجموعة الـ٨ لمكافحة الأمية أن تتكامل مع برنامج الأمم المتحدة من خلال التركيز على إنتاج جيل متحرر من الأمية فى الشرق الأوسط خلال العقد المقبل، مع السعى إلى خفض نسبة الأمية فى المنطقة إلى النصف بحلول ٢٠١٠.

وستركز مبادرة مجموعة الـ ٨، مثل برنامج الأمم المتحدة، على النساء والبنات. وإذا أخذنا فى الاعتبار معاناة ٦٥ مليوناً من الراشدين فى المنطقة من الأمية، يمكن لمبادرة مجموعة الـ ٨ أن تركز أيضا على خفض الأمية بين الراشدين وتدريبهم من خلال برامج متنوعة، من مناهج تدريس على الإنترنت إلى تدريب المعلمين.

❖ فرق محو الأمية: يمكن لمجموعة الـ ٨، سعياً إلى تحسين مستوى القراءة والكتابة لدى الفتيات، إنشاء أو توسيع معاهد تدريب المعلمين مع التركيز على النساء. ولمعلمات المدارس والمختصات بالتعليم القيام فى هذه المعاهد بتدريب النساء على مهنة التعليم، لكى يركزن بدورهن على تعليم البنات القراءة وتوفير التعليم الأولى لهن.

للبرنامج أيضاً استخدام الإرشادات المتضمنة فى برنامج (التعليم للجميع) التابع لـ(اليونسكو)، بهدف إعداد (فرق محو الأمية) التى قد بلغ تعدادها بحلول ٢٠٠٨ مائة ألف معلمة.

❖ الكتب التعليمية: يلاحظ تقرير التنمية البشرية العربية نقصاً مهمّاً فى ترجمة الكتب الأساسية فى الفلسفة والأدب وعلم الاجتماع وعلوم الطبيعة، كما تلاحظ (الحالة المؤسفة للمكتبات) فى الجامعات.

ويمكن لكل من دول مجموعة الـ ٨ تمويل برنامج لترجمة مؤلفاتها (الكلاسيكية) فى هذه الحقول، وأيضاً ـ وحيث يكون ذلك مناسباً ـ تستطيع الدول أو دور النشر (فى شراكة بين القطاعين العام والخاص) إعادة نشر الكتب الكلاسيكية العربية الخارجة عن التداول حالياً والتبرع بها إلى المدارس والجامعات والمكتبات العامة المحلية.

❖ مبادرة مدارس الاكتشاف: بدأ الأردن بتنفيذ مبادرته لإنشاء (مدارس الاكتشاف) حيث يتم استعمال التكنولوجيا المتقدمة ومناهج التعليم الحديثة. ولمجموعة الـ ٨ السعى إلى توسيع هذه الفكرة ونقلها إلى دول أخرى فى المنطقة من طريق التمويل، من ضمنه من القطاع الخاص.

مبادرة التعليم فى الإنترنت

تحتل المنطقة المستوى الأدنى من حيث التواصل مع الإنترنت. ومن الضرورى تماماً تجسير (الهوة الكمبيوترية) هذه بين المنطقة وبقية العالم نظراً إلى تزايد المعلومات المودعة على الإنترنت وأهمية الإنترنت بالنسبة للتعليم والمتاجرة.

ولدى مجموعة الـ ٨ القدرة على إطلاق شراكة بين القطاعين العام والخاص لتوفير الاتصال الكومبيوترى أو توسيعه فى أنحاء المنطقة، وأيضاً بين المدن والريف داخل البلد الواحد. وقد يكون من المناسب أكثر لبعض المناطق توفير الكمبيوترات فى مكاتب البريد، مثلما يحصل فى بلدات وقرى روسيا.

ماذا بعد العراق الجديد

وقد يركز المشروع أولا على بلدان الشرق الأوسط الأقل استخداما للكمبيوتر (العراق، أفغانستان، باكستان، اليمن، سورية، ليبيا، الجزائر، مصر، المغرب)، والسعى، ضمن الإمكانات المالية، إلى توفير الاتصال بالكومبيوتر إلى اكثر ما يمكن من المدارس ومكاتب البريد.

ومن الممكن أيضاً ربط مبادرة تجهيز المدارس بالكمبيوتر بـ (بمبادرة فرق محو الأمية) المذكورة أعلاه، أى قيام مدرسى المعاهد بتدريب المعلمين المحليين على تطوير مناهج دراسية ووضعها على الإنترنت، فى مشروع يتولى القطاع الخاص توفير معداته ويكون متاحاً للمعلمين والطلبة.

مبادرة تدريس إدارة الأعمال

تهدف مجموعة الـ ٨ فى سياق السعى إلى تحسين مستوى إدارة الأعمال فى عموم المنطقة إلى إقامة الشراكات بين مدارس الأعمال فى دول مجموعة الـ ٨ والمعاهد التعليمية الجامعات والمعاهد المتخصصة) فى المنطقة.

وبمقدور مجموعة الـ ٨ تمويل هيئة التعليم والمواد التعليمية فى هذه المعاهد المشتركة، التى تمتد برامجها من دورة تدريبية لمدة سنة للخريجين إلى دورات قصيرة

تدور على مواضيع محددة، مثل إعداد خطط العمل للشركات أو استراتيجيات التسويق.

النموذج لهذا النوع من المعاهد قد يكون معهد البحرين للمصارف والمال، وهو مؤسسة بمدير أمريكى ولها علاقة شراكة مع عدد من الجامعات الأمريكية.

توسيع الفرص الاقتصادية

تجسير الهوة الاقتصادية للشرق الأوسط الكبير يتطلب تحولا اقتصاديا يشابه فى مداه ذلك الذى عملت به الدول الشيوعية سابقاً فى أوروبا الشرقية بعد انحلال المعسكر الاشتراكى.

وسيكون مفتاح التحول إطلاق قدرات القطاع الخاص فى المنطقة، خصوصاً مشاريع الأعمال الصغيرة والمتوسطة، التى تشكل المحركات الرئيسية للنمو الاقتصادى وخلق فرص العمل. وسيكون نمو طبقة متمرسة فى مجال الأعمال عنصراً مهما لنمو الديموقراطية والحرية. ويمكن لمجموعة الـ ٨ فى هذا السياق اتخاذ الخطوات التالية:

مبادرة تمويل النمو

تقوية فاعلية القطاع المالى عنصر ضرورى للتوصل الى نسب أعلى للنمو وخلق فرص العمل. ولمجموعة الـ ٨ أن تسعى إلى إطلاق مبادرة مالية متكاملة تتضمن العناصر التالية:

❖ إقراض المشاريع الصغيرة: هناك بعض المؤسسات المختصة بتمويل المشاريع الصغيرة فى المنطقة لكن العاملين فى هذا المجال لا يزالون يواجهون ثغرات مالية كبيرة. إذ لا يحصل على التمويل سوى خمسة فى المائة من الساعين إليه، ولا يتم عموما تقديم أكثر من ٠,٧ فى المائة من مجموع المال المطلوب فى هذا القطاع.

وبإمكان مجموعة الـ٨ المساعدة على تلافى هذا النقص من خلال تمويل المشاريع الصغيرة، مع التركيز على التمويل بهدف الربح، خصوصاً للمشاريع التى تقوم بها النساء. مؤسسات الإقراض الصغير المربح قادرة على إدامة نفسها ولا تحتاج إلى تمويل إضافى للاستمرار والنمو.

ونقدّر أن فى إمكانها إقراض من ٤٠٠ مليون دولار إلى ٥٠٠ مليون دولار يدفع على خمس سنوات مساعدة ١,٢ مليون ناشط اقتصادى على التخلص من الفقر، ٧٥٠ ألفا منهم من النساء.

❖ مؤسسة المال للشرق الأوسط الكبير: باستطاعة مجموعة الـ ٨ المشاركة فى تمويل مؤسسة على طراز (مؤسسة المال الدولية) للمساعدة على تنمية مشاريع الأعمال على المستويين المتوسط والكبير، بهدف التوصل إلى تكامل اقتصادى لمجال الأعمال فى المنطقة.

وربما الأفضل إدارة هذه المؤسسة من قبل مجموعة من قادة القطاع الخاص فى مجموعة الـ ٨ يقدمون خبراتهم لمنطقة الشرق الأوسط الكبير.

❖ بنك تنمية الشرق الأوسط الكبير: فى إمكان مجموعة الـ ٨ وبمشاركة مقرضين من منطقة الشرق الأوسط الكبير نفسها، إنشاء مؤسسة إقليمية للتنمية على غرار (البنك الأوروبى للإعمار والتنمية) لمساعدة الدول الساعية إلى الإصلاح على توفير الاحتياجات الأولية للتنمية.

كما تستطيع المؤسسة الجديدة توحيد القدرات المالية لدول المنطقة الأغنى وتركيزها على مشاريع لتوسيع انتشار التعليم والعناية الصحية والبنى التحتية الرئيسية. ولـ (بنك تنمية الشرق الأوسط الكبير) هذا أن يكون مدخلاً للمساعدة التكنولوجية واستراتيجيات التنمية لبلدان المنطقة.

اتخاذ قرارات الإقراض (أو المنح) يجب أن تتحدد بحسب قدرة البلد المقترض على القيام بإصلاحات ملموسة.

❖ الشراكة من أجل نظام مالى أفضل: بمقدور مجموعة الـ ٨، توخيا لإصلاح الخدمات المالية فى المنطقة وتحسين اندماج بلدانها فى النظام المالى العالمى، أن تعرض مشاركتها فى عمليات إصلاح النظم المالية فى البلدان المتقدمة فى المنطقة.

وسيكون هدف المشاركة إطلاق حرية الخدمات المالية وتوسيعها فى عموم المنطقة، من خلال تقديم تشكيلة من المساعدات التقنية والخبرات فى مجال الأنظمة المالية مع

التركيز على:

- تنفيذ خطط الإصلاح التى تخفض سيطرة الدولة على الخدمات المالية.
- رفع الحواجز على التعاملات المالية بين الدول.
- تحديث الخدمات المصرفية.
- تقديم وتحسين وتوسيع الوسائل المالية الداعمة لاقتصاد السوق.
- إنشاء الهياكل التنظيمية الداعمة لإطلاق حرية الخدمات المالية.

مبادرة التجارة

إن حجم التبادل التجارى فى الشرق الأوسط متدن جدّاً، إذ لا يشكل سوى ستة فى المائة من كل التجارة العربية. ومعظم بلدان الشرق الأوسط الكبير تتعامل تجارياً مع بلدان خارج المنطقة، وتوصلت إلى اتفاقات تجارية تفضيلية مع أطراف بعيدة جداً بدلاً من جيرانها.

ونتيجة لذلك، أصبحت الحواجز الجمركية وغير الجمركية هى الشىء المعتاد، فيما لا تزال التجارة عبر الحدود شيئاً نادراً.

ويمكن لمجموعة الثمانية أن تنشئ مبادرة جديدة مصممة لتشجيع التجارة فى الشرق الأوسط الكبير، تتألف من العناصر التالية:

الانضمام/ التنفيذ على صعيد منظمة التجارة الدولية وتسهيل التجارة

يمكن لمجموعة الثمانية أن تزيد تركيزها على انضمام البلدان فى المنطقة إلى منظمة التجارة الدولية. وستتضمن برامج محددة للمساعدة التقنية توفير مستشارين يعملون فى البلد ذاته فى شأن الانضمام إلى منظمة التجارة الدولية وتحفيز التزام واسع من مجموعة الـ ٨ لتشجيع عملية الانضمام، بما فى ذلك تركيز الاهتمام على تحديد وإزالة الحواجز غير الجمركية.

وحالما ينجز الانضمام إلى منظمة التجارة الدولية، سيتحول مركز الاهتمام إلى توقيع التزامات إضافية لمنظمة التجارة الدولية، مثل (الجوانب التجارية لحقوق الملكية الفكرية) و(اتفاق مشتريات الحكومة) وربط استمرار المساعدة التقنية بتنفيذ هذه الالتزامات الخاصة بمنظمة التجارة الدولية.

ويمكن لهذه المساعدات التقنية أن تربط أيضا ببرنامج على صعيد المنطقة برعاية مجموعة الـ ٨ بشأن التسهيلات والجوانب اللوجستية المتعلقة بالرسوم الجمركية للحد من الحواجز الإدارية والمادية بوجه التبادل التجارى بين بلدان المنطقة.

المناطق التجارية

ستنشئ مجموعة الـ ٨ مناطق فى الشرق الوسط الكبير للتركيز على تحسين التبادل التجارى فى المنطقة والممارسات المتعلقة بالرسوم الجمركية.

وستتيح هذه المناطق مجموعة متنوعة من الخدمات لدعم النشاط التجارى للقطاع الخاص والصلات بين المشاريع الخاصة، بما فى ذلك (التسوق من منفذ واحد) للمستثمرين الأجانب، وصلات مع مكاتب الجمارك لتقليل الوقت الذى يستغرقه إنجاز معاملات النقل، وضوابط موحدة لتسهيل دخول وخروج السلع والخدمات من المنطقة.

مناطق رعاية الأعمال

بالاستناد على النجاح الذى حققته مناطق التصدير ومناطق التجارة الخاصة فى مناطق أخرى، يمكن لمجموعة الـ٨ أن تساعد على إقامة مناطق محددة خصيصاً فى الشرق الأوسط الكبير تتولى تشجيع التعاون الإقليمى فى تصميم وتصنيع وتسويق المنتجات.

ويمكن لمجموعة الـ ٨ أن تعرض منافذ محسّنة إلى أسواقها لهذه المنتجات، وتقدم خبراتها فى إنشاء هذه المناطق.

منبر الفرص الاقتصادية للشرق الأوسط الكبير

لتشجيع التعاون الإقليمى المحسّن، يمكن لمجموعة الـ ٨ أن تنشئ (منبر الفرص

الاقتصادية للشرق الأوسط) الذى سيجمع مسؤولين كباراً من مجموعة الـ ٨ والشرق الأوسط الكبير (مع إمكان عقد اجتماعات جانبية لمسؤولين وأفراد غير حكوميين من وسط رجال الأعمال) لمناقشة القضايا المتعلقة بالإصلاح الاقتصادى.

ويمكن للمنبر أن يستند فى شكل مرن على نموذج رابطة آسيا-المحيط الهادئ للتعاون الاقتصادى (أبك)، وسيغطى قضايا اقتصادية إقليمية، من ضمنها القضايا المالية والتجارية وما يتعلق بالضوابط.

(١) يشير (الشرق الأوسط الكبير) إلى بلدان العالم العربى، بالإضافة إلى باكستان وأفغانستان وإيران وتركيا وإسرائيل.

(٢) تخطط أفغانستان والجزائر والبحرين وإيران ولبنان والمغرب وتونس وتركيا واليمن لإجراء انتخابات.

(٣) البلدان التى قدمت طلباً للانضمام إلى منظمة التجارة الدولية (شكلت لجنة عمل تابعة للمنظمة): الجزائر ولبنان والسعودية واليمن.

بلدان قدمت طلباً للانضمام (لم يُنظر بعد فى الطلب): أفغانستان وإيران وليبيا وسورية. بلدان طلبت منحها صفة مراقب: العراق[1] .



(١) المصدر: www.arabic.cnn.com.

8

محور الشر ومحور الخير

- النظام الدولى الأمريكى فى مواجهة العالم باسم محاربة الإرهاب الدولى، وإشعال منطقة الشرق الأوسط بالصراعات والحروب بتسليح دولة إسرائيل على حساب الأمن والسلم بالمنطقة.

النظام الدولى الجديد (الأمريكى) فى مواجهة العالم باسم محاربة الإرهاب الدولى

الإرهاب كان دائماً يأتى من أفراد وجماعات يطلق عليها جماعات أو منظمات إرهابية قد تقوم بنشاطها الإرهابى ضد دولة معينة أو فئة معينة، أما أن تكون هناك دول إرهابية فهذا لم يكن قبل أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وهى الأحداث التى أصابت الولايات المتحدة الأمريكية بالهلع حين تم ضرب برجى التجارة العالمى فى نيويورك ومقر النبتاجون فى واشنطن.

أعلن الرئيس الأمريكى بوش الابن وقتها الحرب على الإرهاب وحدد دول محور الشر الإرهابية - إيران وكوريا الشمالية والعراق وأفغانستان ودول أخرى قد تكون تلك الدول لم تشارك فى تلك الحرب التى أعلنها، وكأنه «روبن هود» يحارب طواحين الهواء، حرب لا سمات لها ولا معالم ولا استراتيجية.

قضى بوش الابن فى الفترة الثانية من حكمه فى تدمير العراق من كل النواحى بعد احتلاله ويهدد بتدمير دول أخرى مجاورة مثل إيران وسوريا والسودان.

ولم يكن ذلك كله مجرد رد فعل لأحداث ١١ سبتمبر وإنما هو أمر مخطط له منذ سنوات سابقة بدأ تنفيذه منذ ولاية بوش الأب فى أوائل التسعينيات حين أعلن عن تأسيس نظام عالمى جديد تزامن مع قرارات الأمم المتحدة بمعاقبة العراق جراء غزوها الكويت حينها قال بوش الأب: «إن الأمر ليس قاصراً على مجرد دولة صغيرة تعرضت للعدوان وإنما هو أكبر من ذلك إنه نظام عالمى جديد تلتقى من خلاله مختلف دول العالم حول قطبة مشتركة تتمثل فى السعى إلى تحقيق تطلعات البشرية إلى السلام».

كانت كلماته رنانة استقطب بها أكثر من ٣٣ دولة لشن حرب عالمية على العراق لإخراجها من الكويت وقد تم له ذلك بالفعل.

لم يكن الأمر إلا مسرحية هزلية أخرجها وألفها بوش الأب وشارك فى تمثيلها تلك الدول المشاركة بوعى أو دون وعى.

وظن الفقراء من الشعوب أن هذا النظام العالمى الجديد الذى دعا إليه بوش الأب سيحقق لهم ما يرجون من رغد العيش والسلام.

وقال المروجون لفكرة النظام العالمى: إن المطالبة (بنظام عالمى جديد) ولدت من قلب معاناة الدول الفقيرة التى شاءت أن تحقق لنفسها فرصة داخل السياسية الدولية، غير أن ذلك لم يلق أذنا صاغية و لم يسلط الضوء عليه، إلا على يد الولايات المتحدة الأمريكية من خلال إعلان بوش الذى استخدمه كمستند أخلاقى أساسى.

وبعد أن كان تأسيس (نظام عالمى جديد) مطلبًا أساسّيا لتطلعات دول الجنوب من أجل تحقيق مزيد من العدالة، وقدر أكبر من المساواة، وتوفير أجواءٍ أكبر من الديموقراطية، بهدف تحقيق نسبة اعلى من الشراكة، أصبح شعارًا ومظلة دولية للتحرك من جانب واحد.

فالدول تتحرك وُفق مصالحها وليست الولايات المتحدة الأمريكية ولا غيرها من الدول، مركزا للدفاع عن حقوق الإنسان أو جمعية خيرية مهمتها (الدفاع عن القضايا العادلة) فى العالم، وليست جهة كهنوتية (تمنح الغفران) أو تدافع عن لاهوت الشعوب وتحمى عقائدهم والسلام الحقيق لا يأتى من إشعال الحروب كما فعل بوش الأب والابن الذى أكمل مسيرة أبيه..

إن المراقب والمتتبع لمقالات ودراسات المحللين والسياسين، يجد أن الكثيرين منهم، يؤرخون مرحلة مابعد (الحرب الباردة) بولادة (النظام العالمى الجديد)، رابطين بإحكام بين المنهج الأمريكى الآحادى الجانب و عملية بروز الأحادية القطبية فى السياسة الدولية.

وفى مقالة كتبها (جون فان أودينارين) نشرت فى مجلة (بوليس ريفيو) أشار الى الجدل الحاصل بين صناع القرار والأكاديميين على جانب الأطلنطى حول ما إذا كان وجود عالم أكثر تعددية قطبية مفيدا أو مرغوبًا فيه، استنتج أن هذا الجدل لم يحقق سوى القليل فى سبيل تأسيس توافق حول ما أخذ كلا الجانبين فى تسميته

(منهج فعّال متعدد الأطراف).

إن االراصد لخطابات الساسة الأوروبيين يجد أنهم تحدثوا بشكل لا يخلو من التشويش حول الحاجة إلى بناء نظام متعدد (الأطراف) أو (الأقطاب) مستخدمين المصطلحين بشكل مترادف، علمًا أن (الطرف) كمدلول مغاير عن (القطبية).

إن حقيقة الوضع الراهن لآلية عمل مؤسسات المجتمع الدولى لم تعد تصلح للتعامل فى عالم شديد الاكتظاظ والمتشابك بطريقة بالغة التعقيد فى ظل تداخل ثقافى وعولمة اقتصادية شبه كليّة ؛ وبعد أن أصبح اتخاذ أى قرار دولى عملية (نفعية) خاضعة وبشكل دائم (للمصلحة الآنية) التى تصب فى نهاية المطاف فى جيوب والشركات العملاقة فى العالم، الأمر الذى جلب قدرًا كبيرًا من اللامساواة، واستشراء صارخ للنزعات السياسية والعسكرية التى لا تتوانى عن استخدام العنف المباشر أو المقنع للوصول إلى مصادر الثروة و تحقيق المصلحة الاقتصادية.

فالواقع الدولى الحالى هو فى حقيقته (إدارة علاقات صراع) لا يرقى لأن يكون نظامًا لأن لفظة (نظام) كمفهوم (حسب بورديو) تشير إلى (مركب يقوم على تضافر عدة مقومات هى: وسط اجتماعى، ومجموعة من القيم والآليات القانونية.

ويتمثل دور هذه الآليات القانونية فى كفالة وضع القواعد القانونية المنظمة للواقع موضع التنفيذ)

ومن هنا فالدور ملقى على (وعى شعوب) وقدرتها على (الممانعة) من الانخراط فى عنف المادة والآلة والسلطة ؛ كما أن الوعى ومكافحة شتى أنواع الظلم بالطرق السلمية يمثل ورقة ضغط حقيقية على الحكومات لتبنى سياسات خارجية أكثر (إنسانية)، وأكثر أمنًا (للبيئة).

فالحروب لم تجلب للعالم إلا الدمار وسباقات التسلح لم تنتج لنا إلا (القنابل الذرية)، والشركات العملاقة لم تولد لنا إلا مصانع مدمرة للبيئة حارقة كوكبنا بغازات سامة، ويشكل (العصيان المدنى اللاعنفى) إحدى أبرز الأدوات الواعية للتعبير.

ويمكن القول: إن حرب الخليج الثانية قد انتهت بنجاح ليس على صعيد الموقف

العسكرى ضد العراق، بل بنجاح المخطط الأمريكى فى أن يقف على رأس الهرم الدولى كقطب أوحد يرسم خارطة العالم ويحدد له معاييره ويضع له استراتيجيات تنسجم مع رؤيته الجديدة، ويتلاعب بشرعيته الدولية.

فالعامل العسكرى يمثل عنصر القوة فى إطار الأمن القومى الشامل، فأى بناء سياسى أو اقتصادى لا يستقر ما لم تتم حمايته عسكريا من رحمة وبطش وتخطيط الأعداء.

فالقوة العسكرية واحدة من أبرز مقومات الدولة وهى خلاصة القوى الأخرى السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

ففى عام (١٩٥٠) أصدرت الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا (بياناً ثلاثياً) يقضى بتنظيم عملية بيع الأسلحة إلى الدول العربية بصورة تجعلها فى موقع دفاعى من مصلحة إسرائيل الدولة الوليدة.

ثم بيان باريس عام (١٩٩١) لضبط التسلح فى الشرق الأوسط، إلا أن عملية ضبط عملية التسلح للشرق الأوسط كانت غير موفقة بفعل وجود إسرائل، فضلا عن وجود هيكل توازن قوى على المستوى الدولى يتيح لأطراف تلك الصراعات الحصول على الأسلحة التى تحتاجها.

وفى الحقيقة فإن الدول العربية تم إعطاؤها السلاح بواسطة الولايات المتحدة نفسها.

لقد أدركت الولايات المتحدة أن الساحة الدولية عادت ملكا لها وبستانا يدر ثمارا عليها، والجماهير المستضعفة رقا لها، وتأبى السياسة الأمريكية عتقها، وكأن الزمن يعود إلى العصور الوسطى.

أدركت الولايات المتحدة واليمين المتطرف أن الساحة خلت من منافس دولى ومن قوة توازن وتكافئ الموازين فى العالم، وهذا الإدراك انعكس بواقعية فى السلوك الأمريكى - الصهيونى؛ إذ رأت أن الفرصة مواتية أكثر من أى وقت مضى للتفرد بالعالم.

ومن ثم المشاريع العالقة بذهن اليمين المتطرف الذى يسعى إلى تحقيق نبوءات العهد القديم التى فسروها لصالحهم وأرادوا تدمير العالم كله من أجل نزول المسيح

للمرة الثانية. فى ٢٩ أيار/ مايو ١٩٩١ وبعد انتهاء حرب الخليج الثانية بثلاثة أشهر تقريبا، كانت الخطة أو المشروع الذى وضعه الرئيس الأمريكى لضبط توريد السلاح فى الشرق الأوسط بدعوة الدول الخمس الكبرى - أعضاء مجلس الأمن باعتبارها أكبر موردى السلاح التقليدى فى العالم إلى العمل على وضع قيود على توريد الأسلحة إلى دول الشرق الأوسط باستثناء ما تحتاجه للدفاع عن نفسها.

واتخذ قرار بتجميد حيازة وامتلاك وإنتاج واختبار صواريخ (أرض - أرض) ومنع توريدها إلى دول الشرق الأوسط.

مع حظر عملية إنتاج وحيازة المواد النووية التى يمكن أن تستخدم فى صناعة السلاح النووى المتطور وتشمل (البلوتونيو واليورانيو المخصب) وضرورة أن تلتحق كل دول الشرق الأوسط بمعاهدة ١٩٦٧ للحد من انتشار الأسلحة، ويفرض على الدول الأخرى الموقعة أن توقع على بروتوكولات إضافية بموجبها يتم إبقاء وإخضاع منشآتها النووية للرقابة والتفتيش الخاصين بـ (الوكالة الدولية للطاقة الذرية).

كل ذلك من أجل إقامة شرق أوسط خال من الأسلحة النووية، مع عدم خضوع إسرائيل لتلك القررارت وحتى تبقى إسرائيل أكبر قوة نووية فى الشرق الأوسط.

مع التقيد الكامل بمعاهدة الأسلحة الكيميائية بالنسبة للدول العربية دون إسرائيل!!

وفى الوقت الذى يجرى فيه الحديث عن مبادرة بوش عام ١٩٩٢م بشأن تجريد الشرق من السلاح النووى، لا يتم الحديث عن إسرائيل، مع أنها كانت تمتلك أكثر من قنبلة نووية، وأنها تقوم بتطوير قنبلة نيترونية وأسلحة كافية لتهديد الشرق الأوسط.

وهذا ما تحدث عنه المواطن اليهودى فعنون، وهو أول من أفشى سر القدرات النووية الإسرائيلية، لأنه كان أحد العاملين فى مفاعل ديمونة، وفوجئ بما شاهده.

ولقد صدرت عن الرئيس الأمريكى وثيقة وجهها إلى مجلس الأمن القومى للولايات المتحدة، تعتبر بكل بنودها تركيزا على نشاط الولايات المتحدة لمنع انتشار الأسلحة النووية والكيمياوية وغيرها من أسلحة واسعة الدمار، وركزت على دول العالم الثالث.

فقد انعكست هذه المبادرات على مفاوضات التسوية بين العرب وإسرائيل فى مؤتمر مدريد فى ٣٠/ ١٠/ ١٩٩١م.

فقد كانت سياسة ضبط التسلح التى مارستها الولايات بعد سقوط الاتحاد السوفيتى وبعد حرب الخليج الثانية، إنما تهدف فى محصلتها إلى رسم عالم جديد وإبراز معالم لنظام دولى جديد يرتكز على نزع السلاح فى الشرق الأوسط لإبقاء التفوق لإسرائيل على حساب الأمن القومى العربى والإسلامى على حد سواء وقد تحقق لها ذلك على أرض الواقع.

واستطاع النظام الدولى الأمريكى الجديد الهيمنة على آبار البترول لعزل القوى الاقتصادية الواعدة، كاليابان وأوربا، من أن تلعب دورا قطبيا جديدا لتبقى الولايات المتحدة وحدها تتحكم بمصائر البلدان والشعوب.

وتحقيق أمن إسرائيل من خلال نزع الأسلحة فى الشرق الأوسط وإبقاء إسرائيل قوة نووية لا منافس لها.

كان هذا من أسس النظام الذى بشر به اليمين الأمريكى من نشر الديمقراطية التى يريدون فرضها بحد السلاح وتصديرها على حاملات الطائرات، بينما الديمقراطية عبر مسيرتها هى إنجاز داخلى تمارسه الأمة.

إنهم من أجل أهدافهم لا يمانعون عملا باستخدام القوة واستعمال الآلية العسكرية، فكان احتلال العراق المحطة الأساسية فى تحقيق الهدف والانطلاق منه إلى أهداف استراتيجية كبرى تعزز بنحو لا عودة فيه الاستقرار للنظام الدولى بكل أيديولوجيته الجديدة، ومن أجل أمن إسرائيل أخذت أمريكا تعمق تحالفاتها الاستراتيجية مع إسرائيل.

فالعلاقة بين أمريكا وإسرائيل وإن كانت مستحكمة، إلا أنه يمكن القول بإنها تركزت وأخذت بعدا استراتيجيا واحدا على يد هنرى كيسنجر عام ١٩٧٣، بعد حرب تشرين الأول أكتوبر؛ بغية إنشاء قاعدة ضخمة جنوب الاتحاد السوفيتى، ولتحويل إسرائيل إلى قوة تدخل سريع لمقاومة التحركات السوفييتية.

فقد قام الاتحاد السوفييتى بامداد العرب بمساعدات عسكرية فى صراعهم وحروبهم مع إسرائيل بعد حرب ١٩٦٧ حينما كانت الدفاعات الجوية المصرية عاجزة عن صد الطيران الإسرائيلى الذى يضرب بالعمق إبان حرب الاستزاف حتى أن الطيران الإسرائيلى كان يهاجم الأهداف المصرية على ارتفاعات منخفضة تجنبا للصواريخ المصرية التى كانت لا تصيب إلا الأهداف العالية.

فقام السوفيت بتزويد مصر بصاروخ (سام ٣) وبدأت صواريخ سام ٣) والطائرات الحربية مع أطقمها تنقل على عجل إلى مصر، وتم نصب الصواريخ فى قاعدتى (جانالكس) فى الدلتا والمنيا فى الصعيد، وبدأت الطائرات الإسرائيلية تتهاوى الواحدة تلو الأخرى، مما حدا بإسرائيل أن توقف غاراتها الجوية على العمق المصرى وهذا من ثمار وجود قطبين.

وقد قامت إسرائيل بعقد تحالفات عسكرية مع الولايات المتحدة لإمدادها بأحدث أنواع الأسلحة على مدار سنوات الصراع العربى الإسرائيلى حتى بعد عقد اتفاقية الصلح مع مصر بعد حرب ١٩٧٣م.

وتوصلت الولايات المتحدة وإسرائيل إلى اتفاق آخر مكتوب بعد معاهدة الصلح المصرية - الإسرائيلية، تعهدت بموجبه واشنطن بالتدخل العسكرى لمنع أى انتهاك مصرى لتلك المعاهدة، وهذا ما نص عليه البند الثالث من اتفاقية كامب ديفيد.

ومنذ الأيام الأولى لرئاسة ريجان ركز على ن الغزو السوفييتى لأفغانستان، وسقوط نظام الشاه فى إيران، وقيام جمهورية إسلامية، زاد من المخاطر التى يتعرض لها الغرب فى منطقة الخليج.

وفى عام ١٩٨١، قام رئيس الوزراء الإسرائيلى مناحيم بيجن بزيارة إلى واشنطن وأجرى محادثات مهمة انتهت بتوقيع اتفاقية التعاون الاستراتجى بين الولايات المتحدة وإسرائيل، وكانت أهم بنودها:

١- التعاون فى مجالات البحوث العسكرية لصناعة الأسلحة.

٢- بحث إمكانية تخزين الأسلحة الأمريكية فى إسرائيل.

٣- الإعداد لاتفاق دفاع مشترك بين البلدين، يعطى إسرائيل وضعا يشبه وضع الحلفاء الغربيين فى حلف الأطلسى.

٤- السماح للقوات الأمريكية باستخدام القواعد العسكرية الإسرائيلية.

وفى عام ١٩٨٣ وجهت الإدارة الأمريكية دعوة رسمية إلى رئيس الوزراء الإسرائيلى إسحاق شامير ووزير دفاعه موشيه آنيز لزيارة واشنطن، وانتهت الزيارة بتوقيع تحالف استراتجى بين الولايات المتحدة وإسرائيل.

وأهم بنوده هى:

١- التخطيط الأمنى المشترك.

٢- تخزين المواد العسكرية فى إسرائيل.

٣- استعمال أمريكا للقوات العسكرية الإسرائيلية.

٤- سماح الولايات المتحدة بنقل التقنية والقطع المطلوبة لإنتاج مقاتلات (لافى)، والمشاركة فى تمويل المشروع.

وفى عام ١٩٨٦ قامت الولايات المتحدة وإسرائيل بإنشاء (١٤) مصنعا لإنتاج الأسلحة والمعدات العسكرية المتنوعة لصالح الجيش الأمريكى، داخل المستوطنات الموجودة فى المرتفعات السورية المحتلة.

واستمر إمداد إسرائيل بالسلاح بشكل متطرد لا يتوقف حتى تكون أقوى دولة عسكريّاً فى المنطقة العربية حتى تعاظم ظهرها وباتت تهدد كل الدول المجاورة لها والبعيدة عنها مثل الجمهورية الإيرانية.

هذا غير الدعم الدبلوماسى والتصدى لقرارات الأمم المتحدة، مما زاد اشتعال المنطقة بالحروب وكانت أخرها الحرب بين حزب الله والكيان الصهيونى عام ٢٠٠٦ م.

ثم حصار الكيان الصهيونى لمدينة غزة الفلسطينية وتجويع أهلها والقضاء عليهم بالحصار.

وهذا هو النظام العالمى الجديد الذى تحلم به أمريكا ومن يسير فى ركابها من دول العالم.

19

صراعات ومواجهات فى بحر قزوين بين أصحاب البروج وأصحاب الكهوف

- بؤرة التنافس الدولى فى بحر قزوين من أجل النفط.
- تحالف مصلحى وصراع حضارى أيديولوجى فى وسط آسيا بين أصحاب البروج من الروس الشيوعيين والإسلاميين فى الدول المستقلة عن الاتحاد السوفيتى (الشيوعيين والإسلاميين).

بحر الخزر أو بحر قزوين
بؤرة الصراع والتنافس الدولى
حول آبار النفط والغاز

وسط آسيا العليا يقع بحر قزوين أو بحر الخزر حيث تقع دول الاتحاد السوفيتى القديمة كازاخستان وأوزبكستان وتركمنستان وأيضا إيران وأذربيجان وتركيا وبالطبع روسيا.

كل هذه الدول هى بؤرة الصراع، وكلها تطل على بحر قزوين وكلها دول مبشرة بالنفط والغاز الطبيعى وتمتلك مخزوناً استراتيجيّاً عالميّاً جعلها أرضاً خصبة للصراع والتنافس من أصحاب البروج أمريكا وحلفائها.

مع تفكك الاتحاد السوفييتى فى أواخر عام ١٩٩١م (ديسمبر)، تأسست رابطة الدول المستقلة (الكومنولث - مؤتمر المآآتا) فى ٢٠/ ١٢/ ١٩٩١م من الدول التى ولدت من انفراط عقد الاتحاد السوفيتى، وبذلك نشأت ٦ دول إسلامية فى وسط آسيا والقوقاز، هى: كازاخستان، أوزبكستان، قيرغيزستان، تركمنستان، طاجيكستان، أذربيجان، وذلك على أسس الحفاظ على السيادة والمساوة والمشاركة الطوعية.

وقد وضعت دول المنطقة - كأولوية أولى - مهمة تنمية العلاقات مع روسيا وسائر أعضاء الكومنولث. وأخذت الدول الأعضاء بعد تحقيق السيادة والاستقلال بتطوير اقتصادياتها الوطنية التى عرضت لها هزات عنيفة.

ومنذ عام ١٩٩٦م شهدت العلاقات بين روسيا الاتحادية وأذربيجان تغيرات تصاعدية فى (المال) الاقتصادى؛ حيث وقعا على ٦ اتفاقيات تتضمن إعلانا للتعاون فى استغلال ثروات بحر قزوين، وفيه أن الوضع القانونى لهذا البحر يعد طبقا لاتفاق الدول المشاطئة.

كما قررت روسيا الاتحادية وكازاخستان إنشاء خطوط لنقل النفط من بحر قزوين

إلى الميناء الروسى (وفورسيسك)، وصاغت هاتان الدولتان مع روسيا البيضاء وجورجيا اتفاقية خاصة بإقامة نظام دفاع مشترك.

وتعانى دول الكومنولث - مع اختلاف فيما بينها بشأن نوع المعاناة وحجمها - من الاختلافات الوظيفية، وبخاصة عندما لا تنطبق التركيبات الاجتماعية الإثنية مع حدود الدول، ففى كل دولة أقوام متنوعين، على الرغم من وجود أكثرية من قومية معينة.

وتختلف الأكثرية من دولة إلى أخرى وكذلك الأقليات.

فمن المنتظر أن تبدأ أذربيجان فى استخراج خمسة مليارات متر مكعب سنويًا من الغازات الطبيعية من خمسة حقول، هى (شيراق، وآذرى، وجونشلى، وشاه دنيز، وبير الله)، من بين ٤٨ حقلاً بحريًا بدأت فى الإنتاج فى نهاية أغسطس ٢٠٠١م؛ ليبلغ بذلك ما تنتجه حوالى ١٠ - ١٥ مليار متر مكعب من الغازات فى السنة الواحدة فى غضون السنوات القليلة القادمة.

يضاف الكميات المنتجة من نفس البحر - من قبل إيران وتركمنستان وكازاخستان - يكون لدينا حوالى ٧٠ - ٨٠ مليار متر مكعب تنتج من بحر الخزر (قزوين) بشكل سنوى.

وهذا مغر للصراع والتنافس ومحاولة السيطرة على تلك المنطقة، وشجع أذربيجان وتركمنستان وكازخستان محصورة برِّيًا، وليس لها موانئ مُطِلَّة على البحار المفتوحة، كما هو الحال مع إيران، فتسعى كل دولة بكل ما تملك لإغراء الدول المستهلكة والقريبة من حدودها، والتى تتمتع بشواطئ مفتوحة على العالم، لكى تقوم بنقل غازتها وبيعها للسوق العالمية.

وأما تركيا فهى تمثل أكبر سوق مستهلكة للغازات فى شرق البحر الأبيض المتوسط (١٢ - ١٥ مليار متر مكعب زادت إلى ٣٠ مليارا فى عام ٢٠٠٧م) - وهى الدولة القريبة أيضًا من بحر الخزر - ولذا فالتنافس على سوقها أصبح بارزًا بين روسيا وأذربيجان وتركمنستان وكلهم من الدول التى تصنف من دول أصحاب الكهوف.

أما روسيا الاتحادية المُطِلَّة على بحر قزوين - والتى لا تملك احتياطات من الغاز الطبيعى، كما هو الحال مع الدول الأخرى المطلّة على البحر - فإنها تسعى للاستفادة

من موقعها البحرى المفتوح على العالم، من خلال عقد اتفاقيات مع الدول المنتجة لتمرير خطوط نقل الغازات من أراضيها فى طريق تصديره للعالم.

ومن ثَم، فقد دخلت روسيا على خط المنافسة مع الشركات الغربية (أى الدول الغربية) العاملة فى بحر قزوين، لكى تحصل على عمولات مالية ضخمة ومنتظمة سنويًا من خطوط النقل - هى فى أشد الحاجة لها، هكذا الكل يستفيد ويفيد.

أما الإدارة الأمريكية فتعمل على محاصرة إيران والضغط عليها منذ انهيار نظام الشاه (١٩٧٩م) وتضغط على تركيا لكى تمتنع عن تنفيذ اتفاقية الغاز مع إيران.

كما تسعى واشنطن لتقليل الفوائد الروسية ومنع سيطرتها على هذه السلعة الإستراتيجية، مثل الغازات الهامة لمستقبل العالم الغربى؛ فراحت تحثُّ تركمنستان - عبر تركيا وأذربيجان - على المشاركة فى خط ترانزخزر: Transhazer، لكى تذهب أنابيب الغازات أو البترول من الشاطئ الشرقى لبحر الخزر إلى الشاطئ الغربى الأذربيجانى، ثم تركيا Baku-Cihan Pipline بدلاً من الذهاب لروسيا بريًا، ثم النقل بالناقلات البحرية عبر البحر الأسود.

وإذا وضعنا فى الاعتبار، المعارضة الإيرانية لفكرة تقسيم الحقوق الإقليمية فى بحر الخزر - طبقًا لوضع وطول الساحل البحرى لكل دولة، ومطالبتها بالتقسيم على أساس التساوى بنسبة ٢٠٪ لكل دولة - يتضح لنا حجم المنافسة الشديدة القائمة بين دول بحر الخزر، والمتوقع أن تفجِّر خلافات فى المستقبل القريب.

وقد اشتعل التنافس الإيرانى - الروسى فى السعى للحصول على مشروعات تمرير خطوط نقل الغازات التركمنستانية للسوق العالمية، ونجحت الحكومة الروسية فى الحصول على عقد نقل للغازات التركمنستانية، عبر خط الأنابيب القديم بين (تنجيز - نوفورسيسيك)، ومن هناك سيتم ضخّه فى أنبوب بحرى - الخط الأزرق - آخر يصل طوله لحوالى ١٣٥٠ كم للحدود التركية البحرية المطلة على البحر الأسود.

كما بذلت إيران جهودًا مشتركة مع تركمنستان من أجل بناء خط برى آخر ينقل جزءاً من الغازات التركمنستانية حتى شواطئ الخليج، ومنها للسوق العالمية بواسطة الناقلات.

وتركمنستان تحاول اتباع سياسة مسك العصا من الوسط فى علاقاتها مع قوتين إقليميتين (إيران وروسيا)، من خلال نقل غازاتها عبر خطَّين واحد فى اتجاه روسيا، والثانى فى اتجاه إيران إنها السياسة الحذرة.

ولكنها من ناحية ثالثة ترفض الانضمام لخط (ترانزخزر) المقترح من قبل أذربيجان وأمريكا، قبل الانتهاء من بناء الخط المتجه لإيران من باب القول إن الجار أولى بالشفعة!!

الاتفاقيات التى أبرمتها الدول المنتجة للغازات فى بحر الخزر - وعلى رأسها أذربيجان - وقَّعت اتفاقية إنشاء خط نقل الغازات الطبيعية بينها وبين تركيا - يحمل اسم (باكو - تبليسى - سامسون) - قدم لتركيا ١٠ مليارات متر مكعب فى الفترة ما بين ٢٠٠٤م و ٢٠٠٦م بسعر٣١ دولارًا للألف متر مكعب، وهو السعر الذى يقل حوالى ٥٥٪ عن السعر العالمى (٧٠ - ١٢٠ دولارًا).

والجدير بالذكر أن هذا الخط جاء على الرغم من اتفاق سابق بين إيران وأذربيجان لبناء خط مماثل، وهو ما دفع إيران للتهديد - عبر وزير بترولها - باللجوء للمحكمة الدولية لمطالبة الحكومة التركية بدفع تعويضات مالية تقدر بـ ١٢٠ مليون دولار، نتيجة تقاعسها عن تنفيذ الجزء الخاص بها من بناء خط أنابيب، لنقل الغازات الطبيعية بين إيران وتركيا؛ والذى تم الاتفاق عليه فى مطلع عام ١٩٩٧م وقت حكومة حزب الرفاه بتركيا.

فالجزء من الخط المار فى أراضى إيران حتى الحدود التركية قد أصبح جاهزًا. وتشير أرقام الخبراء إلى أن تكاليف بناء الخط الإيرانى تقلّ كثيرًا عن بناء الخط الأذربيجانى.

إلا أن الضغوط التى يمارسها التيار العلمانى التركى فى الداخل والضغوط التى تمارسها أمريكا على الحكومات التركية من الخارج لوقف التعامل مع إيران، قد جعلتها تتراجع أو تتردد عن تنفيذ اتفاقية بناء الخط الإيرانى، نتيجة رفض أمريكا - حليفة تركيا - الموافقة على هذا الخط، بينما قبلت على رحب فكرة بناء الخط الأذربيجانى، بسبب العلاقات الجيدة بين الإدارة الأمريكية ونظام الرئيس حيدر علييف.

وبذلك فقد حقَّقت أذربيجان نصرًا لمصالحها بإقناع حليفتها تركيا بقبول بناء خط باكو - سامسون بدلاً من تنفيذ الخط الإيرانى.

وعلى الجانب الآخر، انتهى فى نهاية ٢٠٠١ أو ٢٠٠٢م - طبقًا للمصادر التركية والروسية - مشروع الخط الأزرق Mavi Akim نوفورسيسيك -سامسون) لمدّ خط أنابيب عبر البحر الأسود لنقل الغازات الطبيعية من روسيا لتركيا؛ طبقًا لاتفاقية موقعة فى عام ١٩٩٩م.

والخط المذكور تكلف من ٣ إلى ٤ مليارات دولار؛ والمفترض أن ينقل ١٠ مليارات متر مكعب من الغازات فى مرحلته الأولى (٢٠٠٢ - ٢٠٠٧م)؛ لترتفع بعد ذلك إلى ٣٠ مليار متر مكعب فى عام ٢٠٠٧م.

وفى شهر أبريل ٢٠٠١، وقَّع الرئيسان التركى نجدت سزر والرئيس الأذربيجانى حيدر علييف فى أنقرة على اتفاقية لبناء مشروع خط غازات طبيعية آخر عبر الطريق البرى بين باكو - تبليسى - سامسون.

وهذا يعنى ببساطة، أن روسيا وأذربيجان تتنافسان بشدة على نيل أكبر قدر من أموال شراء الغازات الطبيعية، بعدما أعلن وزير الطاقة التركى السابق (جمهور أرسومر) أن بلاده ستحتاج لـ ٥٥ مليار متر مكعب من الغازات فى عام ٢٠١٠م.

وكذلك وفى الوقت الذى تقوم فيه روسيا بشراء الغازات الطبيعية من جمهورية تركمنستان بسعر قليل (حوالى ٥٠ دولارا للألف متر مكعب) - ثم تبيعه لتركيا عبر الخط المذكور بسعر فوق ١٠٠ دولار للألف متر مكعب - اتفقت أذربيجان من جهتها مع تركيا ليس فقط على بيع الغاز لها بهذا بسعر رخيص (٣١ دولارًا) وبناء خط للغازات.

وإنما أيضًا على قيام تركيا ببيع الغازات القادمة على هذا الخط لدولة ثالثة لصالح أذربيجان، بما يضرّ روسيا ويحرمها من مزايا عديدة.

ولهذا فإن أذربيجان تغرى تركيا بتقديم غازات رخيصة من ناحية، والحصول على عمولات بيع من ناحية أخرى، بالإضافة لتشغيل قدر من العمالة العاطلة والمنتشرة فى الدولتين - (حيث يؤكد معهد الإحصاء التركى DIE وهيئة التخطيط التركية DPT أن

الأزمة الاقتصادية الأخيرة قد تسبَّبت فى بطالة مليون عامل، وتشير أرقام معهد الإحصاء الأذربيجانى ADIE إلى أن نسبة البطالة فى الأيدى العاملة اقتربت من ٤٠٪).

ربح روسيا من وراء كل ما يباع لتركيا، سنويًا ما بين ٤٠٠ - ٥٠٠ مليون دولار فى المرحلة الأولى ارتفعت إلى مليار دولار سنويًا فى عام ٢٠٠٧م؛ بينما ستربح أذربيجان فى حالة بيع غازاتها لتركيا حوالى ٦ مليارات متر مكعب فى عام ٢٠٠٤م تعادل ٥٠٠ مليون دولار تقريبًا.

ومن ثَم يمكن إدراك حجم التنافس بين أذربيجان وروسيا على السوق التركية.

وكما أن هناك تنافسًا بين إيران وأذربيجان على السوق التركية، فإن جمهورية تركمنستان هى الأخرى تسعى لبيع وتسويق غازاتها لتركيا وللسوق العالمية.

إلاّ أن وضعية جغرافية تركمنستان تجبرها على نقل غازاتها إما عن طريق خط يتجه لإيران ويصبُّ فى الخليج، أو باستخدام الخطوط القديمة الممتدة من أراضيها وحتى ميناء نوفورسيسك الروسى المُطِل على البحر الأسود (مسافة تقدر بحوالى ١٨٥٠ كم).

فقد وقع خلاف بين تركمنستان وتركيا بسبب الغازات المباعة لتركيا عن طريق روسيا.

حيث تشترى الأخيرة غازات تركمنستان عبر أنبوب قديم بين الدولتين، ثم تبيعه لتركيا بسعر أعلى عبر الناقلات، وأيضًا عبر الخط الأزرق الذى تم إنشاؤه.

وترغب تركمنستان فى بيع الغازات لتركيا بشكل مباشر عبر خط (ترانزخزر) خط أسفل بحر الخزر بين الشاطئ التركمنستانى والشاطئ الأذربيجانى ثم برًا فى اتجاه الأراضى التركية.

إلاّ أن تركيا فضلت الخط الأزرق القادم من روسيا أسفل البحر الأسود؛ لأن روسيا هى التى موَّلت بناءه من ناحية.

كما أنه جاء نتيجة لمكافأة تركيا لروسيا على تراجعها عن بيع صواريخ إس ٣٠٠ للقطاع الجنوبى من جزيرة قبرص من ناحية أخرى؛ علاوة على منع أنشطة منظمة

حزب العمال الكردى PKK فوق أراضيها.

ولأن معظم الشركات البترولية التى تعمل فى مجال استخراج النفط هناك هى أمريكية - أوروبية.

فأمريكا هى التى تدفع أذربيجان وتركيا للتعاون فى بناء خط الغازات. ويقول السفير الأمريكى (جون وولف) المسؤول عن بحر الخزر فى تصريحات له مع الصحافة الأذربيجانية بباكو: (إن استخدام مسار خط بترول باكو - جيحان لبناء خط غازات عليه هو الأفضل اقتصاديًا من استخدام الخط التركمنستانى للغازات).

ولهذا فإن أمريكا تسعى أيضًا عبر الأبواب الخلفية لإقناع تركمنستان بقبول بناء خط ترانز - خزر المتجه للشواطئ الأذربيجانية، لكى تقلل الفوائد الروسية وسيطرة موسكو المتوقعة على مصدر حيوى مثل الغازات.

فالمسألة إذن أشبه بخيوط العنكبوت، والمصالح متداخلة ومتشابكة بشكل صعب للغاية، وكل طرف يسعى لأخذ أكبر نصيب من كعكة غاز بحر الخزر.

والصراع الذى يظهر على أنه اقتصادى جذوره سياسية بالأساس، تسعى من خلاله الدول أصحاب البروج إلى فرض سيطرتها على تلك المنطقة الهامة فى العالم بما تحمله فى أراضيها من مخزون استراتيجى ضخم من النفط والغاز الطبيعى.



تحالفات وصراعات فى آسيا الوسطى والقوقاز (صراع بين الإسلاميين والشيوعيين)

آسيا الوسطى غرب بحر قزوين حيث تقع مناطق ساخنة وصراعات وتحالفات بين الدول الصغرى والكبرى، فالمنطقة تضم روسيا وكازاخستان وأوزبكستان وتركمنستان وأفغانستان وكاجيكستان والصين وقد تأسست مجموعة شنغهاى من تلك الدول عام ١٩٩٦.

مجموعة شنغهاى التى اجتمعت عام ٢٠٠٠ انعقدت القمة الخامسة لرؤساء تلك المجموعة التى تضم كلا من الصين وروسيا وطاجيكيستان وكازاخستان وقيرقيزيا فى العاصمة الطاجيكية دوشنيه والهدف إعادة ترسيم الحدود بين الجمهوريات التى انفصلت عن الاتحاد السوفيتى من جهة والصين من جهة أخرى ومواجهة الأخطار المشتركة هى الموضوع الرئيسى فى هذه الاجتماعات.

بالإضافة إلى عوامل أخرى أهمها تزايد الصحوة الإسلامية فى طاجيكستان وكازاخستان وقيرقيزيا وأوزبكستان وكذلك المواجهات بين المسلمين والأنظمة غير المسلمة.

فقد شهد طاجيكستان حرباً ضروساً على مدى خمس سنوات بين الإسلاميين والشيوعيين الذين يحكمون مدعومين بالجيش وهم بقايا النظام الشيوعى الروسى السابق، حتى اضطرت حكومتا روسيا وطاجيكستان إلى توقيع اتفاقية وفاق وطنى عام ١٩٩٧ بعد أن تمكن الإسلاميون السيطرة على وسط طاجيكستان وإلحاق الخسائر بقوات الجيش النظامى عام ١٩٩٧ وقد شارك فى القتال بجانب الإسلاميين أعداد من مسلمى آسيا الوسطى.

وشهد صيف عام ١٩٩٩ قتالاً بين الإسلاميين من طاجيكستان وحرس الحدود القيرقيزى مع بداية الهجوم الروسى على الشيشان وكانت لتلك الهجمات دعماً معنويا للإسلاميين المقاتلين من الشيشان فى حربهم ضد روسيا.

وقد شهدت «أوزبكستان» وهى عضو مراقب فى مجموعة شنغهاى أيضاً صحوة إسلامية اضطرت الحكومة الشيوعية فيها لقمعها كما هو حادث فى كل الدول الإسلامية العلمانية.

والقارئ لأحداث تلك المنطقة الهامة يجد أن الصراع قائم فيها بين أصحاب البروج من الشيوعيين الروس والصينيين وأصحاب الكهوف من الدول المستقلة عن الاتحاد السوفيتى القديم من الإسلاميين صراع غير متكافئ من الناحية العسكرية حيث يملك أصحاب البروج الجيش والسلطة ولكن المقاومة الإسلامية لا تزال مستمرة.

فقد شهدت روسيا مواجهات بين بعض المقاطعات الداغستانية التى طبقت الشريعة الإسلامية فى صيف ١٩٩٨م ومن جهة وبين الجيش الروسى الذى فرض حصاراً على تلك المقاطعات، وبدأ قصفاً عنيفا خاصة على بلدة كاراماخى - التى محيت من الخارطة - مما أدى إلى تدخل الشيشانيين بقيادة رئيس الوزراء الأسبق شامل باسى لنصرة إخوان العقيدة والحلفاء التاريخيين.

وأدى ذلك على نشوب الحرب الشيشانية - الروسية الثانية خلال هذا العقد.

أما الصين فتشهد صحوة للمقاومة الإيغورية (التركستانية) المسلمة فى تركستان الشرقية (سينكيانج كما يسميها الصينيون)، التى تمكن الصينيون من سلخها من جسد الأمة الإسلامية فى أواخر القرن التاسع عشر.

ثم تمكن المسلمون الايغور من التصدى لهم وإعلان الاستقلال فى عام ١٩٤٤م.

وخفت حدة المواجهات إبان ما يسمى بفترة الحرب الباردة، ثم اشتعلت مرة أخرى بعد سقوط الاتحاد السوفيتى.

والجدير بالذكر أنه فى العام (١٩٩٩م) تم إعلان ٢٠٥ من مسلمى تركستان بتهمة السعى (للانفصال)، واعتقل آلاف منهم.

والجدير بالذكر أيضا أن سياسة الاستيطان المتبعة من إسرائيل تجاه الفلسطينيين تتبعها الحكومة الصينية مع مسلمى تركستان، وتمكنت بذلك من تغيير الواقع الديموغرافى فى تركستان فصار ٤٠٪ من سكانها من الصينيين غير المسلمين (الهان)

فى عام ٢٠٠٠م، فى مقابل ١٥٪ فقط فى عام ١٩٥٠م.

العامل المشترك الآخر هو أن قيادات هذه الدول جميعا ودون استثناء كانوا قيادات فى الأحزاب الشيوعية السابقة أو عملاء لأجهزة استخبارات تابعة لدول شيوعية مثل الرئيس الروسى فلاديمير بوتين.

أما رئيسا كازاخستان وأوزبكستان فكانا سكرتيرى الحزب الشيوعى المحلى فى بلادهما إبان الحقبة السوفيتية.

وأما رئيس قيرقيزيا وطاجيكستان فكانا من قيادات الحزب الشيوعى المحلى فى الفترة السوفيتية، وأما الرئيس الصينى فهو رئيس الحزب الشيوعى الحالى فى الصين.

هكذا الحال فى تلك الدول التى انفصلت اسماً عن الاتحاد السوفيتى الشيوعى إلا أنها مازالت تمارس أساليب القمع الشيوعى ضد المعارضين الإسلاميين وغيرهم من القوميين أيضاً.

فقد عكست قررات القمة مدى جدية أنظمة مجموعة شنغهاى فى مواجهة ما أسمته فى إعلانها النهائى تارة (بالإرهاب الدولى) وتارة أخرى (بالتطرف الدينى)، وتارة ثالثة (بالانفصال القومى)، كل ذلك يعنى أمرا واحدا وهو الإسلام والمسلمين.

وأكد الإعلان النهائى للقمة على عزم المجموعة على المواجهة (بحزم). وهو ما يعنى (تقنين) التدخل العسكرى الروسى والصينى فى هذه الدول، كما حدث ويحدث فى طاجيكستان من قبل روسيا وهو ما يعكس اعتماد أنظمتها على الجيش الروسى والحكومة الروسية ودلالة على الاستقلال الهش.

وكذلك أكدت القمة على (وحدة الأراضى الصينية) ودعم مبدأ (الصين واحدة)، وهو ما يعنى عدم تغاضى حكومتى قيرقيزيا وكازاخستان عن نشاط المقاومة الإيغورية المسلمة التى تسعى لاستقلال تركستان الشرقية (سينكيانج)، وتحالفهما مع الصين فى مواجهة الشعب الإيغورى المسلم.

أما بالنسبة للشيشان فقد أكدت المجموعة دعمها للجهود الروسية فى (حل)

المسألة الشيشانية وإدانتها (للإرهاب) رغم استقلال الشيشان رسميا ودوليا عن روسيا إلا أن الأخيرة مازالت محتلة لها بوصفها من أصحاب البروج فى تلك المنطقة مثلها مثل الولايات المتحدة الأمريكية حين احتلت أفغانستان والعراق.

وأما بالنسبة لأفغانستان فقد أكدت المجموعة على أن الوضع الأفغانى يمثل (تهديدا حقيقيا) للأمن الإقليمى والعالمى.

والجدير بالذكر أن الحكومة الأفغانية قد اعترفت بالدولة الشيشانية، وحولت مبنى السفارة الروسية إلى سفارة جمهورية الشيشان الإسلامية، وقد رفضت الحكومة الأفغانية تسليم ٣٠٠ إيغورى مسلم للحكومة الصينية، وطالبت الحكومة الصينية بتقديم أدلة على تورطهم فى أعمال غير قانونية.

كما تتهم حكومتا أوزبكستان وقيرقيزيا أفغانستان بدعم المعارضة الإسلامية فى بلديهما، وهو ما تنفيه الحكومة الأفغانية.

وقد أكدت دول المجموعة رفضها التدخل فى الشؤون الداخلية لبعضها البعض تحت شعار (التدخل الإنسانى) أو (حماية حقوق الإنسان)، وهو ما يعكس حالة حقوق الإنسان فى تلك البلدان وخوفها من التدخل والانتقادات الدولية، وتشكيلها جبهة فى مواجهة ذلك.

ومن هذه الدول كما هو معلوم هناك دولتان نوويتان وعضوان دائمتان فى مجلس الأمن، وهو ما يجعل التدخل الدولى المشابه للتدخل فى كوسوفا أمرا مستبعدا.

ويعنى هذا إطلاق يد هذه الحكومات فى قمع المعارضة المحلية والحركات الاستقلالية المسلمة، وهو الأسمى لأصحاب البروج فى تلك المنطقة من المناطق الأخرى التى تتولى المهمة فيها القطب الأكبر (أمريكا) تلك المهمة من محاربة للإسلام وأهله.

فقد شهدت تلك المنطقة من آسيا قديما مداهمات وصراعات منذ انهيار الاتحاد السوفيتى الشيوعى عام ١٩٩١م، ومحاولات الحكومات الروسية المتعاقبة للحفاظ على مركز قوتها القديم كدولة عظمى وأحد الأقطاب الهامة فى القرن العشرين بعد الحرب العالمية الثانية مما اضطرها احتلال أفغانستان حينا من الزمان انتهى بهزيمة

متكررة ثم تفكك الإمبراطورية السوفيتية واستقلال الجمهوريات الإسلامية عنها بعد طول احتلال فضاع منها نفوذها وما كانت تسلبه من ثروات تلك البلاد.

وأدى ذلك إلى دخول الدب الروسى فى صراعات وحروب مع الإسلاميين الشيشان ودعم روسيا للتدخل الأمريكى ضد حكومة طالبان فى أفغانستان وتأكد هذا فى عهد الرئيس الروسى بوتين.

فقد أعلن منذ توليه الحكم أن روسيا ستقوم بدورها فى محاربة التطرف الإسلامى بزعمه فى تلك المنطقة أى فى الجمهوريات المستقلة عن الدب الروسى.

وكذلك حركة طالبان فى أفغانستان اعتبار الإسلاميين أعداءً لروسيا والعالم.

وتم تعيين قائد القوات الروسية السابق فى القوقاز الجنرال فيكتور كازانتسيف ممثلاً للرئيس بوتين بكامل صلاحيات الرئيس فى منطقة شمال القوقاز إشارة لبداية حكم روسى مباشر.

وهذا التطور الجديد فى السياسة الداخلية الروسية يخالف الشعار الذى كان سائدا أيام حكم الرئيس بوريس يلتسن، والموجه للجمهوريات والمقاطعات الروسية: (خذوا من الصلاحيات ما تريدون ولكن ضمن روسيا الاتحادية الموحدة).

ومع تزايد النزعة المعادية للإسلام فى وسائل الإعلام الروسية الحكومية والخاصة، الواقعة تحت سيطرة اليهود الذين أصبح الإعلام بالنسبة لهم سبيلا للاغتناء السريع، فإن تأثير السياسة الجديدة للكرملين، ولا شك، سيكون سبيلا على المسلمين فى روسيا الاتحادية، وبطبيعة الحال على مسلمى القوقاز الذين يتعرضون لآثارها بشكل مباشر.

والواضح أن بوتين كان يسعى للحد من صلاحيات رؤساء الجمهوريات والمقاطعات الواقعة فى الاتحاد الروسى، ولاسيما جمهورية أنغوشيا المجاورة للشيشان، والتى يعارض رئيسها رسلان أوشيف سياسة الحرب التى يتبعها الكرملين تجاه القوقاز.

وهذا ما اتضح بعد طرد الجنرال أوشيف من مهامه فى الجيش، وهى خطوة

اعتبرتها وسائل الإعلام الروسية مقدمة لرفع الحصانة الدبلوماسية عنه كعضو فى المجلس الاتحادى.

ومن ثم رفع قضية جنائية ضده بتهمة دعم المقاتلين الشيشانيين، ولاسيما بعد حادثة مقتل عدد من الجنود الروس فى كمين نصبه المقاتلون الشيشانيون فى أنغوشيا، وبسبب علاقته الجديدة مع الرئيس الشيشانى أصلان مسخادوف.

وكما أن هذا التأثير السلبى على أوضاع المسلمين سينتقل إلى خارج حدود روسيا الفيدرالية.

وكذلك تستهدف السياسة الروسية الخارجية بشكل أساسى جمهوريات آسيا الوسطى؛ ولهذا فإن موسكو لا تتوقف عن التلميح بأن حركة طالبان تشكل تهديدا على أمن دول آسيا الوسطى التى تدخل فى (كومنولث الدول المستقلة)، وتعتبر روسيا حدود تلك الدول حدودا أمنية لها، ولاسيما من جهة جمهورية طاجكستان التى يتواجد فيها عدد كبير من القوات الروسية على الحدود مع أفغانستان.

كما أن تزايد الصعوبات التى تواجه هيئات (كومنولث الدول المستقلة) التى تحولت إلى مكاتب بيروقراطية بسبب التناقض بين دول الكومنولث، نتج عنها اتفاقيات لم يتحقق منها شىء على أرض الواقع.

كل هذا دفع الكرملين إلى التغطية على فشل هذه المنظمة عن طريق تضخيم الأخطار التى تواجه آمن آسيا الوسطى من (جماعات إرهابية)، واحتمال نشوب حروب وصراعات على السلطة فى بعض دولها، وأن دولا أجنبية قد تتدخل لدعم التطرف، وتستخدم موسكو هذه الأوراق لزيادة نفوذها ووجودها العسكرى هناك.

هذا كله يدل على أن الكرملين يطبق السياسة الأمنية لروسيا بوعائها القديم من المنظور الجديد الذى دعمه بوتين منذ تعيينه رئيسا للوزراء بعد تخليه عن منصب الرئاسة مؤخراً.

وكان مجلس الأمن القومى الروسى قد دعا فى أكتوبر من العام الماضى إلى تطبيق هذه السياسة التى تدعو إلى السيطرة على كل أجهزة الدولة فى كل المناطق الاتحادية

ووسائل الاتصالات، ومراقبة الصحفيين، باعتبار أن (أمن المعلومات) أهم سلاح لحماية الأمن القومى الروسى، والتعتيم على الممارسات التى قد يستنكرها الرأى العام الروسى والدولى وإعطاء المجتمع الدولى صورة مشرقة لـ(روسيا الديمقراطية) والمتفتحة على العالم.

وهذا ما يلجأ إليه أى رجل استخبارات يحاول المراوغة بتصريحات تتبدل حسب الزمان والمكان لكسب استثمارات الدول الغربية.

ففى المثال الشيشانى يصرح بوتين للغرب بأن حل الأزمة سيكون سياسيا، فى حين يزيد العسكريون من قصفهم لكل المناطق الشيشانية بأحدث الأسلحة، كما أن الرئيس الروسى الجديد يحاول إعطاء التدخل الروسى فى تلك المنطقة صفة مشروعة دوليا للحصول على الدعم المادى والمعنوى من بعض الدول لمواجهة الخطر المشترك وهو (الإرهاب الإسلامى).

ولهذا فهو يستغل كل فرصة للحديث عن التطرف، وأن موسكو ستتعاون مع كل الدول التى تواجه هذا الخطر.

وهذا الفكر يدل على مدى التخلف الإعلامى السياسى الذى يعيشه الحكم الشيوعى وإن ارتدى ثوب الديمقراطية، لأن ثورة الاتصالات جعلت العالم قرية واحدة.

ولا شك أن بوتين يوجه بذلك رسالة علنية ومباشرة إلى (إسرائيل)، ولاسيما بعد تمثيلية الطفل الإسرائيلى إيدى شارون الذى اختطف فى إحدى المدن الروسية، وأعلن بعدها عن تحريره من أيدى الخاطفين الروس، وبعد فترة قصيرة أعلنت السلطات الروسية أن الذين قاموا بعملية اختطاف الطفل هم روس وشيشانيون، إلا أن وسائل الإعلام الروسية نقلت الخبر بشكل آخر وركزت على أن الخاطفين الشيشانيين عذبوا الطفل.

وأن الرئيس بوتين قرر نقله إلى تل أبيب الإثنين ٥ - ٦ - ٢٠٠٠م بطائرته الخاصة بمرافقة وزير الداخلية الروسى فلاديمير روشايلو! وفى اليوم التالى نقلت القناة الروسية الأولى O.R.T حديثا مباشرا مع روشايلو من تل أبيب الذى تحدث عن أهمية زيارته لإسرائيل، وإمكانية القيام بعمليات مشتركة بين الاستخبارات الروسية

والموساد الإسرائيلى لمكافحة الإرهاب، والاستفادة من (الخبرة الإسرائيلية الطويلة) فى هذا المجال، وإنشاء بنك للمعلومات حول الحركات والجماعات التى أسماها الوزير الروسى بالإرهابية ومواقعها ومصادر تمويلها، وتبادل المعلومات والخبرات بدون تحفظ.

ومن ناحية أخرى تستقبل المستشفيات الإسرائيلية عشرات الجرحى من الجنود الروس الذين يصابون فى المعارك فى الشيشان.

وبفعل الأوضاع الاقتصادية الصعبة منذ تفكك الاتحاد السوفييتى، وفى ظل الفساد وسيطرة المافيا على هيئات وأموال البلاد، يسعى الكرملين إلى الإبقاء على الاتفاقيات العسكرية والاقتصادية مع الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى للوقوف فى وجه التحالفات الخارجية، وبشكل خاص الأمريكية الساعية لسحب البساط من تحت أقدام «الدب الروسى».

ولا شك أن روسيا تخشى أن تفقد نفوذها فى المنطقة، وأن تفقد الامتيازات التى ورثتها بعد انهيار الاتحاد السوفييتى عن طريق اتفاقيات النفط والغاز.

وأكثر ما أقلق موسكو هو تزايد التواجد الأمريكى عبر البوابة التركية. وقد اتضح من زيارة بوتين وتصريحات المسئولين الروس أن الكرملين مهتم بإضعاف حركة طالبان.

ولهذا فهو سيزيد من قواته على الحدود الطاجيكية ـ الأفغانية، ويقوم بإعاقة كل محاولات الإصلاح بين الأطراف الأفغانية المتحاربة، حتى يظل الصراع دائراً ومشتعلاً بين الإخوة الفرقاء لصالح الدب الروسى.





10

صراعات ومواجهات بين أصحاب البروج فى منطقة جنوب آسيا

- لعبة توازن القوى الكبرى فى شرق آسيا.
- تحالفات تؤدى إلى صراعات إقليمية وتواجد إستراتيجى للقوى الكبرى فى المنطقة.

لعبة توازن القوى العظمى فى منطقة شرق آسيا

منطقة شرق آسيا تشمل دولاً كبرى كان لها ولا يزال تأثير فى العلاقات الدولية، فقد شهدت تلك المنطقة قديماً خروج المغول التتار لغزو العالم قبل الميلاد وبعد الميلاد، فهى تمثل أكبر تجمع سكانى بشرى وأكبر الدول بها عدد من السكان تأتى الصين على رأس القائمة ثم الهند وباكستان وبنجلاديش(١).

ويحتل أيضاً إقليم جنوب آسيا أهمية اقتصادية للدول العظمى، وأهمية استراتيجية سياسية وخاصة مع مدً أنابيب البترول من خلال أراضيها إلى أوربا.

وهناك استثمارات للشركات المتعددة الجنسيات فى إقليم جنوب آسيا يقع بين شرق آسيا حيث القوة اليابانية والشمال الصين وروسيا الاتحادية وجمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية ومحاذية لأفغانستان والبعد التاريخى لهذه المنطقة له من الإمكانيات مما جعل الامبراطورية البريطانية من احتلال الهند الكبرى وهى الهند حالياً وباكستان فقد استطاعت بريطانيا العظمى فى القرن السابع عشر بواسطة شركة الهند الشرقية أن تسيطر على شبه القارة الهندية حتى تم التحرر فى منتصف القرن العشرين.

وأما فى عصر الهيمنة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية فقد لعب توازن القوى دوره حيث اجتذب القطب الروسى الشيوعى الهند وانضمت باكستان للقطب الأمريكى، وكانت الحروب بين الدولتين «الهند وباكستان» لصالح الدولتين العظمتين وتم تجربة السلاح الأمريكى والسلاح السوفيتى فى تلك المعارك.

ثم بعد انهيار الاتحاد السوفيتى ومعسكره استطاعت الولايات المتحدة فرض هيمنتها على دول القارة بمفردها واستغلت الطائفية فى أحكام السيطرة السياسية والاقتصادية خاصة فى الهند التى غالبية سكانها من الهندوس والسيخ.

---

(١) الصين الشعبية بها مليار وربع المليار نسمة فى إحصائيات عام ١٩٩٨ والهند ٩٨٢,٢ مليون وباكستان ١٤٨ مليوناً وبنجلاديش ١٢٤,٨ مليون ونيبال ٢٢,٨ مليون.

واستطاعت الولايات المتحدة أن تستغل الهندوسية لاعتبارات سياسية من أجل دفع الهند لأن تمارس دوراً سياسيا فى الشرق الأوسط، وخاصة عندما طرحت الدوائر الأمريكية مفهوم الشرق الأوسط الكبير الذى أخذ بعدا استراتيجيا يرتبط مع لمصالح الأمريكية.

ولقد طرح كل من (جيفرى كامب) و(روبرت هركابى) فى كتابهما (الجغرافيا الاستراتيجية للشرق الأوسط الكبير) هذا المفهوم ليشمل مناطق واسعه من الشرق الأوسط التقليدى، ولذلك ضم العالم العربى من المحيط إلى الخليج، وآسيا الوسطى، وجنوب آسيا؛ إضافة إلى ايران، وأفغانستان - للشرق الأوسط الكبير مع استثناء تركيا منه، وهى العضو الإسلامى فى حلف الناتو، وإن ضم جنوب آسيا للشرق الأوسط الكبير له دلالة كبرى حول ميزات القوى الجديدة فى الشرق الأوسط الكبير.

ويقترب مفهوم الشرق الأوسط الكبير من مفهوم وزارة الدفاع الأمريكية لمهام قوات الانتشار السريع القيادة المركزية، والذى تبنته فى منتصف عام ١٩٩٨م.

وقد تضمنت مهام القيادة المركزية الغرب الإفريقى، والجزيرة العربية، وشمال البحر الأحمر، ودول آسيا الإسلامية، والأردن، والعراق، وأفغانستان، وباكستان، وهى ثانى دولة فى جنوب آسيا.

ولذلك نجد أن القيادة المركزية التى تحملت مسئولية الحرب الأمريكية فى أفغانستان هى نفسها التى شنت الحرب على العراق، ونلاحظ أن المفهوم الجديد لوزارة الدفاع استثنى: (إسرائيل، وسوريا، وتركيا، والهند) من مهام القيادة المركزية العسكرية، وربطها بالقيادة الأمريكية فى أوربا، وربط مسئولية الهند بالقيادة العسكرية للمحيط الهادى، والملاحظ أن هذا التطور الأمريكى للهند فى منطقة جنوب آسيا وشرقها يأتى مع تعزيز العلاقات الأمريكية الهندية، والدور الهندى فى شرق آسيا ومنطقة بحر العرب.

ولقد مارست الهند دورا مهما من خلال كتلة عدم الانحياز، وقد كانت القيادة الهندية فى عهد (نهرو) تشعر بمستقبل الهند؛ فقد رأى نهرو عام ١٩٥٤م أن الصين هى القوة العظمى القادمة بعد الولايات المتحدة والسوفييت، وأن الهند ستكون القوة

العظمى الرابعة، ولكن ليس من زاوية القوة العسكرية وإنما من معيار التنمية الاقتصادية والسياسية، وفى مجال الرفاهية الاجتماعية.

كان وجهة نظر نهرو أن السكان والمساحة لا تجعل الدولة عظمى، لكن دورها فى المجموعة الدولية التى يعطيها هذه الصفة العظمى، وفى الوقت الذى ظهرت فيه الهند قوة لها دورها الريادى فى دول عدم الانحياز وإحدى الدول المؤسسة.

فإن باكستان ارتبطت فى الحرب الباردة بالأحلاف العسكرية الغربية؛ كالحلف المركزى الذى كان يشمل تركيا وإيران وباكستان، ولذلك ارتبطت باكستان فى الحرب الباردة بالمعسكر الأمريكى.

وفى الوقت نفسه حاولت الولايات المتحدة جر الهند إلى المعسكر الغربى، فقد اقترح أحد المسئولين الأمريكيين فى بداية الخمسينيات أن تحتل الهند المقعد الخامس فى مجلس الأمن الدولى الذى كانت تحتله الصين الوطنية (تايوان).

ولكن نهرو رفض هذا العرض الأمريكى لعلاقاته مع الصين الشعبية بوصفها دولة تنتمى لمنظومة عدم الانحياز، وهى القوة العالمية الثالثة على الرغم من تجاهل أمريكا لها.

ولعل الموقف الهندى وتقاربه مع الاتحاد السوفييتى، وعدم الانقياد الهندى المطلق للاستراتيجيه الأمريكية؛ خاصة فى عهد نهرو ثم أنديرا غاندى.

فقد كان وراء نهاية قيادة المؤتمر الوطنى الهندى، فى الوقت الذى كانت باكستان تسير فيه مع الاستراتيجية الأمريكية.

ومارست باكستان دورا مهما فى بداية السبعينيات؛ وخاصة فى عهد إدارة نيكسون لفتح أبواب الصين الشعبية مع الولايات المتحدة، فقد كان التوتر الحدودى بين الهند والصين الشعبية فرصة لتقوية العلاقات الباكستاية الصينية فى ظل تقارب هندى سوفييتى، خاصة بعد القطيعة الصينية السوفييتية بعد الثورة الثقافية فى الصين فى منتصف عقد الستينيات.

ومع احتلال السوفييت لأفغانستان عام ١٩٧٩م، والجهاد الأفغانى لهذا الاحتلال بقيت

على علاقات قوية مع السوفييت فى الوقت الذى كانت فيه باكستان تدعم المجاهدين.

وكانت الولايات المتحدة قد وجدت فرصتها فى خلق فيتنام ثانية بالجوار السوفييتى؛ مع خلال دعمها للمقاومة ضد السوفييت من خلال باكستان.

لقد توفرت سياسة التقاء المصالح بين الولايات المتحدة وحركات الجهاد الإسلامى، وقد انتهى هذا اللقاء بعد هزيمة السوفييت، ثم اتهام القاعدة بضرب البرجين فى أحداث ١١ سبتمبر , ٢٠٠١

وبعد انهيار الاتحاد السوفييتى وبروز النظام الأحادى القطبية بعد حرب الخليج الثانية، وهيمنة الولايات المتحدة على النظام الدولى؛ أخذت الهند تدفع بكل ثقلها من أجل نظام تعدد الأقطاب الدولية، وطالبت رسميا عام ١٩٩٤م بأن تمنح مقعدا دائما فى مجلس الأمن الدولى، وهى المرة الأولى التى تطالب بها رسميا وعلانية؛ وذلك لشعورها بدورها العالمى، وفى الوقت الذى أصبحت فيه محل اهتمام الدول العظمى، ولتوازن القوى الكبرى فى آسيا، وانقلاب موازين المصالح إلى جانب الهند.

فلم تعد لباكستان الأهمية الاستراتيجية التى كانت لها فى الحرب الباردة فى نظر الاستراتيجية الأمريكية.

وينظر إلى الهند كلاعب مهم فى لعبة توازن القوى فى القارة الآسيوية، وهذا يعطيها دورا استراتيجيا فى القرن الحادى والعشرين وخاصة بعد زوال القوة السوفيتية، وحسب التصورات الأمريكية والروسية والصينية وحتى الإسرائيلية.

فإن الهند ذات أهمية كبيرة فى سياسة المحاور الإقليمية فى آسيا؛ سواء فى مواجهة الهيمنة الأمريكية فى نظر روسيا الاتحادية، أوفى مواجهة المحور الأمريكى الذى يضم الصين الوطنية (تايوان)، كوريا الجنوبية، اليابان؛ بناء على هامشية باكستان بوصفها حليفا استراتيجيا للولايات المتحدة.

وهذا يفسر زيارة كلينتون للهند لمدة خمسة أيام عام ٢٠٠٠م مقابل خمس سعات لباكستان، ويظهر أن هامشية باكستان جعل موقفها ضعيفا أمام الولايات المتحدة بعد أحداث (١١) سبتمبر.

ولذلك كانت سهلة الانقياد للمطالب الأمريكية، ولم تستطع الحكومة الباكستانية بقيادة الرئيس مشرف أن تواجه الولايات المتحدة على الرغم من أنها كانت حليفا استراتيجيا لأفغانستان فى عهد حكومة طالبان حتى انتهى الأمر باستقالته وخروجه من السلطة.

وهكذا ظلت منطقة جنوب شرق آسيا، وخاصة الهند بحجمها السكانى، محل اهتمام التنافس بين الدول الكبرى بين روسيا والولايات المتحدة والصين، وقد تبنت روسيا الاتحادية استراتيجية التقارب مع الهند ضد المحور الأمريكى، ويعد (بريما كوف) وزير خارجية روسيا الاتحادية ورئيس وزرائها فيما بعد صاحب فكرة المحور (الصينى - الروسى - الهندى) ضد الهيمنة الأمريكية، فقد طرح هذه الفكرة أثناء زيارته للهند فى يناير ١٩٩٨م، وعقدت اتفاقية شراكة بين الهند وروسيا.

فالهند على رأس قائمة عملاء الأسلحة الروسية؛ حيث إن ٦٠٪ من صادرات الأسلحة الروسية تتجه إلى الهند والصين.

ولقد تعمقت العلاقات الروسية - الهندية ضد باكستان، وكذلك طالبان؛ حيث إن حكومة طالبان هى الدولة الوحيدة التى اعترفت بجمهورية الشيشان، ولقد توطدت العلاقات الهندية - الروسية تحت شعار مقاومة الإرهاب، وهو مقاومة الحركات الإسلامية؛ سواء فى الشيشان أو كشمير وأفغانستان.

ولذلك جاء الموقف الهندى والروسى مؤيدا للقضاء على حركة طالبان فى أفغانستان، مرحبا بمجىء حكومة تحالف الشمل فى كابول وسقوط طالبان.

ولقد كانت هناك حساسية روسية - هندية من ظهور حركات التيار الإسلامى المعارضة فى آسيا الوسطى.

وكذلك من موقف باكستان فى أفغانستان، ولذلك جاءت الحرب الأمريكية فى أفغانستان فرصة سانحة التقت فيها الأهداف الهندية الروسية والأمريكية، وكانت خسارة استراتيجية لباكستان ونفوذها فى آسيا الوسطى من خلال أفغانستان.

إن هذا التطور الاستراتيجى الأمريكى يعكس مدى الاهتمام بالهند، ونلاحظ أن

الولايات المتحدة كانت قد وقفت إلى جانب الهند ضد الصين الشعبية عام ١٩٦٢م أثناء الحرب الحدودية بينهما.

وكانت الهند تحت مظلة الحماية النووية الأمريكية، فى الوقت الذى لم تكن تملك فيه السلاح النووى على الرغم من أنها من قادة عدم الانحياز.

وعندما حدثت الحرب الهندية الباكستانية عام ١٩٦٥م ساعدت الولايات لمتحدة باكستان سياسيا، ولكنها لم تتدخل عسكريا إلى جانبها؛ على الرغم من أنها حليف لها كما فعلت فى كوريا عام ١٩٥٠م.

وعندما نشبت حرب ١٩٧١م، وحاصر الجيش الهندى الجيش الباكستانى فى خليج البنغال؛ فإن الأسطول الأمريكى لم يتدخل على الرغم من وجوده فى المنطقة.

وهذا يبين ويفسر أن الولايات لمتحدة لم تكن حليفا فعليا لباكستان على الرغم من استسلام ٩٠ ألف جندى باكستانى.

ومع نهاية السوفييت كانت الهند الهدف الرئيس للاستراتيجية الأمريكية، حتى إن السلاح النووى الهندى تنظر إليه الولايات المتحدة على أنه ذو أهمية لها فى مواجهة الصين الشعبية، فعلى الرغم من الانتقاد الأمريكى للتفجيرات النووية الهندية عام ١٩٩٨م، فإنها كانت على علم مسبق بهذه التفجيرات.

ولقد توجت العلاقات الهندية الأمريكية بزيارة كلينتون إلى الهند فى مارس ٢٠٠٠م، وهى أول زيارة لرئيس أمريكى للهند منذ ٢٢ عاما، ويمكن تفسير الاهتمام الأمريكى بالهند - بالإضافة إلى توازن القوى، ومواجهة الصين - بإرجاعه إلى الأهمية الاقتصادية للهند، بالإضافة إلى كونها دولة محاربة للإسلام وأهله.

فقد قال وزير الشؤون البرلمانية وتكنولوجيا المعلومات الهندى: ماهاجان وقتها: (إن بلاده ركزت على تحرير الاقتصاد، وتتوقع قدوم استثمارات أمريكية مباشرة ابتداء من عام ٢٠٠٢م، ويقدر حجمها بـ ١٥ مليار دولار سنويا، وخاصة فى مجال تكنولوجيا المعلومات.

ويظهر أن الهند نفسها تستغل الولايات المتحدة أيضا فى نوع من التحالف غير الرسمى، وهو ما عبر عنه ثوماس ركرس أحد الصحفيين الأمريكيين فى صحيفة الواشنطن بوست فى ٢٦/ ٥/ ٢٠٠٠م؛ معتمدا على مصادر الدفاع الأمريكية بأن المسئولين يهمسون سرا إلى المسئولون الأمريكيين أن بروز الصين قوة عملاقة يجعل الولايات المتحدة حليفا استراتيجيا للهند.

إذا كانت التطورات الاستراتيجية قد أكدت أهمية الهند بعد نهاية الحرب الباردة؛ فإن أحداث ١١ سبتمبر قد وضعت هذه الإستراتيجية موضع التطبيق الفعلى، ولكن أفكار التحالف ومسوغاته كانت موجودة قبل الأحداث.

حتى التحالف الأمريكى، وخطة الغزو الأمريكى لأفغانستان كانت معدة قبل أحداث سبتمبر من أجل تحقيق هدف مد لأنابيب البترول من أواسط آسيا إلى شواطئ المحيط الهندى، ويظهر أن كلا من الولايات المتحدة والهند كانتا قلقتين من نمو الحركات الإسلامية فى أواسط آسيا وكشمير وأفغانستان، وهذا يظهر من خلال مؤتمر آسيا ٢٠٢٥م، وهو المؤتمر الاستراتيجى الذى نظمته كلية الحرب البحرية الأمريكية فى صيف عام ١٩٩٩م.

وكانت ندوة حول (آسيا ٢٠٢٥) قد عقدت تحت إشراف وزارة الدفاع الأمريكية البنتاجون، شارك فيها مجموعة من خبراء الاستراتيجية الأمريكية من الجامعات، ومراكز الأبحاث وبعض المؤسسات الكبرى المتخصصة فى قضايا الدفاع؛ مثل مؤسسة راند.

ونلاحظ أن الولايات المتحدة مع الأحداث دمرت أفغانستان، وأسقطت حكومة طالبان، وأنزلت قواتها فى باكستان، وتحالفت مع الهند التى استغلت أحداث ١١ سبتمبر للقضاء على المقاومة الإسلامية فى كشمير، وهو ما حدث من حشد القوات بين الهند وباكستان، وتهميش الحركات الإسلامية فى كشمير تحت الضغط الهندى، وحظر باكستان لهذه الحركات، وفتح القواعد الجوية الباكستانية للقوات الأمريكية ومحاربة الجيش النظامى الباكستانى للتيار الإسلامى فى باكستان.

والولايات المتحدة وجدت فى الحكومة العسكرية فى بإكستان سندا قويا لها؛ حتى

إن النقد للحكومة العسكرية قد ترتب عليه لكل القوانين التى أصدرها مشرف تحت الأحكام العرفية وأصبحت الهند وحكومة مشرف تخدمان المصالح الأمريكية؛ إضافة إلى وجود حكومة كارزاى؛ لذلك فقدت باكستان أهم حليف لها، وأصبحت ضعيفة تسير فى الخط الأمريكى بعد الأحداث.

وعلى الرغم من أن الهند كانت من أوائل الدول التى اعترفت بالصين الشعبية بعد ثلاثة أشهر من قيامها عام ١٩٤٩م، وتبادل الزيارات بين البلدين عام ١٩٥٤م عندما زار نهرو الصين.

وكذلك زار رئيس وزراء الصين الأسبق شو إن لاى الهند، كما حضرت الصين مؤتمر باندونج عام ١٩٥٥م؛ فإن العلاقات بين البلدين شهدت توترا بينهما بسبب الحرب على الحدود، ونشاطات زعيم التبت الروحى عندما ضمت الصين التبت إليها.

وقد تحسنت العلاقات التجارية بين الهند والصين، وتضاعفت ثلاث مرات فى السنوات الأخيرة؛ لمحاولة الهند والصين المشاركة فى استثمار بترول كازاخستان.

ومع انهيار الاتحاد السوفييتى، وضعف روسيا؛ بدأت الصين تنظر إلى الهند بوصفها دولة مهمة استراتيجيا، وخاصة فى نظام تعدد الأقطاب، والوقوف ضد الهيمنة الأمريكية.

مما دفع نائب رئيس الوزراء الصينى إلى أن يعبر عن ذلك صراحة إلى وزير الخارجية الهندية عام ١٩٩٨ بقوله:(إن الصين والهند يمكن أن تقدما مساهمة مهمة لتشكيل نظام تعدد القطبية).

تعززت العلاقات بين البلدين بزيارة وزير الخارجية الهندية بكين فى يونيو ١٩٩٩م، وزيارة وزير التجارة الهندية أيضا فى فبراير ٢٠٠٠م، ثم زيارة الرئيس الهندى بكين فى يونيو ٢٠٠٠م، وتصريحه أثناء الزيارة بانه مهما كانت الخلافات الاستراتيجية بين البلدين؛ فإنه لابد من بناء علاقات قوية خلال القرن الحادى والعشرين.

ومهما يكن من خلافات بين الهند والصين؛ فإن الهيمنة الأمريكية على النظام الدولى تقلق الصين أكثر من الهند فى ظل الترسانة النووية الأمريكية والقواعد

الأمريكية فى شرق آسيا وموقف أمريكا من قضية تايوان، ولذلك تعمل الصين على تحييد الهند وجرها إلى تحالف ثلاثى مع روسيا.

وإثر أحداث سبتمبر ٢٠٠١م؛ استغلت الهند الأحداث من أجل دفع الصين إلى التعاون معها فى سبيل مكافحة ما يسمونه بالإرهاب؛ وخاصة أن الصين كانت قلقة من دور حركة طالبان فى مساعدة المسلمين فى منظمة تركستان الشرقية.

ولذلك نجد أن الموقف الصينى التقى بالموقف الهندى فى تأييد الأمريكية على أفغانستان، واستغلال ذلك من أجل القضاء على حركة المسلمين فى الصين الشعبية، وعلى الرغم من أن الوجود الأمريكى فى أفغانستان قد يهدد الصين؛ فإن الصين ترى أن الولايات المتحدة قد تتورط فى أفغانستان خاصة؛ لطبيعة المقاومة الأفغانية المتمرسة على الصدام مع روسيا وبريطانيا فى القرن التاسع عشر، والاتحاد السوفييتى فى القرن العشرين، وهو ما تراهن عليه الصين.

وفى الوقت الذى كانت العلاقات الهندية - الصينية تتميز بالحساسية؛ فإن العلاقات الباكستانية - الصينية لم تتأثر كثيرا بأحداث ١١ سبتمبر، وخاصة العلاقات الاستراتيجية الصينية - الباكستانية؛ على الرغم من أن باكستان قد سمحت لحوالى (٤٨) ألف جندى أمريكى بالبقاء على أرضها واستعمال المطارات الباكستانية، وتخلت عن طالبان لأن الصين حريصة على أهمية باكستان استراتيجيا لها فى ظل الغزل الأمريكى الهندى، حتى إن الصين وباكستان وقعتا معاهدة دفاع بينهما فى مجال البحث والإنتاج العسكرى.

وإذا كانت الدول الكبرى، سواء الولايات المتحدة والصين الشعبية وروسيا، لها اهتماماتها بالهند لمصالحها الاستراتيجية؛ فإن (إسرائيل) تسعى دائما إلى أن تجعل من الهند حليفا استراتيجيا لها فى الشرق الأوسط، وربطها بحلف ثلاثى: تركيا و(إسرائيل) والهند.

ونلاحظ أن (إسرائيل) قد أقامت علاقات دبلوماسية على مستوى السفراء فى يناير ١٩٩٢م، وأقامت علاقات على مستوى الصناعات الحربية والاستخبارات

والعلاقات التجارية، وقد تضاعفت هذه العلاقات التجارية مع الهند ست مرات خلال ثمانى سنوات.

وحيث إن باكستان ليس لها علاقات دبلوماسية مع (إسرائيل) ولم تعترف بها حتى الآن، ولذلك فإن الدولة المهمة استراتيجيا لـ (إسرائيل) فى جنوب آسيا هى الهند، وتحاول إسرائيل أن تلعب على ورقة الحركات الإسلامية، وأن تصف هذه الحركات بالإرهابية، وتربط بها الجهاد فى كشمير والحركات الإسلامية من حماس والجهاد الإسلامى فى فلسطين.

نجحت (إسرائيل) إلى حد ما استمالة النخب السياسية الهندية فى الدعوة لإقامة تحالف (إسرائيلى - هندوسى) لمقاومة الحركات الإسلامية.

ولذلك نجد أن مدير معهد الدراسات الدفاعية الاستراتيجية فى الهند، والذى تولى الحكومة الهندية، (جاسيت سيننغ) قال صراحة أثناء زيارته لـ (إسرائيل يوليو ١٩٩٩م): إن الخطر الإسلامى هو الذى يهدد الهند، ويؤكد أن الهند و(إسرائيل) هما الدولتان الديمقراطتيان فقط فى المنطقة، وهذه الآراء هى تمام آراء صهيونية، بل إن سيننغ يؤكد الحرب الدينية بين اليهود والسيخ والهندوسية من جهة والإسلام من جهة أخرى ويؤيد إسرائيل فى امتلاك المزيد من السلاح النووى، وقد نشرت تصريحاته فى صحيفة هآرتس الإسرائيلية ٢٦/ ٧/ ١٩٩٩م، وهو يلتقى وصموئيل هانتنجتون اليهودى الأمريكى فى نظرية صدام الحضارات.

وبعد أحداث ١١ سبتمبر نشطت (إسرائيل) لتستغل الأحداث لدفع الهند إلى التحالف معها بشكل أكثر ارتباطا وعلانية، فقام وزير الخارجية الإسرائيلى الأسبق بزيارة الهند فى يناير ٢٠٠٠م، وكانت الزيارة الثالثة للهند فى أقل من سنة.

وتتفق الهند و(إسرائيل) على التعاون العسكرى والتجسس على باكستان، وعرضت (إسرائيل) على الهند أكثر من مرة الاشتراك فى تدمير المفاعل النوووى الباكستانى الذى تخشى منه (إسرائيل)، على غرار ما عملت فى ضرب المفاعل النووى العراقى فى يونيو ١٩٨١م.

ولكن الهند ترددت لأسباب سياسية.

ولقد طرحت (إسرائيل) ما يسمى (بالمثلث الحديدى) مع الهند؛ وهو تحالف (هندى - إسرائيلى - أمريكى) ضد باكستان وإيران وبقية الدول العربية؛ على أمل أن تدفع المؤسسة العسكرية التركية إلى الانضمام إلى هذا (المثلث الحديدى).

الهند تأتى على رأس دول جنوب آسيا فى حاجتها إلى الطاقة، ولذلك اتفقت مع روسيا من أجل مشاريع الكهرباء والاستفادة من الطاقة النووية، وحسب توقعات الدراسات المستقبلية؛ تشير المصادر إلى أن الهند سوف تكون رابع قوة اقتصادية خلال الربع الأول من القرن الحادى والعشرين.

وبلا شك؛ فإن البترول سيكون مطلبا هنديا ملحا فى ظل التنمية الاقتصادية الهندية، وتتزايد كمية استيراد البترول فى الهند سنويا ١٦٪، ومن المتوقع أن يصل استيرادها عام ٢٠٢٠م إلى (٢٧٠ مليون طن).

ومن المتوقع أيضا أن تدفع حاجة الهند إلى البترول إلى تحالفات مع (إسرائيل والولايات المتحدة؛ فى سبيل الاستفادة من دور الهيمنة على المنطقة العربية؛ إذا بقيت أحول العالم العربى على ما هى عليه من التفكك والوجود العسكرى الأمريكى.

وتدرس الهند حاليا مع إيران إحياء خطة لمد أنابيب الغاز الطبيعى من حقول الغاز البحرية الإيرانية، يصل طولها إلى ألفى كيلومتر؛ فى إطار مشروع تقارب تكاليفه (٤) مليارات دولار أمريكى، وينتظر أن يؤدى إلى تحويل إيران إلى المصدر الأول للغاز المسيل إلى الهند، وبكلفة تعادل نصف كلفة الغاز المستورد من دول أخرى.

ومن المتوقع أن تستورد الهند فى المرحلة الأولى ٥٦ مليون متر مكعب من الغاز يوميا، ويبلغ طول الجزء الإيرانى من الأنبوب ١١٠٠ كم؛ فى حين يبلغ الجزء الممتد تحت مياه البحر ١٠٠٠كم منه بتكلفة أولية ٤,٨ مليارات دولار.

أما الحل الآخر فهو مرور الخط عبر باكستان، ويكون ١١٠٠ كم منه فى إيران، و٨٠٠ كم فى باكستان.

وهناك تظهر قوى كبرى جديدة على الساحة الدولية الإقليمية تحاول غزو العالم اقتصاديا كما تفعل الصين الآن من غزو أسواق العالم كله حتى الولايات المتحدة الأمريكية نفسها.

فقد احتفظت الصين بكامل قوتها العسكرية والبشرية والاقتصادية أيضاً فأصبحت المارد القادم بعد بداية انهيار الولايات المتحدة الأمريكية.

إلا أن الإمبراطورية الصينية الجديدة تسير على خطى الإمبراطورية الصينية القديمة لا تسعى لاحتلال دول الغرب كما فعلت الإمبراطورية المغولية فى العصور الماضية[1].



(١) اقرأ كتابنا «جنكيز خان إمبراطور الشر» ففيه المزيد عن قصة تلك الإمبراطورية المغولية التى وصلت إلى احتلال أوربا الشرقية والغربية، الناشر دار الكتاب العربى.

11

سقوط الأمريكان على أرض أفغانستان

- الصراع الدولى بين الدول الكبرى من بلاد الأفغان منذ الاحتلال البريطانى ثم الاحتلال الروسى الشيوعى.
- سقوط الإمبراطورية الأمريكية فى المستنقع الأفغانى دليل على غباء السياسة الأمريكية الإنجيلية الجديدة.

صراعات وأطماع وتحالفات بين أصحاب البروج وأصحاب الكهوف على الأراضى الأفغانية

تشهد الأراضى الأفغانية رغم صعوبتها وفقرها الشديد صراعات وأطماعاً من الدول الكبرى قديماً وحديثاً، فقد احتلتها بريطانيا سنوات وخرجت تجر أذيال الهزيمة.

ثم جاء الاتحاد السوفيتى الشيوعى واحتل أراضيها ثم خرج منهزماً ولم تع الإمبراطورية الأمريكية الدرس فقامت بغزوها أيضاً ثم تعالت صيحات جنودها فخرجت معظم القوات الأمريكية لتحل محلها قوات أخرى خاصة وبديلة من دول التحالف بعد خسارة فادحة.

وهى الآن تجمع ما تبقى لديها من جنود ومعدات للرحيل مهزومة تجر أذيال الهزيمة كسابقتها.

فمن السهل احتلال أفغانستان ولكن من الصعب البقاء فيها!!

من الغباء أن تقع فى أخطاء غيرك، وهذا ما فعلته الإدارة الأمريكية السابقة التى رحلت عن البيت الأبيض، فقد قامت باحتلال الأراضى الأفغانية رغم علمها أن من سبقها لهذا فشل وخرج منهزماً بعد سنوات قليلة من الاحتلال وخسارة فادحة فى الأموال والأرواح وانهيار نظامه الحاكم.

وهذا ما حدث بالفعل مع الأمريكان حين دخلوا وسقطوا فى المستنقع الأفغانى بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١ وبحجة إلقاء القبض على «أسامة بن لادن» زعيم القاعدة والقضاء على حكم «طالبان» الأفغانى الأصولى المتشرد.

فى الثامن من (تشرين الثانى) نوفمبر عام ١٩٣٣م، اغتيل نادر شاه، وتولى الحكم بعده ابنه ظاهر شاه، الذى استمرت ولايته حتى عام ١٩٧٣م.

وكان لطول فترة حكمه أثر كبير فى تحقيق الكثير من طموحاته، إضافة إلى إنجازاته العديدة على المستويين المحلى والدولى، خاصة الاتحاد السوفييتى.

وعلى الرغم من صغر سنه، إلاّ أنه تمكّن بمعاونة أعمامه، من السيطرة داخليا على البلاد، وتحقيق الاستقرار لها.

والدليل على ذلك أن فترة حكمه، امتدت أربعين عاماً.

وكان من الواضح أن الملك ظاهر شاه، لديه الكثير من الأفكار الإصلاحية، إضافة إلى رغبته فى أن يكون لأفغانستان دور عالمى، خاصة فى منطقة آسيا الوسطى. وكانت البداية عام ١٩٣٤م، بانضمام أفغانستان إلى عصبة الأمم المتحدة.

وفى عام ١٩٣٧م، وقّع ميثاق سعد أباد مع تركيا والعراق وإيران، وهو ميثاق تعاون وصداقة.

كما استطاع أن يحافظ على حياد أفغانستان، أثناء الحرب العالمية الثانية، فلم ينضم لأحد المحاور على الرغم من تعاطف بعض الأحزاب الإسلامية مع تركيا. وبانفصال باكستان عن الهند عام ١٩٤٧م، انفجرت بعض المشاكل الحدودية، عندما طالبت أفغانستان بإعادة النظر فى خط الحدود المعروف باسم (خط دوران)، حيث طرح على بساط البحث مشكلة الأفغان، الذين يعيشون فى الدولة الجديدة باكستان.

سبتمبر عام ١٩٥٣م، تسلّم الأمير محمد داود مهام رئيس الوزراء.

وكان طموحه يتعدى الوزارة، لاعتقاده أنه أحق من ابن عمه ظاهر شاه لتولى الحكم.

وعين الأمير داود رجاله فى الوظائف المهمة، فعين شقيقه نعيم خان وزيراً للخارجية، وعبدالملك عبدالرحيم زياى وزيراً للمالية.

وكان هدفه إحكام السيطرة على أغلب المناصب الحكومية، عن طريق أقربائه والمخلصين له.

كانت مشكلة الباشتون من أهم المشاكل لمحمد داود، لذلك طلب المساعدة من

الولايات المتحدة الأمريكية مرتين، الأولى عام ١٩٥٣م فور توليه الحكم، والثانية عام ١٩٥٨م، تحسباً من احتمال صراع مسلح مع باكستان. ولكن الولايات المتحدة الأمريكية رفضت طلبه فى المرتين، فما كان منه إلاّ أن اتجه إلى الاتحاد السوفييتى. الذى استجاب له وساعده فيما يريد.

فى شهر أغسطس ١٩٥٦م، وقّعت أفغانستان والاتحاد السوفييتى، ودول أخرى من حلف وارسو، اتفاقية لتزويد أفغانستان بما قيمته ٢٥ مليون دولار، أسلحة ومعدات حربية. وهكذا كانت بداية تطوير العلاقات بين الدولتين.

وقامت الولايات المتحدة الأمريكية بإمداد باكستان بمساعدات عسكرية اعتباراً من ديسمبر ١٩٥٣م، ظنا منها أن أفغانستان ربما تقوم بعمل عسكرى ضد باكستان، لإيجاد حل لمشكلة الباشتون.

ورأى محمد داود فى المساعدات الأمريكية لباكستان، خطراً حقيقيا على دولته، فجدد طلبه للولايات المتحدة الأمريكية لتقديم مثل هذه المساعدات، إلاّ أنه فوجئ بالرفض.

وفى عام ١٩٥٤م زار ريتشارد نيكسون أفغانستان، والتقى بكبار المسؤولين، الذين شرحوا له الموقف المتدهور، مع باكستان، وضرورة أن تساعد الولايات المتحدة الأمريكية أفغانستان، مثلما تساعد باكستان، ولكن نيكسون لم يقتنع بتلك الحجج من منطلق أن تسليح أفغانستان فى هذه المرحلة، سيتبعه صراع حدودى بين الدولتين، لا مبرر له. ولم يضع فى حساباته إمكانية التوجه الأفغانى إلى الاتحاد السوفييتى، الذى يقف راصداً لأخطاء التقدير الأمريكى.

وهكذا دفعت السياسة الخارجية الأمريكية أفغانستان، للتوجه إلى الاتحاد السوفييتى، لدعم قدراتها العسكرية من أجل إيجاد حلٍ لمشكلة الباشتون، التى لم تكن الولايات المتحدة الأمريكية تقدر أهميتها بالنسبة لأفغانستان.

ازداد التوتر حول مشكلة باشتونستان، ومن ثم عقدت الحكومة الأفغانية جمعية وطنية، خلال الفترة من ٢٠ ـ ٢٥ نوفمبر ١٩٥٥م، من أجل الحصول على موافقة

الجمعية لشراء السلاح اللازم من الدول المختلفة. وقد حصلت حكومة داود على التأييد اللازم، من الجمعية الوطنية.

فى الفترة بين ١٥ ـ ١٨ من ديسمبر ١٩٥٥م، زار كل من خروشوف وبولجانين كابل. وفى هذه الزيارة أكد بولجانين، رئيس الوزراء السوفييتى، فى خطابه بتاريخ ١٦ من الشهر نفسه، على أن الاتحاد السوفييتى يتعاطف مع السياسة الأفغانية، فيما يتعلق بقضية الباشتون؛ وأن بلاده مع الحل العادل لهذه القضية، التى لن تصل إلى نهايتها إذا لم يؤخذ فى الاعتبار مصالح الشعوب، التى تعيش فى الباشتون.

ارتبطت أفغانستان بمشروع تعاون زراعى مع الولايات المتحدة الأمريكية، وهو عبارة عن إقامة بعض السدود، وتطوير أساليب الرى. وفى نهاية المشروع، بلغت تكاليفه ضعف ما كانت الهند قد تقدمت به لتنفيذ المشروع نفسه.

والنتيجة أن أفغانستان اضطرت لطلب قروض، لتسديد ما تبقى عليها من تكلفة هذا المشروع.

وكان محمد داود يدرك خطورة الاعتماد كليا على الاتحاد السوفييتى، وأنه من الأفضل أن تشارك الولايات المتحدة الأمريكية فى الخطة الخمسية الثانية.

فأرسل وزير خارجيته فى زيارة رسمية إلى واشنطن، عارضاً عليهم المساهمة فى تمويل الخطة. ولكنه فوجئ بعدم استجابتهم للطلب.

وبذلك اضطر محمد داود للبدء فى الخطة الخمسية الثانية، معتمداً مرة أخرى على الاتحاد السوفييتى.

وهكذا ازداد قيد التبعية، وتمكن السوفييت من إحكام السيطرة على قطاعات الدولة المختلفة، سواء الإنتاجية أو الخدمية.

وشهدت مرحلة حكم محمد داود (١٩٥٣- ١٩٦٣م)، تعاوناً كبيراً بين الاتحاد السوفييتى وأفغانستان.

إلاّ أن هذا التعاون صاحبه اختراق للمجتمع الأفغانى، حيث تأثر داود بالنظام

الشمولى والديكتاتورى فى إدارة البلاد، الأمر الذى أغضب الملك ظاهر شاه لتوقعه أن هذا الأسلوب، سوف يقود البلاد إلى الشيوعية الكاملة.

فى عام ١٩٦٣م - وبعد إقالة داود - شكل محمد يوسف حكومة انتقالية، أهم أهدافها وضع دستور جديد للبلاد، يحوّل أفغانستان إلى نظام ديمقراطى. أما الهدف الثانى فهو محاولة إيجاد حل لمشكلة الباشتون.

وبالفعل قام سيد شمس الدين مجروح، وزير العدل، بالتعاون مع المشرّع الفرنسى لويس فرجير، بصياغة فقرات الدستور الجديد عام ١٩٦٤م، الذى تجلّت فيه إرادة الملك ظاهر شاه، بمنح بعض الحريات من خلال السّماح بحرية التعبير.

وقد تُرجمت هذه الإرادة بالترخيص بإصدار صحف مستقلة، أو تنتمى إلى أحزاب سياسية، وكان من أهم بنود هذا الدستور، عدم السماح لإفراد الأسرة المالكة بالعمل السياسى الحزبى، حتى لا يمكنهم تولى المناصب التنفيذية العليا، مثل رئيس الوزراء، أو حتى رئيس المحكمة.

وبصدور هذا الدستور، بدأ نشاط الأحزاب اليسارية المنظّمة، خاصة حزب الشعب الديموقراطى الأفغانى. فالأقليات، كما هو معروف دائماً، تكون منظّمة وقوية. فتعداد أفراد الحزب - حتى الستينيات - لم يكن يتعدى المئات، أغلبهم من المثقفين وضباط الجيش، لأن أغلب أعضاء هاتين الفئتين، لابد أن يكونوا قد حصلوا على دورات تدريبية فى الاتحاد السوفييتى. وكان هؤلاء يمثلون الطليعة الثورية، التى تمكنت من استقطاب الآلاف من أفراد الشعب الأفغانى، مدنيين وعسكريين.

هذه الطلائع الثورية، ازدادت بمرور الزمن، وازداد انتشارها حتى تمكنت الأيديولوجية الشيوعية، من طبقات مختلفة من الشعب الأفغانى كله.

فى أول (كانون الثانى) يناير١٩٦٥م، عقد نور محمد تراقى أول اجتماع رسمى وعلنى، لحزب الشّعب الديموقراطى، مستفيداً من الحرية، التى أطلقها الملك ظاهر شاه.

وكان هدف هذا المؤتمر، هو وضع الإطار التنظيمى لقيادات الحزب، وخطة المشاركة فى الانتخابات.

وفى هذا الاجتماع تم اختيار نور الدين محمد تراقى، أميناً عاما للحزب. كما شُكلت اللجنة المركزية من بعض المسؤولين البارزين فى الحزب.

واستعداداً لهذه الانتخابات، سافر تراقى إلى موسكو، للحصول على الدعم الأدبى والمادى من السّوفيت.

وقد تم الاتفاق على أن يتقدم ستة أعضاء، من حزب الشعب الديموقراطى إلى الانتخابات، من بينهم نور تراقى، وحفيظ الله أمين. وقد فاز أربعة أعضاء، وسقط تراقى وأمين.

وعلى الرغم من الدعم الظاهرى للحزب، الذى قدمه الاتحاد السوفييتى على مراحل متعددة، إلاّ أن الحزب كان فى فترات متعددة، منقسماً على نفسه إلى جناحين:

جناح خلق، ويُعنى بالعمال من الريف والطبقات الفقيرة، من فلاحين ورعاة؛ وجناح يُدعى (پرچم)، ويتألف من طبقات مثقفة وضباط من الجيش.

وبين الجناحين، خلق وپرچم، كان هنالك (ميرا أكبر خبير)، زعيم الماركسية الأفغانية، والأب الروحى لها. كان خبير أستاذاً، تخرجت على يديه النخبة المثقفة فى البلاد، وله يرجع فضل تأسيس بعض كليات الجامعة فى كابل.

ومن أبرز عوامل الانقسام، بين الجناحين - (خلق وپرچم) - اختلافهما حول كيفية قيادة الثورة فى أفغانستان.

فقد كان نور تراقى - زعيم خلق - يؤمن بأنه لا يمكن أن تكون هناك ثورة فى البلاد، دون العناية أولاً ببناء الطبقة العاملة، وهى التى يمكنها - بعد ذلك - إدارة العملية السياسية. وكان تراقى يستند فى هذا الفكر، إلى البرنامج السياسى، الذى أقره المؤتمر الرابع والعشرون للحزب الشيوعى السوفييتى، حول الدور الفاعل والحاسم للطبقة العاملة، فى قيادة العملية الثورية. بينما كان كارمل - زعيم پرچم - يدعو إلى إقامة التحالفات العريضة، مثل تأسيس جبهة وطنية واسعة، تتحمل أعباء النهضة الثورية.

كان لهذا الانقسام انعكاسات خارجية تتفاعل معه فى بادئ الأمر دعم كلٌ من الحزب الشيوعى السوفييتى والهندى، جناح تراقى وتعاطفوا معهم، وعملوا على تأييد صحيفته (خلق).

أما جناح كارمل، فكان يستمد العون والتأييد من حزب (توده) الشيوعى الإيرانى، والحزب الوطنى الديموقراطى الباكستانى.

حرص كارمل فى الدورة البرلمانية لعام ١٩٦٦م، على التودد للملك ظاهر شاه، بأن أجرى مقارنات إيجابية بين عهد الملك ظاهر شاه وعهود أسلافه السابقين.

وكانت موسكو متأكدة من أن تقارب كارمل مع الملك، سيؤدى إلى حتمية إقصائه عن الحزب.

وفى الرابع والعشرين من سبتمبر ١٩٦٦م، أثناء انعقاد اللجنة المركزية لحزب الشعب الديموقراطى، طلبت اللجنة من كارميل أن يستقيل من منصبه، عضواً دائماً باللجنة المركزية.

وفى الوقت نفسه، رفضت اللجنة قبول (مير أكبر خبير) عضواً بها. فما كان من كارمل إلاّ الاستقالة، حيث طلب من (مير أكبر خبير) التعاون معه لإنشاء حزب جديد، هو (البارشام).

وهكذا، انقسم الحزب إلى جناحين، على رأس أحدهم بابراك كارمل، وأنا هيتا راتب زاده، والأخر نور الدين تراقى وحفيظ الله أمين.

حصل بابراك كارمل على ترخيص بإصدار صحيفة (پرچم)، حاملة اسم الحزب الشيوعى على صفحتها الأولى. ومنذ ذلك الحين أصبح اسم (پرچم) هو الاسم، الذى يطلق على الجناح الذى يقوده كارمل.

استمر انقسام حزب الشعب الديموقراطى إلى جناحين، اعتباراً من هذا التاريخ حتى قيام ثورة (نيسان) أبريل ١٩٧٨م.

وكان كل جناح يتهم الآخر بالانشقاق، حتى أنهما نقلا خلافاتهما على الصفحات

والنشرات السرية والصحف الشيوعية، خارج البلاد.

وقام محمد داود عام ١٩٧٣؛ بعد حصوله على الضوء الأخضر من الاتحاد السوفييتى، بالانقلاب والذى يؤكد أن للسوفييت دوراً فى الانقلاب، وأن روسيا كانت على علم به، هو ذلك القدر الكبير من الدعم، ولو بصورة غير مباشرة، ذلك أن بعض كبار الضباط، أمثال محمد راقى، وأسلم، وطن جار، وعبد القادر، وهم من المتورطين فى عملية الانقضاض على السلطة، أعضاء فى حزب الشعب الديموقراطى، الذى لا يتحرك إلاّ بتعليمات من موسكو.

ويجب القول إن الشيوعيين اخترقوا الجيش الأفغانى، وتم تجنيد عددٍ كبيرٍ من الضباط.

وحسب شهادة المقربين إلى محمد داود، فإن فكرة الانقلاب قد راودته فور إقالته من رئاسة الوزراء، من قبل الملك ظاهر شاه فى ٩ مارس ١٩٦٣م، الأمر الذى سبب له غضباً شديداً.

وبعد يومين من إعلان نبأ إقالته، عقد داود اجتماعاً حضره عدد من أصدقائه وأعوانه، بينهم رسولى وشرف وسيدى عبد الله، الذين صاروا بعد الانقلاب أعضاء فى حكومته.

وظهرت فكرة قلب النظام، وسحب السلطة من الملك.

لكن داود رفض الفكرة، واعتبر أن التوقيت غير مناسب، إلاّ أن الفكرة لم تبارحه، وأخذ يخطط لها بصمت وروية منذ عام ١٩٦٣م، إلى أن نفذها عام ١٩٧٣م.

وكان انقلاب الأمير داود له أهمية فى التمهيد للثورة الشيوعية، حيث إن فترة حكمه من عام ١٩٧٣م حتى عام ١٩٧٨م، تُعد فترة تسكين كوادر شيوعية، فى مختلف المناصب الأفغانية، سواء فعل داود ذلك بلا إدراك لتداعيات مثل هذا الموقف، أو أن الشيوعيين، بإمكانياتهم وقدراتهم الذاتية، تمكنوا من احتلال المواقع المهمة فى الدولة. ولكن كل الشواهد تدل على أن هذه الفترة من تاريخ العلاقات، الأفغانية الروسية. على المستوى الرسمى حيث تمكن الاتحاد السوفييتى، من خلال كوادر حزب الشعب

الديموقراطى من فرض سيطرة كاملة على دولة أفغانستان.

فالوحدات الخدمية يديرها، سواء الصف الأول أو الصف الثانى، كوادر شيوعية؛ والوحدات الإنتاجية ينتشر فيها الخبراء والمستشارون السوفييت، بأيديولوجيتهم الشيوعية يبثون أفكارهم بين العمال، والاقتصاد الأفغانى يعانى من القروض وفوائدها؛ وموسكو أصبحت تتدخل فى أسلوب إدارة الاقتصاد الأفغانى، بالنظريات الماركسية.

أما الجيش الأفغانى، وهو الذى قام بالانقلاب، فقد تولى حفيظ الله أمين مهمة تكوين خلايا شيوعية من الضباط والأفراد، الذين تم تدريبهم فى الاتحاد السوفييتى وعادوا بفكر شيوعى ناقم وساخط على الملكية.

وهكذا، يتضح أن أفغانستان أصبحت مهيأة لانقلاب شيوعى، والانضمام إلى الدول الشيوعية، التى تدور فى فلك الاتحاد السوفييتى.

أما على مستوى الشعب الأفغانى، فالعقيدة الإسلامية وقفت حائلاً ومانعاً قويا، ضد سيطرة الفكر الماركسى. فالقبائل، وهى أساس النظام الاجتماعى الأفغانى، بعقيدتها الإسلامية شعرت بالخطر الشيوعى، وبأن الدولة مقبلة على مرحلة صعبة فى تاريخها.

فكانت بداية الانتفاضة الإسلامية فى مواجهة المد الشيوعى، الذى لم يتدارك داود حجمه، إلاّ مع اقتراب استيلاء الشيوعيين على الحكم.

فقد استشعرت الأحزاب الإسلامية الخطر، منذ بداية التعاون بين داود وحزب الشعب الديموقراطى.

أما داود نفسه فقد كانت رقابته فقط على المعارضة الإسلامية، متناسياً أن ولاء الإسلاميين لن يتعدى حدود أفغانستان، أما ولاء الشيوعيين فدائماً يكون لموسكو.

وهكذا سلم محمد داود أفغانستان للاتحاد السوفيتى طمعا فى السلطة التى خرجت من يده أيضا.

رغم أنه فى فترة رئاسته للوزارة من عام (١٩٥٣ إلى ١٩٦٣م) - أيام حكم محمد

ظاهر شاه ـ كانت له السيطرة الكاملة على البلاد، بأسلوب شمولى ديكتاتورى.

ولمّا اطمأن السوفيت إلى أن طموحات داود ترقى إلى أكبر من الوزارة؛ هَيَّؤوا له أحقيته فى الرئاسة، وأن الظروف فقط، وليست الكفاءة، هى التى آلت بالمُلك إلى ظاهر شاه. استفادت موسكو من ذلك.

وأما الفترة الثانية من حكم داود ـ وهى رئاسته للجمهورية الأفغانية الأولى (١٩٧٣ـ ١٩٧٨م) ـ كان دوره هامشى فى هذا الانقلاب. بل يمكن القول إن الشيوعيين سلموا داود السلطة، لأن هذه المرحلة، أى القضاء على الملكية، لم يكن من المفضل أن يقوم بها الشيوعيون، إنما الأفضل أن يقوم بها أحد أفراد العائلة المالكة لامتصاص رد فعل الشعب الأفغانى.

وهذا ما حدث بالضبط، فالشعب الأفغانى لم يستشعر الخطر من استيلاء داود على الحكم، فقد قام بالانقلاب (بالكوادر) الشيوعية من ضباط الجيش، الذين جندهم حفيظ الله أمين.

وكما هو معروف فداود كان بعيداً عن السلطة لمدة عشر سنوات، والتغييرات التى تمت فى المناصب الحكومية على مستوى الدولة الأفغانية عديدة، أى أن الشعب الأفغانى بمشاكله العديدة، غير مؤهل لمتابعة إنجازات محمد داود.

إذاً، الواضح أن دوره لم يتعد إذاعة بيان فى الإذاعة، لبعض وحدات الجيش، التى كانت مؤهلة من قبل للقيام بالانقلاب، خاصة أن الملك ظاهر شاه كان خارج البلاد، أى لا مقاومة تذكر فى مواجهة تحرك الجيش الأفغانى.

تولى محمد داود رئاسة الجمهورية ورئاسة الوزارة، التى كان يعاونه فيها أكثر من سبعة وزراء شيوعيين، إضافة إلى أن أغلب المناصب الرئيسة، يتولاها الشيوعيون، لذلك فإن صلاحياته كانت محدودة بأطر شيوعية، وتعليمات من الاتحاد السوفييتى بالسياسات الأفغانية المختلفة.

ومدة حكم محمد داود خمسة عشر عاماً منها عشرة أعوام رئيساً للوزارة، وخمسة أعوام رئيساً للجمهورية، كان لها أثر كبير على قرار الاتحاد السوفييتى احتلال

أفغانستان. ذلك أن فترة رئاسته للجمهورية (١٩٧٣ ـ ١٩٧٨م)، هى التى أوجدت البيئة الداخلية المناسبة لاستيلاء الشيوعيين على الحكم، توطئة للاحتلال الكامل لأفغانستان عام ١٩٧٩م.

تهيأت الفرصة لمحمد داود أكثر من مرة، للقضاء على الشيوعيين، ولكنه تقاعس. وكان آخرها قبل قيامهم بالثورة، عندما أضاع الوقت فى البحث عن صيغة قانونية لإلقاء القبض على رموزهم، وعندما توصل إلى هذه الصيغة، كان أمين قد أصدر أوامره ببدء الثورة الشيوعية، التى سرعان ما استولت على الحكم.

لذا، فإنه يمكن التأكيد على أن أمين هو العقل المدبر للثورة، وأن محاولاته العديدة للاستئثار بالحكم، تولدت لديه لقناعته بأحقيته فى إدارة البلاد، وهكذا الحال فى أفغانستان حتى الآن الكل يدعى أحقيته فى حكم البلاد.

وكان لتسرب السلطة من يد داود، سواء عن قصد أو عن قوة التنظيم الشيوعى، أثره الكبير فى التجهيز للغزو السوفييتى. فقد دعم الشيوعيون كوادرهم داخل مرافق الدولة المختلفة، خصوصاً القوات المسلحة، وأصبح لهم خلايا منظمة جاهزة للانقضاض على السلطة.

فى ٢٧ (نيسان) أبريل ١٩٧٨م، عقد داود اجتماعاً لمجلس الوزراء، فى محاولة منه لتدارك الموقف المتدهور؛ فقد عمت البلاد الإضرابات، التى كان سببها الشيوعيون. ولكن هذا الاجتماع جاء متأخراً، فقد كانت تلك الإضرابات هى شرارة الثورة الشيوعية.

كان حفيظ الله أمين قد توقع المواجهة مع نظام محمد داود، فأصدر حفيظ الله تعليماته مسبقاً بميعاد بدء الثورة.

وكان من الواضح أنه تمكن ـ على الرغم من اعتقاله ـ من إصدار أوامره، إلى أحد قادة وحدات الدبابات، ويدعى محمد رافع، وهو شيوعى، بالتقدم إلى كابل والاستيلاء عليها.

وفى الوقت نفسه، تم الاستيلاء على سلاح الطيران فى كابل، بواسطة الضبّاط الشيوعيين.

وقرر رسولى الاستعانة بالطائرات المتمركزة فى شينداد بالقرب من حيرات، وكان ذلك بعد ظهر اليوم نفسه، إلاّ أن هذه الطائرات لم تتمكن من الإقلاع، لاحتلال مركز العمليات الخاص بسلاح الطيران، بواسطة العناصر الشيوعية.

بوصول طلائع المدرعات أمام القصر الملكى بكابل، تأكد داود مما يجرى فى البلاد، وقرر أن يقاوم فى مكانه مهما كلفه ذلك. إلاّ أن مقاومته انهارت، نتيجة القصف البرى والجوى المركّز.

وتمت سيطرة الشيوعيين على الحكم، وقتل داود وبعض أفراد أسرته، أثناء الهجوم النهائى على القصر الرئاسى، فجر يوم ٢٨ (نيسان) أبريل ١٩٧٨م، إضافة إلى حوالى ألفى قتيلٍ من حرس القصر، الذى لم يبقَ منهم على قيد الحياة إلاّ القليل.

وهكذا دفع داودُ حياته ثمناً لتردده فى القضاء على رموز الشيوعية فى مهدها. فالواضح أنه لو استجاب لمستشاريه، وتخلص من الزعماء الشيوعيين، لما حدثت هذه الثورة.

حرر الضباط الشيوعيون قادتهم المأسورين، فى سجون الحكومة السابقة. كما حوكم العديد من أنصار النظام القديم وجرى إعدامهم.

ودخلت أفغانستان فى دائرة العنف السياسى على السلطة ودائرة الصراع الدولى حيث تدخلت الولايات المتحدة للقضاء على الحكم الشيوعى فيها وقامت ثورة شعبية إسلامية مما اضطر رموز الحكم الشيوعى فى البلاد للاستعانة بالاتحاد السوفييتى لاحتلال البلاد!!

أثار احتلال الاتحاد السوفييتى لأفغانستان، يوم ٢٧ (كانون الأول) ديسمبر ١٩٧٩م، ردود فعل عالمية، وإقليمية واسعة، على مستوى دول الجوار، التى تجمعها حدود مشتركة مع أفغانستان، وهى الصين وباكستان وإيران؛ وعلى المستوى الدولى، خاصة الولايات المتحدة الأمريكية، وبعض الدول الإسلامية.

وأصبح الرأى العام العالمى، رافضاً لأى تدخل من دولة كبرى، فى شؤون الدول الصغرى.

وعلى الرغم من كل المزاعم السوفييتية، فى مشروعية هذا التدخل، لكونه بناء على الطلب المتكرر للحكومة الشرعية، أى حكومة حفيظ الله أمين . إلاّ أن غالبية دول العالم استنكرت هذا التدخل، الذى تحول إلى احتلال عسكرى بالقوة، دام قرابة عشر سنوات، وهى أسوأ عشر سنوات فى حياة الروس الشيوعيين.

وكان احتلال روسيا لأفغانستان خطأ فادحا من جانب روسيا الشيوعية، راعية النظام الشيوعى بالمركزية الشديدة، خاصة فى مجال السياسة الخارجية.

وهذا يؤكد على قدرة صانع القرار السياسى على التحرك، فى المجالات المختلفة، بحرية واسعة، عن نظيره فى النظام الديموقراطى، الذى يجد صعوبة كبيرة فى اتخاذ القرار.

وعلى الرغم من أن الاتحاد السوفييتى حقق السيطرة الكاملة على مقدرات الشعب الأفغانى، من خلال حزب شيوعى يتولى الحكم، على الرغم من ضعفه أمام التيارات الدينية الإسلامية، إضافة إلى قوات مسلحة، جميع قادتها ينتمون إلى حزب الشعب الديموقراطى.

ولكن كل هذه التبعية، لم تكن كافية، من وجهة النظر السوفييتية، فقد تصور القادة السّوفييت أن نظام الحكم فى أفغانستان غير مستقر، وأن زعماء الأحزاب فى صراع على السلطة، حتى الشّيوعيين منهم، (جناحى برچم وخلق)، دليل على ذلك أن الولايات المتحدة الأمريكية يمكنها استمالة هؤلاء الزعماء بالقليل، وفى مقابل ذلك تُعيد تمركز بعض التجهيزات الرادارية.

فمعدات تجسس شمال أفغانستان، قادرة على تصوير الأسلحة المتطورة والمنتشرة فى آسيا الوسطى. وهذا التصور يُعد، إلى حدٍّ ما، منطقياً ويمكن حدوثه.

وكما احتل الاتحاد السوفييتى الجمهوريات الثلاثة الجنوبية (طاجيكستان، أوزبكستان، تركمنستان)، فمن الممكن، وحماية لأمنه، أن يحتل أفغانستان، خاصة أن علاقة الولايات المتحدة الأمريكية مع الصين وباكستان جيدة. هذا هو تصور الاتحاد السوفييتى لحماية أمنه.

من الواضح أن للمؤسسة العسكرية السوفييتية، أثراً كبيراً فى اتخاذ قرار التدخل فى أفغانستان.

كانت وجهة نظرها، التى أقنعت بها القيادة السياسية، أن هذا التدخل سوف يوفر لهم قواعد أفغانية متقدمة، خاصة فى الجنوب، هذه القواعد سوف تسمح لهم بالاقتراب من المياه الدافئة فى المحيط الهندى، والذى سوف يقربهم أيضاً من منابع البترول، أى تهديد مصالح الدول الغربية، إضافة إلى أن هذا الاقتراب له أهمية إستراتيجية.

ويؤكد بعض المحللين السياسيين، أن الاتحاد السوفييتى له مصالح اقتصادية عديدة، فى أفغانستان، أهمها الثروات الطبيعية، ولكونها تملك احتياطاً كبيراً من الغاز الطبيعى والفحم والحديد عالى الجودة.

كما يُعتقد أن البترول موجود بكميات كبيرة، ومن السهل اكتشافه إلاّ أن الاستثمار من هذا المجال محدود لعدم توافر الأمن والاستقرار، إضافة إلى احتمال وجود ثروة من اليورانيوم والبلوتنيوم.

وقد بلغت المساعدات الاقتصادية والعسكرية، التى قدمها الاتحاد السوفييتى لأفغانستان، فى الفترة ما بين عام ١٩٥٥ ـ١٩٨٠م، حوالى ٣,٥ مليار دولار، أُنفقت على مشروعات اقتصادية، وأبحاث جيولوجية، تمت بمعرفة الخبراء الروس، المنتشرين فى المؤسسات الأفغانية.

كانت اهتمامات السوفييت الأولى، هى إقامة حزام أمنى عقائدى يحميهم من انهيار الأيديولوجية الماركسية. وبدءاً من لينين، حتى بريجينيف، لم يختلف الأسلوب. ففى فترة حكم بريجينيف، لم يعد التعايش السلمى يمثل مرحلة انتقالية فى تاريخ تطور الاتحاد السوفييتى.

بل على العكس، فإن زعماء الكرملين ركزوا على استغلال جميع الفرص، لنشر الاشتراكية على مستوى العالم، كلّما سنحت الفرصة. وقد تلاحظ ذلك بالنسبة للدول، التى حصلت على معونات من الدول الاشتراكية. فبجانب هذه المعونات، لا بد من قدر من الثقافة الروسية، يتناسب مع كمية المعونة المقدمة.

وهذا ما حدث بالنسبة لأفغانستان. فالبداية كانت من خلال العلاقات الثقافية، مثل التعليم والتدريب؛ ثم تطور إلى المعاونات الاقتصادية، التى كانت دائماً، وعلى جميع المستويات، يمثلها الخبراء.

ومن خلال هؤلاء الخبراء، يبدأ نشر الفكر الشيوعى والأيديولوجية الماركسية. وهكذا، حققت موسكو نجاحاً كبيراً فى هذا الصدد، حيث سيطرت كليّاً على مقاليد الأمور.

وتولى الحكم حزب شيوعى، وحاول بمختلف الوسائل أن يقوم بإصلاحات.

كانت البداية مبشرة، والمعونات المختلفة تتدفق على أفغانستان. إلاّ أن خطأ الأسلوب، هو الذى أوجد النفور من جراء تطبيقات النظام الماركسى.

فمثلاً عند تطبيق قانون الإصلاح الزراعى، وهو قانون من الناحية الاجتماعية، وفى ظروف المعيشة المتدنية للشعب الأفغانى، يحقق آمالاً عريضة لمثل هذا الشعب، ولكن لأن حكومة حزب الشعب الديموقراطى - وهى حكومة شيوعية - هى التى أصدرته، فإن الفلاحين رفضوا استلام الأراضى الموزعة عليهم، تحت دعاوى دينية كثيرة.

على أن الفكر الإسلامى المسيطر على الشعب الأفغانى، وعلى أسلوب إدارة البلاد. وما يتم إصداره من قوانين تتعارض مع الإسلام لن تجد قبولاً.

وهذا ما أدركه بريجينيف، فإن شعب أفغانستان المسلم لن يرضخ لحزب الشعب الديموقراطى، وأن التمرد ومحاولة المقاومة لن تكون إلاّ البداية.

وهذا ما حدث بالفعل من ثورة وكفاح إسلامى قلب الموازين فى المنطقة كلها حتى الآن.

ونتيجة للمد الإسلامى وإعلان الجهاد على الجيش الروسى الشيوعى وعرف الجيش السوفييتى، لأول مرة، ظاهرة هروب جنوده المسلمين، وانضمامهم إلى المجاهدين الأفغان. وتبينت هيئة الأركان السوفييتية، مدى تعاطف الجنود السوفييت المسلمين، مع المجاهدين.

لذا، فإن قيادة القوات المسلحة السوفييتية، وجدت نفسها مضطرة لسحب العناصر القادمة من الجمهوريات المسلمة، خاصة طاجيكستان واوزبكستان وتركمنستان.

وكانت تلك الأحداث، وهذا التقارب، هما بداية الخلل فى التركيبة الاجتماعية للاتحاد السوفييتى.

إذ أصبح المسلمون الروس، فى الجمهوريات الثلاث الجنوبية، مصدر قلق لروسيا. وعلى الرغم من أن القيادة السوفييتية، سمحت لهم بحرية العقيدة، إلاّ أنه لا يخفى على أحد إحكام السيطرة على هذه الجمهوريات، من خلال اتفاقيات الأمن، بل إن رؤساء هذه الجمهوريات بالكامل، يخضعون للنفوذ الشّيوعى.

ولا يجب إغفال الانحلال الخلقى، الذى سيطر على بعض القادة والضباط والجنود. فقد كشفت بعض دوائر المخابرات العسكرية (ك ج ب KJB) الأقل فساداً، عن وجود عدة شبكات لتهريب الأجهزة الكهربائية، والمخدرات، والدخان، وبعض البضائع، التى تستحوذ على اهتمام المواطن الروسى.

فكان بعض الضباط الروس المتورطين فى هذه الأعمال، يرسلون البضائع فى النعوش المغلقة، بدلاً من الجثث.

وقد أصبح واضحاً أن المجتمع السوفييتى، يحتاج إلى إعداد، لتقبل حقائق قبيحة عن الممارسات الوحشية، التى مارسها الجنود السوفيت.

فقد وجدوا أنفسهم أمام أشياء، لم يكن فى استطاعتهم تصورها وهم فى بلادهم. لقد أصبحت حياتهم اليومية تنحصر فى قتل الأبرياء، وحرق وتدمير مختلف المرافق فى أفغانستان، إضافة إلى تعاطى المخدرات، التى أدمنوها وتاجروا فيها.

أهم الدروس على الإطلاق، هو الكشف عن مدى عمق الأزمة، التى أحدثتها الحرب فى داخل المجتمع السوفييتى، وليس متصوراً، بالطبع، أن تحدث أزمة سياسية عميقة فى الاتحاد السوفييتى، كما حدث فى فرنسا مثلاً بعد حرب الجزائر، أو كما حدث فى الولايات المتحدة الأمريكية، بعد حرب فيتنام.

ولكن، مع ذلك، فإن التاريخ سوف يسجل أن هذه الحرب، أدت إلى ظهور رأى عام فى الاتحاد السوفييتى، وهى ظاهرة جديدة لم تتبلور من قبل. وكانت، ضمن أسباب أخرى، من دوافع قرار الانسحاب، الذى اتخذه جورباتشوف.

وهذه أول مرة يوضع فيها الرأى العام فى الاعتبار، عند وضع سياسة خارجية.

انسحب الجيش السوفييتى، وعاد الجنود إلى ديارهم، ومعهم تركة مثقلة من الصراع النفسى، بين الخطأ والصواب، وتركة من جرائم ارتكبوها فى حق شعب لا يبغى إلا الحياة الكريمة الآمنة.

مع وصول ميخائيل جورباتشوف إلى السلطة فى الاتحاد السوفييتى، حدث تطور كبير سواء على مستوى السياسة الداخلية، أو الخارجية.

فعلى المستوى الداخلى، أعطى لحرية الرأى والديموقراطية مساحة أكبر عن سابقيه، من القادة السوفيت. فسمح للصحافة بحرية أكبر فى التعبير عن مشاعر الشعب تجاه الأزمات، التى يتعرض لها، وعلى رأسها الاحتلال السوفييتى لأفغانستان.

وقد أثرت حرب أفغانستان فى طريقة التفكير السوفييتى، سواء على مستوى المواطن العادى، أو على مستوى القيادات. فالانسحاب السوفييتى، جاء تعبيراً عن الفكر السياسى الجديد لجورباتشوف، الذى قال صراحة: (... إن دخولنا أفغانستان كان خطيئة ...).

وهل كان يمكن أن يكتب شاعر، مثل الكسندر كاربتيكو، الذى عاش جانباً من حرب أفغانستان، وأصبح مسموحاً له أن يعبر عن رأيه فى ظل الجلاسنوست فيقول: (... لقد كان خطأً كبيراً أن نذهب إلى أفغانستان، ولكننا يمكن أن نتعلم من أخطائنا... الحرب جعلتنا أكثر حكمة، وأكثر قدرة على التفكير بوضوح فى أنفسنا ووطننا...).

ومن مظاهر التغيير فى السياسة الداخلية، وفى الانفتاح على الديموقراطية وحقوق الإنسان، تسجيل التليفزيون البريطانى برنامجاً إخبارياً مع الجنود، الذين حاربوا فى أفغانستان.

كانت هذه أول مرة يسمح فيها السوفييت بمثل هذا العمل، خاصة أنه تم داخل معسكرات جنوده، وهم يمرون بمرحلة من الإحباط. وفى هذه المقابلة، قال أحد الجنود المصابين فى المستشفى العسكرى بكابل:

(... إن بعض زملائه كانوا مستعدين، لمبادلة معداتهم العسكرية بالمخدرات...).

وبدأت الصحافة الروسية ووسائل الإعلام، فى نشر أقوال الجنود، الذين ذهبوا إلى أفغانستان، وهم لا يعرفون عنها أو عن شعبها شيئاً. بل ولا يعرفون شيئاً عن القضية، التى سيموتون من أجلها. ذهب هؤلاء الجنود إلى أفغانستان، ولا شىء معهم إلاّ سلاحهم، وورقة عليها تعليمات وأوامر: (لا تعقدوا صداقات، لا تلمسوا النساء، لا تذهبوا إلى المقابر لأى سبب، لا تدخلوا المساجد، احذروا المخدرات...).

وبدأت الحقيقة تتكشف، فالشعب السوفييتى لم يكن يعرف حقيقة مهمة قواته المسلحة الذاهبة إلى أفغانستان! حتى الجنود، الذين قتلوا فى المعارك، كان محظوراً أن يذكر أو يكتب على قبورهم، أنهم ماتوا فى أفغانستان.

ولكن مع تزايد وصول الصناديق، التى تحوى جثث الجنود السوفيت، بدأ الشعب يكتشف حقيقة الحملة السوفييتية على أفغانستان. بدأ يكتشف أن ما قيل له عن مساعدة الأصدقاء فى أفغانستان، هو الذى أدى إلى هذا الكم الكبير من الخسائر فى الأرواح، وأن ما يقال عن ترحيب الشعب الأفغانى بالتدخل العسكرى، لم يكن صحيحا، بدليل كمية الخسائر الكبيرة، من قتلى وجرحى.

فى أوائل أكتوبر ١٩٩٤م، ظهرت على الساحة الأفغانية قوة جديدة أثرت إلى حد كبير على مجريات الأمور فى أفغانستان، وجعلت الأطراف الأفغانية المتصارعة تعيد حساباتها، فهى حركة شبابية أمكنها تجميع حوالى ثلاثين ألف مقاتل فى أقل من أربع سنوات.

كانت بداية انتصارات الطالبان فى الرابع من نوفمبر ١٩٩٤م، عندما قاموا بالتصدى لعملية قرصنة، قام بها مجموعة من قطاع الطرق فى قافلة باكستانية تتكون من ثلاثين شاحنة محملة بالمواد الغذائية والسلع التجارية كانت فى طريقها إلى آسيا الوسطى.

أما الانتصار الثانى للحركة فكان فى أواخر نوفمبر ١٩٩٤م، حين استولت على مدينة قندهار دون مقاومة تذكر وبمساعدة من الأهالى.

ثم تتابعت الانتصارات ففى الفترة من نوفمبر ١٩٩٤م.

وحتى مارس ١٩٩٥م، كانت الطالبان قد استولت على محافظات غزنة، ولكر، وسيدان وزابل دون مقاومة تذكر.

وكان اجتياح الطالبان يبدو حتميا، فالمقاومة الوحيدة والجادة كانت من قبل الحزب الإسلامى بقيادة قلب الدين حكمتيار، ففى أواخر يناير ١٩٩٥م، حاول حكمتيار أن يحول دون سقوط غزنة، حيث دامت المعارك لعدة أيام إلى أن انتهت بهزيمة الحزب الإسلامى، ومن العجيب تحالف حكيمتار مع طالبان بعد سقوطها عام ٢٠٠١م.

لقد بدأت الحركة من قندهار حيث كانت مؤلفة من مجلس مكون من ثلاثين شخصا بزعامة الملا محمد عمر الذى كان أحد القادة عند مولوى محمد بنى محمدى، وكان قائداً شجاعاً إلاّ أنه لم يكن يملك رؤية سياسية واضحة ـ مثل باقى الزعماء ـ لذا لم يعتقد الكثير بقدرة هذه الحركة على الصمود.

فعندما أعلنت الطالبان عن اسم زعيمها وأميرها لم يكن أحد يعتقد أن محمد عمر قادر على تنظيم حركة تستطيع تحقيق السيطرة والأمن لأفغانستان خلال فترة بسيطة.

وقد ساعد الطالبان على تحقيق انتصاراتهم الصراعات الداخلية بين تحالف الحكومة بزعامة برهان ربانى والمعارضة بزعامة قلب الدين حكمتيار، هذه الصراعات أوجدت مناخا مناسبا لتحقيق الانتصارات، حيث إن الشعب الأفغانى كان فى حاجة إلى طرف ثالث لحسم الموقف لصالحه.

وكان المجتمع الأفغانى قد أصابه الشلل الكامل، وانتشرت فيه عمليات الابتزاز والسطو المسلح وتعددت أنواع الضرائب التى يدفعها، لذا كانت الخطوة الأولى التى يفعلها الطالبان عند استيلائهم على الإقليم هو إلغاء القوانين الجائرة خاصة الضرائب مما كان له أثر كبير على دعم الشعب الأفغانى لهم ومنحهم المساعدات اللامحدودة.

وطالبان باللغة الأفغانية هم طلبة المدارس الشرعية الأهلية الأفغانية والذين كانوا يدرسون العلوم الدينية فى مدينة بيشاور الباكستانية، وهى مدارس يشرف عليها الشيوخ التقليديون، وهذه المدارس تديرها جمعية علماء الإسلام الباكستانية.

والطالبان فى الأصل هى جمعية دينية حديثة التكوين تفرعت عن جمعية باكستانية تسمى جمعية علماء الإسلام يتزعمها عالم دين باكستانى يدعى ملا سميع الحق، وكان قد انشق عام ١٩٩٣م، عن الجماعة الأساسية التى يتزعمها ملا فضل الرحمن.

وقد أنشأت هذه الجماعة العديد من المدارس الإسلامية فى كل من باكستان وأفغانستان وتعتبر هذه المدارس المكان الذى يتربى فيه أفراد الجماعة حيث تنتشر فى شتى أقاليم باكستان، وتمول هذه المدارس عن طريق التبرعات من داخل وخارج باكستان.

وتعتبر مادة الفقه الحنفى، وأصول الفقه، وعلوم اللغة العربية والمنطق والفلسفة القديمة وكتب الصحاح الستة، أساس المنهج التعليمى لهذه المدارس، وتنهج هذه المدارس المناهج التقليدية فى مختلف توجهاتها بدءاً بالزى ومرورا بالمنهج الدراسى، ومن ثم فهم يرفضون أى تطور فى المنهج الدراسى، أو منهج سلوكياتهم العادية، ومن هذا المنطلق تغرس هذه المدارس فى شخصية طلابها معارضة أى خط فكرى جديد، لذا فانهم يعارضون الحركات والفكر الإسلامى الحديث.

وكانت الحركة قد نشأت كرد فعل تلقائى للتصرفات السيئة للمجاهدين، وهذا الرأى الذى يردده أفراد الحركة أنفسهم، ومن ثم نما لدى أفراد الطالبان كراهيتهم للأحزاب الأفغانية الموجودة على الساحة والتى أخذوا عليها القيام بأعمال التخريب والقتل وعدم احترامهم للتحالفات والمعاهدات التى وقعوها مع بعضهم، مع نقضهم للوعود، مما أفقدهم المصداقية.

هذه التصرفات أسهمت فى تصاعد الشعور بالعداء ضدهم من جانب الطالبان الأمر الذى جعلهم - أى الطالبان - يشكلون هذا التجمع، من أجل وضع نهاية للحرب الأهلية فى أفغانستان، استعداداً لبدء إعادة إعمار دولتهم.

ويرى البعض أنّ الحركة نشأت بدافع سياسى باكستانى، عن طريق علماء الإسلام فى الجمعية الباكستانية، حيث حفزوا الطلبة على الجهاد قبل العلم.

وهناك من يرى أنّ الحركة كانت موجودة على الساحة، منذ بداية الاحتلال السوفيتى لأفغانستان، ولكن نفوذها وإمكانياتها محدودة، حيث لم تكن تعتمد على

قوى خارجية تدعمها، مثل باقى فصائل الجهاد الأخرى، إلى أن قررت باكستان، وبدعم من الأطراف الأخرى، أن تساندهم فى الصراع ضد الأحزاب الأخرى.

وقد أعلنت الطالبان عن برنامجها السياسى، من تطبيق الشريعة الإسلامية، مع إخراج العناصر الشيوعية السابقة من مناصبها. وبالفعل تم تطبيق الشريعة الإسلامية على الإعلام والقضاء ومجالات عدة فى الولايات، التى سيطرت عليها، مثل قندهار وننكهار وكنار ونعمان.

وفيما يتعلق بتشكيل السلطة، فقد أعلنت عن قيام حكومة انتقالية تتألف من ستة أعضاء، برئاسة الملا محمد ربانى، لرئاسة شؤون البلاد خلال هذه الفترة الانتقالية.

ومع الانتصارات المتتالية للطالبان، وتقدمها نحو كابل - فى مارس ١٩٩٥م - اضطرت القوى الأفغانية الرئيسية، عدا حكمتيار، إلى تكوين تحالف فيما بينهم لمواجهة الطالبان، وفى الوقت نفسه، آثر حكمتيار الانسحاب من چهارسبب، التى تبعد عن كابل حوالى ٥ كم إلى سروبى، التى تبعد ٥٠ كم.

وكان هدفه من ذلك الابتعاد عن طريق تقدم الطالبان نحو كابل، وبذلك يعجل من المواجهة بين قوات الطالبان وقوات مسعود الذى يسيطر على العاصمة.

ويُعد انسحاب حكمتيار خطوة تكتيكية، تدل على براعته العسكرية والسياسية. وفى الوقت نفسه، علق المحللون الإستراتيجيون على أن مسعود ارتكب خطأ كبيراً بالضغط على حكمتيار للانسحاب، وكان الأصوب تركه فى مواقعه لاستنزاف قوة الطالبان قبل الوصول إلى كابل.

ولكنه بذلك عجل - أى مسعود - فى مواجهته للطالبان.

وعلى الرغم من أن هذه المواجهة أسفرت، عن خسارة الطالبان لمواقعها حول كابل، كانت معظم الآراء تؤكد على أن حكمتيار كان يمكن أن يستفيد من هذا الموقف بمهاجمة كابل والاستيلاء عليها، أثناء انشغال مسعود فى القتال، محققاً بذلك حلماً طالما راوده. ولكنه لم يدرك ذلك.

وفى فبراير ١٩٩٥م، استولى الطالبان على كابل، إلاّ أنهم انهزموا فى منتصف مارس من العام نفسه.

وبذلك استعادت قوات التحالف الحكومى معنوياتها، حيث اعتقدت أن حركة الطالبان قد انتهت عسكرياً.

وقرر مسعود تبنى سياسة (اقتلاع الشر من جذوره)، وهاجم الطالبان فى قندهار، مستفيداً من حالة الاستياء التى سيطرت على قيادات قندهار، جراء نزع الطالبان لأسلحتهم.

فكان أن لجأ جزء منهم إلى كابل، والباقى إلى هرات وبيشاور. واستعان مسعود بالجنرال إسماعيل خان - حاكم هرات - من أجل مساندته عسكرياً لاحتلال قندهار، والقضاء على الطالبان.

وفى ٥ سبتمبر ١٩٩٥م، تعرض إسماعيل خان لسلسلة من الهزائم، أهمها استيلاء الطالبان على هرات، ووصول الطالبان إلى الحدود مع إيران، فقررت الأخيرة تعاونها مع التحالف الحكومى، تحت قيادة ربانى، بهدف استعادة هرات.

بدءًا من ١٧ ديسمبر ١٩٩٥م، بدأت الطالبان فى قصف كابل بالصواريخ قذفاً مركزاً. وفى ١١ سبتمبر ١٩٩٦م، استطاع الطالبان الاستيلاء على إقليم قندهار وعاصمته جلال آباد، حيث لجأ الآلاف إلى الحدود الباكستانية. إلاّ أن باكستان أغلقت الحدود أمامهم، قائلة إنها لا ترغب فى المزيد من اللاجئين.

فى السابع والعشرين من سبتمبر ١٩٩٦م، استطاعت حركة الطالبان الاستيلاء على كابل، حيث فر الآلاف فى اتجاه الحدود الباكستانية. وكانت أهم القرارات، التى أصدرتها الحركة فى ٣٠ سبتمبر ١٩٩٦م، هو قرار حظر خروج المرأة للعمل، والبقاء فى المنزل، وسوف تُدفع أجورهن بالكامل على الرغم من انهيار الوضع الاقتصادى.

وهكذا أصبحت الطالبان، باستيلائها على كابل ومعظم الأقاليم الأفغانية، وتشكيلها حكومة جديدة، ووفقاً لمعايير القوى المحلية السائدة الآن فى أفغانستان، هى القوة الرئيسة الفاعلة على الساحة الأفغانية، ومن ثم وجب عليها أن تضع فى اعتبارها مصالح الجوار، خاصة أنها أكثر قوة ونفوذا منها. وتتنافس على النفوذ فى أفغانستان

عدد من القوى الإقليمية والدولية، ما بين مؤيد ومعادٍ. هذه القوى - ولِما أثبتت الأحداث السابقة - لها تأثيرا على مجريات الأمور فى أفغانستان.

أثارت هذه الانتصارات حفيظة (روسيا - الهند - إيران)، المواجه لمحور (الولايات المتحدة الأمريكية - باكستان) حيث ساد اعتقاد لدى المحور الأول، أن سقوط أفغانستان بأكملها فى أيدى حركة الطالبان، يعنى سيطرة باكستان عليها.

لذا قدمت هذه الدول الثلاث الدعم لقوات المعارضة. وفى المقابل دعمت إيران وأوزبكستان قوات المعارضة، المتمركزة فى الشمال، ونجحوا فى استقطاب عبدالمالك البهلوانى، الذى سرعان ما انقلب على الطالبان، وألحق بهم هزيمة كبيرة فى مزار شريف، مما اضطر الطالبان إلى الانسحاب جنوباً، مع ازدياد تقدم قوات المعارضة ونجاحها فى السيطرة على الشمال الأفغانى بالكامل.

ومن ثم نجح تحالف المعارضة فى تشكيل حكومة فى مزار شريف، تحت حكم برهان الدين ربانى، وبدأت قوات المعارضة الزحف على كابل ليتجدد الصراع حول العاصمة.

وهكذا، وجدت الحركة نفسها تواجه ثلاث جبهات فى وقت واحد؛ من الشمال الشرقى تحت قيادة عبد المالك البهلوانى، ومن شمال الوسط تحت قيادة شاه مسعود، ومن الشمال من قِبل الشيعة بقيادة نادرى، الأمر الذى أدى بالحركة إلى التراجع إلى وسط البلاد، بعد تكبدها خسائر فادحة.

وقد أبرزت هذه الهزائم أن هناك حدوداً، لقدرة الحركة على فرض سيطرتها العسكرية والسياسية، وأن الأطراف المناوئة مازالت تملك بعض عناصر القوة، إن لم تكن كافية للقضاء على الطالبان، فهى على الأقل قادرة على الدفاع عن نفسها، وكافية أيضاً لإزعاج الطالبان وتحديد نفوذها فى مناطق الجنوب والوسط.

وكما هو معروف، فإن الطرف الذى يسيطر على العاصمة وعلى مساحة أكبر من الأرض كان دائماً ما يملى شروطه، ولكن وبعد تراجع الطالبان وخسارتها لمواقع عديدة، نجد أن باكستان تسعى لبدء عملية حوار بين الفصائل المختلفة فى ظل سيطرة كاملة على العاصمة بواسطة الطالبان.

وفى ظل تدهور الموقف، ورغبة من الدول، التى لها مصالح فى أفغانستان، تقدمت طهران بمبادرة لعقد مؤتمر للحوار.

وقد شاركت جميع الفصائل فى هذا المؤتمر، عدا الطالبان التى اتهمت إيران بأنها وسيط غير نزيه لأنها قدمت دعماً عسكريّاً لتحالف المعارضة. وكان رد إيران على ذلك أن الحركة تتلقى الدعم من الولايات المتحدة الأمريكية وباكستان أيضاً، فلا مبرر لهذا اللوم. على الرغم من الجهود، التى قامت بها الأمم المتحدة، والقرارات، التى صدرت عن مجلس الأمن، لوضع حد للأزمة الأفغانية، غير أن هذه المبادرات طيلة سنوات الأزمة، لم تؤدّ إلى نتيجة فى ظل غياب ضغط الدول الكبرى، على الأطراف المتصارعة.

وتبقى نقطة مهمة أثرت فى سلوكيات الحركة، فعلى الرغم من الانتصارات العسكرية، التى حققتها، بدأت تواجه انقسامات وصراعات داخلية، حيث شهدت بداية انقسام بين التيار الدينى الأصولى المتشدد، الذى يدعو إلى تطبيق الشريعة الإسلامية حسب مفهوم الحركة، ويتخذ هذا التيار من مدينة قندهار مركزاً دينيا وروحيا للحركة.

والتيار الثانى، الذى يدعو إلى عودة الملك الأفغانى السابق ظاهر شاه، والقبول بقيادته من أجل وحدة البلاد، فهو الذى يستطيع تجميع الفصائل المختلفة، والبعد بها عن تيار الصراع المسلح.

فقد فشلت الأهداف المعلنة التى تتلخص فى إلقاء القبض على زعيم تنظيم القاعدة وضرب قواعده، والقضاء على طالبان، وعلى ما تسميه بالإرهاب، وقام صناع القرار بالإعداد لغزو أفغانستان بحشود ضخمة، تتجاوز متطلبات الحملة على طالبان وقواعد القاعدة.

زاد عدد المقاتلات عن ٥٠٠ طائرة مقاتلة، وأربع مجموعات من حاملات الطائرات، يدعمها أكثر من ١٥٠ سفينة حربية، بينها ١٠ بوارج ومدمرات مسلحة بصواريخ كروز، ويبلغ عدد الجنود حوالى ٢٥٠ ألف رجل.

ولا يتجاوز حجم قوات طالبان ٥٠ ألف فرد، وقد يصل بعد التعبئة إلى ٢٠٠ ألف، ولا يزيد عدد الدبابات والعربات المدرعة الروسية الصنع من طرازات مختلفة، عن ٢٠٠

دبابة وعربة مدرعة، إضافة إلى ١٥٠٠ قطعة مدفعية، وما لا يزيد عن ١٠ طائرات، و١٠٠ قطعة صواريخ مضادة للطائرات، وحوالى ٢٠٠ صاروخ مضاد للدبابات.

ولا يزيد حجم قوات القاعدة عن ٥٠٠ - ٨٠٠ فرد مسلح بأسلحة خفيفة، لا ينظمون فى تشكيلات أو وحدات عسكرية، لأنهم منتشرون داخل أفراد الشعب. أما معسكراتهم التى تبلغ ٢١ معسكراً فهى خالية من المقاتلين، لانتقالهم إلى مواقع تبادلية محصنه بالجبال.

ويعد مستقبل أفغانستان بعد تدمير حركة طالبان من أكبر الهواجس التى تقلق الإدارة الأمريكية فى إدارتها للحرب الحالية، لارتباط ذلك بتحقيق أهدافها الإستراتيجية، ومع افتراض تحقيق ذلك بالقوة العسكرية، فإنه لن يوفر الاستقرار الذى تنشده.

من أبرز المشكلات التى تواجه الولايات المتحدة وهى تحاول معالجة مشكلة ما بعد طالبان، الاختلافات العرقية والقبلية والطائفية وارتباط ذلك بالدول المحيطة بأفغانستان، وكذلك الهوية السياسية والأيدلوجية للزعامة الأفغانية المطروحة على الساحة.

وعلى هذا لجأت الولايات المتحدة إلى ترتيب لقاء بين ممثلى المعارضة، وبين الملك السابق ظاهر شاه أملا فى عودته، حيث إنه يمثل الشرعية للنظام، ولكن عودة الملك ظاهر شاه رغم الجهد الأمريكى تعترضها عقبات عديدة داخليا وخارجيا، وإذا كانت المحادثات التى تمت بين الملك وممثلى المعارضة فى روما خلال مايو ٢٠٠٦ تحت إشراف عدد من رجال الكونجرس الأمريكى، توصلت إلى اتفاق بإنشاء مجلس أعلى للوحدة الوطنية يتكون من ١٢٠ من الزعماء التقليديين فى البلاد، على أن يتولى المجلس انتخاب رئيس البلاد، وتشكيل حكومة وطنية.

وأما تولى ظاهر شاه مقاليد السلطة أمر مشكوك فيه بعد ٢٨ عاماً قضاها فى إيطاليا، جعلته غريباً عن المجتمع الأفغانى بعكس معظم القوى السياسية فى أفغانستان، التى لا تزال متمسكة بأصولها الإسلامية، فضلاً عن أن شكل الحكومة

وتوزيع الوزارات ستعترضه عقبات، إذ يجب تمثيل البشتون فى الإدارة الجديدة، وهذا سيلاقى معارضة شديدة من تحالف الشمال، ما يهدد باندلاع حرب أهلية.

وتلتقى المصالح الإيرانية ـ الأمريكية فى القضاء على طالبان وإعادة الاستقرار، وتأخذ واشنطن على إيران دعمها لقلب الدين حكمتيار زعيم الحزب الإسلامى، وفى المقابل تبدى طهران مخاوفها من استمرار الوجود العسكرى الأمريكى فى أفغانستان والذى يمثل تهديداً لجناح إيران الشرقى.

ربما يعتقد الأمريكيون أن بإمكانهم لملمة الأطراف الأفغانية بعد انهيار طالبان، وهذا احتمال بعيد فإلحاق الهزيمة بطالبان يدخل الولايات المتحدة فى أزمة جديدة، ستمتد إلى باكستان وبلدان آسيا الوسطى، وسيصبح استئناف الحرب الأهلية فى أفغانستان مرة أخرى أمراً مرجحاً.

وبالرغم من رفض التحالف الشمالى لوجود طالبان فى أى حكومة مستقبلاً، إلا أن موافقة الولايات المتحدة الأمريكية وباكستان محتملة على إشراك بعض المعتدلين من طالبان فى الحكومة.

إن ما تحتاجه أفغانستان فعليا هو قوة دولية تعمل تحت مظلة الأمم المتحدة، لإعادة إرساء نوع من النظام، وأن تكون هذه القوة مدعومة من قِبل الدول الإسلامية، وقادرة على استعادة السيطرة على الطرق وإمدادات الغذاء والاتصالات، وتمهد لإقامة حكومة من التكنوقراط، وهذا يفرض على الولايات المتحدة الأمريكية، الا تسلح القوى المعارضة لطالبان بما يتعدى حاجاتها.

ولكن الرأى الذى يسود الوضع الأفغانى الآن يدعو الحكومة الأفغانية برئاسة (كرزاى) الأمريكى الهوية بالجلوس مع طالبان ومشاركتهم فى الحكم بعد الانتصارات التى حققها طالبان مؤخرا على الجانب العسكرى لكن الولايات المتحدة تحول دون حدوث ذلك.

فالصراع ما زال دائراً رغم خروج معظم القوات الأمريكية من أفغانستان وحلول قوات تحالفية بديلة، إضافة إلى قوات من جيش فرسان مالطا الصليبية التى شاركت

فى غزو أفغانستان والعراق وغيرها من الدول التى تسعى أمريكا لاحتلالها[1].

ولعل إدارة الرئيس الأمريكى الجديد «أوباما» تسدل الستار على الغزو الأمريكى لأفغانستان والعراق كما وعد فى حملته الانتخابية ويكتفى بهذا الدرس الغبى الذى أخده بوش الابن وإدارته.



(١) اقرأ كتابنا «دولة فرسان مالطا» الناشر دار الكتاب العربى.

12

الاغتيالات السياسية المؤثرة عالمياً وأصحاب البروج

- تورط فرسان الهيكل وأصحاب البروج فى اغتيال «جون كينيدى» وأميرة ويلز.
- أسرار عائلة آل ويندسور الملكية فى بريطانيا.. أسرار غريبة يصعب تصديقها.



تورط أصحاب البروج وفرسان الهيكل فى اغتيال «جون كينيدى» وأميرة ويلز وغيرهما من الاغتيالات السياسية العالمية

إن مصطلح أصحاب البروج الذى استعملناه فى هذا الكتاب يشير إلى الدول العظمى التى تريد التحكم فى الدول الصغرى والعالم وعلى رأس تلك الدول الولايات المتحدة الأمريكية ويشير على وجه التحديد إلى تلك الفئة التى احتلت السلطة فى هذه الدول وهى تعتقد أنها من جنس سامٍ راقٍ أو عرق آرى يختلف عن الجنس البشرى، حتى اعتقد البعض من الكتاب الغربيين أنهم جنس خليط بين الجنس البشرى وسكان الكواكب الأخرى الذين حطوا على الأرض قديماً قبل الطوفان من كوكب المريخ[1].

ويربط أصحاب هذا الرأى بين هؤلاء الصنف والحكومة الخفية التى تحكم العالم سرا وواجهتها الجمعيات الماسونية العالمية وفروعها مثل اللوتارى والليونيز وغيرها[2].

من هذه الأسر الحاكمة من أصحاب البروج الأسرة الملكية فى انجلترا وأسرة آل بوش التى حكمت أمريكا مؤخراً وجرت الخراب والدمار بكل أنواعه على العالم الإسلامى ثم الكساد الاقتصادى للعالم.

ويرى ديفيد ايكه أن الذين يحكمون العالم سرا شبكة واسعة النطاق ما بين الجمعيات السرية ورجال المال والمصارف والأعمال والوكالات الأمنية، وإن مركزهم هو مدينة لندن وترتبط بها مراكز قيادية فى فرنسا وألمانيا وبلجيكا وسويسرا وإيطاليا والولايات المتحدة فهى شبكة عنكبوتية.

وهم يتلاعبون فى أسعار الصرف لكل العملات حسب المصلحة الخاصة بهم ويتحكمون فى الاقتصاد العالمى والبورصات وهم مَنْ وراء الأزمة الاقتصادية العالمية.

---

(١) اقرأ كتاب السر الأكبر ـ ديفيد ايكه.

(٢) اقرأ سلسلة الحكومة الخفية ـ للمؤلف، الناشر دار الكتاب العربى.

وعلى سبيل المثال فى عام ١٩٩١ قامت المصارف التابعة لهم فى الولايات المتحدة ومنها مصرف روكفيلر شايز منهاتن «Chase Manhattan» بزيادة أرباحها بالبيزو المكسيكى وفى السنة نفسها تدهور سعر صرف البيزو، لأنها باعت أصولها بالبيزو قبل الانهيار(١).

وفى عام ١٩٨٧ باع المليونير جيمى جولد سميث كل ممتلكاته قبل الانهيار العالمى للبورصة.

تلك مقدمة بسيطة وسوف نتوسع فى الحديث عن قدرة هؤلاء الهجين أصحاب البروج فى الفصل القادم حين نتحدث عن الأزمة الاقتصادية العالمية والكساد الاقتصادى الحالى وأبعاده على العالم الثالث والعالم كله.. إن شاء الله.

نعود إلى الحديث عن دور أصحاب البروج الذين يحكمون الدول الكبرى ومن ثم يحكمون العالم فى الاغتيالات السياسية الكبرى التى حدثت فى القرن الماضى وأهمها اغتيال الرئيس الأمريكى جون كينيدى وأميرة ويلز «ديانا».

مضى أكثر من خمس وأربعين سنة على مقتل الرئيس جون كينيدى فى شارع عام وفى مناسبة عامة عام ١٩٦٣ ، حيث أطلق على رأسه الرصاص من قاتل محترف ثم قتل هذا الجانى أثناء التحقيق معه ثم قتل قاتل القاتل كما هو معروف.

فمن هو جون كينيدى.. ولماذا قتل؟

ذكر ديفيد إيكه أن آل كنيدى عائلة تنحدر من سلالة الملك الأيرلندى برايان بورو:

«Brian Boru»

المعروف أيضاً باسم برايان كانيدى

«Brian Caenedeli»

والذى أطلق عيه فيما بعد اسم أوكينيدى، وكانوا أسياد منطقة أورموند «Ormond» التى تقع شمال تبيرارى «Tipperary»، وقد تزوج آل كيندى فى اسكتلندا من السلالة الأيرلندية، واكتسبوا مكانة رفيعة بين السلالات الأرستقراطية هناك.

(١) المصدر السابق.

ومن أفراد آل كينيدى البارزين ارشيبالد كينيدى وهو إرل كاسيليس الخامس عشر المعروف باسم مركيز «إيزلا» عاش ما بين عامى ١٨٧٢ ـ ١٩٤٣ م وتولى مناصب قيادية فى المحفل الماسونى الكبير الاسكوتلندى وعضو فى محفل هوليرود هاوس رقم ٤٤ فى «أدنبرغ».

وانتقل «ماثيو كينيدى» من أيرلندا فى القرن الثامن عشر إلى باريس للعمل مع صديقه سان جيرمان الماسونى الكبير والساحر المعروف الذى تولى رئاسة جماعة النورانيين التى خرجت الماسونية من عباءتها، وشارك «ماثيو» فى الطقوس الدموية التى مارسها الماسون فى ذلك المحفل.

وصاهر آل كينيدى أيضاً دوقات أسرة ديفنشاير إحدى السلالات الكبيرة فى إنجلترا، وقد تورط آل كينيدى بعمليات تهريب المخدرات والجريمة المنظمة وعمليات برمجة العقول مثل مشروع مونارك.

وكان والد جون كينيدى المدعو جوزيف كينيدى عضواً فى جمعية بلغريم السرية وله علاقات وثيقة بالمافيا وجمعيات الجريمة المنظمة وتعود ثروة آل كينيدى إلى الامتياز الذى منحه وينستون تشرشل لجوزيف كينيدى من استيراد مشروب الليكور البريطانى إلى الولايات المتحدة.

وقد كان جوزيف كينيدى مدعوماً من آل روتشيلد اليهودية الصهيونية وآل برونغمان وهى أيضاً أسرة يهودية فى كندا تمتلك مصانع لليكور «Segorans».

والجدير بالذكر أن آل كينيدى دعموا جماعة فرسان مالطا فى الولايات المتحدة وهذه الجماعة مرتبطة تاريخيا بالإرهاب الدولى وتبعية للماسونية وهم جنود المسيح الدجال ويرجع تأسيسها إلى القرن الحادى عشر عقب احتلال الصليبيين القدس عام ١٠٩٩(١).

ودعم جمعية فرسان مالطا من خلال معهد كينيدى لدراسة التناسل البشرى والعلوم الحيوية فى جامعة جورج تاون التى يسيطر عليها اليسولاعيون وهذه الجمعية تدعو إلى مبدأ القتل الرحيم.

وخطى جون كينيدى بدعم آل روتشيلد وكافت وروسيك وروكفيلر وكلهم أعضاء فى

(١) اقرأ كتابنا فرسان مالطا وغزو العراق، الناشر دار الكتاب العربى.

الحكومة الخفية الماسونية.

ولد جون. ف. كينيدى فى بروكلين/ ماساشوستى فى ٢٩ أيار ١٩١٧ وقتل فى ٢٢ تشرين الثانى ١٩٦٣.

وذكر دايفيد إيكه أن بيل كوبر وهو عميل سابق فى الاستخبارات الأمريكية البحرية أن مقتل جون كينيدى جاء فى إطار انتقام فرسان الهيكل (فرسان مالطا حالياً) من الكنيسة الكاثوليكية حيث إن كينيدى كان كاثوليكياً وهو الرئيس الأمريكى الكاثوليكى الوحيد لأمريكا وينتمى للكنيسة التى أصدرت أمراً بقتل زعيم فرسان الهيكل «دو مولاى» فى عهد الملك فيليب الفرنسى بأوامر من البابا حرقاً عام ١٣٠٧ فى جزيرة سيته «De de La Cite » فى ظل كاتدرائية نوتردام الشهيرة التى بناها فرسان الهيكل على أنقاض مكان لعبادة الإلهة ديانا.

وقد تعرض فرسان الهيكل للتطهير والقتل حرقاً بعد محاكمات أجراها لهم البابا بواسطة محاكم التفتيش فى فرنسا بدعم من الملك الفرنسى.

وذكر إيكه أن يوجد الآن بالقرب من الموقع الذى قتل فيه كينيدى نصب عمودى بناه الماسونيون أثر عمليات الاغتيال وأنه فى الأساطير المصرية، يرمز النصب العمودى إلى عضو أوزيرس الذكرى ويعلو النصب الموجود حالياً فى «ديلى بلازا» شعلة كهربائية وهذه الشعلة توجد على ضريح كينيدى فى مقبرة «أرلينغتون».

ويتألف هذا النصب التذكارى من ١٤ حجراً، وهو عدد الأجزاء التى تمثل جثة أوزيريس كما فى الأسطورة المصرية، حيث قطعت جثة أوزيريس على يد أخيه «سيت» ومن المعلوم أنه حسب الأسطورة أن إيزيس جمعت أجزاء جثة زوجها إلا قطعة واحدة هى العضو الذكرى وهو الذى أصبح رمزاً للماسونية أصحاب البروج.

ويرى «ايكه» المنطقة التى قتل فيها كينيدى فى ديلى بلازا تنطوى على مجموعة من الرموز الباطنية وسميت على اسم ماسونى من الدرجة ٣٣ يدعى «جورج سانرمان ديلى» الذى عمل فى صحيفة دالاس مورنينغ نيوز.

وتضم المنطقة أول معبد ماسونى فى دالاس على شكل هرم ينقص الجزء الأعلى منه فقد اقتطع جسر السكة الحديد رأس الهرم بينما قسمه شارع «ماين» إلى قسمين.

وإنه قتل قرب ما يسمى بالهضبة المعشبة الواقعة على الجهة اليمنى من الهرم.

وتاريخ قتل كينيدى فى ٢٢ تشرين ١٩٦٣ هو نفسه - أى اليوم والشهر - التاريخ الذى أصدر فيه البابا كلمنت بمحاكمة فرسان الهيكل على يد محكمة التفتيش الدومينكية عام ١٣٠٧ م.

وذكر أن كينيدى حين بلغ من العمر الثانية والعشرين قد صنع له تمثال على شكل ملاك له جناحان قد نقل إلى الفاتيكان واستعمل كجزء من صورة ترفرف فيها الملائكة فوق القديسة تيريزا وهى تكتب.

وحملت جثة كينيدى اسم الملاك وهو الاسم الذى أطلق على الطائرة الرئاسية «Air Force» التى حملت الجثمان ليدفن فى مقبرة أرلينغتون الوطنية فى تكساس.

ومن المصادفات المحسوبة أن الرئيس الأمريكى إبراهام لينكولن الذى اغتيل بيد اليهود الماسون عام ١٨٦٠ أيضاً كان أمين سره يدعى كينيدى وأمين سر الرئيس كينيدى يدعى لينكولن!!

واليوم الذى اغتيل فيه الرئيسان لينكولن وكينيدى كان يوم الجمعة.

وانتخب لينكولن عضواً فى الكونجرس عام ١٨٤٦ م قبل توليه الرئاسة وانتخب كينيدى عضواً فيه عام ١٩٤٦.

وانتخب لينكولن رئيساً للجمهورية عام ١٨٦٠ وكينيدى عام ١٩٦٠.

أما قاتل لينكولن ويدعى جون ولكس بوش «John Welkes Booth» فقد ولد عام ١٨٣٩م، فى حين أن قاتل كينيدى المدعو «لى هارفى أوزوالد» «Lee Harrvey Os-wald» ولد عام ١٩٣٩!!!

وقد خلف «لينكولن» فى منصب الرئاسة نائبه اندرو جونسون المولود عام ١٨٠٨ م، وخلف كينيدى نائبه ليندون جونسون المولود عام ١٩٠٨ م!!

وأضاف «إيكه» أن مقتل كينيدى فى ذلك الزمان وذلك المكان كان معداً قبل وقت طويل من توليه الرئاسةوكذلك وضعت الخطط لاغتيال ديانا فى باريس وفى ذلك التاريخ قبل سنوات طويلة ويمكن القول إن هذه المؤامرة أعدت منذ ولادتهما!!

وقد يبدو لكم ذلك مبالغاً فيه، ولكن إن تعمقتم دراسة الأخوية تجدون خططها لا تعد قبل بضعة أسابيع أو بضعة أشهر بل قيل لعدة قرون إذ أن نظرتهم إلى الوقت انطلاقاً من البعد الرابع السفلى تختلف عن نظرتنا إلى البعد الذى نعيش فيه.

ولا شك أن الاتفاق على اغتيال الكاثوليكى جون كينيدى فى ذكرى اضطهاد الكنيسة الكاثوليكية لفرسان الهيكل يعود إلى عقود عدة بعد أن وقع الاختيار على كبش الفداء وأعد للمنصب الذى سيتولاه(١).

فقد ولدت ديانا أميرة ويلز ومطلقة ولى عهد بريطانيا عام ١٩٦١ من سلالة سبنسر.

ويقرر ديفيد إيكه أنها أى ديانا قدمت قرباناً للإلهة ديانا فى مكان مقدس «نفق الما» كان فى الماضى مزاراً «لديانا» التى كانت تعبد فى الماضى البعيد.

وكذلك الرئيس كينيدى قدم قرباناً عام ١٩٦٣، وتعد أسرة سبنسر من الأسر النخبة ذات صلة بالقصور الحاكمة فى أوربا وتنحدر من الملكية الستيوراتيين شارلز الثانى وجيمس الثانى، اللذان على غرار الملك جيمس الأول مرتبطين بالسلالة الميروفنجية أى السلالة المقدسة التى يدعى البعض أنها سلالة السيد المسيح من زوجته مريم المجدلية(٢).

وكانت ديانا تعانى من اضطراب عاطفى قبل الزواج ووصفت تصرفات زوجها الأمير تشارلز بقولها: «وجد العذراء الحمل الذى سيقدم قرباناً وأظنه كان مهووساً بى بعض الشىء ولكن عواطفه كانت تارة حارة وتارة باردة، إذ لا يمكن التنبؤ بمزاجه...».

وعندما حملت ديانا بالأمير ويليام شعر آل ويندسور الأسرة الملكية البريطانية أنهم بلغوا غايتهم وقيل لديانا إنه ينبغى تقديم موعد الولادة لتتوافق مع برنامج مباراة البولو الخاصة بشارلز، وولد ويليام الأشقر الشعر والأزرق العينين عام ١٩٨٢ يوم ٢١ حزيران موعد انقلاب الشمس الصيفى.

وقد عرف آل ويندسور بولعهم الشديد بعلم التنجيم والسحر وانغمست العائلة فى عبادة الشيطان وعلوم السحر وعبادة الشمس ومارست تلك الطقوس الشيطانية كى

---

(١) انظر السر الأكبر ـ ديفيد إيكه.

(٢) انظر شيفرة دافنشى ـ دان براون.

يتم ولادة ابن ولى العهد خلال الانقلاب الصيفى للشمس وسمى المولود بوليام الفاتح وأرثر تيمناً بالملك أرثر رمز إله الشمس.

وطالما حرصت الأخوية ـ الماسونية وأصحاب البروج على إبقاء علومها السرية طى الكتمان مما جعل الناس غير قادرين على تصديق ما هى قادرة عليه بفضل الأدوية والتكنولوجيا الحديثة.

وقد وضعت الأخوية الماسونية فوق نفق ألما (Alma) فى باريس على مقربة من العمود رقم ١٣ التى ارتطمت به السيارة التى كانت تقل الأميرة ديانا أميرة ويلز صورة مصباح كهربائى يحمل توقيع الأخوية وهكذا فعلوا معها كما فعلوا عقب اغتيال كينيدى حيث قاموا ببناء مسلة فى نفس مكان الأغتيال يعلوها مصباح كهربائى.

ويرتكز هذا المصباح على نجمة خماسية سوداء وهذا الرمز من أهم الرموز الشيطانية، وقالوا للناس إن هذا المصباح مثل شعلة الحرية التى يحملها تمثال الحرية الشهير تخليداً لذكرى الأميرة وجعل المكان مزاراً وهو امتداد فوق سطح الأرض لمكان الاغتيال وتحتها فى النفق.

وقد غلق تابوت الأميرة ديانا بالعلم الملكى البريطانى لآل ويندسور والمغطى بالأسد رمز الشمس ولم يغلق بعلم البلاد.

ودفنت الأميرة فى جزيرة غيرة فى بحيرة تعرف باسم أوفال (Oval) تملكها عائلة الأميرة «آل سبنسر» وإذا نظرت من أعلى الجزيرة تبدو وكأنها نقطة فى وسط الدائرة وكأنها رمز من رموز الشمس ووضع على الجزيرة شعلة مشتعلة رمزاً للأخوية.

وتشكل الجزر جزءاً أساسياً من أساطير الإلهة ديانا القديمة التى يقال إنها ولدت فى جزيرة ديلوس فى بحر إيجة وعرفت هذه الجزيرة باسم جزيرة الموت تيمناً بهيكل ألهة الفنون الجهنمية والوجه السلبى للطاقة الأنوثية.

ولم يتم تنفيذ وصية الأميرة ديانا بأن تدفن فى مقبرة العائلة فى كنيسة القرية فى غرايت برينغتون (Great Brington) حيث صرح أخوها «ايرل سبنسر» بأنه لا يريد أن يقلق الالفضيوليين راحة سكان القرية.

وبنى قبرها وسط الأشجار على الجزيرة، لأن الشعوب فى العصور القديمة اعتادوا أن يكرموا الإلهة ديانا فى البساتين التى تعد من أكثر الأماكن المقدسة بالنسبة إليها.

وتشكل الجزر جزءاً أساسيا من أساطير الإلهة ديانا، وتعرف تلك الإلهة باسم بريتو ـ مارتيس، «Brito - Martis» وهى إلهة جزيرة كريت التى استعمرت من قبل الفينيقيين مؤسسى الحضارة المينوية.

واستناداً إلى الأسطورة الإغريقية والرومانية كانت الإلهة بريتو ـ مارتيس إلهة الفينيقيين وهى ابنة فوينيكس (Phoinix) ملك فينيقيا.

وصف السير جايمس فرايزر فى كتابه: «The Golden Bough» الطقس الخاص بالإلهة ديانا والمعروف باسم ملك الغابة فى بحيرة (Nemi) فيقول إنه على الضفة الشمالية من بحيرة (Nemi) تحت المنحدرات التى بنيت عليها قرية (Nemi) الحديثة نجد غيضة ومزاراً للإلهة ديانا نمورانسيس أو «ديانا الغابات» ألهة الصيد.

وتعتبر البحيرة من أهم المقامات للإلهة ديانا حيث تجد شجرة كبيرة وحولها تظهر صورة كاهن يحمل سيفا وكل من يترشح لمنصب كاهن فى إطار المعبدين لديانا عليه أن يقتل أولاً الشخص الذى يحتل هذا المنصب ويحمل هذا المنصب اسم ملك الغابة وقد لقى عدد كبير من الكهنة ـ الملوك الذين كرموا ديانا نهاية مريعة(١).

ولهذا تم دفن الأميرة ديانا فى جزيرة وسط بحيرة وسط الأشجار.

وفى بريطانيا تضم منازل العائلات الأرستقراطية الفخمة من أصحاب البروج معابد للإلهة ديانا بما فى ذلك قصر بلنهايم (Blenheim) الخاص بآل مارلبوروغ (Marlborough) وقصر شاتسورث (Chatsworth) ومقر آل كافنديس (Cavendish) و «ديفونشاير (Devonshire)، علماً أن كلتا العائلتين تربطهما علاقة قرابة بآل سبنسر عائلة الأميرة ديانا.

ووضع جثمان الأميرة ديانا فى تابوت من الرصاص والرصاص هو المعدن المفضل لدى سارتورن (Saturn) الذى يعتقد أنه اشتق منه اسم إبليس (Satan) وأما اللون المفضل لدى سارتورن وعبدة الشيطان فهو الأسود.

(١) انظر المصدر السابق.

والرصاص يستخدم فى الطقوس السحرية القديمة عند كتابة التعويذات السحرية لكى تحمى حامل تلك التعويذات كما يدعى السحرة من الموت والاغتيال أو الغدر والنساء أثناء الولادة وكلها بالطبع طقوس وثنية كفرية.

ومن الغرائب التى نشرت عن الأميرة ديانا ما نشرته مجلة (Star) فى صيف ١٩٩٨ فى الولايات المتحدة عن مصدر موثوق به فى قصر باكنغهام أن جثة الأميرة ديانا أحرقت سرّاً!!

ونشرت مجلة (Los Angeles Times) أن سكان قرية غرايت برنغتون لا يصدقن أنها دفنت فى الجزيرة، وأفاد أحد المقيمين فى القرية بأنه ليلة نقل جثمانها إلى الثورب (Althorp) لدفنه، دخلت عناصر من الجيش والشرطة والوحدات الخاصة القرية، وأرغموا الناس على الدخول إلى منازلهم وأضاف المخبر أن محرقة جثث الموتى بقيت تعمل حتى ساعة متأخرة من الليل[١].

وذكر ديفيد إيكه أن كريستين فيتزجيراتل (Christine Fetzgeratl) صديقة الأميرة ديانا الحميمة لأكثر من تسع سنوات أخبرته أن الأميرة كانت تخبرها أموراً لا تستطيع أن تتكلم عنها أمام أى شخص حتى لا يتهمونها بالجنون.

ويبدو أن الأميرة اكتشفت حقيقة الطبيعة الجينية لأفراد العائلة المالكة إذ كانت تلقبهم بالسحليات والزواحف، وتقول بنبرة حادة «ليسوا من البشر».

وأضاف أنه خلال أحد الطقوس فى مقر الملكة الأم فى قصر باكنغهام رفع النقاب عن حقيقة آل ويندسور بحضور الأميرة ديانا فى الأسبوع الأول من شهر تموز عام ١٩٨١ قبل فترة وجيزة من زواجها من الأمير تشارلز فى ٢٩ من الشهر نفسه، حيث تشكل هذه الأيام السبعة حسب العلوم الباطنية الأيام الأخيرة من دورة شجرة البلورة ويعرف الطقس باسم «صحوة العروس» وهو مخصص للإناث اللواتى سيشغلن مراكز عامة نافذة ويتزوجن من الزواحف لإنجاب جيل جديد من الحكام.

وقد حضر هذا الاجتماع والطقس أفراد العائلتين.

وقد حضرت الأميرة يومها مرتدية عباءة بيضاء وبعد أن دست لها الليدى «فرموى»

---

(١) المصدر السابق.

(Fermoy) المخدر قيل لها إن زواجها من تشارلز يهدف إلى إنجاب وريث فحسب وإن «كاميلا» عشيقته هى وحدها حبيبته[١].

وأضاف أن الأمير فيليب زوج الملكة إيزبيث والملكة اليازبيث اتخذا حينها شكل سحليتين ليظهرا لديانا حقيقتهما، وقد أصاب الأميرة ديانا الرعب إلا أنها حافظت على جأشها وقد طلب منها ألا تخبر أحداً بما رأت وإلا تعرضت للقتل.

وذكر أن الأميرة اتصلت قبل وفاتها بأحد أصدقائها المقربين تليفونياً وأخبرته حول كيفية الكشف عن معلومات تتعلق بالعائلة المالكة، معلومات قد تهز العالم.

ولم تحضر الأميرة أى طقوس للعائلة المالكة بعد هذا الطقس قبل الزواج، وهذا هو سر المعاناة التى أصابت الأميرة فيما بعد والإضطرابات العاطفية التى مرت بها حتى مقتلها فى باريس مع صديقها المصرى دودى الفايد.

ولا عجب فى ذلك فقد أخبرت الملكة ديانا خلال تأدية هذا الطقس السحرى أنه منذ تلك اللحظة ستسمع الآذان كلها كلامها وستراقبها العيون كلها حيث ذهبت، أى أنها تحت سيطرتهم الكاملة.

فلما وقعت فى علاقة عاطفية مع عماد الفايد (دودى) وخافوا على أسرارهم أن تتكشف أقاموا طقوس اغتيالها حسب معتقداتهم الوثنية للإلهة ديانا التى يعبدونها والعياذ بالله.

فالملكة الأم هى القوة المحركة لآل ويندسور وتربطها علاقات وثيقة بالجمعيات السرية الباطنية وترأس جمعية (Inner Temple) السرية التى تضم كبار العاملين فى مهنة المحاماة ومركزها Temple Bar فى لندن وهو المقر السابق لجماعة فرسان الهيكل القديمة والمعروفة حالياً باسم «فرسان مالطا»[٢].

وقد تحدثت صديقة «ديانا» «كريستين» عما أخبرتها به من أسرار حول العائلة

(١) وقد تزوج الأمير تشارلز من عشيقته كاميلا بعد مقتل الأميرة ديانا مؤخراً.

(٢) اقرأ كتابنا «فرسان مالطا وغزو العراق» لتتعرف عن الكثير من أسرار هذه المنظمة التى لها جيش يفوق الجيش الأمريكى ودولة مستقلة فى «روما» وهى التى تخوض الحروب فى أفغانستان والعراق ودارفور وكل المناطق الساخنة فى العالم ورئيسها هو أحد أمراء الأسرة المالكة فى بريطانيا، الناشر دار الكتاب العربى.

المالكة فذكرت أن الملكة الأم تتمتع بقوة سحرية، فهى أكبر سناً مما تدعى فى الواقع وأن أفراد العائلة المالكة لا يموتون لأنهم يمارسون نوعاً من الاستنساخ، فهم يأخذون من اللحم يرممون به الأجزاء المتضررة من جسدهم.

ونظراً لأنهم من الزواحف فلا يجدون صعوبة فى ذلك، وأن الأجساد المختلفة هى عبارة عن ترددات الكترونية مختلفة وإنهم كانوا على علم بهذا السر، وإن سر التيارات الصغيرة جيدة وهذه الطاقات التى يتم احتلالها مكان التالفة وقد عرف آل ويندسور سر ذبذبة الحياة فأصبحوا زواحف هجينية.

وهذا الكلام مبالغ فيه، لأنه لا يوجد كائن خلقه الله لا يموت، فالكل إلى زوال ولا يبقى إلا وجه الله. ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمن: ٢٦ ـ ٢٨).

ولعل هؤلاء قد علموا علم الاستنساخ وأنهم قد مارسوه بعد نجاح تجربة استنساخ النعجة «دوللى» الشهيرة، ولذلك فقد حرّم هؤلاء من أصحاب البروج الاستنساخ على العالم كله إلا على أنفسهم.

وكذلك يقوم هؤلاء باستخدام الأطفال وأخذ الجينات اللازمة لترميم هؤلاء الزعماء والقادة كى يعيشوا حياة أطول وهم قادرون على الحكم، والملكة وغيرها من القادة الكبار فى العالم يستخدمون هذا الأسلوب كى يظلوا قادرين صحيّاً على حكم بلادهم.

وتقول كريستين: إن الزواحف ـ أصحاب البروج ـ تحتاج إلى جوهر حياة طفل لأنها لا تستطيع الاستمرار باتخاذ أشكال بشرية من دون هذه الطاقة النقية، فجوهر الإنسان الراشد لا يساوى عندهم شيئاً.

وأضافت: أنه كان يقع الاختيار على أشخاص محددين للمشاركة فى حفلات العربدة فى قصر باكنجهام ويطلب منهم أن يكونا زوجين، وفى وقت واحد تطفأ الأنوار كلها ويتبادل كل منهم شريكه ويشرعون بأعمالهم البذيئة، أنهم أشخاص جبلوا على الحقيقة دائماً مصدمة لكثير من الناس ولذلك فهم لا يحبونها ولا يرغبون فى تصديقها، ولكن هل ما ذكره البعض من الكتاب الغربيين أمثال ديفيد إيكه وغيره صحيح؟

لعل ما قالوه يحتاج إلى التأمل ولعل بعضه يكون صحيحاً، فالواقع الذى نعيشه

يؤكد لنا أن هؤلاء الملوك الغربيين والحكام فى دول كثيرة فى العالم يعتقدون أنهم فوق مستوى البشر.

فهؤلاء القادة من أصحاب البروج يحيطون أنفسهم بالأسرار والمعتقدات السرية مثل غيرهم من الجمعيات السرية المنتشرة فى بقاع الأرض تمارس طقوساً وثنية كلها تصب فى عبادة الشيطان.

فالأقلية دوماً هى الحاكمة وليست الجماهير ففى كتاب «سخرية الديمقراطية» لـ «توماس آرى داى وإل هارمون تريكلر» يؤكد الباحثان هذه الحقيقة فيقولان: ـ

«العيش فى ديمقراطية فى عصر اقتصادى علمى نووى إنما يتم تشكيله تماماً كما فى المجتمع التوتالى ـ الاستبدادى ـ على يد حفنة من الرجال، وبالرغم من الاختلافات فى أساليبهم فيما يتعلق بدراسة القوة والسلطان فى أمريكا، فإن الطلاب والعلماء والاجتماعيين إنما هم بيد الأقلية القليلة».

فالمال الذى هو عصب الحياة تمتلكه فئة قليلة جداً فى العالم، فمثلاً المجتمع الأمريكى الذى يضرب به المثل فى الديمقراطية والحرية وبحسب دراسة تمت عام ١٩٨٣ من قبل مجلس الاحتياطى الفيدرالى (The Federal Reserre Boad) فإن ٢٪ من العائلات الأمريكية تسيطر على ٤٪ من ثروة الأمة الأمريكية، وأن ١٠٪ من الأمريكيين يملكون ٨٦٪ من صافى المصادر المالية وإن غالبية العائلات هناك ٥٥٪ لا يملكون أى استحقاقات صافية وهذه الدراسة.

ولهذا قالت ديانا عنهم: إنه لو عرف العالم حقيقتهم لنبذهم.

وتقول إن الجنس يشكل جزءاً هاماً عن طقوسهم لأنه يمثل طاقة الكونداليين التى تعتبر الطاقة المولدة للبشر.

وقد ذكر ضابط الاستخبارات البريطانى السابق بيتر رايت (Peter Wright) فى كتابه المثير للجدل (Spycatcher). أن القصر الملكى تمكن على مرّ عدة قرون من طمس فضائحه».

وأخبرت وصيفات الملكة كاثرين عن علاقات الأمير فيليب الغرامية وأن للعائلة

أطفالاً زنوجاً فى أنحاء العالم كله، وأن الذى علم الأمير فيليب عابد الشيطان الشهير اللورد مونتباتن (Mountbatten) تولى إرشاد الأمير ولى العهد تشارلز على طرقه البذيئة من طقوس عبادة الشيطان[1].

قد استثنت الاستحقاق الصافى للمؤسسات والتى يملك معظمها ويسيطر عليها الـ ٢٪ من المذكورين، فهناك أحد عشر من أثرياء الولايات المتحدة يملكون نحو ٢٣١ مليار دولار فقط!!

والأغنياء يزدادون غنى والفقراء يزدادون فقراً، فالأزمة المالية الأخيرة قضت على أحلام الفقراء والبسطاء والطبقة المتوسطة فى أمريكا وكل دول العالم، أما الأغنياء فلم يتأثروا بها وخسارتهم الوحيدة أن مكاسبهم لم تتضاعف.

ذكر رئيس تحرير مجلة أخبار وتقارير العالم الأمريكية السيد مورتيمر بى زوكرمان أن المجتمع الأمريكى تطور وأصبح ينقسم إلى طبقتين لا يملك أهله ثقافات جامعية أو مهارات فنية وهم يسقطون على جانب الطريق ويتساءل الكثير منهم فما إذا كانت غربلة طبقات الوسط الأمريكية إنما هى تطور طبيعى أو إنها تخطيط واع لنظام عالمى جديد.

إذا كان هذا هو حال المجتمع الأمريكى أقوى دول العالم فما هو حال الدول فى العالم الثالث والرابع؟

لاشك أن أحوال العالم الثالث والرابع أسوأ بكثير عما نتصور ونعايشه، فالفقراء أصبحوا معدومى الدخل والأغنياء مثلهم مثل أغنياء أمريكا يزدادون غنى.

وأصبح العالم الآن وبعد الأزمة الاقتصادية المالية العالمية التى استولت فيها أصحاب البروج الأمريكان على مدخرات العالم وثروته وادعت أن البنوك أفلست وأن البورصات سقطت فى أكبر عملية نصب فى التاريخ أصبح العالم ينتظر خروج المسيح الدجال ومعه كل هذه الثروات ليفتن بها الناس كما جاءت بذلك أحاذيث نبوية كثيرة[2].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) اقرأ فى ذلك كتابنا «المهدى فى مواجهة الدجال» وكتابنا «عشرة ينتظرها العالم»، الناشر دار الكتاب العربى.

فالمجتمعات العربية والإسلامية وبعض دول العالم الرابع والثالث تمتلك قلة قليلة تعد على أصابع اليد الواحدة كل ثروات بلادهم وقد اعتبروا أنفسهم آلهة تعبد من دون الله بعد امتلاكهم تلك الثروات والشعوب قد عادت إلى عصور العبودية وأسوأ، لا تفعل شيئاً من أجل التحرر.

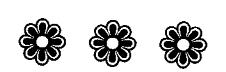
إن هؤلاء النخب من الطبقات العليا من أصحاب البروج يستغلون جهل الشعوب لافتقارهم، فتجد الأمية تزداد فى هذا القرن الحادى والعشرين أكثر منها فى القرن العشرين فى تلك الدول التى يسيطر عليها هؤلاء، بالإضافة إلى انتشار الفساد فى أجهزة الدولة نتيجة لتدنى الأجور وعدم سيطرة الحكومات على تلك الفئة الضالة كى يبقى الوضع كما هو عليه.

ورغم سوداوية الواقع الذى نحياه وسيطرة تلك النخب على الاقتصاد المحلى والدولى وانتشار الفساد تبعاً لذلك فإن الأمل موجود بإذن الله وقد أدركه الكثير من خبراء الاقتصاد العالمى بعد تلك الأزمة العالمية الأخيرة بأن يجب تطبيق تعاليم الإسلام الاقتصادية والقضاء على المعاملات الربوية التى حذر الله منها وأنه سيحارب من يتعامل بالربا فى الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٨ ـ ٢٧٩).

وأما عقابهم فى الآخرة فقد جاء ذكره فى الآيات السابقة لهاتين الآيتين في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ (البقرة: ٢٧٥ ـ ٢٧٦).

قل صدق الله وكفى.



13

المواجهة بين أوربا وأمريكا (صراع الكبار)

- الولايات المتحدة الأمريكية فى مواجهة الولايات المتحدة الأوربية.
- الصراع من أجل الريادة والقيادة صراع العمالقة.

الولايات المتحدة الأمريكية فى مواجهة الولايات المتحدة الأوربية

رغم أن الولايات المتحدة الأمريكية خرجت من رحم الدول الأوربية أنها حين علت فى الأرض تناست أنها كانت محتلة من قبل الإمبراطورية البريطانية العظمى واستقلت تماماً عن الدول الأوربية وتفوقت عليها وأشعرتها بالحرج فى كل المجالات حتى صار حلم المواطن الأوربى الهجرة إلى الولايات المتحدة.

وبعد الحرب العالمية الثانية علا النجم الأمريكى فى سماء السياسة الدولية وأصبحت قطباً أكبر لا يعادله إلا القطب الروسى وانقسم العالم إلى معسكرين وانحسر الدور الأوربى الغربى.

وظهرت الدعوة لإقامة اتحاد أوربى موحد أو ولايات متحدة أوربية على غرار الولايات المتحدة الأمريكية وذلك عام ١٩٢٣ عقب الحرب العالمية الأولى كفكرة دعا إليها الكونت النمساوى كودينهموف كاليرجى وأيضاً وزير الخارجية الفرنسى ربريان فى خطاب أمام عصبة الأمم عام ١٩٢٩ م.

ثم خبت الفكرة وعادت للظهور بعد الحرب العالمية الثانية عام ١٩٥٠ حين دعا إليها وزير خارجية فرنسا روبرت شومان فى حدود اتحاد أوربى للفحم والصلب وتم له ذلك فى باريس عام ١٩٥٠ م وضم فرنسا وألمانيا وهولندا وبلجيكا ولوكسمبرج ثم تطور الأمر بعد انضمام إيطاليا إليها وأطلق عليها المجموعة الاقتصادية الأوربية.

ثم انضمت إليها بريطانيا التى كانت تدور فى فلك الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٧٢ بعد أن رفض طلبها فى عهد الرئيس الفرنسى «ديجول» ثم انضمت دول أوربية أخرى لهذا الاتحاد المصغر مثل الدنمارك وايرلندا والنرويج عام ١٩٧٢ ثم اليونان عام ١٩٨١ وأسبانيا والبرتغال عام ١٩٨٦ والسويد والنمسا وفنلندا، وفى عام ١٩٨٩ أقر إصدار عملة أوربية موحدة.

وفى عام ١٩٩١م وقعت اتفاقية ماستريخت التى أطلق عليها اتفاقية الاتحاد الأوربى وبدأ بتنفيذها فى العام التالى.

وتطورت بذلك فكرة الفرنسى (جان مونيه) للتعاون الأوربى من مجموعة الفحم والصلب إلى سوق أوربية مشتركة تضم ست دول ثم تسع ثم اثنتى عشرة، إلى أن وصل عددها إلى خمس وعشرين دولة، بعد انضمام دول المعسكر الشيوعى، سلوفاكيا، والتشيك، وبولندا، والمجر، وسلوفانيا، وأستونيا، وليوانيا وقبرص ثم مالطا فى شهر مايو ٢٠٠٤م.

وتعد اتفاقية (ماستريخت) التى وقعت فى هولندا فى ١٠/ ١٢/ ١٩٩١م، من أهم الاتفاقيات بسبب ما دعت إليه من وحدة سياسية واقتصادية أوربية، وتوسعها فى مفهوم الوحدة السياسية عن السوق الأوربية التى كانت موجودة من قبل، فقد ركز الجزء الخامس من معاهدة ماستريخت على قضايا السياسة الخارجية والأمنية، منها:

١- صيانة القيم المشتركة والمصالح الأساسية للاتحاد الأوربى.

٢- صيانه استقلال الاتحاد، والدفاع عنه وعن حدوده الخارجية أمام أى اعتداء قد تتعرض له دولة من دول الاتحاد.

٣- الدفاع عن أمن الاتحاد والدول الأعضاء؛ مما يعنى أن يكون الدفاع خارجيا وداخليا.

٤- حفظ الأمن والسلام الدوليين حسب ميثاق الأمم المتحدة.

٥- تعزيز التعاون الدولى وخاصة مع دول الجوار.

٦- تعزيز الديمقراطية ودولة القانون واحترام حقوق الإنسان.

وكان الاتحاد يأمل عند التوقيع على المعاهدة أن تستعيد أوربا عظمتها وقوتها التى كانت موجودة من قبل، وأن تصبح القوة العظمى الثانية اقتصاديا وسياسيا وعسكريا، وأن تستعيد قوتها على المسرح الدولى كى تواجه الهيمنة الأمريكية على العالم.

مؤسسات الاتحاد الرئيسية أربع:

أولا- المجلس الأوربى: وهو أعلى مؤسسة فى الاتحاد ويشمل اجتماعات قمة الرؤساء فى الاتحاد، يجتمع ثلاث مرات سنويا، حسب ما تم الاتفاق عليه فى قمة ديسمبر فى العاصمة الفرنسية عام ١٩٧٤م، إلا أنه عدل عام ١٩٨٥م، وأصبحت اجتماعات المجلس تعقد مرتين فى العام بدلا من ثلاث.

ومهمته وضع السياسة العامة للاتحاد، والتنسيق بين دول فى المجالات المختلفة، ويترأس المجلس إحدى دول الاتحاد لمدة ستة أشهر.

ثانيا - مجلس الاتحاد الأوربى: هو الإطار الذى يجتمع فيه وزراء الدول الأعضاء فى الاتحاد حسب التخصصات المختلفة (الخارجية - والدفاعية، والزراعية.. الخ)، ومقره فى العاصمة البلجيكية بروكسل، ووظيفته إقرار التشريعات التى تصدر عن الاتحاد.

وتتغير رئاسة الاتحاد بشكل دورى كل ستة أشهر، وتم الاتفاق على أن يكون لألمانيا وفرنسا وإيطاليا وبريطانيا عشرة أصوات لكل منها، ولإسبانيا ثمانية أصوات، وبلجيكا وهولندا والبرتغال واليونان لكل منها خمسة أصوات، والنمسا والسويد أربعة أصوات، والدانمارك وأيرلندا وفنلندا ثلاثة أصوات، ولوكسمبورج لها صوتان. فالأصوات ليست متساوية فلكل دولة عدد من الأصوات حسب حجمها.

ثالثا - المفوضية الأوربية: وهى التجسيد الفعلى لفكرة الاندماج الأوربى؛ على أساس أنها تمثل إطارا عاما يعبر عن مصالح الوحدة الأوربية وليس عن مصالح الدول الأوربية.

ويبلغ عدد أعضاء المفوضية بواقع اثنين لكل دولة كبرى (فرنسا، وألمانيا، وإيطاليا، وبريطانيا) وعضوا واحد لكل دولة أخرى من دول الاتحاد، ويتم تعيينهم لمدة خمس سنوات قابلة للتجديد، إلا أنه لا يتم الموافقة على تعيينهم إلا بعد موافقة البرلمان الأوربى.

وتضم المفوضية ٢٤ دائرة مختلفة، ويعمل فيها ٢١ ألف موظف؛ منهم ١٧ ألفا فى دولة المقر بلجيكا، وتجتمع المفوضية مرة واحدة على الأقل أسبوعيا.

ووظيفة المفوضية هى إعداد التشريعات ومراقبة تنفيذها، والدفاع عن مصالح الاتحاد فى مواجهة التهديدات التى تواجهه، وتمثيل الاتحاد فى الخارج.

رابعا - البرلمان الأوربى: وهو الواجهة الديمقراطية للاتحاد، ويمثل السلطة التشريعية فى الاتحاد.

ويشرف البرلمان على مراقبة أداء المفوضية الأوربية، ومناقشة التقرير السنوى للمفوضية، ويخضع رئيس المفوضية وأعضاؤها لتقييم البرلمان عند تعيينهم.

ويعترف روبرت كاغان - أحد الموظفين السابقين فى وزارة الخارجية الأمريكية، وباحث فى مركز كازنيجى للسلام الدولى والمقيم فى باريس - بوجود تناقض واضح فى المواقف بين الأوربيين والأمريكان، ويقول: (بصفتى أمريكيا يعيش فى أوربا من الأسهل على رصد هذا التناقض؛ فالأوربيون باتوا يعون أكثر من السابق تفاقم حدة الاختلافات مع الأمريكيين.

ويعود السبب فى ذلك إلى كونهم يتخوفون من عواقب هذه الاختلافات أكثر فأكثر مع مرور الوقت.

ويحدد كاغان هذه الاختلافات بالنقاط الآتية:

- إن الأوربيين يرون أن الولايات المتحدة أصبحت أكثر استعدادا للتسرع فى اللجوء للقوة، وأقل صبرا من أوربا التى تفضل الدبلوماسية.

- يرى الأمريكان يزدادون ميلاً إلى العمل فى شكل أحادى الجانب، ولا يظهرون حماسة للمبادرات التى تتخذها المؤسسات الدولية.

- الاختلاف فى وجهات النظر بالنسبة إلى النظام العالمى الجديد.

- أن الأمريكان يبالغون فى حجم الخطر من العراق والإرهاب.

وأصبحت أوربا لا تتقاسم الآن وجهات النظر نفسها مع الولايات المتحدة من قضايا السياسات الخارجية الدفاعية والقضايا القومية والمصالح الاقتصادية المشتركة، ولم تعد هناك ثقافة استراتيجية مشتركة ولا أرضية مشتركة تربط بينهما كما كانت من قبل خلال الحرب الباردة.

وأن الظروف التى أدت إلى قيام الاتحاد الأوربى أنتجت مجموعة من المبادئ

المتعلقة بفعاليات القوة الدولية تختلف كلية عن مبدأ القوة التى تنادى بها الولايات المتحدة؛ مما أدى إلى زيادة الخلافات بين المعسكرين الأمريكى والأوربى.

وشرح مفوض العلاقات الخارجية للاتحاد كريس باتن أبعاد الأزمة وعواقبها بين الاتحاد والولايات المتحدة بعد أحداث ١١ سبتمبر وقال: (إن السياسة الخارجية التى تتبعها الولايات المتحدة سياسة مستبدة تفتقر إلى الحنكة، ولابد لحكومات أوربا الغربية من انتفاضة تمنع واشنطن من المضى قدما فى تحركها الأحادى المنفرد على الصعيد الدولى).

ودعا باتن إلى عدم الخوف من إغضاب واشنطن والاستمرار فى مجاملتها، وتوقع حدوث تصادم فعلى بين الموقفين الأوربى والأمريكى، فمصلحة الولايات المتحدة تقتضى عزل (العراق، وإيران، وكوريا الشمالية) (محور الشر) عن المجتمع الدولى.

بينما مصلحة أوربا فى دمج هذه الدول بالمجتمع الدولى وبناء علاقة متميزة معها، كما صرح وزير خارجية فرنسا السابق فدرين بأن نظرة أمريكا إلى العالم والعلاقات الدولية، والإرهاب، والعولمة، والشرق الأوسط، وإسرائيل، وشارون، وعرفات؛ ليست كنظرتنا فى فرنسا وفى الاتحاد الأوربى.

وأدى انهيار الاتحاد السوفييتى إلى زيادة الشعور لدى بعض دول أوربا أنها لم تعد بحاجة إلى مساعدة من الولايات المتحدة الأمريكية فى وجه الخطر السوفييتى، وأن أوربا تستطيع أن تعتمد على نفسها فى مواجهة أى خطر قد تتعرض له من دون الحاجة إلى الدعم الأمريكى.

كما أدى توحيد ألمانيا إلى زيادة إيمان ألمانيا بدورها التاريخى فى توحيد أوربا، ورأت أوربا أن التحالف الذى كان موجودا بين الولايات المتحدة والمجموعة الأوربية خلال الحرب الباردة فى إطار حلف (الناتو) قد فقد الكثير من وظائفه؛ لأن الخطر السوفييتى قد زال، ووجدت دول الاتحاد أنها لم تعد بحاجة إلى مظلة الدفاع الأمريكية التى كانت قائمة من قبل.

ولهذا فقد زاد الخطاب السياسى الأوربى فى لهجته المنتقدة للسياسة الأمريكية،

ودعوته لتقوية الاتحاد بعيداً عن الولايات المتحدة، وفى الواقع؛ فإن العداء بينهم قديم منذ أن هاجر المهاجرون من أوربا متجهين إلى القارة الأمريكية؛ على أساس أن الولايات المتحدة كانت تمثل مستقبل العالم وأوربا تمثل الماضى.

وخلال الحربين العالميتين الأولى والثانية وجد الأمريكان أنفسهم مجبرين على حل الخلافات بين الدول الأوربية، وأنهم ينغمسون فى حل مشكلات القارة الأوربية، وبدأ التدخل المباشر من خلال وضع خطة لإنعاش الاقتصاد الأوربى (خطة مارشال) بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية.

وكانت الولايات المتحدة تتوقع من أوربا أن ترد لها الجميل الذى قدمته لها، ولكن أوربا بدلا من ذلك بدأت تبحث عن إقامة تعاون مشترك فيما بينها بمعزل عن واشنطن، وخشيت الولايات المتحدة من أن يكون اندماج الدول الأوربية على حساب مصالحها.

مما جعلها تدعو إلى إنشاء حلف عسكرى أمريكى - أوربى مشترك يكون تحت قيادتها؛ من أجل حماية أوربا من الخطر السوفييتى الشيوعى، كما فعلت ذلك عندما دخلت الحرب العالمية الثانية للدفاع عن أوربا أمام ألمانيا النازية.

ولهذا صاحب الصراع على المصالح بين الاتحاد الأوربى والولايات المتحدة فكرة إقامة السوق الأوربية المشتركة، والتى قادها الرئيس الفرنسى الجنرال شارل ديجول الذى دأب الخروج والتمرد على الهيمنة الأمريكية منذ بداية الحرب الباردة بين واشنطن وموسكو، ومن المعروف أن ديجول قد انسحب من الذراع العسكرى من الحلف الأطلسى، ودعا إلى إنشاء قوة أوربية للعمليات العسكرية مستقلة عن الولايات المتحدة.

وبدأت تظهر آثار الخلافات فى المواقف بين أوربا والولايات المتحدة فى السنوات الأخيرة، ومن مظاهر هذه الخلافات بين الاتحاد الأوربى والولايات المتحدة:

اتفاق الاتحاد على إصدار عملة أوربية موحدة، ولا شك أن أوربا تبحث عن أفضل الطرق لحماية مصالحها المتناقضة مع المصالح الأمريكية، ويبدو أن معظم الخلافات القائمة بينهما قائمة على أساس تنافس على المصالح الاقتصادية.

فقد تصاعدت الخلافات التجارية بينهما خلال التفاوض على تعديل الاتفاقية العامة للتجارة والتعريفة الجمركية.

وظهر خلاف آخر على تجارة الموز والذرة واللحوم المعالجة بالمهرمونات، لكن الخلافات تصاعدت بعد إصدار عملة أوربية موحدة أخذت تنافس العملة الأمريكية، ولحسن حظ الاتحاد الأوربى أن الولايات المتحدة كانت تشك فى قدرة اليورو على النجاح ومنافسة الدولار الأمريكى عندما أعلن الاتحاد قبل سنوات عن عزمه على توحيد العملات الأوربية باليورو، وإلا لكانت الولايات المتحدة قد وضعت العقبات أمام تحقيق ذلك منذ البداية.

لم يتحمس الأمريكان للخطط التى سارت عليها الدول الأوربية للاتحاد فيما بينها، وكانت الولايات المتحدة تعتقد أن اليورو سوف يبعد دول الاتحاد عن تركيز جهودها على متابعة الإصلاحات الاقتصادية على صعيد إعادة الهيكلة ومتابعة الإجراءات التى بدأتها باتجاه تحرير أسواق العمل والأسواق المالية.

لأنه من دون تلك الإصلاحات لن تستطيع دول الاتحاد زيادة فرص النمو، ولا إيجاد فرص عمل جديدة.

وبدأت الولايات المتحدة بملاحظة زيادة الإقبال على العملة الأوربية فى الأسواق العالمية؛ مما زاد من تخوفها بأن يؤثر ذلك على الدولار والاقتصاد الأمريكى.

ومع أن صادرات العالم مازال ٥٠٪ منها بالدولار الأمريكى مقابل ٣٥٪ باليورو، إلا أن الولايات المتحدة تخشى أن تؤثر الأزمة الاقتصادية التى تعانى منها منذ أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م فى زيادة الإقبال على الدولار.

وأصبح اليورو يشكل تحديا جديا فى وجه الدولار الأمريكى وهيمنته على الاقتصاد العالمى، ويتمثل فى الدور المتصاعد الذى سيكون لليورو فى التجارة العالمية، ومن المتوقع أن يرتفع نصيب اليورو من الودائع العالمية إلى ٣٠٪ بدلا من ١٤٪ الموجودة حالياً فى العملات الوطنية الأوربية وقد ازداد الطلب عليه بعد الأزمة الاقتصادية الأخيرة.

وعلى صعيد السياسة الخارجية هناك اختلاف بين الطرفين الكبار وظهر هذا

الخلاف بسبب عدم تأييد الاتحاد الأوربى للقرارات، بفرض حظر على إيران، وكوبا، وليبيا، ومطالبة واشنطن حلفاءها بتطبيق تلك القرارات أيضا.

ولاحظت أوربا أنها أخفقت خلال حرب الخليج الثانية فى إيجاد موقف أوربى مستقل عن الموقف الأمريكى، وأن موقفها كان تابعا للموقف الأمريكى.

وتكرر الأمر خلال حرب البلقان؛ حيث لم تستطع أن تتبنى موقفا موحدا وتنهى الصراع، أو تتوصل إلى وقف إطلاق النار من دون الولايات المتحدة.

وحدث خلاف بين دول الاتحاد خاصة، وبين ألمانيا التى كانت تريد الاعتراف بالدول الجديدة بخلاف موقف بقية الدول.

وأخفقت دول الاتحاد فى إيجاد سياسة أوربية موحدة عام ١٩٩٤م؛ مما جعلها تطلب من الولايات المتحدة وروسيا الاتحادية التدخل لتأسيس مجموعة دولية لحل الصراع.

ولهذا فإن الحل لم يأت من قبل دول الاتحاد؛ علما بأنه يجرى على مسافة قصيرة من حدود دول الاتحاد وفى قلب أوربا.

وقامت قوات (الناتو) بتنفيذ الحل العسكرى، والفصل بين القوات المحاربة، وعد ذلك إخفاقا للاتحاد الأوربى.

وكان زبيجنيو بريجنسكى قد دعا إلى توسيع نطاق التأثير الأمريكى فى الاندماج الأوربى، وعدم خلق أوربا اندماجا سياسيا بحيث تشكل تهديدا للمصالح الأمريكية فى المناطق ذات الأهمية الجيوبوليتيكية ولا سيما الشرق الأوسط.

كما طالب هنرى كيسنجر أثناء مؤتمر هلسنكى للأمن والتعاون الأوربى عام ١٩٧٣م بضرورة وجود ممثل أمريكى يحضر الاجتماعات الأوربية.

كما أن أوربا تريد أن يكون لها موقف قيادى فى النظام العالمى الجديد، وأن لا تكون تابعة للولايات المتحدة، وهنرى كيسنجر فى كتابه (تشكيل دبلوماسية الولايات المتحدة فى القرن الحادى والعشرين) يعترف بوجود هذا الصراع بين بلاده والاتحاد الأوربى، ويقول إن الولايات المتحدة أصبحت اليوم القوة العظمى الوحيدة فى العالم، وأخذت

بتشكيل سياسة خارجية جديدة بعد انتهاء الحرب الباردة تبرز بها استراتيجيتها الجديدة بوضوح فى تزعم العالم، وفى الخلافات الاقتصادية والسياسية والثقافية التى أدت إلى ظهور هويتين مختلفتين تقريبا: واحدة أمريكية، وأخرى أوربية.

وإذا كانت أوربا قد هيمنت على العالم لمدة خمسة قرون مضت؛ فإنها تعيش اليوم حقبة جديدة لا تقوم على ميزان القوى القديم، وترفض منطق السياسة الميكافيلية بوعى أخلاقى جديد ينبذ أسلوب القوة، ويلتزم بالتفاهم والحوار الدبلوماسى والتعاون الاقتصادى مع دول العالم).

والخلاف كما يبدو بين الاتحاد الأوربى والولايات المتحدة فى هذا المجال هو بسبب الرفض الأوربى لاستخدام الولايات المتحدة للقوة بدلا من القانون، حيث ينتقد الأوربيون المفهوم الأمريكى بأن (القوة هى التى تصنع القانون)، ويبدو أن الأمريكان قد تبادلوا الأدوار مع الأوربيين؛ حيث كانت تدعو إلى حل الصراعات بين الدول عن طريق المفاوضات.

وأصبحت الآن تعتمد أسلوبا قائما على استعمال القوة بدلا من المفاوضات، بينما كانت الدول الأوربية فى عصر الاستعمار هى التى تستعمل القوة للهيمنة على الشعوب الأخرى، وأصبحت الآن تفضل استعمال أسلوب التفاوض والحوار لحل الخلافات، وكان الأوربيون يستعملون القوة للدفاع عن مصالحهم الاستعمارية، بينما كان الأمريكان يهتمون بالقانون الدولى ويقفون ضد سياسة القوة، ويرجع الأمريكان هذا التغير فى الاستراتيجية الدولية إلى أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م.

وهذا التغيير الذى حدث يعود كما يبدو إلى ثقة الأوربيين بقوتهم الذاتية بعد خطوط توسيع قاعدة الاتحاد، وامتلاكهم لعناصر القوة الذاتية أكثر من الولايات المتحدة التى وجدت نفسها أخيرا على رأس نظام عالمى لوحدها ولكنها عاجزة عن قيادته.

رأى وزير خارجية ألمانيا يوشكا فيشر فى خطاب ألقاه فى جامعة هومبد فى ١٢/ ٦/ ٢٠٠٢م أن مفهوم أوربا بعد ١٩٤٥م كان ولا يزال يقوم على رفض مبدأ القوى وطموحات الهيمنة التى برزت غداة معاهدة وستفاليا لعام ١٩٤٨م، وأن الاتحاد الأوربى هو حصيلة هذا الرفض.

كما قال رومانو برودى رئيس المفوضية الأوربية فى ١٩/ ٥/ ٢٠٠١م: (إن القانون الذى حل فى أوربا محل عروض القوة أفقد سياسات القوة نفوذها، ونجاحنا فى الوحدة تظهر للعالم أن من الممكن إقامة عالم مسالم).

ومن المشكلات التى تواجه العلاقة بين الاتحاد الأوربى والولايات المتحدة كذلك: دعوة بعض دول الاتحاد إلى إنشاء قوة عسكرية أوربية مستقلة عن قوات حلف الأطلسى، والخلاف على مشروع الدفاع الصاروخى الذى اقترحته الولايات المتحدة ولم تتحمس له دول الاتحاد.

وأبدى جيرهرد شرويدر تحفظه على مشروع نظام الدفاع الصاروخى الأمريكى، وطالب دول الاتحاد أن تتشاور مع واشنطن قبل أن تنفذ المشروع، بينما دافع دونالد رامسفيلد وزير الدفاع الأمريكى عن المشروع الذى كان الرئيس الأمريكى جورج بوش (الابن) قد اقترحه، وقال إن الخطة الأمريكية تهدف إلى حماية الولايات المتحدة وحلفائها الأوربيين.

ويعد مشروع الدفاع الصاروخى الأمريكى من أهم الموضوعات التى أثارت الانقسامات داخل حلف (الناتو) منذ انتهاء الحرب الباردة وتحول الخلاف إلى الاتحاد الأوربى والولايات المتحدة.

ومن الخلافات الأخرى بين الاتحاد الأوربى والولايات المتحدة: الخلاف فى موقف كل منهما من قضية البيئة وحمايتها، وقضية معالجة أمر المناخ والتسخين الجوى (الاحتباس الحرارى)؛ بسبب الرفض الأمريكى التوقيع على برتوكول (كايوتو).

ورغم تلك الخلافات التى تعد فى السياسة الدولية من الأمور التى يمكن الاتفاق عليها أو تفاديها إلا أن سياستها تتفق على الحرب على الإرهاب أى الحرب على العالم الإسلامى وهو ما حدث بالفعل حين جرت أمريكا أوربا فى تحالف عسكرى لغزو أفغانستان والعراق.

ومازالت الدول الأوربية رغم محاولاتها الاستقلال عن الولايات المتحدة تسير فى ركابها وخاصة فى عصر الرئيس السابق بوش الابن إلا أن السنوات القادمة سوف تشهد تحولاً فى تلك العلاقات بعد الأزمة المالية والاقتصادية التى ورطت فيها الولايات المتحدة حلفاءها من الدول الأوربية وذلك حسب تحليل الخبراء الاقتصاديين.

14

الكساد الاقتصادى وعلامات القيامة

- الأزمة الاقتصادية المالية العالمية.. الأسباب والنتائج.
- التضخم الاقتصادى والكساد الاقتصادى والركود الاقتصادى ومراحل الأزمة الاقتصادية الحالية وتطورها زمنياً وعلاقتها بالكساد الكبير عام ١٩٢٩.



الأزمة الاقتصادية المالية العالمية.. الأسباب والنتائج

لم يكن انهيار البورصات العالمية وإفلاس البنوك الأمريكية مفاجأة لكثير من الخبراء والاقتصاديين فى العالم، فقد كان أمراً متوقعاً لديهم بسبب سياسات أمريكا العالمية وتوقع انهيارها اقتصادياً فى أواخر التسعينيات، وقد سبق أن عرضنا هذا الأمر فى كتابنا (الإمبراطورية الأمريكية البداية والنهاية).

فتلك سنن الله فى كونه مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال: ٣٦).

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾

(الأنعام: ٤٤).

وقوله أيضاً: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ (الإسراء: ١٦).

فالانهيار الاقتصادى والكساد يأتى لحدوث العجز فى الموازنة العامة للدولة مما يدفعها للاقتراض، وكذلك للشركات الكبرى والبنوك، كما هو حال الاقتصاد الأمريكى الرأسمالى الليبرالى.

وبدأ العجز الكلى فى الموازنة الاقتصادية يتصاعد منذ عهد الرئيس جونسون الذى جاء بعد اغتيال جون كينيدى فوصل العجز الكلى فى سنوات الرئيس جونسون ٤٤,٨ بليون دولار.

وقد عمل جونسون على إخفاء الحقيقة الاقتصادية وحجم النفقات والحشود العسكرية بسبب حرب فيتنام كما هو الحال فى حرب العراق أيضاً.

وعمل جونسون على إخفاء برنامج المعونات الحكومكية التى تعطى كمساعدات إلى فئات معينة وفقاً لأسس ومبادئ واضحة فى برنامج الضمان الاجتماعى وأدى الأمر فينهايته إلى انتشار البرامج وزيادة أعدادها وزاد معها نفقاتها والمستفيدون منها خوفاً على فقد أصواتهم فى الانتخابات واضطرت الحكومة إلى تخفيض ٦٥ ٪ من النفقات لتمويل تلك البرامج فى حين أن نسبتها كانت فى عهد كينيدى ٣٠ ٪.

ووصل العجز الكلى لسنوات حكم نيكسون الست ٦٧ بليون دولار ولم يفلح فى خفضها لانشغاله بمعالجة آثار حرب فيتنام واستمرت زيادة العجز الكلى للميزانية فى عهد فورد بل وزيادة معدل التضخم أيضاً حتى بلغ معدل العجز الكلى ١٢٦,٩ مليار دولار.

وزاد العجز الكلى فى عهد كارتر إلى ٢٢٧ مليار دولار ثم فى عهد ريجان فى سنواته الثمانى إلى ١,٣٤ تريليون دولار ووصل الدين الأمريكى للحكومة إلى ٢,٦ تريليون دولار فى أخر عهد ريجان الذى حاول إيقاف هذا التضخم عن طريق التقليل من الأموال السائلة المتداولة ولم يفلح فى ذلك.

ولكن فى فترة حكم بوش الأب انخفض العجز الكلى إلى ١,٠٤ تريليون دولار فقد استطاع إيقاف هذا العجز وأتاح لمن جاء بعده فرصة تحقيق نجاح مؤقتا قضى عليه بوش الابن بحربه العالمية على الإرهاب بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١ م.

ويرى بعض المتخصصين الأمريكان ومنهم «هارى فيجى» و «جيرالد سوانسون» أن الانهيار الاقتصادى للولايات المتحدة قادم لا محاله إذا لم يتم اتخاذ الإجراءات المناسبة لإيقافه ويرى السيناتور «رودمان» أن الحكومات الأمريكية المتعاقبة قد ارتكبت أخطاء عديدة ساعدت على زيادة العجز فى الموازنة[1].

وقد توقع كل من المتخصصين الأمريكيين «هارى فيجى» و «جيرالد سوانسون» انهيار أمريكا اقتصادياً عام ١٩٩٥ إذا لم يتم اتخاذ اللازم لإيقاف ذلك، وقد تأخر هذا الانهيار حيث اتُخذت إجراءات فى عهد بوش الأب وكلينتون فتأخر هذا الانهيار حتى جاء بوش الابن فانهار كل شىء على يديه كما بدأ فى عهد جونسون الذى قاد حرب فيتنام والأخير قاد حرباً على الإرهاب.. على العالم كله وأراد أن يورط من بعده فى هذه الأزمة فأعلن الانهيار الاقتصادى المالى لأمريكا فى نهاية ولايته الرئاسية

(١) انظر كتاب «سقوط أمريكا قادم عام ١٩٩٥ فمن يوقفه؟» تأليف: هارى فيجى، وجيرالد سوانسون.

الثانية والأخيرة وهو يبتسم للشعب الأمريكى والعالم.

فأراد بعد هزيمتها عسكرياً على يديه انهيارها مالياً أيضاً والاستيلاء على أموال النفط العربى المودعة فى البنوك الأمريكية بإعلان إفلاس تلك البنوك.

وهكذا كان الانهيار المالى لأمريكا قد بدأ بحرب فيتنام فى عهد جونسون واكتمل بعد حرب العراق وغيرها من الدول الإسلامية فى عهد بوش الابن حيث سلم الولايات المتحدة للرئيس التالى ذى الأصول الإسلامية والأفريقية باراك حسين أوباما(١).

فالرئيس الجديد أوباما يتسلم مهامه عام ٢٠٠٩ وقد خلف له بوش الابن أزمة اقتصادية مالية عالمية نهب من خلالها أموال البترول المودعة لديه من نفط العرب فى حروب دمر فيها دولاً وشعوباً ليحقق أهدافاً إسرائيلية توراتية مجنونة.

وكان انتخاب «أوباما» رئيساً للولايات المتحدة بعد سنوات الإرهاب البوشية الإنجيلية الصهيونية على العالم لتحسين وجه أمريكا القبيح فقد وجه الرئيس الجديد فى حملته الانتخابية الدعوة للانسحاب من العراق وعلى هذا الأساس انتخبه الأمريكان رغم اعترافه بصعوبة المهمة الموكله إليه بعد إعلان فوزه فى الانتخابات.

وبالفعل فإن المهمة الموكله للرئيس الجديد صعبة، ولن يتركه الإنجيليون الجدد يحقق ما أعلنه فى حملته الانتخابية من تحقيق السلام العالمى ولهذا تنبأت «عرافة» أمريكيه بمقتله أثناء فترة رئاسته، ونحن لا نشجع العرافة ولا الكهانة، فالغيب لا يعلمه إلا الله عز وجل.

ولكن الكثير من العرافين يحددون تبؤاتهم بناء على الأحداث السياسية المعاصرة، فقد تم اكتشاف مؤامرة من النازيين الجدد فى أمريكا لاغتيال أوباما، وذلك قبل الانتخابات الأمريكية بأيام، وبالتالى فسوف تتكرر تلك المحاولات وقد تنجح، أما أقوال العرافين فلا نصدقه، فالمصدق لهم يكفر بالله عز وجل كما قال رسولنا ﷺ فى الحديث الصحيح.

ونعود إلى الأزمة الاقتصادية والكساد العالمى الذى يجتاح العالم كله.

---

(١) فقد أعلن يوم ٥/ ١١/ ٢٠٠٨ بفوز أوباما فى انتخابات الرئاسة الأمريكية على جون ماكين ليكون أول رئيس أمريكى من أصول زنجية إفريقية ذا لون أسود لعله يجمل وجه أمريكا القبيح.

فيرى المؤرخ الأمريكى بول كينيدى أن جميع الإمبراطوريات الكبرى السابقة فى تاريخ الإنسانية ابتداءً من الإمبراطورية الرومانية وانتهاء بالإمبراطورية البريطانية قد سقطت تحت وطأة الكلفة الاقتصادية العالمية نتيجة الإنفاق العسكرى، وحذر من أن تلقى الإمبراطورية الأمريكية نفس المصير(١).

وحدد نقاط الضعف والقوة فى الإمبراطورية الأمريكية بقوله: إن الولايات المتحدة لا تدانيها أمة أخرى بما فى ذلك روسيا، فى المجال التقليدى للقوة الصلبة أم المعتمدة على القوة العسكرية من حيث النوعية الكلية وتعقيد المعدات والقدرة على دفع القوة إلى مناطق بعيدة، وقد كرست الولايات المتحدة موارد ضخمة خلال الثمانينيات لتأمين ذلك.

فمن الناحية الاستراتيجية، حافظت على دروع وقائية متكاملة من أنظمة الصواريخ فى البحر والبر والجو لرد أى قوة أخرى من مهاجمتها أو مهاجمة حلفائها، وكذلك من الناحية التكنولوجية جهزت قواتها المسلحة لتخوض حروباً ذكية مستخدمة كل شىء من طائرات وقاذفات الشبح إلى الحاملات وأسلحة القتال الليلية المعقدة ووفرت بها الوسيلة الكافية لاكتشاف ما يهدف إليه الأعداء عن طريق الأقمار الصناعية وطائرات الإنذار المبكر ونظام الإنذار عبر المحيطات.

فأمريكا البلد الوحيد فى العالم الذى له اليد الطولى على المستوى الكونى من أساطيل وقواعد جوية وبحرية وبرية فى كل جزء مهم استراتيجياً فى العالم وبقدرة هائلة على دعم تلك المواقع فى حالات الطوارئ وهذا يزيد مكانة أمريكا فى الشؤون الدولية وتأثيرها فى قرارات الأمم المتحدة لصالحها وصالح حلفائها وعلى رأسهم إسرائيل.

ولكن هذا الوضع غير العادى لأمريكا لا يمثل قوة اقتصادية أيضاً ولكنه يمثل خسارة مستقبلية إلا إذا استولت أريكا على مدخرات الآخرين من الثروات الطبيعية مثل النفط والمعادن الأخرى وهو ما حدث مؤخراً فى الأزمة الاقتصادية والكساد الاقتصادى.

وبالفعل فقد تسببت زيادة الإنفاق العسكرى فى إبطاء معدلات النمو الاقتصادى الأمريكى خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين وحتى بداية القرن الحادى والعشرين مقارنة بالفترة من ١٩٤٠ م حتى ١٩٧٠ م.

(١) انظر صعود وأفول القوى العظمى - بول كينيدى.

ويرى «بول كينيدى» فى كتابه صعود وأفول القوى العظمى أن الإصلاح لن يحدث إلا من خلال صدمة أو كارثة قومية مثل الحرب أو انهيار البورصة أو السوق المصرفية، معتبراً أن التغيرات السكنية ستكون ذات التأثير الأكبر فى أمريكا خلال العقود المقبلة حيث سيزداد كبار السن مما يعنى زيادة مخصصات التأمين والتأمين الاجتماعى.

وكذلك انخفاض أعداد السكان البيض مقابل زيادة أعداد السكان السود والآسيويين إذا استمرت معدلات النمو الطبيعى للسكان والهجرة على مستوياتها الحالية لتتحول أمريكا إلى مجتمع أمريكى رمادى بنى اللون.

وقد حدث ما توقعه «بول كينيدى» من الصدمة الاقتصادية وانهيار البورصة وسوق العقارات والوضع المالى فى أمريكا مؤخراً كما ذكرنا.

فما هى تلك الأزمة الاقتصادية الأخيرة التى ضربت أمريكا والعالم؟

وما هى مراحلها التى تطورت لتصل إلى تلك الدرجة التى أخافت العالم كله؟

التضخم الاقتصادى والكساد الاقتصادى والركود الاقتصادى ومراحل الأزمة الاقتصادية الحالية ومراحل تطورها:

سمعنا كثيراً من الاقتصاديين والخبراء يتحدثون عن التقلبات التى تحدث لبعض الأسواق العالمية واقتصاديات بعض الدول والتجمعات الإقليمية ويشيرون إلى أن هذه التقلبات هى تقلبات طبيعية ومن ضمن مراحل الدورة الاقتصادية.

فما هى الدورة الاقتصادية؟

يمكن تعريف الدورات الاقتصادية بأنها تقلبات منظمة بصورة دورية فى مستوى النشاط الاقتصادى وهذه التقلبات منظمة ومتكررة ولكنها تختلف عن بعضها البعض من حيث توقيتها وطول مداها.

وعموما لكل دورة مراحل أربع تمر بها لتصل إلى الذروة:

١- مرحلة انتعاش: وفيها يميل المستوى العام للأسعار إلى الثبات أما النشاط الاقتصادى فى مجموعه فيتزايد ببطء ويتضاءل المخزون السلعى وتتزايد على المنتجين

لتعويض مانفد من مخزون.

٢- مرحلة الرواج: وتتميز بارتفاع مطرد فى الأسعار وتزايد حجم الإنتاج الكلى بمعدل سريع وتزايد حجم الدخل والعمالة.

٣- مرحلة الأزمة: وفيها تهبط الأسعار وينتشر الذعر التجارى ويطلب المقرضون قروضهم من العملاء وينخفض حجم الانتاج والدخل وتتزايد البطالة كما يتزايد المخزون السلعى.

٤- مرحلة الكساد: وتتسم بانخفاض الأسعار وانتشار البطالة وكساد التجارة والنشاط الاقتصادى.

ثم نتحدث عن المراحل الهامة الكبرى فى الأزمة الحالية حسب رأى أهل الخبرة والاختصاص وقبلها نتعرف على تعريف الكساد.

فالكساد هو مصطلح فى الاقتصاد الكلى ويطلق على أى انخفاض ملحوظ وواسع النطاق فى النشاط الاقتصادى يستمر لعدد من الأشهر، وتحديدا يطلق على أى فترة ينخفض فيها الناتج المحلى الإجمالى لمدة تساوى ستة أشهر على الأقل. وهى إحدى مراحل الدورة الاقتصادية عادة ما تزداد فيها البطالة وتنخفض قيمة الاستثمارات وأرباح الشركات.

وينتج عن الكساد تدنٍّ وهبوط فى الإنتاج والأسعار والوظائف وكذلك الإيرادات، وخلال فترة الكساد الاقتصادى تنخفض السيولة النقدية، وتفلس العديد من المؤسسات والشركات المختلفة، وبالتالى يفقد كثير من العمال والموظفين وظائفهم.

أولى مراحل الكساد تبدأ بتدنى المبيعات لدى عدد كبير من المحال التجارية أو ما يسمى بتجار التجزئة نتيجة لتدنى القدرة الشرائية عند المستهلكين.

وحينما تنخفض المبيعات عند المحلات التجارية فإن طلباتها من المصانع تنخفض، وبدورها تضطر المصانع إلى خفض إنتاجها مما يؤدى بدوره إلى تخفيض وتيرة الاستثمار فى التصنيع.

وفى الوقت نفسه فإن المنشآت الصناعية تفقد قدرتها على دفع مرتبات عمالها وموظفيها بسبب تراجع الطلب على منتجاتها وانخفاض الأسعار وهذا يجعلها تضطر إلى التخلى عن عدد كبير منهم، وهذه الخطوة من المصنعين تؤدى إلى نتيجة حتمية أخرى وهى زيادة معدلات البطالة مما يجعل تدنى القدرة الشرائية لدى المستهلكين تتفاقم أكثر وهكذا تستمر النتائج السلبية لتبعات الكساد فى التوالى وبصورة أكبر سوءا من سابقتها حتى يحدث ما من شأنه أن يقلب المعادلة ويعيد للأنشطة الاقتصادية حيويتها الإيجابية.

أما المراحل الكبرى فى الأزمات الحالية فهى كالتالى زمنياً:

فى بداية العام ٢٠٠٧ فى الولايات المتحدة وبدأت تطال أوربا وذلك منذ بداية عام ٢٠٠٧م، وتطورت بشكل سريع،

ففى فبراير ٢٠٠٧: عدم تسديد تسليفات الرهن العقارى (الممنوحة لمدينين لا يتمتعون بقدرة كافية على التسديد) يتكثف فى الولايات المتحدة ويسبب أولى عمليات الإفلاس فى مؤسسات مصرفية متخصصة.

وفى أغسطس ٢٠٠٧: البورصات تتدهور أمام مخاطر اتساع الأزمة، والمصارف المركزية تتدخل لدعم سوق السيولة.

ثم فى أكتوبر إلى ديسمبر ٢٠٠٧: عدة مصارف كبرى تعلن انخفاضا كبيرا فى أسعار أسهمها بسبب أزمة الرهن العقارى.

وفى ٢٢ يناير ٢٠٠٨: الاحتياطى الاتحادى الأميركى (البنك المركزى) يخفض معدل فائدته الرئيسية ثلاثة أرباع النقطة إلى ٣,٥٠٪، وهو إجراء ذو حجم استثنائى. ثم جرى التخفيض تدريجيا إلى ٢٪ بين يناير ونهاية أبريل.

و١٧ فبراير ٢٠٠٨: الحكومة البريطانية تؤمم بنك (نورذرن روك).

- ١١ مارس ٢٠٠٨: تضافر جهود المصارف المركزية مجددا لمعالجة سوق التسليفات.

- ١٦ مارس ٢٠٠٨: (جى بى مورغان تشيز) يعلن شراء بنك الأعمال الأميركى

(بير ستيرنز) بسعر متدن ومع المساعدة المالية للاحتياطى الاتحادى.

- ٧ سبتمبر ٢٠٠٨: وزارة الخزانة الأمريكية تضع المجموعتين العملاقتين فى مجال تسليفات الرهن العقارى (فريدى ماك) و(فانى ماى) تحت الوصاية طيلة الفترة التى تحتاجانها لإعادة هيكلة ماليتهما، مع كفالة ديونهما حتى حدود ٢٠٠ مليار دولار.

- ١٥ سبتمبر ٢٠٠٨: اعتراف بنك الأعمال (ليمان براذرز) بإفلاسه بينما يعلن أحد أبرز المصارف الأمريكية وهو (بنك أوف أميركا) شراء بنك آخر للأعمال فى وول ستريت هو (ميريل لينش).

عشرة مصارف دولية تتفق على إنشاء صندوق للسيولة برأسمال ٧٠ مليار دولار لمواجهة أكثر حاجاتها إلحاحا، فى حين توافق المصارف المركزية على فتح مجالات التسليف. إلا أن ذلك لم يمنع تراجع البورصات العالمية.

- ١٦ سبتمبر ٢٠٠٨: الاحتياطى الاتحادى والحكومة الأمريكية تؤممان بفعل الأمر الواقع أكبر مجموعة تأمين فى العالم (أى آى جى) المهددة بالإفلاس عبر منحها مساعدة بقيمة ٨٥ مليار دولار مقابل امتلاك ٧٩,٩٪ من رأسمالها.

- ١٧ سبتمبر ٢٠٠٨: البورصات العالمية تواصل تدهورها والتسليف يضعف فى النظام المالى. وتكثف المصارف المركزية العمليات الرامية إلى تقديم السيولة للمؤسسات المالية.

- ١٨ سبتمبر ٢٠٠٨: البنك البريطانى (لويد تى إس بى) يشترى منافسه (أتش بى أو إس) المهدد بالإفلاس.

السلطات الأمريكية تعلن أنها تعد خطة بقيمة ٧٠٠ مليار دولار لتخليص المصارف من أصولها غير القابلة للبيع.

- ١٩ سبتمبر ٢٠٠٨: الرئيس الأميركى جورج بوش يوجه نداء إلى (التحرك فورا) بشأن خطة إنقاذ المصارف لتفادى تفاقم الأزمة فى الولايات المتحدة.

- ٢٣ سبتمبر ٢٠٠٨: الأزمة المالية تطغى على المناقشات فى الجمعية العامة للأمم المتحدة فى نيويورك.

الأسواق المالية تضاعف قلقها أمام المماطلة حيال الخطة الأمريكية.

- ٢٦ سبتمبر ٢٠٠٨: انهيار سعر سهم المجموعة المصرفية والتأمين البلجيكية الهولندية (فورتيس) فى البورصة بسبب شكوك بشأن قدرتها على الوفاء بالتزاماتها. وفى الولايات المتحدة يشترى بنك (جى بى مورغان) منافسه (واشنطن ميوتشوال) بمساعدة السلطات الفدرالية.

٢٨ سبتمبر ٢٠٠٨: خطة الإنقاذ الأمريكية موضع اتفاق فى الكونغرس. وفى أوروبا يجرى تعويم (فورتيس) من قبل سلطات بلجيكا وهولندا ولوكسمبورغ. وفى بريطانيا جرى تأميم بنك (برادفورد وبينغلى).

- ٢٩ سبتمبر ٢٠٠٨: مجلس النواب الأميركى يرفض خطة الإنقاذ. وول ستريت تنهار بعد ساعات قليلة من تراجع البورصات الأوروبية بشدة، فى حين واصلت معدلات الفوائد بين المصارف ارتفاعها مانعة المصارف من إعادة تمويل ذاتها.

أعلن بنك (سيتى غروب) الأمريكى أنه يشترى منافسه (واكوفيا) بمساعدة السلطات الفدرالية.

الأول من أكتوبر ٢٠٠٨: مجلس الشيوخ الأمريكى يقر خطة الإنقاذ المالى المعدلة[١]

ولكى تستوعب تلك المعلومات الاقتصادية علينا إيضاح مفرداتها، فما هو التضخم الاقتصادى وأنواعه والإجراءات التى تحد منها والعلاقة بينها وبين ارتفاع اسعار السلع أو انخفاضها.

ثم يأتى الحديث عن الكساد الاقتصادى والركود الاقتصادى.

فالتضخم الاقتصادى: هو من أكبر الاصطلاحات الاقتصادية شيوعاً غير أنه على الرغم من شيوع استخدام هذا المصطلح فإنه لايوجد اتفاق بين الاقتصاديين بشأن تعريفه ويرجع ذلك إلى انقسام الرأى حول تحديد مفهوم التضخم حيث يستخدم هذا الاصطلاح لوصف عدد من الحالات المختلفة مثل:

١ ـ الارتفاع المفرط فى المستوى العام للأسعار.

٢ ـ ارتفاع الدخول النقدية أو عنصر من عناصر الدخل النقدى مثل الأجور أو الأرباح.

(١) المصدر: www.aljazeera.net.

٣ ـ ارتفاع التكاليف.

٤ ـ الإفراط فى خلق الأرصدة النقدية.

ليس من الضرورى أن تتحرك هذه الظواهر المختلفة فى اتجاه واحد فى وقت واحد، بمعنى أنه من الممكن أن يحدث ارتفاع فى الأسعار دون أن يصحبه ارتفاع فى الدخل النقدى.

كما أن من الممكن أن يحدث ارتفاع فى التكاليف دون أن يصحبه ارتفاع فى الأرباح، ومن المحتمل أن يحدث إفراط فى خلق النقود دون أن يصحبه ارتفاع فى الأسعار أو الدخول النقدية.

وبعبارة أخرى فإن الظواهر المختلفة التى يمكن أن يطلق على كل منها (التضخم) هى ظواهر مستقلة عن بعضها البعض إلى حد ما وهذا الاستقلال هو الذى يثير الإرباك فى تحديد مفهوم التضخم.

ويميز اصطلاح التضخم بالظاهرة التى يطلق عليها وبذلك تتكون مجموعة من الاصطلاحات وتشمل:

١ ـ تضخم الأسعار: أى الارتفاع المفرط فى الأسعار.

٢ ـ تضخم الدخل: أى ارتفاع الدخول النقدية مثل تضخم الأجور وتضخم الأرباح.

٣ ـ تضخم التكاليف: أى ارتفاع التكاليف.

٤ ـ التضخم النقدى: أى الإفراط فى خلق الأرصدة النقدية.

٥ ـ تضخم الائتمان المصرفى: أى التضخم فى الائتمان.

ومن هنا يرى بعض الكتاب أنه عندما يستخدم تعبير (التضخم) دون تمييز الحالة التى يطلق عليها فإن المقصود بهذا الاصطلاح يكون تضخم الأسعار وذلك لأن الارتفاع المفرط فى الأسعار هو المعنى الذى ينصرف إليه الذهن مباشرة عندما يذكر اصطلاح التضخم.

تاريخ التضخم

فى القرن التاسع عشر كان التركيز على جانب واحد من جوانب التضخم وهو (التضخم النقدى)، بحيث إذا ازداد عرض النقود بالنسبة إلى الطلب عليها انخفضت قيمتها، وبعبارة أخرى، أرتفع مستوى الأسعار، وإذا ازداد الطلب على النقود بالنسبة إلى عرضها ارتفعت قيمتها، وبعبارة أخرى انخفض مستوى الأسعار.

ثم كانت تحليلات الاقتصادى (كينز)، حيث ركز على العوامل التى تحكم مستوى الدخل القومى النقدى، وخاصة ما يتعلق بالميل للاستهلاك، وسعر الفائدة، والكفاءة الحدية لرأس المال.

وهكذا توصل (كينز) إلى أن التضخم هو: زيادة حجم الطلب الكلى على حجم العرض الحقيقى زيادة محسوسة ومستمرة، مما يؤدى إلى حدوث سلسلة من الارتفاعات المفاجئة والمستمرة فى المستوى العام للأسعار.

وبعبارة أخرى تتبلور ماهية التضخم فى وجود فائض فى الطلب على السلع، يفوق المقدرة الحالية للطاقة الإنتاجية.

وفى النصف الثانى للقرن العشرين ظهرت المدرسة السويدية الحديثة، بحيث جعلت للتوقعات أهمية خاصة فى التحليل النقدى للتضخم.

فهى ترى أن العلاقة بين الطلب الكلى والعرض الكلى لا تتوقف على خطط الإنفاق القومى من جهة وخطط الإنتاج القومى من جهة أخرى، أو بعبارة أدق تتوقف على العلاقة بين خطط الاستثمار وخطط الادخار.

ومن أنواع التضخم الاقتصادى ما يعرف بالتضخم الأصيل: يتحقق هذا النوع من التضخم حين لا يقابل الزيادة فى الطلب الكلى زيادة فى الطلب الكلى الواحد (كل شهر) أو أكثر من ١٠٠٪ خلال العام.

وينشأ التضخم بفعل عوامل اقتصادية مختلفة ومن أبرز هذه الأسباب:

١-تضخم ناشئ عن التكاليف: ينشأ هذا النوع من التضخم بسبب ارتفاع التكاليف

التشغيلية فى الشركات الصناعية أو غير الصناعية، كمساهمة إدارات الشركات فى رفع رواتب وأجور منتسبيها من العاملين ولاسيما الذين يعملون فى المواقع الإنتاجية والذى يأتى بسبب مطالبة العاملين برفع الأجور.

٢-تضخم ناشئ عن الطلب: ينشأ هذا النوع من التضخم عن زيادة حجم الطلب النقدى والذى يصاحبه عرض ثابت من السلع والخدمات، إذ أن ارتفاع الطلب الكلى لا تقابله زيادة فى الإنتاج. مما يؤدى إلى ارتفاع الأسعار.

٣-تضخم حاصل من تغييرات كلية فى تركيب الطلب الكلى فى الاقتصاد أو تغيرات فى الطلب النقدى حتى لو كان هذا الطلب مفرطاً أو لم يكن هناك تركز اقتصادى إذ أن الأسعار تكون قابلة للارتفاع وغير قابلة للانخفاض رغم انخفاض الطلب .

٤-تضخم ناشئ عن ممارسة الحصار الاقتصادى تجاه دول أخرى، تمارس من قبل قوى خارجية، كما حصل للعراق وكوبا من قِبل أمريكا ونتيجة لذلك يَنعدم الاستيراد والتصدير فى حالة الحصار الكلى مما يؤدى إلى ارتفاع معدلات التضخم وبالتالى انخفاض قيمة العملة الوطنية وارتفاع الأسعار بمعدلات غير معقولة.

٥-زيادة الفوائد النقدية : ورجح بعض الباحثين مؤخرا أن الزيادة فى قيمة الفوائد النقدية عن قيمتها الإنتاجية أو الحقيقية من أحد أكبر أسباب التضخم كما بين ذلك جوهان فيليب بتمان فى كتابه كارثة الفوائد.

وهذا ليس غريبا فالاقتصادى كينز عبر عن ذلك بقوله فى كتابه ثروة الأمم: (يزداد الازدهار الاقتصادى فى الدولة كلما أقتربت قيمة الفائدة من الصفر).

العلاقة بين التضخم وسعر الصرف وارتفاع الأسعار والكساد الاقتصادى:

تعد أسعار الصرف الموازية لأسعار الصرف الرسمية واحداً من المؤشرات الاقتصادية والمالية المعبرة عن متانة الاقتصاد لأية دولة سواء كانت من الدول المتقدمة أم الدول النامية.

وتتأثر أسعار الصرف بعوامل سياسية واقتصادية متعددة، ومن أشد هذه العوامل

الإقتصادية، التضخم، ومعدلات أسعار الفائدة السائدة فى السوق، اللذان يعكسان أثرهما فى سعر الصرف للعملة الوطنية فى السوق الموازية لسعر الصرف الرسمى الوطنى.

وتفسير التضخم بوجود فائض الطلب يستند إلى المبادئ البسيطة التى تتضمنها قوانين العرض والطلب، فهذه القوانين تقرر أنه - بالنسبة لكل سلعة على حدة - يتحدد السعر عندما يتعادل الطلب مع العرض.

وإذا حدث أفراط فى الطلب - فإنه تنشأ فجوة بين الطلب والعرض، وتؤدى هذه الفجوة إلى رفع السعر، وتضيق الفجوة مع كل ارتفاع فى السعر حتى تزول تماماً وعندئذً يستقر السعر ومعنى ذلك أنه إذا حدث إفراط فى الطلب على أية سلعة فإن التفاعل بين العرض والطلب كفيل بعلاج هذا الإفراط عن طريق ارتفاع الأسعار.

وهذه القاعدة البسيطة التى تفسر ديناميكية تكوين السعر فى سوق سلعة معينة يمكن تعميمها على مجموعة أسواق السلع والخدمات التى يتعامل بها المجتمع فكما أن إفراط الطلب على سلعة واحدة يؤدى إلى رفع سعرها، فإن إفراط الطلب على جميع السلع والخدمات - أو الجزء الأكبر منها - يؤدى إلى ارتفاع المستوى العام للأسعار وهذه هى حالة التضخم.

أما الكساد الاقتصادى فقد شهد الاقتصاد العالمى عدة تقلبات وموجات من التضخم والكساد ، تعود فى الأساس إلى عدم مقدرة الأدوات التى تعتمد سعر الفائدة على إدارة النشاط الإقتصادى.

وعلاج هذا الاختلال مفتاحه قول الله فى القرآن: (وكل شىء عنده بمقدار). ولما كانت المصارف أهم أدوات تنفيذ السياسات الاقتصادية الرامية إلى تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية، فعندما اجتاحت العالم حالة كساد كبيرة حدثت بطالة قاسية فكانت النتيجة مزيدا من المجاعات والبؤس، عندئذ تصدى العالم الاقتصادى (كينز) لدراسة تلك الظاهرة ووضع تعريفا لتلك الظاهرة جاء فيه أن الكساد أو الركود يعنى الهبوط المفاجئ للفاعلية الحدية لرأس المال بإحداثه نقصا فى الاستثمارات وفى الطلب الفعال.

كل ذلك يؤدى إلى عدم التوازن بين الادخار والاستثمار، بحيث ينخفض الاستثمار

وتقل العمالة، ويقل مستوى الدخل القومى، ويميل الناس إلى الاكتناز، ويتراكم المخزون لدى أرباب العمل، وما إلى هنالك.

أما تعريفات الاقتصاديين المعاصرين لتلك الظاهرة فأهمها التعريف الذى جاء فيه: (إن مظهر الركود الاقتصادى يتجلى فى تزايد المخزون السلعى فيما بين التجار من ناحية والتخلف عن السداد للأوراق التجارية والشيكات فيما بين التجار من ناحية أخرى).

ويمكن الحد من التضخم ولاسيما فى الدول المتقدمة بتنفيذ إجراءات السياستين المالية والنقدية:

السياسة المالية

أولاً: تضع وزارة المالية السياسة المالية fiscal policy للدولة وبموجبها تتحدد مصادر الإيرادات واستخداماتها والفائض surplus فى الموازنة Budget يؤدى إلى تقليل حجم السيولة المتاحة. وبالتالى سيؤدى ذلك إلى خفض معدل التضخم.

ثانياً: قيام وزارة المالية ببيع حجم الدين العام إلى الجمهور وبالتالى سحب النقد المتوفر فى السوق ويؤدى ذلك إلى الحد من عرض النقد.

ثالثاً: زيادة الضرائب على السلع الكمالية التى تتداولها القلة من السكان من أصحاب الدخول المرتفعة.

رابعا: خفض الإنفاق الحكومى: يعد الإنفاق الحكومى أحد الأسباب المؤدية إلى زيادة المتداول من النقد فى السوق، وبالتالى فإن الحد من هذا الإنفاق وتقليصه سيؤدى إلى خفض النقد المتداول فى الأسواق.

السياسة النقدية

تتولى المصارف المركزية فى الدول المختلفة وضع وتنفيذ السياسات النقدية باعتماد مجموعة من الأدوات الكمية والنوعية:

أولاً: الأدوات الكمية:

١ ـ زيادة سعر إعادة الخصم: ومن النشاطات الاعتيادية التى تقوم المصارف

التجارية بها: خصم الأوراق التجارية للأفراد وفى حالات أخرى تقوم بإعادة خصمها لدى البنك المركزى.

وفى هذه الحالة يقوم البنك المركزى برفع سعر إعادة الخصم بهدف التأثير فى القدرة الانتمائية للمصارف من أجل تقليل حجم السيولة المتداولة فى السوق ويعد هذا الإجراء واحداً من الإجراءات لمكافحة التضخم.

٢ ـ دخول المصارف (البنوك المركزية) إلى الأسواق بائعة للأوراق المالية وذلك من أجل سحب جزء من السيولة المتداولة فى السوق. أو ما يسمى بدخول السوق المفتوحة.

٣ ـ زيادة نسبة الاحتياط القانونى: تحتفظ المصارف التجارية بجزء من الودائع لدى البنوك المركزية وكلما ارتفعت هذه النسبة كلما انخفضت القدرة الائتمانية لدى المصارف.

ثانياً: الأدوات النوعية:

أما الأدوات النوعية فإنها تتلخص بطريقة الإقناع لمدراء المصارف التجارية والمسؤولين فيها عن الانتماء المصرفى، بسياسة الدولة الهادفة إلى خفض السيولة المتداولة فى الأسواق.

وهذه السياسة فعالة فى الدولة النامية بشكل أكبر مما فى دول أخرى.

ثالثاً: معدلات الفائدة

غالباً ما تقترن معدلات الفائدة بمصادر التمويل المقترضة سواء أكانت هذه المصادر قصيرة، أم متوسطة، أم طويلة الأجل، إذ يخصص رأس المال فى إطار النظرية المالية من خلال أسعار الفائدة.

وتتفاوت هذه الأسعار حسب تفاوت آجال الاقتراض، فالفوائد على القروض قصيرة الأجل تكون أقل فى حين تكون أسعار الفائدة على القروض طويلة الأجل مرتفعة بينما أسعار الفائدة على القروض متوسطة الأجل تكون بين السعرين.

وتزداد أسعار الفائدة عند تزايد الطلب على رؤوس الأموال الحاصل عن الرواج الاقتصادى.

وقد تتوفر فرص استثمارية تشجع المستثمرين على استغلال هذه الفرص الاستثمارية. ولتوقعات المستثمرين أثر واضح فى زيادة الطلب على رؤوس الأموال، إذ تتجه توقعاتهم بأن الحالة الاقتصادية فى تحسن وأن رواجا اقتصادياً سيؤدى إلى توفر فرص استثمارية متاحة أمام المستثمرين.

ولذلك يزداد الطلب على رؤوس الأموال وعلى شكل قروض قصيرة الأجل الأمر الذى يؤدى إلى زيادة أسعار الفائدة القصيرة الأجل بشكل يفوق أسعار الفائدة على القروض طويلة الأجل خلافاً للقاعدة التى تقول إنّ أسعار الفائدة على القروض طويلة الأجل أكثر من الفوائد على القروض قصيرة الأجل.

وتتأثر أسعار الفائدة بعدة عوامل يترتب على مؤثرات هذه العوامل أن يطلب المقرض (الدائن) علاوات تضاف إلى أسعار الفائدة الحقيقية ومن أبرز هذه العوامل:

معدل التضخم Inflation

تؤثر معدلات التضخم فى تكاليف الإنتاج الصناعية لمنشآت الأعمال عموماً ولذلك يزداد الطلب على رأس المال لتغطية هذه التكاليف.

وكما أشير إليه سابقاً فان انخفاض القوة الشرائية للنقد تسبب ازدياد الحاجة إلى التمويل.

وعلى افتراض أن تقديرات إحدى منشآت الأعمال، أشارت إلى أن كلفة خط إنتاجى مقترح ضمن خطتها السنوية للسنة القادمة بلغت (١٠) مليون دينار، وعندما أرد تنفيذ الخط الإنتاجى تبين أن هذا المبلغ لا يكفى لتغطية تكاليف إقامة هذا الخط الإنتاجى، بل يتطلب (١٥) مليون دينار.

هذه الزيادة ناتجة عن ازدياد معدل التضخم وانخفاض قيمة العملة الوطنية، مما أدى إلى زيادة الطلب على رأس المال وزيادة الطلب هذه، تؤدى إلى زيادة أسعار الفائدة على التمويل المقترض، إذا تأثرت القرارات المالية لمنشأة الأعمال ولا يقتصر التأثير على أسعار الفائدة بل يؤثر التضخم فى أسعار الصرف للعملة الوطنية تجاه العملات الأخرى.

وتتسجم أسعار الفائدة مع معدلات التضخم. ففى ألمانيا كانت أسعار الفائدة أقل

من نظيرتها فى الولايات المتحدة الأمريكية ويعود السبب إلى أن معدل التضخم فى ألمانيا كان أقل منه فى أمريكا.

العرض والطلب

يزداد الطلب على اقتراض الأموال فى الحالات التى يكون فيها الاقتصاد الوطنى للدولة فى حالة انتعاش ورواج ,وذلك لتوفر فرص استثمارية للمستثمرين وباختلاف مستويات العائد والمخاطرة المتوقعين لأية فرصة استثمارية ,يتم اختيارها.

ويصاحب هذه الزيادة فى الطلب على الأموال زيادة فى أسعار الفائدة ,فى حين زيادة عرض الأموال يؤدى إلى انخفاض أسعار الفائدة(١)

الانكماش المالى:

هو عبارة عن انخفاض متواصل فى أسعار السلع والخدمات فى كافة جوانب اقتصاد الدولة، وهو عكس التضخم المالى، وأسوأ منه من ناحية النتائج والآثار، إلا أنه نادر الحدوث.

يحدث الانكماش عندما يعانى اقتصاد الدولة من كساد أو ركود، مما يؤدى إلى تراجع مؤقت لأوجه النشاط الاقتصادى.

أما السبب الرئيسى لحدوث الانكماش فهو قلة الطلب على السلع والخدمات وذلك إما بسبب تراجع القدرة الشرائية للمستهلكين، أو تدنى السيولة النقدية المتاحة بسبب عجز المصارف المركزية للدول عن ضخ المزيد من النقود للتداول.

وقد يحدث الانكماش المالى بسبب المنافسة الحادة بين المصنعين ومنتجى السلع والخدمات سعياً منهم لزيادة مبيعات منتجاتهم بتخفيض أسعارها.

التضخم الاقتصادى

هو من أكبر الاصطلاحات الاقتصادية شيوعاً غير أنه على الرغم من شيوع استخدام هذا المصطلح فإنه لايوجد اتفاق بين الاقتصاديين بشأن تعريفه ويرجع ذلك

(١) المصدر موسوعة ويكبيديا العالمية ـ الانترنت. : http://ar.wikipedia.org

إلى انقسام الرأى حول تحديد مفهوم التضخم حيث يستخدم هذا الاصطلاح لوصف عدد من الحالات المختلفة مثل:

الارتفاع المفرط فى المستوى العام للأسعار.

ارتفاع الدخول النقدية أو عنصر من عناصر الدخل النقدى مثل الأجور أو الأرباح.

وارتفاع التكاليف. والإفراط فى خلق الأرصدة النقدية.

ثم الركود الأقتصادى وهو مصطلح يعبر عن هبوط فى النمو الاقتصادى لمنطقة أو لسوق معينة، وعادة سبب الهبوط فى النمو الاقتصادى نابع من أن الإنتاج يفوق الاستهلاك الأمر الذى يؤدى إلى كساد البضاعة وانخفاض الأسعار والذى بدوره يصعب على المنتجين بيع المخزون، لذلك ينخفض معدل الإنتاج والذى معناه أيدى عاملة أقل، وارتفاع فى نسبة البطالة.

المشكلة الأساسية أنه إذا أصاب الركود الاقتصادى فرع مركزى فى الاقتصاد مثال(فرع المصارف أو فرع التصنيع) الأمر الذى ينعكس على بقية القطاعات فتدخل بركود اقتصادى مستمر.

وهنالك اختلاف على كيفية تحديد مدى تواجد البلاد فى ركود اقتصادى لكن من المتبع ان يكون النمو فى الناتج القومى أعلى من نسبة النمو الطبيعى فى تعداد السكان (الذى يؤثر بشكل طردى على الناتج القومى الإجمالى)، فى الولايات المتحدة يعرف الركود على انه نمو سلبى للناتج القومى على مدى ٦ أشهر أى نصف سنة.

أفضل علاج للخروج من الركود الاقتصادى هو رفع الإنفاق الحكومى الاستهلاكى والذى بدوره ينقل البلاد من ركود اقتصادى إلى حالة نمو، أو تخفيض الفائدة بواسطة البنك المركزى الأمر الذى يسمح للمصالح والمصانع بإمكانية تحمل دين أكبر وأيضاً يخفف جاذبية التوفير لدى القطاع الخاص مما يرفع نسبة الاستهلاك لديهم الأمر الذى يدفع السوق نحو نمو اقتصادى.

والركود هو أمر طبيعى فى الاقتصاد وغير مخطط له، وسببه هو عدم الملاءة بين

الإنتاج والاستهلاك فى الدول الرأسمالية بسبب الاقتصاد المفتوح الحر.

ويعتبر الركود من الأمراض الاقتصادية الحديثة، لكن ذلك لا يعنى أن الاقتصاديات القديمة لم تعرف الركود، بل تعرضت أكثر الأنظمة الاقتصادية السابقة للدورات الاقتصادية وبالتالى للركود الاقتصادى الذى كثيرا ما كان يستمر لعدة سنوات.

لكن ظهوره فى الوقت الحاضر يختلف فى الآثار والنتائج عن المراحل السابقة نظرا للعلاقات الترابطية بين الاقتصاديات العالمية.

فتطور وسائل الإنتاج وظهور الثورة المعلوماتية والتقانات الحديثة قد دفع بعض الاقتصاديين للاعتقاد بان الأمراض الاقتصادية كالتضخم والركود أصبحت فى ذمة التاريخ.

فالركود والتضخم لا يرجع للإنتاج وتقنيات الإنتاج، بل يرجع فى جوهره للتوزيع وإعادة الدخل والاستثمار الحكومى والخاص فى الاقتصاد الوطنى، أى كلما ازداد مستوى التطور الاقتصادى كلما ازدادت إمكانية حدوث الأزمات الاقتصادية.

ولقد سجل التاريخ الاقتصادى الحديث على وجه التحديد منذ عام ١٩٨٠ وحتى الوقت الحاضر العديد من الأزمات الاقتصادية تمثلت فى أزمة أسعار الصرف فى أوربا وأمريكا ١/ ١/ ١٩٨٥ وفى أزمة الأواق المالية فى الولايات المتحدة عام ١٩٨٧ وفى أزمة أسواق المال فى دول جنوب شرق آسيا عام ١٩٩٧ وفى أزمة روسيا عام ١٩٩٨ وانخفاض أسعار النفط عام ,١٩٩٩

إضافة إلى ذلك فقد تعرض الاقتصاد الأمريكى الذى يمثل ٢٥٪ من الاقتصاد العالمى إلى أزمة ركود بدأت فى نهاية عام ٢٠٠٠ عندما وصلت معدلات النمو إلى ٦, ٠٪ وإلى أزمة ركود عالمية على أثر أحداث سبتمبر عام ٢٠٠١ حيث سجلت أكثر معدلات النمو فى العالم تراجعا ملحوظا.

أسباب الركود الاقتصادى والنتائج التى يؤدى إليها وسائل علاج الركود من خلال معالجة أثاره فيكون: (انخفاض فى معدلات نمو الناتج وتراجع حجم الاستثمارات لزيادة التخزين يؤدى إلى زيادة البطالة.

وانخفاض حجم الإنفاق الحكومى يدفع المستثمرين لتخفيض استثمارتهم الخاصة مما يؤدى لتراجع حجم الإنتاج وظهور البطالبة.

ويتميز الركود بالخصائص التالية: أولها حركة تراجعية بالاستمرار الذاتى أى لا يؤدى النقص مرة واحدة لأحداث الركود بل لابد من الاستمرار ليشكل حركة ذاتية تؤدى لتراجع الطلب الكلى فى مواجهة العرض الكلى.

ثانيا وتراجع الطلب الكلى فى مواجهة العرض الكلى ينجم نقص الطلب الكلى عن العوامل التالية:

١- تخفيض حجم الإنفاق الحكومى (الجارى والاستثمارى).

٢- تخفيض حجم الاستثمار الخاص.

٣- تقييد حركة الائتمان عن طريق رفع أسعار الفائدة.

هذه الإجراءات تساهم بشكل مباشر فى تخفيض حجم الطلب الكلى مقابل العرض الكلى ويؤدى ذلك لتراجع حجم التوظيف وانخفاض المستوى العام للأسعار وظهور البطالة.

ثالثا - انخفاض المستوى العام للأسعار: إن تراجع حجم الاستهلاك نظرا لانخفاض دخول الأفراد يؤدى لتراجع طلبهم على السلع الاستهلاكية، وبما أن حجم العرض بعد ذلك نلاحظ بداية واضحة فى تراجع المستوى العام للأسعار لا تلبث أن تتزايد مع انخفاض حجم الاستثمار وتراجع مستويات الدخول، وهكذا تتراجع الأسعار بشكل تدريجى.

فالاقتصاد الأمريكى فى عام ١٩٢٩ بدأ يتراجع حجم الطلب الاستهلاكى وبدأ الانخفاض الإنتاجى فى قطاع السلع الاستهلاكية وانخفضت الاستثمارات فى قطاع السلع الاستهلاكية وتبعتها القطاعات الإنتاجية وقد سجل تراجع حجم الاستهلاك من ١٠٠٪ عام ١٩٢٨ إلى ٧٥٪ عام ١٩٣٢ وتراجع حجم الإنتاج من السلع الاستثمارية من ١٠٠٪ عام ١٩٢٨ إلى ٤١٪ عام ١٩٣٣ إن هذا التراجع يعكس تراجعا واضحا فى المستوى العام للأسعار.

رابعا - تراجع معدلات النمو وزيادة معدلات البطالة: إن انخفاض معدلات نمو الاستثمار الناتجة عن تخفيض حجم الإنفاق الحكومى أو الاستثمار الخاص سوف تؤدى لتراجع حجم الطلب الكلى من جهة وسوف ينتج عن تخفيض الاستثمار تراجع فى حجم الإنتاج وبالتالى تراجع معدلات نمو الناتج الوطنى وسوف يعقب ذلك زيادة معدلات البطالة، فكلما انخفض معدل النمو فى الاقتصاد الوطنى كلما ازدادت معدلات نمو البطالة الوطنية.

ولقد تراجع حجم الاستثمار حتى أصبح فى عام ١٩٣١ سالبا فى الولايات المتحدة الأمريكية.

أما البطالة فقد بلغت مداها وهبط الإنتاج حوالى ٥٠٪ وتراجع حجم الأجور إلى النصف تقريبا أما أسعار الكساد بلغت حوالى ٣٢٪ أما الأسهم والسندات فقد تراجعت كثيرا لتصل إلى ٢٠٪ من قيمتها، إن هذا الهبوط والتراجع فى الإنتاج والاستثمار قد أدى لانخفاض المستوى العام للأسعار وزيادة معدلات البطالة وتراجع الأجور والاستهلاك الحكومى والخاص بآن واحد.

وهذه الخصائص والسمات التى تميز الركود توضح جوهر الركود وآلية حدوثه.

الركود فى الفكر الاقتصادى:

إن الإجراءات الانكماشية لم تحقق أى نجاح يذكر فى التاريخ الاقتصادى، فالمحاولات التى قامت بها الحكومات لمعالجة أزمة التضخم كانت تؤدى وبشكل سريع للانكماش الذى يؤدى للبطالة.

ومما يدعم هذه الأفكار أزمة عام ١٩٢٩م وما رافقها من (بطالة - إفلاس - تراجع معدلات النمو- انخفاض الأجور والأرباح) والفوضى الاجتماعية التى تؤثر على عوامل نمو وتطور المجتمع.

لقد مهد الكساد الكبير عام ١٩٢٩ لظهور أفكار اللورد كينز فى كتابه الشهير (الفائدة والنقود والاستخدام) الذى نشره عام ١٩٣٦ وكان ردا واضحا على أزمة الرأسمال وعلى الحرية الاقتصادية وغيرها من المفاهيم والقيم فى الاقتصاد.

واهتم الفكر الكلاسيكى بالعوامل الحقيقية التى تحدد ثروة الأمم وأكد الاقتصاديون الكلاسيك على حرية السوق وإبعاد الدولة عن التدخل وإدارة الاقتصاد الوطنى وبذلك يقوم التحليل الاقتصادى برأيهم على عوامل زيادة إضافة إلى ذلك فإن الإنتاج والتقنية، أما النقود تسهل المعاملات، ولم ينظر الكلاسيك كثيرا لدور النقود إلا أنهم قد ركزوا على المواءمة الذاتية للاقتصاد القومى فى حل حدوث الأزمات والاضطرابات بعيدا عن التدخل الحكومى.

ويتحدد الإنتاج حسب العوامل التالية:

١- حدوث تغيرات تكنولوجية من شأنها أن تزيد الإنتاج.

٢- وجود أرصدة من السلع الرأسمالية يمكن استخدامها وبالتالى تساهم فى زيادة الإنتاج.

٣- تغير عرض القوى العاملة حيث كلما ازداد عرض العمل تنخفض الأجور وبالعكس عند نقص عرض العمل تزداد الأجور.

أما عنصر الطلب عند الكلاسيك فهو يتأثر بما يلى:

١- مستوى الأجور والأرباح فى الاقتصاد الوطنى.

٢- حجم الإنفاق الحكومى وقد طالب الكلاسيك بحصر الإنفاق الحكومى فى أضيق الحدود لأنه إنفاق عقيم.

٣- الطلب على الاستثمار وهو يساوى دائما الادخار.

وحدوث الركود أو الرواج فى الاقتصاد الكلاسيكى يعتبر ظاهرة موضوعية ويستطيع الاقتصاد بشكل تلقائى العودة لحالة التوازن لذلك لم يخصص الكلاسيك أبحاثا خاصة بالركود أو التضخم كأمراض اقتصادية.

ويرى الكلاسيك بأن تراجع الطلب الناتج عن خروج الرساميل الوطنية للخارج سوف يؤدى لنقص واضح فى عرض المدخرات وبالتالى لنقص الاستثمار وهذا ما يقود حسب وجهة نظر الكلاسيك لتخفيض حجم الإنتاج وتخفيض أعداد العاملين أى زيادة

معدلات البطالة وبالتالى فإن انخفاض المستوى العام للأسعار سوف يدفع الدول الأخرى لزيادة حجم الاستيراد من هذه الدولة ونظرا لأن الدفع سيكون بالذهب فى فترة المدرسة الكلاسيكية سوف يزداد عرض النقد (السيولة).

وسوف يزداد الطلب على الاستثمار من جديد ويكون الاقتصاد قد مر بمرحلة ركود أو ما يسميها الكلاسيك تباطؤ معدلات النمو الاقتصادى ومن ثم العودة للرواج من جديد.

إن اعتماد قاعدة الذهب فى هذه الفترة قد ساهم إلى حد ما فى تخفيض حدة الأزمات الاقتصادية (الركود والتضخم) وبالتالى اهتم الكلاسيك بالتشغيل الكامل وسبل زيادة حجم التشغيل الكامل والآلية التى تحقق التوازن للاقتصاد دون تدخل الدولة.

ظهرت الأفكار الكينزية فى مرحلة قادرة على إيجاد وسائل جديدة لمعالجة الركود وكانت عاجزة أيضا عن تغيير توجهاتها الأسياسية فى تحييد دور الدولة وترك الاقتصاد يعمل بشكل تلقائى لذلك وجدت أفكار اللورد كينز أرضا خصبة لها.

ولقد ركزت الكينزية على النقاط التالية:

١- لا يتحقق التوازن التلقائى فى الاقتصاد الوطنى ولابد من وجود الدولة التى تستطيع التدخل عبر الإنفاق العام لإعادة التوازن.

٢- يتوقف التوازن فى الاقتصاد على مستوى الإنفاق الكلى على الناتج، فكلما ازداد الإنفاق الكلى يزداد لتوظيف والانتاج حتى يصل الاقتصاد لمرحلة التشغيل الكامل وبالمقابل فإن نقص الإنفاق الكلى سوف يؤدى للركود.

٣- زيادة حجم الإنفاق العام على الخدمات الاجتماعية وذلك لتحسين ظروف العمال وزيادة حجم الاستهلاك الكلى.

٤- المضاعف: إن زيادة فى حجم الإنفاق الكلى تؤدى لزيادات متكررة فى الدخل القومى تعادل حجم المضاعف الذى يشكل مقلوب الميل الحدى للادخار.

ويرى كينز أن أسباب الركود ترجع إلى انخفاض حجم الإنفاق لحكومى (الجارى

والاستثمارى) إما لعدم توفير مصادر التمويل (ضرائب أو قروض) وإما لاستخدام سياسة انكماشية.

وكذلك انخفاض حجم الاستثمار الخاص بسبب ارتفاع سعر الفائدة مقارنة بالأرباح.

حجم التسليف إلى الناتج الوطنى الأمر الذى يؤدى لتراجع حجم التمويل للقطاع الخاص.

وهذا حسب الفكر الكلاسيكى القديم كما حدث فى الكساد الكبير عام ١٩٢٩م. وقد أطلق عليه أيضا الانهيار الكبير أو الكساد الشعبى وقد أصاب أيضا الولايات المتحدة والعالم وأدى إلى توقف المصانع عن الإنتاج وتفشى البطالة حتى بحث الفقراء عن أرزاقهم فى مخازن الزبالة وسجلت دائرة الصحة فى نيويورك أعلى معدل إصابة للأطفال بسبب سوء التغذية، رغم ازدهار أمريكا اقتصاديا فى سنوات العشرينيات قبل هذا الكساد الكبير.

ودائما تحدث الأزمات الكبرى فى الاقتصاد الرأسمالى لعدم تدخل الدولة فى الحد من نشاط الأفراد فى الميدان الاقتصادى وحرية الناس فى استثمار أموالهم ويأتى عدم مراقبة الدولة بالبضاعة وعدم الطلب عليها.

وأسهم الكساد الكبير فى صعود الحكام الديمقراطيين للحكم كما حدث فى ألمانيا ثم اشتعال الحرب العالمية الثانية.

فالأزمة الحالية التى تمر بها أمريكا ،يعزوها البعض الى التوحش الراسمالى الذى ساد أمريكا. أوما أصطلح على تسميته الرأسمالية المتوحشة. ويفسرها البعض أنها بسبب الغياب التام لدور الدولة في ضبط الإيقاع الاقتصادى وعدم الرقابة والمتابعة للمدسارف والبنوك وشركات التأمين وكل الجهات التمويلية ،أى كل ما يتعلق بالشؤون المالية أى الحرية الغير المسئولة.

وقد وصف أن ما تعرضت له الولايات المتحدة هو (تسونامى)اقتصادى (نسبة للإعصار الضخم والشهير) .

ولم يخرج علينا أحد بتصريحات عنترية ليتهمهم بأنهم بتصريحاتهم النارية يضرون بالاقتصاد القومى أو يؤثرون على أسعار الأسهم والعملات .

وقال وزير الاقتصاد الألمانى إن الولايات المتحدة على شفا الهاوية، وأيضا لم تطاله وسائل الاعلام متهمة اياه بمحاولة النيل من سمعة الست أمريكا، أوأن تصريحاته تهز الثقة فى الاقتصاد الأمريكى. ولم يتفلسف أحد ويقول لنا إنها نيران صديقه.

اليابان، إيطاليا، ألمانيا، إنجلترا، فرنسا، دول ذات اقتصادات قوية .فورا وبدون مواربة تعلن أن ما يحدث لأمريكا سيطالهم من قريب أو بعيد لأن العولمة التى جعلت العالم قرية صغيرة والشركات المتعددة الجنسيات منتشرة فى ربوع العالم وعليه فهى حتما متأثرة بما سيحدث .

وهذا الكلام منطقى وواقع عملى أى هناك تطابق فى التصريحات النظرية والعملية .

وأما الشيوعيون والاشتراكيون شمتوا فى أمريكا ، وصرحوا بأن ما حدث وما سوف يحدث والتداعيات القادمة هى نتيجة حتمية للرأسمالية المتوحشة .

وصل التطرف الرأسمالى أقصى مداه حينما رفض مجلس النواب الأمريكى الموافقة على ضخ مليارات الدولارات فى محاولة للتخفيف من آثار الأزمة الاقتصادية سبب الرفض أنهم اعتبروا هذا تدخلا من الدولة فى شأن رأسمالى يجب أن يترك للسوق ،وهو ما وصفه المتشددون بأنه خطوة شيوعية .

وخبراء الاقتصاد يقارنون بين مايحدث حاليا وما حدث للعالم عام ١٩٢٩واستتبعه دخول العالم فى حرب عالمية مدمرة، ولكن الفارق أنهم فى ٢٩ بدأ الرئيس (أيزنهاور) رئيس أمريكا فى تلك الفترة ، التدخل لمحاولة علاج الأزمة بعد مائة يوم من بدايتها، بينما (بوش) تدخل فى الأسبوع الأخير للانهيار.

وأعلن الخبراء أنهم يواجهون أزمة وأن بعض البنوك والمؤسسات المالية مهددة بالإفلاس، وأن شبح الإفلاس سوف يطال الكثيرين، وأن البطالة المخيفة تطل برأسها وهى قادمة لا محالة.



15

طغيان المال يؤدى إلى طغيان السلاح

- بداية الانهيار الاقتصادى الأمريكى من وجهة نظر أمريكية.
- النظام الربوى العالمى السبب الرئيسى للانهيار الاقتصادى والكساد العالمى.
- الربا أضراره وخطورته على النظام الاقتصادى العالمى.. وجهة نظر إسلامية.
- رأى الدكتور القرضاوى فى فوائد البنوك الربوية.



بداية الانهيار الاقتصادى الأمريكى من وجهة نظر أمريكية

ما حدث مؤخراً وألقى بظلاله على العالم المرتبط بالاقتصاد الأمريكى وإن كان المسئولون فى بعض الدول العربية كعادتهم يطمئنون رعاياهم بأنهم فى أمان وإن كل شىء على ما يرام كعادة هؤلاء المسؤولين دوماً، ما حدث يعتبر إحدى تبعات الحرب العالمية على الإرهاب التى قادتها أمريكا بأموال النفط العربى، حيث تنزف الحرب فى العراق وحدها نحو ١٢ مليار دولار شهرياً وذلك حسب تقدير الخبير الاقتصادى الأمريكى المعروف: «جوزيف ستيجليتز».

وقد أيد هذا الرأى «رون بول» عضو جمهورى بالكونجرس الأمريكى عن ولاية تكساس وأحد مرشحى الرئاسة عام ٢٠٠٨ فكان من بين ستة أعضاء من الجمهوريين عارضوا خطة بوش الابن فى غزوه للعراق ولهذا لم يتم اختياره كمرشح عن الحزب فى انتخابات الرئاسة الأخيرة.

ومما قاله «رون بول» «إن مواصلة السير فى طريق سياسة فاشلة لن يكلف إلا مزيداً من الأموال لم نعد نملكها ومزيداً من الأرواح يجب الا نضحى بها».

وتحت عنوان كشف حساب لحرب العراق نشر موقع «أنتى وور» أحد أهم مشروعات معهد راندولف بورن الذى يدعو لسياسة أمريكية خالية من التدخل من أجل عالم أفضل فى مارس الماضى ٢٠٠٨ جاء فيه:

قبل ست سنوات أضاءت حملة الصدمة والرعب العسكرية الأمريكية سماء العاصمة العراقية بغداد، أما بعد سنوات مع موت مئات الآلاف من العراقيين ونحو أربعة آلاف أمريكى يتعين علينا أن نتوقف ونتأمل فقط فيما تم الحصول عليه وما تم فقده.

من البداية كان الطريق إلى الحرب معبداً بالافتراضات الخاطئة والأكاذيب.

فقد ادعى مسؤلون كبار بالإدارة الأمريكية مرارا أن العراق مسئول عن هجمات سبتمبر، ٢٠٠١ .

كما ادعوا أن العراق امتلك أسلحة دمار شامل. واستغلوا مخاوف الشعب الأمريكى فى أعقاب أحداث الحادى عشر من سبتمبر لتعزيز أجندة حرب كانوا يخططون لها قبل سنوات من الهجوم.إن وسائل الإعلام السائدة ضالعة فى الدعاية لهذه الحرب.

ومنذ ما يقرب من عشر سنوات، قبل وقت طويل من ١١ سبتمبر، طالبت بوقت فى معارضة القانون الكارثى (قانون تحرير العراق لسنة ١٩٩٨)، حيث قلت حينذاك بمقر مجلس النواب: "أرى هذا التشريع جوهريًا كإعلان لحرب افتراضية.حيث يمنح رئيس البلاد سلطات مهولة لتنفيذ عمليات حربية ضد دولة ذات سيادة".وبعد أقل من خمس سنوات فى أعقاب ذلك كنا نقوم بغزو العراق.

خمسة أعوام فى غزو واحتلال العراق، ومئات آلاف غير معلنة من العراقيين لقوا حتفهم؛ ونحو ٢ مليون عراقى قد فروا من البلاد كلاجئين؛ كما تعرضت الطائفة المسيحية العراقية - وهى واحدة من بين الأعرق فى العالم - للقمع على نحو أكثر فظاعة عما كانت عليه حتى فى ظل الاحتلال العثمانى أو أثناء حُكم "صدام حسين".

أما على الجانب الأمريكى، فقد لقى نحو ٤٠٠٠ أمريكى مصرعهم بينما يقاتلون بالعراق، كما أُصيب عدة آلاف أكثر بصورة مروعة.

ويُحذر كبار ضباطنا العسكريين من أن جيشنا منهك تقريبًا جراء ضغط احتلال العراق. وإدارة المحاربين القدامى مثقلة بكمٍّ من شكاوى العجز المقدمة من جنود سابقين شاركوا فى حرب العراق.

وانتهت دراسة أعدها الخبير الاقتصادى (جوزيف ستيجليتز)، الحائز على جائزة نوبل، إلى أن تكلفة الحرب فى العراق يمكن أن تُقدر بـ ٣ تريليون دولار على الأقل.

إن العواقب الاقتصادية لإنفاقنا المهول فى العراق بدأت فى الإعلان عن نفسها بينما نهوى إلى انتكاسة اقتصادية وربما أسوأ.

ويزعم مناصرو حرب العراق أن "إستراتيجية الدفع" بقوات أمريكية إضافية إلى العراق مثلت نجاحًا مدويًا. وأنا لست شديد اليقين بذلك، ففى ظل سياسة (دفع القوات) درب الجيش الأمريكى وجهز بأسلحة فاتكة تلك العناصر من الميليشيات العراقية التى كان يقاتل ضدها فقط منذ عدة شهور.

وأخشى أننا قد نكون بتسليح وتجهيز ميليشيات معادية نقوم بإعداد المسرح لاندلاع أكثر مأساوية وخطورة فى أعمال العنف، ربما استهدف القوات الأمريكية فى العراق. ولا يوجد ما يُشير إلى تحقيق الحكومة العراقية لأى تقدم سياسى يُذكر.

وكلما أسرعنا فى الانسحاب، كلما كان أفضل. لقد عزز الغزو واستمرار الاحتلال الأمريكى وضع القاعدة فى المنطقة.

إن مواصلة السير فى طريق سياسة فاشلة لن يكلف إلا مزيدًا من الأموال لم نعد نملكها، ومزيدًا من الأرواح يجب ألا نضحىّ بها.

إن سياسة التدخل قد أفرزت كارثة تلو الأخرى.

وقد حان الوقت للعودة إلى سياسة خارجية غير تدخلية تركز على تجارة وسفر سلمى دون تحالفات معقدة. ويمكن لنا أن نبدأ ذلك بالانسحاب من العراق مباشرة.

وخلال كلمة له أمام مجلس النواب يوم الأربعاء ١٣ مارس بشأن التكاليف الناشئة عن سياسة التدخل الأمريكى حول العالم قال بول:

إنه من دواعى سعادتى أن أتحدث الليلة أمام المجلس بشأن الميزانية حيث أعرب اليوم الأعضاء من الحزبين عن العديد من المخاوف بشأن نوع الأزمة المالية التى نمر بها.

وليس هناك شك فى ذلك. لكن فى بعض الأحيان نعتقد أننا نمضى جيئة وذهابًا منفقين المزيد من الوقت فى لوم بعضنا البعض بدلاً من التعاطى مع المشكلة الفعلية.

ومن بين نقاط الخلاف حول الميزانية هى أننا ننظر إليها كمشكلة محاسبية أكثر منها كمشكلة فلسفية ولكن الإنفاق يحدث بناءً على ما نتقبله على أنه الدور الصحيح للحكومة.

وفى الوقت الحالى، فإن البلد فضلاً عن الكونجرس يعتبران أن الدور الصحيح للحكومة هو إدارة حياتنا، وإدارة الاقتصاد، وإدارة دولة الرفاهية، وحفظ النظام حول العالم.

ولكنه على نحو فجائى، قد فرض مزيدًا من الضغوط على عاتق الميزانية.

وحول رؤيته لسبل حل الأزمة الاقتصادية الراهنة التى تشهدها البلاد قال بول خلال كلمته:

إن الطريق الذى أراه هو أنه ليس هناك سوى طريق واحد فقط لنواجه ذلك، وهو، تحديد ما هو منوط بحكومتنا للقيام به.

والدستور واضح للغاية، فالحكومة يجب عليها حماية حرياتنا، ومنحنا دفاعاً قومياً قوياً.

ولا يجب أن تدير حياتنا، ولا يجب أن تدير الاقتصاد، ولا يجب أن تحفظ النظام فى العالم.

فليس من المفترض بنا أن نكون شرطيى العالم.

إن الأعضاء من الحزبين لا يترددون فى إنفاق كل سنت يطلبه الجهاز التنفيذى للاستمرار فى حرب لم تُعلن أبدًا.

ونحن ننفق فى الوقت الراهن ما يصل إلى تريليون دولار سنوياً، وسوف يتخطى هذا العام فوق تريليون دولار لإدارة العمليات الخارجية.

وهو ما يعنى جميع المساعدات الأجنبية والعسكرية، تريليون دولار لنقوم بأشياء ينبغى ألا نقوم بها.

وأضاف العضو الجمهورى البارز:

إن وجهة نظرى تعتمد على تأمين دفاع قومى قوى ووضع هذه الميزانية تحت السيطرة.

وأرفض فكرة أننا فى حاجة لقيادة إمبراطورية؛ فليس ذلك فى إمكاننا، وهى سوف تسقط، إنها تسقط دائمًا ولقد انهارت على مر التاريخ لأن العملة تنهار فى النهاية.

إننا فى ١٣٠ دولة ولدينا ٧٠٠ قاعدة عسكرية وجيشنا الآن - وفقًا لتقارير عسكرية - صار فى أسوأ حال له منذ خمس سنوات. لذا فإن الوقت قد حان للنظر إلى المعضلات الإستراتيجية والفلسفية وأقول إنه إذا لم نفعل ذلك، فإن الأمر سينتهى بصورة خطيرة.

سينتهى بأزمة اقتصادية ضخمة.

ستكون ذات امتداد دولى، ونحن هنا فى الوطن سوف نعانى ليس فقط اقتصاديّاً ولكن حتميّاً.

وفى ظل تلك الظروف، يفقد الشعب حريته، إن حرياتنا ترتكس يومًا بعد يوم[١].



(١) المصدر: http://www.islammemo.cc نقلاً عن موقع أنتى وور ترجمة وإعداد: شيماء نعمان.

النظام الربوى العالمى السبب الرئيسى للانهيار الاقتصادى والكساد العالمى

الأزمة الاقتصادية العالمية وما تبعها من كساد اقتصادى عالمى وبطالة ودمار اقتصادى سوف تتفاقم مع السنوات القادمة إلا أن يشاء الله برحمته بأن توجد الحلول ويعود العالم إلى رشده ويفيق، وقد عدَّد أهل العلم فى الاقتصاد أسباب تلك الأزمة واستخلصوا الأسباب الرئيسية ومن هؤلاء «موريس اكيه» الحاصل على جائزة نوبل فى الاقتصاد الذى قال: إن النظام الاقتصادى الرأسمالى يقوم على بعض المفاهيم والقواعد التى هى أساس تدميره إذا لم تعالج وتصوب تصويباً عاجلاً.

فالنظام الرأسمالى مثل النظام الشيوعى والاشتراكى الغربى يحمل فى طياته أسباب انهياره وتدميره.

ومما ذكروه من أسباب هذه الأزمة ما يلى:

١- انتشار الفساد الأخلاقى الاقتصادى مثل: الاستغلال والكذب والشائعات المغرضة والغش والتدليس والاحتكار والمعاملات الوهمية، وهذه الموبقات تؤدى إلى الظلم، وهو ما يقود إلى تذمر المظلومين عندما لا يستطيعون تحمله، وبالتالى يقود إلى تذمر المدنيين وحدوث الثورات الاجتماعية عند عدم سداد ديونهم وقروضهم.

٢- من أسباب الأزمة كذلك أن أصبحت المادة هى الطغيان وسلاح الطغاة، والسيطرة على السياسة واتخاذ القرارات السيادية فى العالم، وأصبح المال هو معبود الماديين.

٣- يقوم النظام المصرفى الربوى على نظام الفائدة أخذا وعطاءً، ويعمل فى إطار منظومة تجارة الديون شراءً وبيعا ووساطة.

وكلما ارتفع معدل الفائدة على الودائع كلما ارتفع معدل الفائدة على القروض الممنوحة للأفراد والشركات والمستفيد هو البنوك والمصارف والوسطاء الماليين والعبء

والظلم يقع على المقترضين الين يحصلون على القروض سواء لأغراض الاستهلاك أو لأغراض الإنتاج.

ويرى بعض الاقتصاديين أنه لا تحقق التنمية الحقيقية والاستخدام الرشيد لعوامل الإنتاج إلا إذا كان سعر الفائدة صفرا، وهذا ما قاله آدم سميث أبو الاقتصاديين (على حد رأيهم، ويرون أن البديل هو نظام المشاركة فى الربح والخسارة؛ لأنه يحقق الاستقرار والأمن.

وقالوا كذلك إن نظام الفائدة يقود إلى تركز الأموال فى يد فئة قليلة سوف تسيطر على الثروة.

٤- يقوم النظام المالى والمصرفى التقليدى على نظام جدولة الديون بسعر فائدة أعلى، أو استبدال قرض واجب السداد بقرض جديد بسعر فائدة مرتفع، كما كان المرابون يقولون فى الجاهلية: (أتقْضِى أم تُرْبِى)، وهذا يلقى أعباء إضافية على المقترض المدين الذى عجز عن دفع القرض الأول؛ بسبب سعر الفائدة الأعلى.

٥- يقوم النظام المالى العالمى ونظام الأسواق المالية على نظام المشتقات المالية التى تعتمد اعتمادا أساسيا على معاملات وهمية ورقية شكلية تقوم على الاحتمالات، ولا يترتب عليها أى مبادلات فعلية للسلع والخدمات، فهى عينها المقامرات والمراهنات التى تقوم على الحظ والقدر.

والأدهى والأمَرُّ أن معظمها يقوم على ائتمانات من البنوك فى شكل قروض، وعندما تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن ينهار كل شىء، وتحدث الأزمة المالية.

وأضافوا أيضاً أن سوء سلوك مؤسسات الوساطة المالية من أهم الأسباب حيث تقوم بإغراء الراغبيين فى القروض وتدلس عليهم وتغريهم بالحصول على القروض من المؤسسات المالية وتطلب عمولات عالية والتى يتحملها المقترض المدين فلا يستطيع السداد فى النهاية.

وكذلك الإقراض فى تطبيق نظام بطاقات الائتمان بدون رصيد والتى تحمل صاحبها تكاليف عالية وعندما يعجز عن السداد تزيد الفائدة عليها، وهو الربا

المضاعف ويتم الحجز عليه وعلى كل ما يملك من عقار أو سيارة وبيعها لصالح البنك.

إنه نظام ربوى شامل نهى عنه الإسلام صراحة فى القرآن الكريم كما سنوضح.. إن شاء الله.

وهكذا تحوّلت أزمةُ الائتمان فى الولايات المتحدة إلى أزمة ثقة.

فهل من الممكن حدوث الأسوأ وما هو؟ وما هو عمق أزمة الانكماش الاقتصادى وهل سيؤثر الركود على بقية العالم؟ ومتى سيتوقف التراجع المتكرر للبورصات العالمية؟

السيناريوهات تتعدد وتتباين، بما فى ذلك سيناريو أسوأ نهاية.

وحول هذه التساؤلات، يقدم خبيران اقتصاديان سويسريان آراء متناقضة فى تصريحات أدليا بها لسويس انفو عشية إعلان أكبر مصرف فى البلاد، يو بى إس، عن تسجيل خسائر جسيمة فى الثلث الأول من العام واستقالة رئيسه، مارسيل أوسبيل، من مجلس الإدارة.

فيرناندو مارتينس دا سيلفا، رئيسُ قسم الإستراتيجية الاقتصادية فى مصرف كانتون فو BCV ينظر للوضع بأعصاب هادئة؛ فهو يرى أنه من (المُستبعد جدا) حدوث سيناريو انهيار الأسواق المالية والاقتصاد الحقيقى.

وفى الوقت الراهن، تُقيِّد البنوك إجراءات منح القروض التى تشهد تكلفتها ارتفاعا ملحوظا، خاصة فى الولايات المتحدة.

كما زاد انعدام الثقة بين الفاعلين الماليين، بحيث يخشى كل طرف من أن يُفلس الطرف الآخر فى مُستقبل قريب.

وإذا كان الأمر كذلك، يمكن أن يؤدى إفلاس المؤسسات المالية إلى (سلسلة فقدان السيولة) فى أسواق رأس المال. وإن جفت الأسواق، سيتعين على الفاعلين الاقتصاديين والماليين التنازل عن أجزاء كبيرة من حقائبهم، حتى وإن كانت مُدرجة فى مشاريع استثمارية جيدة. والنتيجة: انخفاض فى أسعار الأصول المالية، وخسائر بالجملة.

ويقول مارتينس دا سيلفا فى هذا السياق: (من الناحية النظرية، يمكن أن تتراجع

البورصات إلى مستويات متدنية جدا فى حال حدوث حالات إفلاس كثيرة، حتى تبلغ القيمة الإسمية للأسهم.

لكن هذا سيكون بمثابة السيناريو الكارثى بنسبة بطالة تتراوح بين ٢٠ و٣٠٪. ونحن لازلنا بعيدين عن ذلك الوضع).

وستكون بداية السيناريو الأسوأ بانزلاق منهجى للمؤسسات المالية مثل المصارف والصناديق التحويطية. وبعد الحرمان من السيولة، (لن يثق أحد فى أحد).

وستؤدى التصفية الجبرية للكثير من الأصول إلى شلل النظام، فى حين يحتاج الاقتصاد الحقيقى إلى أسواق رؤوس المال لتمويل نفسه ودفع فواتيره.

وفى حال تجمّد الاستهلاك والاستثمارات لدى الشركات والخواص على حد سواء، سيتعطل النمو الاقتصادى العالمى، أو حتى يقع فريسة للأزمة.

ويرفض مارتينس دا سيلفا حدوث سيناريو تفشى البطالة والفقر المُستشرى، إذ يظل على قناعة بأن التناقضات كبيرة بين الكساد الكبير لعام ١٩٢٩ والوضع الاقتصادى العالمى اليوم.

فالقطاع الصناعى، على سبيل المثال، لا يعانى من تضخم فى العمالة مثلما كان الأمر عليه فى السابق.

والمصارف المركزية، بدل التشدد فى سياسة الإقراض، تفتح خزائنها بسخاء.

ويمكن القول أن الجميع (محظوظون) فى هذه الفترة بفضل ضعف نسبة التضخم الذى لا (يلتهم) الجزء الأكبر من الموارد الضخمة التى وقع ضخها فى النظام المالى.

وإذا كانت الحالة ستزداد سوءا، فيتصور مارتينس دا سيلفا جيدا تدخلا من جانب السلطات العمومية، مثل ما حدث خلال إنقاذ النظام المصرفى السويدى فى بداية عقد التسعينيات.

وعندئذ، يمكن أن نشهد تأميما (مؤقتا) لجزء من المصارف وبعض الديون السيئة، إذ ستلعب السلطات العمومية دور الصناديق التى ستتحمل جزءاً من الديون.

وبما أن الوضع (لم يبلغ هذه الدرجة من السوء)، يعتقد مارتينس دا سيلفا أن ضمانات الدولة ستسمح للنظام الاقتصادى والمالى بالخروج من المأزق والعمل مُجددا، لكن فقط إذا اقتضت الضرورة مثل هذا الحل.

من جهته، يظل بول ديمبينسكى أكثر تشككا، إذ يقول مدير (مرصد المالية) فى جنيف والأستاذ بكلية الاقتصاد بجامعة فريبورغ: (أعتقد أن المسؤولين عن المصارف المركزية يقومون بأى شىء ونقيضه فى محاولة لطمأنة من يمكن طمأنتهم لكى لا يقومون بإلقاء الرضيع مع الماء (أى يستسلموا للذعر)).

ويرى البروفيسور ديمبينسكى أن السيناريو الأسوأ ليس فقط من نسج الخيال بل يعتمد على مستوى تدنى الثقة فى النظام المصرفى والائتمان. ويتصور أن مرحلة امتصاص الأزمة المالية ستكون (مؤلمة جدا)؛ إذ سيُضاف إلى المشكل البنيوى للاقتصاد المالى ذوبان حقيقى (أى انهيار فظيع) لقيمة ميزانيات الفاعلين الاقتصاديين والاستهلاك.

ويقول البروفيسور ديمبينسكى فى هذا الشأن: (لن يُفلت أى قطاع اقتصادى. أما العناصر التى ستتمكن من البقاء، فهى تلك المتجذرة بشكل مباشر فى الاحتياجات اليومية للبشر: الأكل واللباس والمأوى).

وفى كتاب له صدر مؤخرا، يضع بول ديمبينسكى كتشخيص طويل المدى، أن بعض الآراء والقيم، لا سيما فى مجال الاقتصاد، دفعت النظام إلى نقطة القطيعة. ويكتب فى هذا الصدد: (نحن نواجه استنزافا حادا للغاية لـ (المادة البشرية) التى تغذى طريقة عمل الاقتصاد).

ويضيف (إننى أميل إلى قراءة الوضع الراهن من حيث المشكلة النظامية. أنا لا أقول إننا شهود على الأزمة الأخيرة وعلى الانهيار. لكننا نعيش، على الأقل، مرحلة ارتجاف)[1].

وانتقلت الأزمة من البورصات المالية والأسهم والعقارات إلى سوق النفط، وقد تبين أن سبب ارتفاع أسعار النفط عام ٢٠٠٨ كان انتقال رؤوس الأموال المضارِبة من العقارات إلى النفط، وأن انهيار رأس المال المضارِب ونظام المضاربة نفسه، ولو مؤقتاً،

(١) المصدر : www.swissinfo.ch ابريل سنه ٢٠٠٨.

أدى إلى انخفاض أسعار النفط. وما زالت أسعار النفط فى انخفاض وتدهور غير مسبوق ومن المتوقع أن يصل سعر البرميل إلى ٢٤ دولاراً!!

كما أن انخفاض النفط أسهم فى ارتفاع سعر الدولار، من بين عوامل أخرى، لأن النفط يستورد بالدولار، وبالتالى قل عرض الدولار لشراء النفط، فارتفع سعره، مع بقاء العوامل الأخرى ثابتة.

لكن ارتفاع أسعار النفط ومشتقاته والغذاء وكل ما يرتبط به، كان أحد أسباب تزايد تعثر القروض العقارية عندما وجد المقترضون أنفسهم مضطرين للاختيار بين الجوع ودفع أقساط قروضهم، وهذا من تلاعب القوة الأمريكية الخفية بالاقتصاد العالمى.

وكان من الآثار العامة للأزمة انخفاض مبيعات السيارات بمقدار الثلث تقريبا لبعض الشركات الأمريكية، وهو ما يعبر عن دخول الاقتصاد حالة من الكساد.

فقد توقف المشترون بالقسط للسلع الاستهلاكية عن السداد نتيجة لارتفاع الأسعار للسلع الغذائية.

وبعد أن عاد معدل الفائدة للارتفاع، قام الاحتياطى الفدرالى بتخفيض معدل الفائدة الأساسى من ٥,٢٥٪ أول صيف ٢٠٠٦ إلى ١٪ نهاية أكتوبر ,٢٠٠٨

وقد ترافق ذلك مع ضخ تسعمائة مليار دولار لحل أزمة السيولة، واستعادة الثقة فى النظام المصرفى، ويقدر أن تزيد، وقد جاء الاعتراض على خطة الإنقاذ من طرفين رئيسيين، صقور حرية السوق الذين رأوا فيها تدخلاً غير ضرورى من الدولة فى الاقتصاد، ويسار الحزب الديمقراطى الذى رأى فيها إنقاذا لمن سببوا الأزمة على حساب دافع الضرائب الأمريكى.

لكن كل ما سبق يفسر الآلية الداخلية للرأسمالية الأمريكية التى أنتجت الأزمة، لكنه لا يفسر توقيت الأزمة، ومدى حدتها.

فعوامل الأزمة موجودة فى بنية النظام الرأسمالى نفسه، وسبق أن انفجرت فقاعات مضاربة من قبل دون أن تؤدى للانهيار أو الذوبان، لأن الرأسمالية الأمريكية كانت قادرة

أن تحل أزمتها تاريخيا على حساب غيرها.

لكن السبب الحقيق أو المباشر فى تلك الأزمة ليس كما يقولون بأنه إعطاء القروض لمجموعة أشخاص غير مؤهلين لحملها فهذا فيه تسخيف للعقول، وفيه شىء من العنصرية البغيضة، لأن قسماً لا بأس به ممن تم التساهل فى منحهم القروض جاؤوا من صفوف الأقليات العرقية فى الولايات المتحدة.

سبب الأزمة الداخلى والبنيوى هو لاعقلانية رأسمالية المضاربة، والترابط الوثيق بين الأجزاء المكونة للاقتصاد الرأسمالى ضمن أميركا وخارجها.

فهناك أولاً العجز السنوى فى الموازنة الحكومية الأمريكية الذى بلغ السنة المالية ٢٠٠٧-٢٠٠٨ حوالى ٤٥٥ مليار دولار، بدون المبالغ المخصصة لإنقاذ الاقتصاد، ويتوقع أن يبلغ ضعف ذلك الرقم السنة المالية القادمة.

ويشكل تراكم هذه العجوزات السنوية الدين العام الأمريكى، وقد تخطى عتبة عشرة تريليونات دولار مع نهاية السنة المالية يوم ٢٠٠٨,/٩/٣٠ ويوم ٢٠٠٨/١٠/٤ تم رفع سقف الدين العام المسموح به إلى ١١,٣ تريليون دولار.

يُشار إلى أن أكثر من ٤٠٪ بقليل من الدين العام تدين به مؤسسات حكومية أمريكية لمؤسسات حكومية أخرى.

أما الباقى فيملكه أثرياء الأمريكان والأجانب.

فالدين العام الأمريكى للأجانب يبلغ أكثر من الربع، وتأتى اليابان على رأس قائمة مالكى السندات والأذونات الحكومية الأمريكية، تليها الصين الشعبية، ثم بريطانيا.

ويلاحظ النمو الانفجارى فى العجز الحكومى الأمريكى منذ مجىء بوش الصغير للحكم، وكان قد وعد بفائض سنوى قدره تريليون وربع بين عامى ٢٠٠١ و٢٠٠٤، لكن ذلك انقلب إلى عجز مقداره ٨٥٠ مليارا لعام ٢٠٠٥، فسره بوش آنذاك هكذا (٤٩٪ إعادة تقدير اقتصادية وتقنية، ٢٩٪ إعفاءات ضريبية، و٢٢٪ للحرب على الإرهاب، وفى العراق ولتعزيز الأمن الداخلى المتهاوى)!

فالحرب فى العراق حتى بدايات عام ٢٠٠٨ كلفت الخزينة الأمريكية ٨٤٥ مليار دولار بشكل مباشر.

وكتب البروفسور جوزيف ستيغلتز، الحائز على جائزة نوبل فى الاقتصاد، كتاباً مع مؤلفة أخرى هى ليندا بيلمز صدر يوم ٢٠٠٨/٣/٣، ويحمل عنوان (حرب الثلاثة تريليونات دولار يقولان فيه إن الكلفة المباشرة وغير المباشرة لحرب العراق على الاقتصاد الأمريكى بلغت على الأقل، وبحسابات صارمة للغاية، أكثر من ثلاثة تريليونات من الدولارات.

وقالا إن ذلك كان سيُحدث كساداً كبيراً فى الاقتصاد الأمريكى لو لم تتساهل البنوك بالإقراض، ولو لم يخفض البنك المركزى معدلات الفائدة بشكل كبير، لذلك اعتبر المؤلفان أن العراق لعب دوراً رئيسيا فى حدوث الأزمة المالية الأمريكية.

ويضيف ستيغلتز وبيلمز بالمناسبة أن حل الحكومة الأمريكية للمشكلة يكمن فى الاستيلاء على الصناديق السيادية العربية، وهى الصناديق الاستثمارية العربية المملوكة حكوميا التى تحتوى أصولها المالية الأسهم والسندات والعقارات والمعادن الثمينة وغيرها.

ولولا المقاومة العراقية لما تكلفت أميركا ثلاثة تريليونات دولار فى العراق حتى الآن. وتلك هى العقدة التى كسرت أسنان المناشر أو الترس الدائر.

من ناحية أخرى، تعانى الولايات المتحدة من عجز مزمن فى حسابها الجارى منذ بداية الثمانينيات، وقد تفاقم هذا العجز بشكل جنونى منذ مجىء بوش للحكم، وبلغ ٧٥٨ مليار دولار مثلاً عام ٢٠٠٦، وانخفض إلى حوالى ٧٣٩ مليارا عام ٢٠٠٧، ليعاود الارتفاع إلى نسبة مئوية من الناتج المحلى الإجمالى فى النصف الأول من عام ٢٠٠٨، ليصل إلى ٣٥٩ مليارا فقط خلال الأشهر الستة الأولى.

العجز فى الحساب الجارى يعنى أن أميركا تستورد أكثر مما تصدر، أو أن عائدات أصولها فى الخارج أقل من عائدات الأصول الأجنبية فى أميركا، أو أن حكومتها تنفق فى الخارج أكثر مما تنفق الحكومات الأجنبية فى أميركا، أو كل هذا أو بعضه معا.

ومن المعروف فى المالية الدولية أن العجز فى الحساب الجارى يجب أن يوازيه

فائض فى الحساب الرأسمالى.

وهذا يعنى أن من يستورد أكثر مما يصدر إما أن يقترض من الخارج، وإما أن يبيع أصوله المحلية للأجانب. وأميركا تفعل الأمرين معا.

التدفق المالى الآتى من الخارج إذن على شكل قروض لأميركا أو على شكل استثمارات يجب أن يجد منافذ استثمارية مربحة بالنسبة له.

ومن هنا نفهم التساهل فى الإقراض، وانفلات عمليات المضاربة من عقالها لتحقيق عائد سريع، حتى باتت الرأسمالية الأمريكية تقتات على لحمها.

وأدى ذلك إلى قيام أمريكا بطبع كميات إضافية من الدولارات فهى، قادرة أن تطبع الدولار بلا حسيب ولا رقيب، والعالم يطلب الدولار كعملة عالمية، فإن العجز المتفاقم فى الحساب الجارى ظل عاملاً كامنا للأزمة، ولكنه ما كان ليتحول إلى أزمة إلا إذا قل الطلب العالمى على الدولار، أو قلت رغبة العالم فى شرائه.

وهو ما حدث مع دخول اليورو على خط المنافسة، ومع خوف الصين واليابان وغيرها على قيمة احتياطاتها من الدولار بسبب التوجس من حالة الاقتصاد الأمريكى وانخفاض الدولار مع ارتفاع سعر النفط.

لكن وضع أمريكا كقطب فى العالم جعلها فى موقف لا يمكن أن يسألها أحد عن أفعالها وأتاح لها على مدى عقود أن تستهلك من خلال طباعة الدولار فقط، والأهم، لولا تفاقم العجز الحكومى الأمريكى الذى تصاعد بشكل أساسى فى ظل بوش بسبب حروب أميركا فى الخارج، خاصة فى العراق.

وتورط أميركا فى العراق أتاح بدوره لقوى جديدة فى العالم أن ترفع رأسها وأن تأخذ مكانها فى حلبة السياسة والاقتصاد العالميين، مما أضعف حيز المناورة المتاح لأميركا فى التعامل مع الأزمة، وكشف أوراق اللعبة الدولية ومدى قدرة أمريكا على الصمود فى السنوات القادمة وإن كان الانهيار أقرب الاحتمالات لها.

الربا وأضراره وخطورته على النظام الاقتصادى العالمى من وجهة نظر إسلامية

الربا فى اللغة: هو الزيادة. قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ (الحج: ٥).

وقال تعالى: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ (النحل: ٩٢)، أى أكثر عددا يقال: (أربى فلان على فلان، إذ زاد عليه) وأصل الربا الزيادة، إما فى نفس الشىء وإما فى مقابله كدرهم بدرهمين، يقال: ربا الشىء إذا زاد، ومن ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ (البقرة: ٢٧٦). وأربى الرجل: عامل بالربا أو دخل فيه ويطلق الربا على كل بيع محرم أيضا.

وأما الربا فى الشرع: هو الزيادة فى أشياء مخصوصة. وهو يطلق على شيئين: يطلق على ربا الفضل وربا النسيئة.

والربا فى اصطلاح الفقهاء له عدة معان منها:

عرفه الحنفية بأنه: فضل خال عن عوض بمعيار شرعى مشروط لأحد المتعاقدين فى المعارضة.

وعرفه الشافعية بأنه: عقد على عوض مخصوص غير معلوم التماثل فى معيار الشرع حالة العقد أو مع تأخير فى البدلين أو أحدهما.

وعرفه الحنابلة بأنه: تفاضل فى أشياء، ونسىء فى أشياء، مختص بأشياء، ورد الشرع بتحريمها - أى تحريم الربا فيها- نصا فى البعض، وقياسا فى الباقى منها.

والربا محرم بالكتاب والسنة والإجماع، وهو من الكبائر، ومن السبع الموبقات، ولم يؤذن الله تعالى فى كتابه عاصيا بالحرب سوى آكل الربا، ومن استحله فقد كفر - لإنكاره معلوما من الدين بالضرورة - فيستتاب، فإن تاب وإلا قتل.

أما من تعامل بالربا من غير أن يكون مستحلا له فهو فاسق.

ودليل التحريم من الكتاب قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ (البقرة: ٢٧٥)، وقوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ...﴾ (البقرة: ٢٧٥).

ودليل تحريم الربا من السنة أحاديث كثيرة منها: ما ورد عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: (اجتنبوا السبع الموبقات قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات) [١].

وقال أيضا: (لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه)[٢]، وقال: هم سواء. وأجمعت الأمة على أصل تحريم الربا. وإن اختلفوا فى تفصيل مسائله وتبين أحكامه وتفسير شرائطه.

وقوله أيضا: (ليأتين على الناس زمان لا يبالى المرء بما أخذ المال أمن الحلال أم من الحرام).

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال النبى ﷺ: (رأيت الليلة رجلين أتيانى فأخرجانى إلى أرض مقدسة فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم ورجل قائم، وعلى وسط النهر رجل بين يديه حجارة، فأقبل الرجل الذى فى النهر فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر فى فيه (فمه) فرد حيث كان فجعل كلما جاء ليخرج رمى فيه بحجر فيرجع كما كان، فقلت: ما هذا؟ فقال: الذى رأيته فى النهر آكل الربا) [٣]

وقد ذكر الله تعالى لآكل الربا خمسا من العقوبات:

إحداها: التخبط.. قال تعالى:﴿لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ (البقرة: ٢٧٥).

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم فى صحيحه.

(٣) رواه البخارى.

الثانية: المحق.. قال تعالى: (يمحق الله الربا) المراد الهلاك والاستئصال، وقيل: ذهاب البركة والاستمتاع حتى لا ينتفع به، ولا ولده بعده.

الثالثة: الحرب قال تعالى: ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (البقرة: ٢٧٩).

الرابعة: الكفر.. قال تعالى: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (البقرة ٢٧٨) وقال سبحانه فى ذكر الربا: ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ (البقرة: ٢٧٦) أى: كفار باستحلال الربا، أثيم فاجر بأكل الربا.

الخامسة: الخلود فى النار قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٥)، وكذلك - قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٣٠).

وقوله سبحانه: (أضعافا مضاعفة) ليس لتقييد النهى به، بل لمراعاة ما كانوا عليه من العادة توبيخا لهم بذلك إذ كان الرجل يربى إلى أجل، فإذا حل قال للمدين: زدنى فى المال حتى أزيدك فى الأجل، فيفعل، وهكذا عند محل كل أجل، فيستغرق بالشىء الطفيف ماله بالكلية، فنهوا عن ذلك ونزلت الآية.

وقال الإمام النووى فى شرح صحيح مسلم: (أجمع السلمون على تحريم الربا فى الجملة وإن اختلفوا فى ضابطه وتعاريفه).

ونص النبى ﷺ على تحريم الربا فى ستة أشياء: الذهب والفضة، والبر، والشعير، والتمر، والملح.

قال الظاهرية: لا ربا فى غير هذه الستة، بناء على أصلهم فى نفى القياس.

وقال جميع العلماء سواهم: لا يختص بالستة بل يتعدى إلى ما فى معناها وهو ما يشاركها فى العلة.

واختلفوا فى العلة التى هى سبب تحريم الربا فى الستة:

فقال الشافعية: العلة فى الذهب، والفضة كونهما جنس الأثمان، فلا يتعدى الربا منهما إلى غيرهما من الموزونات، وغيرها لعدم المشاركة، والعلة فى الأربعة الباقية:

كونها مطعومة فيتعدى الربا منها إلى كل مطعوم.

ووافق مالك الشافعى فى الذهب والفضة.

أما فى الأربعة الباقية فقال: العلة فيها كونها تدخر للقوت وتصلح له.

وأما مذهب أبى حنيفة رحمه الله تعالى: فهو أن العلة فى الذهب، والفضة الوزن وفى الأربعة الكيل فيتعدى إلى كل موزون، وإلى كل مكيل.

ومذهب أحمد، والشافعى القديم، وسعيد بن المسيب: أن العلة فى الأربعة كونها مطعومة موزونة، أو مكيلة بشرط الأمرين(١).

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (اتفق جمهور الصحابة، والتابعين، والأئمة الأربعة على أنه لا يباع الذهب، والفضة، والحنطة، والشعير، والتمر، والزبيب بجنسه إلا مثلا بمثل(٢)، إذ الزيادة على المثل أكل للمال بالباطل.

وأجمع العلماء كذلك على أنه لا يجوز بيع الربوى بجنسه حالا كالذهب بالذهب، وأجمعوا على أنه لا يجوز التفرق قبل التقابض إذا باعه بجنسه - كالذهب بالذهب، أو التمر بالتمر- أو بغير جنسه مما يشاركه فى العلة كالذهب بالفضة والحنطة بالشعير، وقال الإمام ابن قدامة - رحمه الله - فى حكم الربا: (وهو محرم بالكتاب والسنة والإجماع).

والحاصل مما تقدم أن العلة فى جريان الربا فى الذهب والفضة: هو مطلق الثمنية، أما الأربعة الباقية فكل ما اجتمع فيه الكيل، والوزن، والطعم من جنس واحد ففيه الربا: مثل: البر، والشعير، والذرة، والأرز، والدُّخْن(٣).

وأما ما انعدم فيه الكيل، والوزن، والطعم واختلف جنسه فلا ربا فيه وهو قول أكثر أهل العلم: مثل القت(٤)، والنوى(٥).

---

(١) انظر فتاوى ابن تيمية.

(٢) ويدا بيد لا تأجيل لأحدهما.

(٣) نوع من الحبوب.

(٤) نوع من النبات العشبى منه أنواع تنبت نباتا إلهيا وأنواع تزرع فى الأراضى.

(٥) انظر المغنى لابن قدامة.

والربا حرم فى الشرائع السابقة كاليهودية والنصرانية قبل الانتقال عن بدايته وكيف نشأ، قال الماوردى وغيره: الربا لم يحل فى شريعة قط لقوله تعالى: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ **(النساء: ١٦١)** يعنى فى الكتب السابقة.

لقد حرم الله الربا على اليهود، وهم يعلمون ذلك، وينهون عنه فيما بينهم، لكنهم يبيحونه مع غيرهم، جاء فى سفر التثنية: الإصحاح الثالث والعشرين: (للأجنبى تقرض بربا، ولكن لأخيك لا تقرض بالربا).

ومنشأ هذا أنهم ينظرون إلى غيرهم نظرة استعلاء واحتقار، والتوراة وإن كانت قد حرفت إلا أن شيئا منها بقى كما هو لم يحرف، منها تحريم الربا، لكنهم حرفوا النص حينما أباحوه مع غير اليهودى.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: (إن الله قد نهاهم - أى اليهود- عن الربا، فتناولوه، وأخذوه، واحتالوا عليه بأنواع الحيل، وصنوف من الشبه، وأكلوا أموال الناس بالباطل).

وقد صرف اليهود النص المحرم للربا حيث قصروا فيه على التعامل بين اليهود، أما معاملة اليهودى لغير اليهودى بالربا، فجعلوه جائزا لا بأس به.

ويقول أحد رهبانييهم: (عندما يحتاج النصرانى إلى درهم فعلى اليهودى أن يستولى عليه من كل جهة، ويضيف الربا الفاحش إلى الربا الفاحش، حتى يرهقه، ويعجز عن إيفائه ما لم يتخل عن أملاكه أو حتى يضاهى المال مع فائدة أملاك النصرانى، وعندئذ يقوم اليهودى على مدينه غريمه- وبمعاونة الحاكم يستولى على أملاكه.

فاتضح من كلام الله أن الله قد حرم الربا فى التوراة على اليهود، فخالفوا أمر الله، واحتالوا، وحرفوا، وبدلوا، واعتبروا أن التحريم إنما يكون بين اليهود فقط، أما مع غيرهم فلا يكون ذلك محرما فى زعمهم الباطل، ولذلك ذمهم الله فى كتابه العزيز لما قاموا به من تحريف للشريعة الربانية الحقة.

إنجيل لوقا: (إذا أقرضتم الذين ترجون منهم المكافأة فأى فضل يعرف لكم؟..

ولكن افعلوا الخيرات وأقرضوا غير منتظرين عائدها.. وإذا يكون ثوابكم جزيلا).

وقد أجمع رجال الكنيسة ورؤساؤها كما اتفقت مجامعها على تحريم الربا تحريما قاطعا، حتى إن الآباء اليسوعيين وردت عنهم عبارات صارخة فى حق المرابين، يقول الأب بونى: (إن المرابين يفقدون شرفهم فى الحياة، إنهم ليسوا أهلا للتكفين بعد موتهم).

وأما العرب فى جاهليتهم على الرغم من تعاملهم به إلا أنهم كانوا ينظرون إليه نظرة ازدراء، وليس أدلة على ذلك أنه عندما تهدم حائط الكعبة وأرادت قريش إعادة بنائه حرصت على أن تجمع الأموال اللازمة من البيوت التى لا تتعامل بالربا، حتى لا يدخل فى بناء البيت مال حرام.

فقد قال أبو وهب بن عابد بن عمران بن مخزوم: (يا معشر قريش لا تدخلوا فى بنيانها من كسبكم إلا طيبا، لا يدخل فيها مهر بغى (ما تأخذه البغى من الزانى بها)، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس.

ومهما كان فالربا كان منتشرا فى عصر الجاهلية انتشارا كبيرا وقد عدوه من الأرباح العظيمة - فى زعمهم- التى تعود عليهم بالأموال الطائلة، فقد روى الإمام الطبرى - رحمه الله- أنه قال: (كانوا فى الجاهلية يكون للرجل على الرجل الدين فيقول: لك كذا وكذا وتؤخر عنى فيؤخر عنه.

وغالب ما كانت تفعله الجاهلية أنه إذا حل أجل الدين قال (من هو له) (لمن هو عليه): أتقضى أم تربى؟ فإذا لم يقض زاد مقدارا فى المال الذى عليه، وأخر له الأجل إلى حين، وفى الأثمان يأتيه فإن لم يكن عنده أضعفه فى العام المقبل، فإن لم يكن عنده فى العام المقبل أضعفه أيضا، فإذا كانت مائة جعلها إلى قابل مائتين، فإن لم يكن عنده من قابل جعلها أربعمائة يضعفها له كل سنة أو يقوم بالسداد، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

(آل عمران ١٣٠).

أضرار الربا ومضاره اقتصادياً واجتماعياً:

مضار الربا من الناحية الاقتصادية تتجسد فى صور من القروض، كالاستهلاكية والقروض الإنتاجية والقروض الحكومية من الداخل، ومنها:

١- القروض الاستهلاكية: وهى قروض يطلبها الفقراء المتوسطون نتيجة لوقوعهم فى مصيبة أو شدة لقضاء حجاتهم الضرورية. ومن المعلوم فداحة السعر الربوى فى هذا النوع من القروض، لأن المتصدى لهذا النوع هو المرابى الذى لا رقيب عليه فى تقرير الفائدة، فالذى يقع فى شرك هذا المرابى مرة لا يتخلص منه طول حياته، بل يكون العبء على أبنائه وأحفاده فى سداد دينه، وهو أهم مظاهر الربا فى الدول الغربية وخاصة فى أمريكا.

وهذه العملية هى التى تمكن الرأسمالى من دخل العمال وتجعله مستبدا به دونهم. ونتيجة لذلك تفسد أخلاقهم، ويقترفون الجرائم والدنايا، وهو يحط من مستوى المعيشة، ويقلل من كفاءاتهم ونشاطهم الذهنى والبدنى.

وهذا ليس ظلما فحسب بل إنه ضرر على الاقتصاد الاجتماعى، على أن المرابى يسلب قوة الشراء من الفقير، وإذا فترت قوة الشراء تكدست البضائع فى الأسواق ونتيجة لهذا التكدس تتوقف بعض المعامل من الإنتاج أو تقلله على الأقل وبهذه العملية تنشأ البطالة لمئات من البشر، وهذه البطالة تعرقل نمو التجارة والصناعة.

٢- القروض الإنتاجية: وهذه القروض يأخذها التجار وأصحاب الصناعة والحرف لاستغلالها فى الإنتاج إن هذه العملية التى يأخذ المرابى الربا من دون أن يتعرض لشىء إذا خسر المعمل أو التاجر تؤدى إلى تحرك الميزان الاقتصادى من جانب واجد دائما وهو جانب المرابى فهو رابح دائما، أما صاحب المعمل أو التاجر فليس له ذلك.

٣- كذلك، فيتضرر جميع العمال وصاحب العمل إلا المرابى فإنه لا يتضرر بذلك حيث أن ربحه مضمون، بالإضافة إلى أن معظم رأس المال مدخر عند الرأسماليين، لأنهم يرجون ارتفاع سعر الربا، فلا يعطى ماله للتجارة أو الصناعه لانتظاره ارتفاع سعر الربا على أن السعر المرتفع يجعل المرابى ممسكا لماله إلا وفق مصلحته

الشخصية لا وفق حاجة الناس أو البلاد.

وقد يكون السعر المرتفع مانعا للأعمال النافعة المفيدة للمصلحة العامة ما دام ربحها لا يسدد سعر الربا، فى حين أن المال يتدفق نحو الأعمال البعيدة عن المصلحة العامة لأنها تعود بربح كثير.

٣- القروض الحكومية من الداخل: وهى القروض التى تأخذها الحكومة من أهالى البلاد، فهناك القروض المأخوذة لأغراض غير مثمرة كالحروب.

وهناك القروض المأخوذة لأغراض إنسانية اجتماعية كالتجارة مثلا، وهذان النوعان يشابهان القروض الاستهلاكية والقروض الإنتاجية.

والملاحظ هنا أن الحكومة تلقى ضغطاً على عامة أهل البلاد بفرض الضرائب والمكوس حتى تستطيع أن تؤدى إلى الرأسماليين (أصحاب القروض) الربا، والتجار أيضا لا يؤدون هذه الضرائب والمكوس من عندهم وإنما يرفعون قيمة السعر فيؤخذ الربا على وجه غير مباشر من كل من يشترى من السوق وهو الفقير والمتوسط الحال.

الربا يمنع من إنشاء المشروعات المفيدة للمجتمع، لأن الربا: يعنى أن المال يولد المال من دون أعمال، والأعمال إذا ولدت المال، فهذا يعنى أن صاحب العمل استفاد وكذلك المجتمع استفاد، وإذا طرحت هذه المواد أو تلك المنتجات أو هذه الخدمات انخفضت الأسعار لأن توافر المواد يخفض سعرها.

وإذا انخفض السعر اتسعت شريحة المستفيدين فإذا اتسعت شريحة المستفيدين عم الرخاء، لأن كل شىء يرفع السعر يضيق دائرة الاستفادة، والمشكلة أن الدائرة إذا ضاقت يقل الإنتاج والبضائع تتكدس فى المستودعات مما يؤدى إلى انخفض الإنتاج، وهذا بدوره يؤدى إلى الاستغناء عن العمال فتزداد البطالة.

وانقسم المجتمع إلى طبقتين طبقة تملك ولا تعمل وطبقة تعمل ولا تملك، طبقة عاطلة عن العمل وهى طبقة المرابين وطبقة تعمل ولا تملك وكل جهدها لا يكفيها قوت يومها.

وأما من الناحية الاجتماعية:

فالمجتمع الذى يتعامل بالربا مجتمع منحل، متفكك، لا يتساعد أفراده فيما بينهم، ولا يساعد أحد غيره إلا إذا كان يرجو من ورائه شيئا، والطبقات الموسرة تعادى الطبقات المعدمة. ولا يمكن أن تدوم لهذا المجتمع سعادته، ولا استتباب أمنه، بل لابد أن تبقى أجزاؤه مائلة إلى التفكك، والتشتت فى كل حين من الأحيان حيث بالربا تزرع بوادر الحقد والعداوة وهذا ما نشاهده اليوم بين أطراف الربا سواء على الصعيد الشخصى أو على الصعيد الدولى.

فالربا إنما يتعلق فى نواحى الحياة الاجتماعية لما يجرى فيه التداين بين الناس، على مختلف صوره وأشكاله.

وهذه القروض ضررها يعود على المجتمع بالخسارة، والتعاسة مدة حياته، سواء كانت تلك القروض لتجارة، أو لصناعة، أو مما تأخذه الحكومات الفقيرة من الدول الغنية، فإن ذلك كله يعود على الجميع بالخسارة الكبيرة التى يكاد يتخلص منها ذلك المجتمع أو تلك الحكومات.

وما ذلك إلا لعدم اتباع المنهج الإسلامى، الذى يدعو إلى كل خير ويأمر بالعطف على الفقراء والمساكين، وذوى الحاجات، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (المائدة: ٢).

وقوله ﷺ: (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى).

فالربا ينشر البطالة فى المجتمع الذى يتعامل بها فى فئة هى التى تملك المال وهم المرابون وتقتل مشاعر الشفقة والرحمة بين أفراد المجتمع الواحد، فترفع الرحمة من هذا المجتمع فالراحمون يرحمهم الله.

قال ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء» «متفق عليه».

وقوله أيضاً: «من نفَّس على مؤمن كربة من كُرَبِ الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه» «رواه مسلم».

ومع انتشار الربا فى المجتمع تنتشر العداوة والبغضاء فيه، أما الإقراض الإسلامى فإنه ينشر الحب والمودة والبركة فى المجتمع، فالنظام الاقتصادى نظام متكامل شامل للأغنياء والفقراء فهو نظام رب العالمين ارتضاه لعباده.



رأى د. القرضاوى فى الربا وفوائد البنوك:

نشر فى موقع الشيخ القرضاوى على الانترنت عن فوائد البنوك والربا نشر فى ٦ نوفمبر ٢٠٠٨، جاء فيه، بسم الله الرمن الرحيم،

الحمد لله وكفى، وسلام على رسله الذين اصطفى، وعلى خاتمهم المجتبى، محمد وآله وصحبه أئمة الهدى، ومصابيح الدجى، ومن بهم اقتدى فاهتدى.

أما بعد،

فإن من أعظم الفتن الفكرية، ومن أخبث المؤامرات على العقل الإسلامى المعاصر، تلك المحاولات الجريئة لتحويل المحكمات إلى متشابهات، والقطعيات إلى محتملات، قابلة للقيل والقال، والنقاش والجدال، مع أن هذه المحكمات والقطعيات هى التى تمثل (ثوابت الأمة) التى انعقد عليها الإجماع المستيقن، واستقر عليها الفقه والعمل، وتوارثتها الأجيال جيلاً إثر جيل.

وكل دارس للشريعة الإسلامية وفقهها، يعلم علم اليقين: أن هناك دائرتين متمايزتين، لكل منهما خصائصها وأحكامها.

الأولى: دائرة مفتوحة وقابلة لتعدد الأفهام، وتجدد الاجتهادات، ومن شأنها أن تختلف فيها الأقوال، وتتنوع المذاهب.

وهذه الدائرة تشمل معظم نصوص الشريعة وأحكامها.

فهى دائرة مرنة منفتحة. وهذامن رحمه الله بعباده، لتتسع شريعته للعقول المتباينة، والمشارب المختلفة، والوجهات المتعددة.

ولا غرو أن وسعت الظاهرى والأثرى وصاحب الرأى.

الثانية: دائرة مغلقة، لا تقبل التعدد ولا الاختلاف، لأنها تقوم على نصوص قطعية الثبوت والدلالة، لا تحتمل إلا وجهاً واحداً، ومعنى واحداً، لأنها تجسد وحدة الأمة الفكرية والشعورية والعملية، ولولاها لانفرط عقد الأمة وتحولت إلى أمم شتى، لا تربطها رابطة عملية. وقد حافظت الأمة طوال العصور الماضية على أحكام هذه

الدائرة، وانعقد الإجماع عليها علماً وعملاً.

والمؤامرة اليوم تتجه إلى هذه الدائرة، تريد اختراقها وإذابتها، لتتمزق الأمة وتتحل، ولا يبقى لها شىء تجتمع عليه.

وهذا سر ما نراه من تشكيك فى البديهيات واليقينيات وما علم من الدين بالضرورة، من مثل التشكيك فى تحريم الخمر، أو تحريم الربا.

وقد يمكن أن يفهم هذا حين يصدر من العلمانيين واللادينيين والشيوعيين وأمثالهم. أما الذى لا يفهم ولا يعقل فهو أن يحطب فى هذا الحبل بعض من يتحدثون باسم الدين، ويروجون بغبائهم بضاعة أعداء الدين.

لقد كان من ثمار الصحوة الإسلامية فى المجال الاقتصادى: التوجه إلى إنشاء بنوك لا تعمل بالفائدة، التى أجمع العلماء على أنها هى الربا الحرام، وكانت هى البديل الشرعى العملى للبنوك القائمة على أساس الفوائد الربوية التى لم يبتكرها المسلمون، وإنما ورثوها من عهود الاستعمار فى أوطانهم، كما ورثوا القوانين الوضعية، وغيرها.

وبهذا بطلت دعوى الذين قالوا: لا تحلموا ببنوك بلا فائدة، والفوائد عصب البنوك.

وقد توسعت البنوك الإسلامية، ودخلت جل أقطار المسلمين، ولا تزال تزداد.

ونحن لا ننكر أن فى البنوك الإسلامية أخطاء تصغر أو تكبر، وتقل أو تكثر، ما بين بنك وآخر، وذلك لأن العنصر البشرى فيها جاء أساساً - فى الغالب - من البنوك التقليدية، فعقله مركب تركيباً ربويّاً، وليس عنده أى خلفية إسلامية، ولا حماس عنده للفكرة، ولا فقه فى المعاملات الشرعية.

ولا غرو أن تقع منه أخطاء وربما انحرافات. كما أن من الظلم أن نحكم على البنوك الإسلامية كلها حكماً واحداً، فهى لا شك تتفاوت تفاوتاً كبيراً.

فبعضها بلغ مرحلة مهمة من التدقيق الشرعى كما فى مصرف قطر الإسلامى، الذى كون إدارة خاصة لهذا التدقيق، وبنك قطر الإسلامى الدولى.

وبعض البنوك الإسلامية يطور معاملاته، ويتخلص بالتدرج من بعض الشوائب التى اضطر إليها، وبعضها لم يدخل فى المعاملات التى كثر حولها الكلام، مثل بيع المرابحة، وسوق السلع والمعادن الدولية، كما هو شأن بنك التقوى.

ومهما يكن الأمر، فلا ريب أن البنك الذى ينص قانون تأسيسه ونظامه الأساسى على وجوب تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية فى جميع معاملاته، والابتعاد عن المحظورات الشرعية فيها من الربا والغرر الفاحش والظلم والاحتكار والغش وغيرها ويفرض عليه وجود رقابة شرعية تعتبر قراراتها ملزمة واجبة التنفيذ بلا تردد مثل هذا البنك وإن ظهر فى ممارساته بعض الخلل: أفضل من بنك لا يلزمه قانون ولا عرف برعاية أحكام الشرع.

وفى الواقع أنا لا يهمنى البنك الإسلامى بقدر ما يهمنى الحكم الشرعى، وأعنى به تحريم الربا، الذى تعرض فى الآونة الأخيرة لحملة مشبوهة مدبرة، ضمن الهجمة الكبيرة الشرسة المدروسة لكل ما هو إسلامى، فى ميادين الاقتصاد أو الاجتماع أو الثقافة أو السياسة أو غيرها.

ولقد سمعنا فى هذه الحملة الصحفية والإذاعية كلاماً عجباً: فقد رددوا (اسطوانات) قديمة، كان قد فرغ العلماء من الرد عليها وإبطالها، مثل التفريق بين ربا الجاهلية وربا العصر الحاضر، والتمييز بين ربا الإنتاج وربا الاستهلاك.

ودعوى أن الربا المحرم ما كان أضعافاً مضاعفة .. الخ.

هذه الدعاوى التى رد عليها علماء ومفكرون شرعيون واقتصاديون، أمثال العلامة أبى الأعلى المودودى، ود.محمد عبد الله دراز، ود. عيسى عبده إبراهيم الأستاذ الأسبق لإدارة الأعمال بكلية تجارة عين شمس، ود. محمد عبد الله العربى، والشيخ محمد أبى زهرة، ود.محمود أبو السعود، وغيرهم من العرب والعجم.

وقد دخل فى هذه الحملة من يحسن ومن لا يحسن، وإن كان مما نحمد الله عليه أنه قلما يوجد فيهم فقيه معتبر من أهل الفقه المشهود لهم، المعروفين بإنتاجهم الفقهى الذى يقدره العلماء.

ووجدنا من هؤلاء من يذكر اختلاف الفقهاء فى علة الربا، فى حديث الأصناف الستة المشهور، وينقل تضعيف ابن عقيل الحنبلى لكلام الفقهاء فى العلة، ونحن لا نناقش العلامة ابن عقيل، ولكن نقول: إن حديث الأصناف الستة فى (ربا البيوع) والمعركة إنما هى حول (ربا الديون) وهذا لا خلاف فيه. وهو ما تقوم عليه البنوك التقليدية.

وذهب بعضهم إلى أن الربا إنما هو فى الذهب والفضة، ونحن اليوم نتعامل بالنقود الورقية، فلا هى ذهب ولا فضة، وعلى هذا لا يجرى فيها الربا، ولا تجب فيها الزكاة! وهذا كلام أوهى من أن يرد عليه. وقد رددت عليه قديماً فى كتابى (فقه الزكاة).

وقال بعضهم: إن البنك ليس شخصاً مكلفاً، يتوجه إليه الأمر والنهى، وزعم أن الشرع لا يعرف (الشخصية المعنوية) وهو جهل قبيح.

فقد عرض الشرع الشخصية المعنوية فى (بيت المال) وفى (المسجد) و(الوقف) وغيرها. وجاء فى أحاديث الزكاة فى الصحاح اعتبار الخليطين فى الماشية بمثابة شخص واحد، وطرده بعض الفقهاء فى كل الأموال، وهو ما أخذ به مؤتمر الزكاة المنعقد بالكويت، فى اعتبار الشركات كالشخص الواحد. وكأن هذا القائل يبيح للشركات أن تروج الخمر، وتتاجر فى الدعارة، وغيرها، لأنها ليست شخصاً مكلفاً!!

وقال من قال: إن الرسول صلى الله عليه وسلم لقى ربه ولم يبين ما هو الربا، ورووا فى ذلك أثراً عن عمر، وهم عادة لا يعنون بالآثار ولا يعتمدونها، وإن صح هذا فهو فى صور ربا البيوت الجزئية. أما ربا النسيئة أو ربا الديون، فهو مما لا ريب فيه، ولا يختلف فيه اثنان.

وإنى لأعجب لهؤلاء كيف يتصورون أن يحرم الله شيئاً، وينزل فيه من الوعيد الهائل ما لم ينزله فى غيره، كما فى قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا

الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ﴾ **(البقرة: ٢٧٥ - ٢٧٩).**

وقد لعن النبى ﷺ آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه، وقال: "ما ظهر الزنا والربا فى قرية إلا أحلوا بأنفسهم عذاب الله".

كيف سمع الصحابة رضى الله عنهم هذا كله، ولم يعرفوا ما هو الربا؟ ولم يسألوا عنه؟ وكيف لم يبينه لهم الرسول الكريم؟ والبيان - كما يقول العلماء - لا يجوز أن يتأخر عن وقت الحاجة؟

وكيف يكتمل الدين وتتم به النعمة إذا لم يتبين أهله المحرمات الكبيرة المتصلة بحياة الناس؟ وما معنى قوله تعالى:﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣).

ومما اتفق عليه هؤلاء المماحكون فى تحريم الفوائد البنكية: ادعاؤهم أنه لايوجد دليل على تحريم التحديد المقدم للأرباح فى عقد المضاربة.

ونقول لهؤلاء: بل هناك دليلان شرعيان مؤكدان:

أولهما: الإجماع الذى نقله ابن المنذر والنووى وابن قدامة وغيرهم على عدم جواز التحديد المقدم؛ ولم يشذ عن ذلك فقيه واحد، ولا مذهب من المذاهب

وثانيهما: الأحاديث الصحاح التى جاءت فى منع المزارعة بشىء معين، مثل ثمار قطعة معينة من الأرض، أو مقدار معين من الثمرة، خشية أن تسلم هذه القطعة ويهلك غيرها، أو العكس، فيكون لأحدهما الغُنْم يقيناً، وللآخر الغُرْم، وهذا ينافى العدالة المحكمة التى ينشدها الإسلام.

قال العلامة ابن قدامة: والمضاربة مزارعة فى المعنى.

وصدق رحمه الله، فالمضاربة مزارعة فى المال، كما أن المزارعة مضاربة فى الأرض.

الحق أنى لم أجد للممارين المماحكين فى الباطل فى تحريم الفوائد أى منطق قوى، أو حجة مقنعة، إلا دعاوى أوهن من بيت العنكبوت.

وحسبنا أن المجامع العلمية والفقهية الإسلامية، والمؤتمرات العالمية للاقتصاد الإسلامى والفقه الإسلامى كلها قد أجمعت على أن الفوائد البنكية هى الربا الحرام. وهو ما تضمنه هذا الكتاب.

لقد مر العقل الإسلامى فى المجال الاقتصادى بعدة مراحل:

مر بمرحلة (التبعية) الفكرية المطلقة، التى ترى ضرورة أخذ الحضارة الغربية بخيرها وشرها، وحلوها ومرها.

ثم بمرحلة (التبرير) للواقع الذى فرضه الاستعمار بما فيه الفوائد، ومحاولة تجويزه بفتاوى شرعية.

ثم بمرحلة (الدفاع) أو (الاعتذار) الذى يعتبر الإسلام وكأنه فى قفص الاتهام، فكل ما خالف حضارة الغرب وقيم الغرب، يجب الاعتذار منه، والدفاع عنه.

ثم مر بمرحلة (المواجهة) للغرب وحضارته وفلسفاته وقيمه وتشريعاته، وأن للغرب دينه ولنا ديننا، وهى بداية الصحوة الإسلامية.

ثم مرحلة (العمل) أو (إيجاد البدائل) الشرعية للواقع المخالف للإسلام، وفيها تعاون علماء الشريعة وعلماء الاقتصاد الإسلامى، مع رجال المال والأعمال، فى إقامة البنوك الإسلامية.

ثم مرحلة (تحسين البدائل) وتطويرها، وتصحيح أخطائها، وتجميع قواها، والتنسيق بين بعضها وبعض، وتوحيد مفاهيمها وفتاويها، أو على الاقل تقريب بعضها من بعض.

وفى هذا الإطار قام البنك الإسلامى للتنمية فى جدة بالتعاون مع البنوك الإسلامية لإيجاد (هيئة عامة للمحاسبة المالية) لهذه البنوك انبثق منها (مجلس للمعايير) يضم الشرعيين والمحاسبين والاقتصاديين، وهو يعمل منذ سنوات بجد

واجتهاد، لإيجاد معايير مشتركة للبنوك الإسلامية، وقد فرغ من عدة معايير، وهو ماض فى طريقه لاستكمال المعايير المنشودة.

وبعد أن قطعنا هذه المراحل، يريدنا هؤلاء الممارون: أن نرجع القهقرى، ونرتد إلى (مرحلة التبرير) من جديد، محاولين أن نحلل الفوائد التى هى الربا الحرام.

لقد كنا حسبنا أن هذا الموضوع قد حسم وفرغ منه، وأغلق ملفه، حتى قام من قام بفتحه من جديد، وأعادها جذعة، كما كانت منذ سبعين عاماً أو تزيد.

ولكن الذى يطمئننا، هو: وضوح الحق، بنصاعة أدلته، وقوة رجاله، ووهن الباطل، وتهافت منطقه، وتناقض أصحابه، وكما قيل: الحق أبلج، والباطل لجلج، وكما قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (الإسراء: ٨١)، ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ (الرعد: ١٧).

الآن حصحص الحق، وتبين الرشد من الغى، فليختر كل امرئ لنفسه الطريق الذى يريد: إما طريق الجماعة، وإما طريق الشذوذ، وفى الحديث الذى رواه الترمذى عن ابن عمر مرفوعاً: (إن الله لا يجمع أمتى - أو قال أمة محمد - على ضلالة، ويد الله مع الجماعة، ومن شذ شذ إلى النار).

يوسف القرضاوى

16

الكساد الاقتصادى العالمى صناعة أمريكية للاستيلاء على أموال العالم

- مليارات العرب من النفط فى جيوب أصحاب البروج.
- الكساد يضرب الدول الأوربية و «براون» يدعو صناديق المال الخليجية لإنقاذ أوربا !!

مليارات العرب من النفط فى جيوب أصحاب البروج «نظرية المؤامرة»

النفط العربى كان سلاحاً فى الماضى البعيد يرهب عدو الله وعدونا، إلا أنه انقلب إلى سلاح ضدنا بعد حرب ١٩٧٣.

فقد استوعب أصحاب البروج الدرس فجعلوا أصحاب النفط يودعون أموال النفط فى بنوك الأمريكان لاستثمارها والعيش من عائدها الربوى، فتلاعبوا بها حتى جاءت ساعة الصفر حين انتهى دور بوش الابن الذى حددته له القوى الخفية التى يقف من ورائها المسيح الدجال(١).

فأعلن «بوش» إفلاس أمريكا من أموال النفط العربى فى أكبر عملية نصب عالمية.

لقد ارتفعت أسعار النفط بنسبة ٤٠٠٪ عامى ١٩٧٣، ١٩٧٤ ثم زادت أسعار النفط (البترول) بنسبة ١٥٪ فى عامى ١٩٧٩ - ١٩٨٠ .

ولعب النفط أهمية فى الاقتصاديات العربية خلال فترة الفورة النفطية يمكن الاستدلال عليها من خلال كافة الأنشطة الاقتصادية فى الدول العربية، فقد تضاعفت عائدات الدول العربية أعضاء أوبك إضافة إلى البحرين وعمان من تصدير النفط من ٢٣,٨ مليار دولار عام ١٩٧٣ إلى٢١٢ مليار دولار عام ١٩٨٠ .

كما أدى تزايد العائدات النفطية إلى تحقيق الدول النفطية (باستثناء الجزائر) فائضا هائلا فى موازناتها التجارية، فأدى بالتالى إلى تحقيق فائض من موازنات مدفوعاتها الجارية بحوالى ٦٠ مليار دولار فى المتوسط سنويا خلال الفترة ١٩٧٥ - ١٩٨١ .

وكان لتزايد العائدات النفطية الدور الأكبر فى زيادة إيرادات الموازنة الحكومية خلال الفترة ١٩٧٣ - , ١٩٨١ وقد حققت الموازنات الحكومية للدول العربية خلال تلك الفترة فائضا كليا بلغ ١١ مليار دولار عام ١٩٧٥ وارتفع إلى ٤٦,٨ مليار دولار عام ١٩٨٠ .

---

(١) اقرأ كتابنا «حكومة الدجال الخفية الماسونية»، للتعرف على معلومات مذهلة عن الحكومة الخفية التى تحكم العالم برئاسة الدجال الأكبر، الناشر دار الكتاب العربى.

وقد هيأ للدول العربية المصدرة للنفط إنفاق استثمارات كبيرة فى البنية الأساسية التى استحوذت على النسبة الكبرى من الإنفاق العام.

كما شهدت الدول العربية النفطية فى الإنفاق على الواردات السلعية والخدمية التى ارتفعت قيمتها من حوالى ٣ مليارات دولار عام ١٩٧٠ إلى ٨٧,٩ مليار دولار عام ١٩٨٢، لتتضاعف ٢٩ مرة خلال فترة الفورة النفطية.

كذلك بفعل عائدات النفط تضاعف الإنفاق العسكرى على التسلح فى الدول العربية النفطية ١٢ مرة بين عامى ١٩٧٣ و١٩٨٣ ليصل ٣٧,٩ مليار دولار مقارنة بقيمة ٣,٤ مليارات دولار فى بداية الفترة، ويذكر أن صفقات السلاح المتتالية كانت الباب الأوسع لاستعادة أموال البترول من العرب من جهة أصحاب البروج حيث وصلت نسبة العمولة فى عقد هذه الصفقات إلى ٢٥، ٣٠٪ فى شراء أسلحة حديثة بلغت قيمتها مليارات الدولارات.

وتمكنت الدول العربية النفطية، من خلال أموال البترول من زيادة الإنفاق الاجتماعى على لخدمات والتعليم والصحة ليصل إلى ٣٠٪ من الإنفاق العام خلال فترة الفورة النفطية، وقاد ذلك إلى خلق مواطن مترف لا يسعى للجد والاجتهاد فى العمل فالأموال كثيرة.

كذلك شهدت فترة تراكم فوائض البترول للدول العربية النفطية فى الخارج، فى شكل استثمارات وودائع فى الولايات المتحدة وأوربا والدول الصناعية، وصل إجمالى هذه الفوائض من تلك الاستثمارات بنهاية ١٩٨٣، حوالى ٣٥٧ مليار دولار، منها ١٢٩,٣ مليار دولار فى استثمارات قصيرة الأجل، و٢٢٧,٨ مليار فى استثمارات طويلة الأجل، وتلك الأموال ذهبت أدراج الرياح فى الأزمة الاقتصادية العالمية الأخيرة.

أما الدول العربية غير النفطية وشبه النفطية فقد استفادت من النفط العربى خلال تلك الفترة من خلال تحويلات العاملين والقروض والمعونات التى تمنحها الدول النفطية، قد ارتفعت تحويلات العاملين فى هذه الدول من ٨٩٨,٣ مليون دولار عام ١٩٧٣ إلى حوالى ٥,٤ مليار دولار عام ١٩٨٠؛ ثم ارتفعت مرة أخرى إلى ٦,٤ مليار دولار عام ١٩٨٥.

وفيما يخص القروض والمعونات والتحويلات الأخرى بدون مقابل، فقد ارتفعت من ١,٣ مليار دولار عام ١٩٧٣ إلى ٧,٩ مليار دولار عام ١٩٨٥ .

كل هذا من عائدات النفط الذى رزقه الله ابتلاء وامتحانا للعرب قاطبة من ظهر فى أرضها ومن استفاد منها، فانقسمت المنطقة العربية أيضا إلى أصحاب البروج أصحاب النفط وأصحاب الكهوف وهى الدول الأخرى الفقيرة.

لذلك فإن البترول العربى وفوائضه كان له تأثير واضح فى تطوير الاقتصاديات العربية إبان فترة الفورة النفطية، فقد تم إنفاق العائدات فى الدول العربية النفطية على الواردات والتسليح ومشروعات البنية الأساسية والخدمات الاجتماعية والاستثمارات فى الخارج.

كما أفادت الدول غير النفطية وشبه النفطية من تحويلات العاملين والقروض والمنح من الدول النفطية لغيرها من الدول الفقيرة العربية.

ثم أدى ذلك أيضا إلى هجرة العمالة من الدول العربية الفقيرة إلى الدول النفطية العربية، وأصبحت تحويلات دخول ومدخرات العاملين فى البلدان العربية النفطية من أهم موارد ومقومات موازين المدفوعات، ومن مصادر تكوين الدخل القومى، ومن المصادر الرئيسية لتغذية حصيلة النقد الأجنبى المتاحة للاقتصاد الوطنى، التى أدت إلى الإقلال من الاعتماد على، الاقتراض الخارجى فى بعض الدول فترة السبعينيات وأوائل الثمانينيات.

وكذلك أصبحت تحويلات العاملين فى الخارج تؤثر تأثيرا مباشرا على الأوضاع الميعشية لقطاع مهم من السكان فى البلدان المصدرة للعمالة فظهرت طبقة جديدة كانت لا تملك شيئا وأصبحت ذات وضع اجتماعى أعلى فى بلادها.

لكن هذا المصدر أثر تأثيراً سلبيّاً حين انتهى عصر الفورة البترولية، إذ أن حصيلتها معرضة للتقلب والتقلص معا فى المستقبل، مما يجعل دورها فى الحياة الاقتصادية للبلدان المصدرة للعمالة دوراً مرحلياً محفوفاً بالمخاطر.

وتردى انهيار أسعار النفط فى بعض الفترات إلى انعكاس سلبى وعلى الموازنات

الحكومية للدول العربية، فقد تحول الفائض البالغ ٣٩ مليار دولار عام ١٩٨٠ عجز بقيمة ٣٣,٥ مليار دولار عام ١٩٨٨ .

وبالنسبة للفوائض تناقصت الاحتياطات الدولية للدول العربية أعضاء أوبك من حوالى ٥١ مليار دولار عام ١٩٨٢ إلى ٣٢,٤ مليار دولار عام ١٩٨٩ وذلك لمواجهة الهبوط الكبير فى إيرادات النقد الأجنبى.

نتيجة لذلك لجأت الدول العربية النفطية إلى خفض الإنفاق الحكومى، وعلى الرغم من ذلك تزايد العجز فى الموازنات الحكومية لتلك الدول.

وبالنسبة للدول العربية غير النفطية فقد تراجعت تحويلات العاملين إليها وانخفضت المساعدات العربية للدول النامية وتناقصت تدفقات العون الإنمائى العربى للدول العربية.

ومنذ ارتفاع أسعار البترول الأولى ١٩٧٣ - ١٩٧٤ تركز الاهتمام داخل المنطقة العربية على فوائض النفط سواء بالنسبة إلى حاجة الاقتصاديات العربية إلى مساهمة تلك الفوائض فى تحقيق التنمية الاقتصادية العربية، أو بالنسبة إلى المخاطر التى تواجهها تلك الفوائض المهاجرة إلى أسواق المال العالمية من جهة تقلبات أسعار الصرف والفائدة وانهيار البورصات العالمية واحتمالات التجميد وقد حدث ذلك المحظور مؤخراً.

كما تركز الاهتمام على فوائض النفط العربية المستثمرة فى الخارج - بعد تدهور أسعار البترول العالمية إلى أقل من ٩ دولارات للبرميل فى السوق النفطية عام ١٩٨٦، فقد ساهمت عائدات تلك الفوائض فى مواجهة النقص فى سعر البترول والمحافظة على استقرار اقتصاديات الدول العربية النفطية.

فقد كان للزيادة الكبيرة فى أسعار النفط، فى الفترة ١٩٧٣ - ١٩٧٤، أثرها الكبير فى تضاعف عائدات تصدير النفط من الدول العربية المنتجه له؛ وبارتفاع أسعار النفط مرة ثانية فى الفترة ١٩٧٩ - ١٩٨٠ وزيادة حجم الصادرات، فى ظروف الطاقة الاستيعابية المحدودة لاقتصاديات الدول العربية النفطية، تراكمت العائدات النفطية

خلال الفترة (١٩٧٣ - ١٩٨١).

فإنه بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣، ارتفع سعر برميل النفط من ٣,٥ دولار إلى ١٠,٥ دولار. وعقب الثورة الإيرانية ١٩٧٩ والحرب العراقية - الإيرانية ١٩٨٠، ارتفع سعر برميل النفط من ١٣ دولارا فى يناير ١٩٧٩ إلى ٣٠ دولارا فى ١٩٨٠ وإلى ٣٥,٥ دولارا فى يناير ١٩٨١ ومازالت أسعار النفط فى ازدياد حتى تجاوز المائة دولار فى الفترة الأخيرة عام ٢٠٠٨م.

واستطاعت الدول العربية المنتجة للنفط الأعضاء فى منظمة (أوبك) من زيادة صادراتها إلى ما يزيد عن ٢٠ مليون برميل يوميا عام ١٩٧٩، حوالى ١٩ مليون برميل يوميا عام ,١٩٨٠ وأدت زيادة إنتاج وأسعار النفط المصدر من الدول العربية الأعضاء فى (أوبك) إضافة إلى البحرين وعمان، إلى زيادة عائداتها النفطية من ٢٣,٧ مليار دولار عام ١٩٧٣ إلى ٢٠٨,٣ مليارات دولار عام ١٩٨٠ .

وشهدت الدول العربية النفطية نشأة فوائض من العائدات النفطية، وقد حالت القدرة الاستيعابية المحدودة للاقتصاد المحلى فى تلك الدول دون استثمارها محليا وأصبح لدى هذه الدول فوائض من النقد الأجنبى تزيد عن احتياجات التنمية الداخلية ومن ثم كان توجه هذه الفوائض للاستثمار خارجيا فى الدول الكبرى الغربية.

وحين ذهبت تلك المدخرات من عوائد النفط إلى البنوك الأمريكية والغربية لزيادتها قام أصحاب المؤامرة والقوة الخفية بالاستيلاء عليها فى أكبر عملية نصب فى التاريخ.

نعم إنها أكبر عملية نصب فى التاريخ، فالسؤال الذى يطرح نفسه أين ذهبت تلك المليارات فهناك الرابح وهناك الخاسر، فلم تذهب المليارات فى الهواء وإنما خرجت من جيوب البعض إلى آخرين من أصحاب المؤامرة.

ونظرية المؤامرة تغضب البعض الذين يرون أنه لا توجد مؤامرة ولا شىء وإنها مجرد وساوس شيطانية فى عقول من يصدقون بها.

والحقيقة التى نؤمن بها أنه يوجد مؤامرة من أصحاب القوى الخفية.. أصحاب

البروج ضد العالم الإسلامى على وجه الخصوص، صدق ذلك أو كذب فأنت حر فى اعتقادك.

حتى فوز «أوباما» بالانتخابات الأمريكية بعد ثمان عجاف على العالم العربى والإسلامى مخطط له من أصحاب المؤامرة وسوف تثبت الأيام القادمة صدق ذلك.

فإن الخسارة التى تكبدتها بنوك الخليج العربى وخاصة بنك الخليج العربى ثانى أكبر البنوك الكويتية، بفعل الأزمة المالية التى اندلعت شرارتها الأولى فى الولايات المتحدة، ثم امتدت لباقى الأسواق المالية فى العالم.

سوى مُؤَشِّرٍ أَوَّلِيٍّ على خسائر فادحة تكبدتها الدول العربية بفعل الأزمة، فالـ ٧٣٤ مليون دولار التى خسرها البنك بسبب انخراطه فى عملياتٍ لبيع ومقايضة الديون، وما يُسَمَّى بسوق المشتقات المالية، ربما تكون الأقل وطأة، إذا ما قُورِنَتْ بعشرات المليارات من الاستثمارات العربية، التى يجزم المحللون بأنها قد تبَخَّرت بفعل الأزمة.

والخسارة هنا طالت الاستثمارات الخاصة، المملوكة لأفراد أو مؤسسات، وأيضا الاستثمارات العامة التى تُدِيرُهَا صناديق حكومية.

والجَزْمُ بأن العرب تكبدوا خسائر بمليارات الدولارات بفعل هذه الأزمة، التى تُعَدُّ الأسوأ منذ أزمة الكساد العالمى الكبير عام ١٩٢٩، لا يأتى من فراغ.

فالدول الخليجية وَجَّهَتْ فى السنوات الأخيرة جانبًا كبيرًا من فوائضها المالية، التى جَنَتْهَا بفضل ارتفاع أسعار النفط لمستويات قياسية، للاستثمار فى الأسواق المالية الأمريكية؛ حيث أبرمت الصناديق السيادية المملوكة لهذه الدول صفقاتٍ ضَخْمَةً لشراء حِصَصٍ فى كبرى المؤسسات المالية الأمريكية.

وهو ما اعتبره البعض -حينذاك- تَحَوُّلاً فى الفكر الاستثمارى لهذه الصناديق، فبعدما ظلت لسنوات مستثمرًا خاملاً فى السندات الحكومية وصناديق التحوط الأمريكية، بدأت تُغَيِّرُ فكرها، وتدخل فى شَرَاكةٍ مع تلك المؤسسات، بدلاً من مَنْحِهَا الأموال، وانتظار جنى العوائد فى نهاية العام.

ومن أبرز هذه الصفقات، استحواذُ صندوق أبوظبى للاستثمار على ٤,٩٪ من مؤسسة مبادلة المصرفية العملاقة، مقابل ٧,٥ مليار دولار، كما استحوذت شركة جروب الأمريكية كارلايل المملوكة أيضًا لإمارة أبو ظبى على حصّة مقدارها ٨٪ من مجموعة لإدارة الأموال، في حين اشترت هيئة قطرية الاستثمار ٢٠٪ فى شركة بورصة لندن.

وفى الإجمالى، فإن الصناديق الاستثمارية السيادية الخليجية والآسيوية استثمرت نحو ٣٧ مليار دولار؛ لشراء حِصَص فى المؤسسات المالية الغربية خلال عام ٢٠٠٧، أى أربعة أضعاف ما تم استثماره فى عام ٢٠٠٦م!

ومن اللافتِ أن معظم تلك الصفقات أُبْرِمَتْ عَقِبَ انفجار فقاعة الرَّهْنِ العقارى فى الولايات المتحدة؛ حيث تَسَبَّبَ هذا الانفجار فى انهيار أسعار العقارات بصورة مدوية.

وبالتالى فإنّ القروض التى تم الحصول عليها بضمان هذه العقارات، ووَفْقًا لتقييمات مالية مبالغ فيها، أصبحت ديونًا رديئة أو معدومة، وهو ما كَبَّدَ البنوك، وشركات الرهن العقارى، وشركات التأمين التى قامَتْ بضمان تحصيل هذه الديون خسائرَ فادحة، دفعتها للبحث عن مُمَوِّلين جدد يمتلكون سيولةً مالية، تُمَكِّنُها من إعادة التوازن لمراكزها المالية.

وبالفعل عرضت الصناديق السيادية تقديمَ هذا التمويل، مُقَابِلَ حصص فى ملكية هذه البنوك والمؤسسات المالية بأسعار تفضيلية، مُرَاهِنَةً بذلك على تحقيق مكاسب ضخمة عقب استعادة الأسواق المالية لعافيتها.

إلا أنّ ما حدث عقب ذلك كَشَفَ أنّ الأزمة كانتْ أَعْمَقَ مما ظن مسئولو تلك الصناديق، وأن أزمة الرهن العقارى كانت مُجَرَّدَ مُؤَشِّرٍ لخلل عميق فى النظام المالى الأمريكى بأكمله.

ما فعلته الصناديق السيادية سارَ على دربه مئات المستثمرين العرب، بل إنّ السعى لتحقيق أرباح سريعةٍ وضخمةٍ، دَفَعَ البَعْضَ لضخِّ أموالهم فى أسواق المشتقات المالية، وهذه الأسواقُ تُدِيرُ مُضَارَبَاتٍ بمبالغَ طائلة، فى عقودٍ، وسنداتٍ، وأسهم آجلة، فى

العملات والمواد الأساسية والمعادن النفيسة.

فضلاً عن سندات الديون والرهون العقارية، والتى شهدت رواجا كبيرا منذ عام ٢٠٠٠، بسبب تَوَسُّعِ البنوك فى الإقراض العقارى، وتَمَّ ذلك بدَعْمٍ من مجلس الاحتياط الفيدرالى الأمريكى؛ حَيْثُ سعى الأخير من وراء ذلك للحفاظ على معدل نُمُوٍّ اقتصادى مرتفع، يُجَنِّبُ البلادَ السقوط فى دوامة الركود، كما حدث فى اليابان مَطْلَعَ القرن الحالى.

وتشير تقديراتٌ لمجلة نيوزويك الأمريكية إلى أنّ الصناديق السيادية وَجَّهَتْ ٧٤ ٪ من استثماراتها فى الربع الأول من العام الحالى (٢٠٠٨) لقطاع الخدمات المالية، إلا أنّ هذه النسبة تراجعت إلى ١٥٪ فقط مع الربع الثانى، وفى مُقَابِلِ ذلك ارتفعت استثمارات هذه الصناديق فى قطاع العقارات فى الربع الثانى إلى ٥١,٧٪ ، بعد أنْ كانت لا تتعدى ٣,٧٪ فى الرُّبُعِ الأول من العام الحالى، مِمَّا يَكْشِفُ عن ضخامة خسائرها لحْظَةَ تَفَجُّرِ الأزمة، وتَفَاقُمِهَا بعد الشهر الأول من بداية الربع الثالث من العام.

ووَفْقًا لتقديرات معهد التمويل الدولى، فإن السنواتِ الخَمْسَ الأخيرة شَهِدَتْ تدفقات استثمارية عربية فى أسواق الاستثمار العالمية بقيمة ٥٣٠ مليار دولار، كان نصيب الأسواق الأمريكية منها ٣٠٠ مليار دولار، كما تُشِيرُ مؤشرات وزارة الخزانة الأمريكية إلى أن الاستثمارات العربية فى الأصول المالية الأمريكية بلغت ٣٢٢ مليار دولار، غالبيتها العظمى استثمارات خليجية بقيمة ٣٠٨ مليارات دولار، إضافةً إلى استثمارات مصرية بقيمة ١١ مليار دولار، وأخرى للمغرب قيمتها ١,٣ مليار، بخلاف استثماراتٍ أَقَلَّ لِكُلٍّ من الأردن ولبنان وتونس .

فكان هذا وَهْمٌ وسراب وصراع للعرب سراب الأرباح ثم بدت الحقيقة بعده ظاهرة حية. وفى ظلِّ الافتقاد لأرْقَامٍ مُعْلَنَةٍ من جانِبِ الصناديق السيادية العربية عن حَجْمِ الخسائر التى مُنِيَتْ بها خلال الأزمة الحالية، فإنه لا مَفَرَّ من الاعتماد على مُؤَشِّرَات مجلس الاحتياط الفيدرالى، والتى تشير إلى أنَّ خسائر الاستثمارات الأجنبية فى أسواق المال العالمية فى الفترة من أغسطس ٢٠٠٧ إلى نهاية يونيو ٢٠٠٨ بلغت نحو

٤٠٠ مليار دولار.

وأنَّ هذه الخسائر ارْتَفَعَتْ مع اندلاع الأزمة المالية فى سبتمبر الماضى إلى أكثر من تريليون دولار ، وأنّ خسائر الاستثمارات العربية فقط بلغت حتى الآن ٥٠ مليار دولار، وهذه الأرقام مرشحة للتصاعد فى ظِلِّ استمرار نزيف الخسائر.

ومع أنّ الولايات المتحدة أعَدَّت خطة إنقاذ قيمتها ٧٠٠ مليار دولار لِمَنْعِ انهيار المزيد من البنوك والمؤسسات المالية، وتَجَنُّب تكرار الصدمة العنيفة التى أحدثها انهيار بنك ليمان برازرز، رابع أكبر البنوك الاستثمارية الأمريكية.

إلا أن خطة الإنقاذ اقتصرت على تعويض جانب من خسائر المستثمرين والمواطنين الأمريكيين فقط، ونَصَّتْ صراحةً على عَدَمِ تعويض الصناديق السيادية والمستثمرين الأجانب، وهو ما يعنى أن كافة الودائع والاستثمارات العربية فى المؤسسات المالية الأمريكية التى أَفْلَسَتْ أو انهارت بسبب الأزمة قد ضاعت بالكامل.

ثم جاءت الخسارة العظمى الوهمية فى البورصات العالمية وول ستريت فخسائر الأزمة المالية لم تقتصر فقط على الاستثمارات الساخنة فى أسواق المال العالمية؛ حيث أحدثتِ الانهيارات المالية فى البورصات الأمريكية والأوربية الزلزال فى البورصات العربية، واكتست مؤشراتها باللَّوْنِ الأحمر الداكن، مُعْلِنَةً عن ضياع مدخرات الآلاف من صغار المستثمرين، والكبار أيضا.

كما فقدت بورصتا دبى وأبو ظبى نحو ٤٠ ٪ من قيمتهما، وهو ما يعنى خسائر تتجاوز الـ ٣٠٠ مليار درهم، كذلك الأمر بالنسبة لبورصات الكويت وقطر وعمان ومصر؛ حيث تراجعت مؤشراتها لمستويات غير مسبوقة.

وإذا كانَتْ خسائر البورصات الأمريكية والأوروبية تُعَدُّ انعكاسًا لحجم الخسائر التى مُنِيَتْ بها بسبب الأزمة، فضلًا عن تَأَثُّرِ الكثير من الشركات والمؤسسات بالمخاوف من الدُّخُولِ فى رُكُودٍ وشيك، فإنّ خسائر البورصات العربية ارتبطتْ فى جانبها الرئيس بعوامل نفسية؛ حيث أَدَّتْ مخاوف صغار المستثمرين من امتداد تأثيرات الأزمة لبلدانهم إلى مَوْجَةِ بَيْعٍ عنيفةٍ، هَوَتْ بِمُؤَشِّرات الأسهم لمستويات متدنية، كما

ارتبط جزء من هذه الخسائر بإقدام المستثمرين الأجانب على تَصْفِيَة محافظهم الاستثمارية، والخروج بأموالهم من السوق، بهدف توفير سيولةٍ مالية تُعَوِّضُ الخسائر التى مُنُوا بها فى البورصات الأمريكية والأوروبية.

وحالة الذعر التى أصابتِ المستثمرين فى البورصات العربية، ودفَعَتْهُم للتخلص من الأسهم التى بحوزتهم بأسعار متدنية، تبدو منطقيةً فى ظلِّ التطور السريع للأزمة، وتحولها إلى دوامة ضخمة تَبْتَلِعُ كُلَّ ما يأتى فى طريقها، حيث قدر بنك إنجلترا المركزى خسائر الأزمة بأكثر من ١٠ تريليونات دولار، أى ما يُعَادِلُ سدس الناتج الإجمالى العالمى، منها ٢,٨ تريليون تكبَّدَتْهَا الأسواق المالية العالمية و٧,٢ تريليون ضخَّتْهَا البنوك المركزية فى الأسواق؛ لتهدئة المخاوف، وتوفير السيولة بعدما توَقَّفَتِ البنوك تمامًا عن إقراض بَعْضِهَا البعض خوفًا من حدوث انهيارات جديدة.

ورغم الخسائر الضخمة التى ألحقتها الأزمة المالية بالبورصات العربية، فإنَّ الأمر لم يَخْلُ من جوانب إيجابية، حيث نجت البنوك العربية، باستثناءات قليلة، من مقصلة الأزمة، بفضل الضوابط الائتمانية المشددة التى تتبعها، إضافةً إلى عدم انخراطها بشكل واسع فى أسواق المشتقات المالية، وإن كانت هناك مؤشرات على تَعَرُّضِ بنوك إماراتية إلى مشكلات فى السيولة.

وهو ما دفع البنك المركزى لضخِّ نحو ٢٠ مليارَ دولارٍ فى الأسواق لتغطية أى نقص فى السيولة، كما قَرَّرَتْ هيئة استثمار قطر (صندوق الاستثمار السيادى) شراءَ حصة قدرها ٢٠٪ فى البنوك القطرية لتقوية مراكزها المالية.

هكذا ضاعت أموال النفط العربى حين أؤتمن القط على مخزن الطعام كما يقول المثل العامى.

وحاولت كل دولة عربية إنقاذ الموقف أى إنقاذ ما يمكن إنقاذه لكن دون جدوى.

فقد ضخت السعودية والإمارات ما يصل إلى عشرة مليارات دولار فى بنوكها لتخفيف نقص السيولة فى حين سيحضر صناع القرار فى دول الخليج العربية لمناقشة رد فعل منسق للأزمة الاقتصادية العالمية.

وضخت مؤسسة النقد العربى السعودى (البنك المركزى) ثلاثة مليارات دولار فى بنوك تواجه صعوبات فى التكيف مع الاضطرابات المالية العلمية فى حين ضخت وزارة المالية فى الإمارات ٢٥ مليار درهم (٦,٨ مليار دولار) فى البنوك فى إطار تسهيل بقيمة ٧٠ مليار درهم للتمويل الطارئ.

وتحاول الدول فى أكبر منطقة مصدرة للنفط فى العالم التكيف مع أسوأ أزمة مالية عالمية منذ الكساد العظيم التى تهدد بوقف الازدها الاقتصادى للمنطقة.

وقال مشتاق خان الاقتصادى فى سيتى جروب جلوبل ماركتس (التحدى الرئيسى أمام دول الخليج هو دعم الثقة فى القطاع المصرفى وتحريك دورة الائتمان من جديد). وأضاف (كل دولة من المرجح أن تتخذ القرارات استنادا لمطالب أسواقها).

وفى آواخر عام ٢٠٠٨ صاغت البنوك المركزية والحكومات فى دول الخليج العربية ردود فعل منطقة للأزمة منها ضمان الودائع وتخفيف القيود على الإقراض وفتح تسهيلات تموينية وضخ أموال فى أسواق الأسهم الهابطة.

وقال مصرفيون إن المركزى السعودى اتخذ أحدث خطوة لفك تجميد الإقراض فيما بين البنوك بضخ ما بين مليارين وثلاثة مليارات دولار على شكل ودائع بالريال والدولار لدى البنوك.

وقالت وزارة المالية الإماراتية فى بيان إنها قامت بتحويل ٢٥ مليار درهم إلى البنوك استنادا إلى أحجام قروضها. وأضافت الوزارة أن هذا الجزء من التسهيل التمويلى مخصص لدعم رؤوس أموال البنوك الوطنية.

وتراجعت الفائدة على التعاملات فيما بين البنوك بعد هذه الخطوات.

وتأتى الأزمة المالية العالمية بعد ارتفاع أسعار النفط على مدار ستة أعوام مما أتارح لمستثمرين من القطاع الخاص والعام تحويل مليارات الدولارات للصناعة ومشروعات البنية التحتية.

وتصارع البنوك لتمويل هذه المشروعات مما قاد اقتصاديين ومسئولين لتوقع تأجيل

وإلغاء مشروعات.

وقال وزير الاقتصاد الإماراتى سلطان بن سعيد المنصورى فى تصريحات: من الطبيعى أن نتأثر بما يحدث فى الأسواق العالمية ولكن هناك عوامل ثقة وحماية تتعلق بخصوصية اقتصادنا وأساسه القائم على تنويع مصادر الدخل.

ويأتى الاجتماع بعد أن دعا المجلس الاقتصادى الأعلى فى السعودية دول الخليج لبحث كيفية سياستها فيما تتجه القوى الاقتصادية الغربية لركود محتمل مما يهدد بعرقلة الازدها الاقتصادى فى المنطقة.

وعقد اجتماع الرياض بعد يوم من قمة طارئة لأوبك بشأن أسعار الخام التى تهافت من أعلى مستوياتها على الإطلاق فوق ١٤٧ دولارا للبرميل التى سجلتها فى ٢٠٠٨.

وقال مونيكا مالك من المجموعة المالية - هيرميس (بدأت معظم البنوك المركزية فى الخليج التحرك بشكل أو بآخر إذا جلسوا وناقشوا الأمر يمكن أن يخرجوا بأفكار محددة.

ويقول اقتصاديون إنه على الرغم من تراجع أسعار النفط إلا أن دول الخليج من المتوقع أن تواصل زيادة ميزانياتها للإبقاء على خطط تنويع الاقتصاد على مسارها الصحيح.

وقالت الإمارات إنها زادت الإنفاق فى ميزانية العام المقبل بنسبة ٢١ بالمائة.

وحث الشيخ صباح الأحمد الصباح حاكم الكويت البرلمان والحكومة كذلك على المضى قدما فى الإصلاحات للمساعدة فى تقليل اعتماد الاقتصاد على صادرات النفط.

وكانت الخلافات بين البرلمان والحكومة كثيرا ما شلت القدرات التشريعية فى الكويت الدولة الخليجية الوحيدة التى تخلت عن ربط عملتها بالدولار.

وقال البنك المركزى الكويتى الذى خفض سعر الفائدة الأساسى إنه حول أولوياته بعيدا عن مكافحة التضخم وباتجاه دعم الثقة فى القطاع المصرفى.

وقال خان (الأولوية لجميع دول الخليج ستكون دعم اقتصاداتها المحلية).

على صعيد آخر حذر أكبر دبلوماسى فى القارة الإفريقية من أن كثيرا من الدول الإفريقية لن تتمكن من الوفاء بالأهداف المتعلقة بتقليص الفقر نظرا لأسعار الغذاء

المرتفعة والاضطراب المالى العالمى.

فى عام ٢٠٠٠ وضع أعضاء الأمم المتحدة أهداف الألفية للتنمية والتى تتمثل فى تقليص عدد الذين يعيشون بأقل من دولار فى اليوم إلى النصف وخفض عدد الذين يعانون من الجوع إلى لانصف وزيادة المساعدات للتنمية بحلول عام ٢٠١٥,

وقال جان بينج رئيس المفوضية الأفريقية لمسئولين يجتمعون فى العاصمة الإثيوبية من المحزن للغاية أن نشير إلى أن الكثير من البلدان الأفريفية لن يكون قادرا على تحقيق أهداف الألفية للتنمية بحلول ٢٠١٥ إذا لم تعالج أزمة الغذاء.

واستطرد قائلا: من المرجح أيضا أن تؤثر الأزمة المالية العالمية الراهنة سلبا على الاقتصادات الأفريقية لما فى ذلك أسعار الغذاء والاستثمار الأجنبى المباشر وكذلك أرباح الصادرات.

وتقول تقارير صحيفة: إن الاقتصاد فى الدول التى تتعامل باليورو يعانى من التباطؤ وربما يعانى من الكساد فى العام الجديد.

ويقول اقتصاديون: إن بنوك الاستثمار تعتقد أن الدول التى تتعامل باليورو تباطا اقتصاديا إلى درجة التوقف فى الأشهر الثلاثة الأخيرة من العالم الحالى وسوف ينكمش فى الأشهر الأولى من العام الجديد.

ويعود السبب فى ذلك إلى تقلص الإنفاق وتباطؤ الإنتاج الصناعى وتراجع الثقة فى الأسواق.

وقال الاقتصادى اريك تشانى: (تعانى منطقة اليورو من كساد قليل فى الشتاء الحالى، ولم يسجل أى نمو فى الأشهر الثلاثة الأخيرة من العام ٢٠٠٢، ولسوف يحقق مزيدا من التراجع فى الأشهر القليلة القادمة).

وقال: لا نستطيع أن نستبعد وقوع كساد اقتصادى.

وقد خفض بنك مورغان وستانلى توقعاته فى النمو فى منطقة اليورو لعام ٢٠٠٣ إلى ١ بالمائة من ١,٤ بالمائة.

وتشير التوقعات الاقتصادية فى منطقة اليورو إلى زيادة احتمال خفض سعر الفائدة.

وأذعن البنك المركزى الأوربى للضغوط فى أواخر العام ٢٠٠٨ فخفض سعر الفائدة نصف بالمئة إلى ٢,٧٥ بالمئة. جاء ذلك بعد تجميد لسعر الفائدة لمدة عام فى محاولة للحد من التضخم.

ويعود السبب فى تراجع التوقعات الاقتصادية فى منطقة اليورو إلى ضعف الاقتصاد الألمانى، وهو أقوى اقتصاد فى أوربا.

والسبب وراء ضعف الاقتصاد الألمانى يكمن فى ضعف الإنفاق وتراجع الثقة فى الأسواق، كما أن زيادة الضرائب فى العام القادم ستزيد من المشكلة.



كيفية مواجهة أصحاب البروج
فى أوروبا للكساد الاقتصادى العالمى

قال رئيس الوزراء البريطانى غوردون براون إنه يسعى لجمع مئات المليارات من الدولارات لزيادة احتياطيات صندوق النقد الدولى من أجل توفير إنقاذ مالى للدول المتضررة من الأزمة الاقتصادية بينما يواصل جولة خليجية.

وشكَّل تلقى بنك باركليز -ثانى أكبر بنك فى بريطانيا- مبلغا يصل ١١,٨ مليار دولار من ثلاث مجموعات استثمارية من منطقة الشرق الأوسط مصدرها قطر وأبو ظبى قضية مثيرة للجدل فى بريطانيا.

وبراون -الذى قاد جهود دعم صندوق تابع لصندوق النقد الدولى تبلغ احتياطياته ٢٥٠ مليار دولار هدفه منع انتشار الأزمة الاقتصادية العالمية- لم يحدد المبلغ الإضافى الذى يحتاجه الصندوق من الدول الغنية بموارد النفط فى الشرق الأوسط.

ولكنه أوضح أن الدول المصدرة للنفط التى حققت عائدات تجاوزت تريليون دولار من ارتفاع أسعار النفط فى السنوات الأخيرة، فى موقف يمكنها المساهمة فى دعم الصندوق.

وأكد أن بلاده كانت دائما اقتصاداً مفتوحاً واستفادت من انفتاحها على التجارة والاستثمارات مما أدى إلى توفير وحماية فرص عمل كثيرة، مرحبا بأى استثمارات من الصناديق السيادية فى بلاده[١].

وفى (نيس)، فرنسا ١٣ سبتمبر ٢٠٠٨ (شينخوا) أيد وزراء مالية دول الاتحاد الأوروبى ٤ إجراءات رئيسية لمعالجة الكساد الاقتصادى الحالى والاضطرابات المالية.

---

(١) المصدر: الجزيرة نت.

ذكر البيان الختامى الذى صدر فى نهاية اجتماع غير رسمى دام يومين أن وزيرة المالية الفرنسية كريستين ليجارد اقترحت (٤ دعائم) لتعزيز الأنشطة الاقتصادية ومعالجة الأزمات المالية.

كما ذكر البيان أنه بداية فيما يتعلق بأمور الموازنة، يمكن أن تدع دول الاتحاد المثبتات التلقائية تدعم الأنشطة دون محاولة احتواء النفقات لاحترام ال٣٪ سقف العجز بموجب اتفاقية التثبيت والنمو.

ولابد من القيام بالإصلاحات الهيكيلية لأنها قد تساعد فى استعادة القوة الاقتصادية من خلال زيادة المنافسة.

كما طالب الوزراء أيضا بنك الاستثمار الأوروبى بتقديم الدعم المالى للصناعات الصغيرة ومتوسطة الحجم من خلال زيادة فرص الإقراض فى ٢٠٠٨-٢٠٠٩,

وأخيرا فيما يتعلق بالقطاع المالى، سيتم تنفيذ الإجراءات لإعادة الثقة من خلال الشفافية ومحاسبة البنوك والقطاعات الأخرى دون تأجيل.

أكد وزراء المالية ورؤساء البنوك التزامهم بتوصيات الشفافية بأن تنشر البنوك تقاريرها على أساس نصف سنوى.

تم طرح الدعائم الأربع كما قدمتها ليجارد لمعالجة (صدمة التضخم وصدمة التغيير وصدمة الأزمة المالية الدولية)، وفقا لما ذكره وزراء ال٢٧ دولة الأعضاء بالاتحاد عقب تحليل الوضع الاقتصادى الحالى فى أوربا.

عارض الوزراء فى وقت سابق حزمة الحوافز الأمريكية لإعادة تنشيط الاقتصاد.

شهد الاتحاد الأوروبى ومنطقة اليورو تراجعاً اقتصاديا فى الربع الثانى من هذا العام.

لكن مسئولى الاتحاد الأوروبى رفضوا الاعتراف بأن أوروبا على مشارف كساد.

هكذا أفاق الأوربيون بعد فوات الأوان وعيونهم مازالت على أموال النفط لإصلاح ما أفسده المارد الأمريكى.

فالأمريكان يحاولون الآن النجاة بأنفسهم من تلك الأزمة الطاحنة، فهم يعلمون أن ما حدث ليس إلا رأس الجليد وما بقى سيكون أعظم مما هو حادث بالفعل.

فالكارثة الاقتصادية الأكبر المحتملة بعد أن يعتقد الأمريكيون أنهم اجتازوا عنق الزجاجة فى الأزمة الاقتصادية الحالية وفوق ما يشير محللون اقتصاديون.

فمع دخول القرن الحادى والعشرين، بلغ حجم الدين الأمريكى ٥,٧ تريليون دولار، ومع اقتراب نهاية (عهد الرئيس جورج بوش)، أى بعد مرور ثمانى سنوات فقط على بداية القرن، يمكن القول إن حجم الدين تضاعف تقريبا، ويعود ذلك لأسباب تتعلق بالحروب التى تشنها الولايات المتحدة والاقتطاعات الضريبية وزيادة الإنفاق، التى أضيفت إليها أعباء خطة الإنقاذ المالى الحكومية.

ويصف أحد المحللين الاقتصاديين العام ٢٠٠٨ بأنه (سيئ للغاية)، وأسبابه فى ذلك هى أن العجز فى الموازنة الاتحادية فى العام المالى الحالى بلغ ٤٥٥ مليار دولار، بعد أن كان فى العام الماضى ١٦٢ مليارا فقط.

وهذا الرقم لا يشمل التكلفة الناجمة عن قانون (الاستقرار الاقتصادى الطارئ) لعام ٢٠٠٨، والذى تقدر تكاليفه بمئات مليارات الدولارات، والتى سيعود بعضها فى نهاية المطاف إلى الخزينة الأمريكية، حيث ستستخدم الأموال الداخلة فى خطة الإنقاذ المالى لتملك أسهم وعقارات ورهونات وغيرها.

ومع ذلك فكل هذه الحسابات لا تساوى شيئا مقارنة بالكارثة المالية المحدقة التى ستطيح بالولايات المتحدة الأمريكية.

والكارثة تلك ليست مجرد أمر مستقبلى غامض، فقد بدأت تباشيرها تلوح فى الأفق فى وقت سابق من العام الحالى، عندما أصبحت المعلمة كاثلين كاسى كيرشلينغ أول أمريكية من جيل الطفرة الاقتصادية تتقاعد من وظيفتها لتبدأ الحصول على مزايا الضمان الاجتماعى.

وسوف يأتى من بعد كيرشلينغ ٧٨ مليون أمريكى خلال الأعوام السبعة عشر المقبلة والمخصصات المستحقة من الضمان الاجتماعى وكذلك الرعاية الصحية تبدو

مخيفة، ذلك أن تكلفة البرامج الحالية لهما، يمكن أن تؤدى إلى إفلاس الولايات المتحدة، وما من حل، مهما كان يبدو قادرا على إنقاذها من هذا المصير حتى الآن.

لقد اقترح البعض اتخاذ إجراءات أقل ثورية للمساعدة فى تجاوزها، ومنها، التوفير فى الموازنة الذى قد يتراكم جراء إلغاء خطة بوش للخفض الضريبى، وإنهاء حرب العراق أو توسيع الاقتصاد بعد انتهاء مفعول الأزمة الحالية.

بل وحتى إذا نجح الاقتصاديون فى تحقيق نمو ٣,٢ فى المائة سنويا، كما حدث فى تسعينيات القرن العشرين، إلى جانب الحصول على التوفير فى الموازنة الذى أشرنا إليه سابقا، فإنها لن تتمكن من مواجهة المشكلة المالية الاتحادية المنتظرة.

والسؤال الذى يتردد ونردده وستظل نردده فى هذه المؤامرة أو الأزمة المالية: أين ذهبت كل تلك الأموال؟ ومن حصل عليها؟

وكيف حدثت الأزمة المالية العالمية؟

وهل الاقتصاد الأمريكى دخل بالفعل (مرحلة ركود)؟

وهل الاقتصاد الأمريكى يمر بأزمة (لا تحدث سوى مرة فى القرن)؟

ويعتقد الخبراء أن الظروف المتدهورة للحكومة الاتحادية فى مواجهة تكاليف الرعاية الصحية المتزايدة واستحقاقات التقاعد لجيل الطفرة الاقتصادية يمكن وصفها بأنها (أزمة قروض خارقة)، ستجعل من الأزمة الحالية مجرد (قزم) عند المقارنة بينهما.

ووفقا لمكتب المحاسبة والمساءلة الاتحادى، تقدر الالتزامات الحكومية غير الممولة للرعاية الصحية والضمان الاجتماعى وحدهما بنحو ٤١ ترليون دولار، أى ما يعادل ألف دولار لكل أسرة، وهو مقدار العجز الحالى بين التكاليف المتزايدة لرواتب الضمان الاجتماعى والرعاية الصحية التى ينبغى دفعها لتلك الأسر خلال السنوات الخمس والسبعين المقبلة.

أما لماذا وصفت بأنها (أزمة قروض خارقة)، فرغم (هولها) فهناك العديد من

الأمور المتشابهة مع أزمة القروض الحالية.

فالبرامج الحكومية الفيدرالية تنفذ دون دراسة متأنية خاصة بشأن من سيتحمل العبء النهائى لهذه التكاليف.

وإن انعدام الشفافية حول أزمة القروض أدت إلى العديد من المفاجآت الكبيرة والخسائر الهائلة للمستثمرين، و(صندوق الائتمان) الحكومى لا يوفر ضمانة وإنما دين حكومى أكبر.

وبالطريقة نفسها، سيفشل المديرون فى مؤسسات القطاع الخاص فى منع أزمة القروض المقبلة كما فشلوا فى منع الأزمة الحالية، ذلك أن الكونجرس والإدارة الأمريكية أداروا وجوههم عن التكاليف المتعلقة ببرامج الرعاية الصحية والضمان الاجتماعى والخفض الضريبى.

ويقول أحد الخبراء الاقتصاديين: إن محور تلك الأزمات هو الإخفاق الجماعى للقيادات على التصرف فى مواجهة التحديات المعروفة.

وخلال الأزمات الاقتصادية السابقة والحروب، ظلت الحكومة تستدين لأن بقاء الدولة بات مهددا، وما تغير هو أن تراكم الديون أصبح عملا اعتياديا، حتى فى أوقات الرخاء الاقتصادى.

ولا تقتصر الأزمة على مجرد الخسائر المهولة والفادحة لأسواق المال. ولكن الخطورة الشديدة ترتبط بدفعها للدول التى تجاوز كل الخطوط الحمراء الحاكمة للعلاقات الاقتصادية والتجارية حتى مع الدول الصديقة والمثال المثير يرتبط بتطبيق بريطانيا لقوانين مكافحة الإرهاب وهى قوانين استثنائية وطارئة ومقيدة فى نفس الوقت ضد أيسلندا الدولة الأوربية بهدف الحجز على أصول وأموال الشركات الأيسلندية العاملة فى بريطانيا؛ حماية للمليارات من الدولارات التى تمثل إيداعات لأطراف بريطانية فى بنوك أيسلندية سيطرت عليها الحكومة هناك.

وتكشف هذه القصة المهمة طبيعة خسائر الأموال الخارجية فى كافة المؤسسات والبنوك الأمريكية والأوربية، حيث ترتكز خطط الإنقاذ العاجلة على تأمين وحماية

حقوق المواطنين بالدرجة الأولى.

وتتغاضى بصورة شبه كاملة عن تأمين حقوق الأجانب من غير المواطنين، وتنص صراحة على عدم ضمان أموال الدول الأخرى، سواء كانت أموالا تخص الصناديق السيادية المملوكة للحكومات أو غيرها من الصور والأشكال، وهو ما تضمنته خطة الإنقاذ المالى الأمريكى التى أقرها الكونجرس بشكل صريح وواضح، ولا يفسر ذلك فقط ضخامة خسائر الأموال العابرة للقارات والدول، ولكنه يفسر أيضا حالة الذعر الشديد وعدم الثقة المفرطة؛ نتيجة للصدمة المفجعة فى حجم الأزمة، وفى معالجات الأزمة بكل ما تلقيه بظلال دامية على مستقبل حركة الأموال فى العالم والتى يقدرها بنك التسويات الأوربى الدولى بنحو ٤ تريليونات دولار يوميا وانعكاس الفزع على معاملات الأسواق واستقرارها فى المستقبل القريب والبعيد.

إنه واقع جديد يلقى بملامحه السوداء على العالم كله عالم لم تعد الولايات المتحدة التى تقود اقتصاده، ولم تعد نغمات جرس (الوول ستريت) تنبه أحدا. ربما، آخر جبروت أمريكا الاقتصادى أنها أرسلت موجة التسونامى الكاسحة للعالم، بعد أن كادت تغرق بها أوربا.

العالم لا يثق بأنها ستأخذ عصا المايسترو الأمريكى لتقود السيمفونية الاقتصادية العالمية.

والسيد (ميشيل كامديسوس) واحد من فرسان الاقتصاد الدولى وكان قد اعتلى سابقاً صهوة حصان صندوق النقد العالمى، ولا نرى فارساً يرى ساحة العمل المالى والاقتصادى أنسب منه.

السيد كامديسوس قالها جهارا فى مؤتمر عالمى: (إن الولايات المتحدة لم تعد المحرك الرئيس للنماء الأرضى).

وقالها بشكل قاطع، نحتاج إذن إلى توجيه بوصلة أفكارنا من جديد، وهذه مهمة كبرى.

واليوم تتجه الولايات المتحدة الأمريكية نحو مستويات دين غير مسبوقة وتتجاوز

كل الأرقام القياسية المسجلة سابقا، بل ومن المتوقع أن يرى الأمريكيون ديونها عام ٢٠٤٠ وقد تضاعفت بشكل يفوق ما سجل فى نهاية الحرب العالمية الثانية.

بالإضافة إلى ذلك فإن الأزمة المقبلة لن تكون رقمية وديمغرافية فحسب، بل وذات مبادئ أخلاقية أيضا. مثل الوعود السابقة عندما بدت ممكنة التحقيق.

ويقول المحلل الاقتصادى الأمريكى ديفيد والكر: إن الحل يكمن فى تعيين خبراء وذوى مواهب ومهارات لوضع حلول للأزمة المقبلة، وهو ما تزخر به الولايات المتحدة.

وكل هذا الكلام لا يعطى إجابة مقنعة لنا ويظل السؤال قائما: أين تبخرت مليارات العالم والعرب؟

والإجابة والله أعلى وأعلم. ذهبت تلك الأموال وغيرها انتظارا لخروج الدجال آخر الزمان لفتنة الناس فهو أشر غائب يُنْتَظَر كما قال ﷺ فحين خروجه للعالم لمحاولة اقامة ملك اليهود وحكم العالم يسبق خروجه ثلاث سنوات شداد وكساد اقتصادى عالمى حتى إذا خرج ومعه تلك الأموال يلوح بها للناس فيتبعونه.



17

كلمة أخيرة

وخاتمة غير حسنة

نرجو الله أن تكون حسنة للمؤمنين

- **الكساد الاقتصادى العالمى والسنوات الشداد الثلاث من العلامات السابقة لخروج المسيح الدجال.**
- **كيفية النجاة من تلك السنوات الشداد كما ذكر ذلك النبى ﷺ.**



الكساد الاقتصادى العالمى والسنوات الثلاث الشداد من العلامات السابقة على خروج المسيح الدجال

سبق أن ذكرنا فى كتابنا «عشرة ينتظرها العالم» حين تعرضنا للعلامات السابقة الدالة على قرب خروج المسيح الدجال ونذكرها هنا إجمالاً وهى:

ظهور المهدى المنتظر، وجفاف بحيرة طبرية، وأن نخل بيسان لا يثمر، والكساد الاقتصادى العالمى، والسنوات الشداد الثلاث، واستعادة القدس من اليهود.

ونركز هنا على علامة الكساد الاقتصادى العالمى الذى يصيب الأرض ويذوق منه الجميع، وقد تعرفنا على مفهوم وتعريف الكساد والركود والتضخم العالمى، وقد يقول قائل إن العالم قد تعرض لنوبات من الكساد الاقتصادى العالمى أخرها ما حدث عام ١٩٢٩ وما تلتها من سنوات قبل الحرب العالمية الثانية.

إلا أن الكساد الاقتصادى الكبير الذى جاء ذكره كعلامة سابقة على خروج الدجال هو كساد عالمى مميز عما سبقه.

فما يميز هذا الكساد الأخير قبل خروج الدجال هو إمساك السماء عن المطر على مراحل ثلاث تنتهى بألا تمطر قطرة ماء وكذلك الأرض بالتبعية لا تنبت فرعاً ولا تنتج ثمراً حتى تنفق (تهلك) الحيوانات ذات الأهمية للإنسان من ذلك كله.

وكذلك فى زمن هذا الكساد يظهر المهدى المنتظر ويقود المسلمين ويحقق الانتصارات[١].

يظهر عقب ذلك المسيح الدجال ومعه المال والماء والطعام يلوح بها للناس فيتبعونه فتكون فتنته أشد الفتن منذ خلق آدم حتى قيام الساعة.

«الدجال يخرج من أرض بالمشرق يقال لها: خراسان»[٢].

---

(١) اقرأ كتابنا «نهاية العالم وأشراط الساعة»، الناشر دار الكتاب العربى.

(٢) أخرجه الترمذى مرفوعاً وقال الألبانى عنه: صحيح، انظر صحيح الجامع الصغير وكذلك قال ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى.

وتوجد فى تلك الأرض أقلية يهودية ونصرانية من الأرمن، جهة المشرق وهى بلاد تشمل مساحات كبيرة من بلاد فارس وأفغانستان وتركمنستان وتمتد فى آسيا بين نهر أموذريا شمالاً وشرقاً جبال هند وكوش جنوباً ومناطق فارس غرباً فهى تقع فى الشرق والشمال الشرقى لإيران وأكثر سكانها من الشيعة(١).

وتعود إلى الحديث النبوى عن السنوات الشداد الثلاث قبل خروج الدجال.

الكساد الاقتصادى العالمى الأخير.

عن أسماء بنت يزيد الأنصارية قالت:

كان رسول الله ﷺ فى بيتى فذكر الدجال فقال: «إن بين يديه ثلاث سنين، سنة تمسك السماء ثلث مطرها، والأرض ثلث نباتها.

والثانية تمسك السماء ثلثى مطرها والأرض ثلثى نباتها.

والثالثة تمسك السماء مطرها كله والأرض نباتها كله.

ولا تبقى ذات ضرس ولا ذات ظلف من البهائم إلا هلكت.

وإن من فتنته أن يأتى الأعرابى فيقول: أرأيت إن أحييت لك إبله ألست تعلم أنى ربك.

فيقول: بلى.

فتمثل له الشياطين نحو إبله ـ أى مثلها ـ كأحسن ما تكون ضروعاً وأعظمهن أسنمة.

قال: ويأتى الرجل وقد مات أخوه ومات أبوه.

فيقول: أرأيت إن أحييت أباك وأحييت لك أخاك، ألست تعلم أنى ربك.

فيقول: بلى.

فتمثل له الشياطين نحو أبيه وأخيه.

قالت أسماء بنت يزيد الأنصارية: ثم خرج رسول الله ﷺ لحاجة ورجع والقوم فى اهتمام وغم بما حدثهم به، قالت: قلت: يا رسول الله قد خلعت أفئدتنا بذكر الدجال.

(١) انظر معجم البلدان ـ ياقوت الحموى.

قال: فإن يخرج وأنا حى فأنا حجيجه وإلا فإن ربى خليفتى على كل مؤمن.

قيل: يا رسول الله، إنا لنعجن عجينتنا فما نختبزها حتى نجوع، فكيف بالمؤمنين يومئذ؟

قال: يجزئهم ما يجزئ أهل السماء من التسبيح والتقديس(١).

هكذا حدد رسولنا ﷺ ما يفعله المؤمنون يومئذ للخروج من تلك الشدة الاقتصادية وعدم وجود الطعام والغذاء بالتسبيح والتحميد والتقديس، فكما تطمئن القلوب بذكر الله تطمئن البطون وهذا لا يكون إلا للمؤمن فقط.

وقد شكل على البعض فهم هذا الحديث فانكروه وقالوا وكيف يحل التسبيح والتقديس مكان الطعام واستبعدوا حدوث ذلك وتقول لهم إنها قدرة الله وقد أحيا الله يونس عليه السلام فى بطن الحوت وكان طعامه وشرابه ذكره «لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين» فكشف الله عنه الغمة ونجاه من بطن الحوت ورزقه من الطيبات.

وكذلك الخروج من الأزمات الاقتصادية أن نعود إلى الله ومنهجه وشريعته فأصل البلاء فى الأزمة الاقتصادية العالمية الحالية أننا تعاملنا بالربا فسلط الله علينا من لا يخافه ولا يرحمنا فذهبت أموالنا أدراج الرياح.

فالشريعة الإسلامية تحدد فى جوهرها أساليب وطرق المعاملة الدنيوية كالأمانة والصدق والعدل والبيع والشراء.

ولا شك أن التعامل بالربا حتى فى المجتمعات الإسلامية واستحلال بعض العلماء للربا التى تتعامل بها البنوك وكذلك انتشار النظم وكثرة المظالم حتى أصبحت المحاكم تشهد ملايين القضايا ليس إلا دليلاً على فساد المجتمع الإسلامى الذى كان عليه أن يرفع راية القيادة لأن هذه الأمة هى خير أمة أخرجت للناس إذا أمرت بالمعروف ونهت عن المنكر.

لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (آل عمران: ١١٠).

---

(١) رواه أحمد فى المسند.

وأصبحت بلاد المسلمين الواسعة ضيقة على أهل الإسلام وقد أغلقت كل دولة حدودها فى وجه المسلمين فى حين أن الاستعمار الغربى الذى وضع هذه الحدود قد وحد بلاد الغرب وفتح الحدود ووحد العملة والاقتصاد فيما بينها.

وتفرق المسلمون طوائف وجماعات متناحرة فيما بينهم وأودع الكثير منهم أموالهم وملياراتهم فى البنوك الغربية والأمريكية فضاعت فى تلك الأزمة الاقتصادية والكساد الاقتصادى العالمى الوهمى.

لقد نسى المسلمون ما يوحدعم على كلمة سواء وأصروا على الفرقة واستعباد بعضهم البعض وقد أمرهم الله بالاعتصام بحبله المتين.

قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٠٤ ـ ١٠٥).

ولذلك فإن الحل فى العودة إلى طاعة الله ورسوله ﷺ وتوحيد الأمة تحت راية القرآن والسنة النبوية الصحيحة.

ونختم قولنا بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ (النساء: ٦٩ ـ ٧٠).

نسأل الله أن يتقبل منا عملنا هذا وغيره من الأعمال، وأن يجعله فى ميزان حسناتنا يوم أن نلقاه غير خزايا ولا ندامى ولا مبدلين ولا مفتونين إنه ولى ذلك والقادر عليه وصلِّ اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

المؤلف

١٠/ ١١/ ٢٠٠٨

أهم الكتب والمراجع والمصادر

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ صحيح البخارى.

٣ ـ صحيح مسلم.

٤ ـ فتح البارى فى شرح صحيح البخارى ـ لابن حجر العسقلانى.

٥ ـ نهاية العالم وأشراط الساعة ـ منصور عبد الحكيم.

٦ ـ من يحكم العالم سرّاً ـ منصور عبد الحكيم.

٧ ـ السر الأكبر ـ دايفيد أيكه.

٨ ـ الحرب الكبرى ـ روبرت فيسك.

٩ ـ السيرة النبوية ـ لابن هشام.

١٠ ـ الربا وأثره على المجتمع الإنسانى ـ د. عمر الأشقر.

١١ ـ الفتاوى الكبرى لابن تيمية.

١٢ ـ المغنى ـ لابن قدامة.

١٣ ـ نيل الأوطار ـ للشوكانى.

١٤ ـ موقع القرضاوى على الإنترنت.

١٥ ـ الصراع الدولى فى عالم ما بعد الحرب الباردة ـ أحمد إبراهيم حمود.

١٦ ـ النظام الدولى الجديد ـ على هلال الدين.

١٧ ـ الربا أضراره وآثاره ـ سعيد بن على وهف القحطانى.

١٨ ـ مضار الربا ـ محمد راتب النابلسى.

١٩ ـ المسيح الدجال ـ للسفارينى.

٢٠ ـ الحاوى للفتاوى ـ للسيوطى.

٢١ ـ مواقع عديدة على شبكة الإنترنت.

وكتب أخرى ذكرت فى الهوامش.

الكاتب فى سطور

- منصور عبد الحكيم محمد عبد الجليل.
- حاصل على ليسانس فى الحقوق - جامعة عين شمس عام ١٩٧٨ م.
- من مواليد القاهرة.
- يعمل بالمحاماة والكتابة.
- له العديد من الإصدارات المتنوعة تصل لأكثر من ١٠٠ كتاب ومجلد أثرت المكتبة العربية والإسلامية وله العديد من الدراسات الإسلامية والمقالات والبحوث فى المجلات والصحف العربية والإسلامية.

من إصدارات الكاتب:

١ - السيناريو القادم لأحداث آخر الزمان.

٢ - نهاية العالم وأشراط الساعة.

٣ - عشرة ينتظرها العالم.

٤ - البداية فتن والنهاية ملاحم.

٥ - يأجوج ومأجوج من الخلق إلى الفناء.

٦ - تنبؤات نوستراداموس ومخططات اليهود على العالم.

٧ - هلاك الأمم من قوم نوح إلى عاد الثانية.

٨ - واقتربت الساعة.

٩ - الحرب العالمية الأخيرة.

١٠ - أقدم تنظيم سرى فى العالم.

١١ - من يحكم العالم سراً؟

١٢ ـ العالم رقعة شطرنج.

١٣ ـ حكومة الدجال الخفية الماسونية.

١٤ ـ حروب ومؤامرات من ورائها الماسونية.

١٥ ـ العراق أرض الفتن والنبوءات.

١٦ ـ الإمبراطورية الأمريكية البداية والنهاية.

١٧ ـ نيويورك وسلطان الخوف.

١٨ ـ أرض الشام أرض الأنبياء وأحداث آخر الزمان.

١٩ ـ بلاد الحجاز معقل الإيمان آخر الزمان.

٢٠ ـ السفيانى صدام آخر على وشك الظهور.

٢١ ـ الشيطان إبليس وصراعه مع الإنسان.

٢٢ ـ هولاكو مارد من الشرق.

٢٣ ـ جنكيز خان إمبراطور الشر.

٢٤ ـ صلاح الدين المنقذ المنتظر.

٢٥ ـ نهاية العالم قريباً.

٢٦ ـ نهاية دولة إسرائيل عام ٢٠٢٢ م.

٢٧ ـ هرمجدون ونهاية أمريكا وإسرائيل.

٢٨ ـ نهاية أمريكا وإسرائيل.

٢٩ ـ الحرب العالمية الثالثة قادمة.

٣٠ ـ المهدى المنتظر.

٣١ ـ شهداء الصحابة فى عصر النبوة.

٣٢ ـ نساء أهل البيت النبوى.

٣٣ ـ زوجات الأنبياء والرسل.

٣٤ ـ بنات الصحابة.

٣٥ ـ أسرار الماسونية الكبرى.

٣٦ ـ أوراق ماسونية سرية للغاية.

٣٧ ـ الفراسة فى معرفة الآخرين.

٣٨ ـ الحرب السابعة وزوال دولة اليهود.

٣٩ ـ جبريل أمين الوحى الإلهى.

٤٠ ـ ازدراء وإيذاء الأنبياء.

٤١ ـ إسرافيل وأهوال القيامة.

٤٢ ـ عزرائيل ملك الموت.

٤٣ ـ فرسان مالطا وغزو العراق.

٤٤ ـ رضوان حارس الجنة ووصفها وأهلها.

٤٥ ـ مالك خازن النار وأحوال أهلها.

٤٦ ـ الحياة الآخرة.

وكتب أخرى متنوعة تطلب من دار الكتاب العربى ـ القاهرة ـ دمشق.


فهرس المحتويات

آيات الذكر الحكيم	5
المقدمة	7
الحرب من أجل الحضارة	11
النظر إلى الماضى لقراءة المستقبل	13
اتحاد رجال الدين ورجال السياسة فى الحرب من أجل الحضارة	20
صراع الحضارات أو صراع الأديان والطوائف عالميّاً ومحليّاً أمر واقع	26
تطور نظرية صراع الحضارات	34
بداية حرب الحضارات الكبرى أو القطيعة بين الحضارات	43
الصراع فى لعبة الأمم	51
الحروب فى مفهوم الزعماء والشعوب	53
الصراع فى قلب القوقاز	67
الصراع فى منطقة القوقاز بالقرب من مناطق النفط	69
الأقليات قنبلة موقوتة	87

التدخل الخارجى لحل مشاكل الأقليات 96

البترول والسياسة 107

عدم فعالية البترول كسلاح فى مواجهة القوى العظمى أصحاب البروج 109

محاولات إيرانية فى إعادة استخدام سلاح النفط فى مواجهتها لأصحاب البروج 114

العولمة وأصحاب البروج 127

العولمة من وجهة النظر الأمريكية 129

العولمة من وجهة نظر إسلامية.. رحمة ورخاء وسلام للعالم 138

الاحتلال الديمقراطى الجديد 155

مشروع الشرق الأوسط الكبير.. بدايته ومراحل تنفيذه 157

نص مشروع «الشرق الأوسط الكبير» 173

نص المشروع (ترجمة غير رسمية) 173

أولاً - تشجيع الديمقراطية والحكم الصالح 175

مبادرة الانتخابات الحرة 176

المساعدة القانونية للناس العاديين 177

ثانياً - بناء مجتمع معرفى 180

ماذا بعد العراق الجديد 182

مناطق رعاية الأعمال 186

محور الشر ومحور الخير 189

النظام الدولى الجديد فى مواجهة العالم باسم محاربة الإرهاب الدولى 191
وأهم بنوده هى 198
صراعات ومواجهات فى بحر قزوين بين أصحاب البروج وأصحاب الكهوف 199
بحر الخزر أو بحر قزوين بؤرة الصراع والتنافس الدولى حول آبار النفط والغاز 201
تحالفات وصراعات فى آسيا الوسطى والقوقاز 208
صراعات ومواجهات بين أصحاب البروج فى منطقة جنوب آسيا 217
لعبة توازن القوى العظمى فى منطقة شرق آسيا 219
سقوط الأمريكان على أرض أفغانستان 231
صراعات وأطماع وتحالفات بين أصحاب البروج وأصحاب الكهوف على الأراضى الأفغانية 233
الاغتيالات السياسية المؤثرة عالمياً وأصحاب البروج 261
تورط أصحاب البروج وفرسان الهيكل فى اغتيال «جون كينيدى» وأميرة ويلز 262
المواجهة بين أوربا وأمريكا (صراع الكبار) 277
الولايات المتحدة الأمريكية فى مواجهة الولايات المتحدة الأوربية 279
الكساد الاقتصادى وعلامات القيامة 289
الأزمة الاقتصادية المالية العالمية.. الأسباب والنتائج 291
تاريخ التضخم 301
السياسة المالية 304
السياسة النقدية 304

معدل التضخم 306

التضخم الاقتصادى 307

طغيان المال يؤدى إلى طغيان السلاح 317

بداية الانهيار الاقتصادى الأمريكى من وجهة نظر أمريكية 319

النظام الربوى العالمى السبب الرئيسى للانهيار الاقتصادى والكساد العالمى 324

الربا وأضراره وخطورته على النظام الاقتصادى العالمى من وجهة نظر إسلامية 333

أضرار الربا ومضاره اقتصادياً واجتماعياً 339

وأما من الناحية الاجتماعية 341

رأى د. القرضاوى فى الربا وفوائد البنوك 343

الكساد الاقتصادى العالمى صناعة أمريكية للاستيلاء على أموال العالم 351

مليارات العرب من النفط فى جيوب أصحاب البروج «نظرية المؤامرة» 353

كيفية مواجهة أصحاب البروج فى أوروبا للكساد الاقتصادى العالمى 367

كلمة أخيرة 375

الكساد الاقتصادى العالمى والسنوات الثلاث الشداد 377

من العلامات السابقة على خروج المسيح الدجال 377

أهم الكتب والمراجع والمصادر 381

الكاتب فى سطور 383

فهرس المحتويات 387

9 أحداث آخر الزمان

تتلاحق الأحداث سريعا نحو النهاية، فما هى العلامات المؤكدة على قرب نهاية العالم، هذا ما سوف نوضحه بإذن الله فى تلك السلسلة المتتالية عن أحداث آخر الزمان الذى نعيشه.

خلق الله الخلق ابتداء من أدم وحواء عليهما السلام ثم كان الصراع بين تلك الذرية لأسباب مختلفة ومتنوعة، إلا أنه بعد طوفان نوح عليه السلام وتنوعت ذرية آدم من شعوب مختلفة الألسن والألوان والأعراف علا الجنس الأبيض على الجنس الأسود والأصفر وسعى إلى السيادة وغزو إخوانه بحجة أنه الجنس السامى أو العرق الأفضل. واختلف على نفسه العرق السامى أو الآرى وأنه يختلف عن ذرية أدم وانه جاء من الفضاء الخارجى، وقديما ادعى هؤلاء بأنهم ابناء الالهة، هؤلاء أصحاب البروج الذين اعتبروا غيرهم عبيدا لهم وانهم أصحاب الكهوف.

تقرأ فى هذا الكتاب عن صراع الحضارات وصراع الاديان عالمياً ومحلياً وهو أمر واقع . وتقرأ عن الصراع فى القوقاز من منابع النفط بين اصحاب البروج وأصحاب الكهوف. وتقرأ عن الحروب من مفهوم الزعماء والرؤساء والشعوب والكتاب المثقفين والاستراتيجية الامريكية فى خريطة أفغانستان وماذا حققت!

وتقرأ عن الأقليات الدينية والعرقية وكيف انها قنبلة موقوتة وسلاح خطير يستخدمه أصحاب البروج وكيف يمكن حل مشاكل الأقليات بالطرق السلمية، وخطورة التدخل الخارجى لحل مشاكل الأقليات على الأمن والسلم العالمى. وتقرأ عن استخدام البترول كسلاح فى مواجهة أصحاب البروج قديما ومحاولة اعادة استخدامه من جديد فى العصر الحالى وكيف استطاعت ايران توظيف النفط لصالحها.

وتقرأ عن الاحتلال الديمغرافى الجديد من اصحاب البروج لدول أصحاب الكهوف ومشروع الشرق الأوسط الكبير الذى دعت اليه الدول الاستعمارية بعد الحرب العالمية الأولى وإعادة الولايات المتحدة فى عهد بوش لصياغته لصالحها.

وتقرأ عن تورط أصحاب البروج فى الاغتيالات العالمية وخاصة اغتيال جون كيندى وأميرة ويلز الأميرة ديانا والهدف من اغتيالهما.

وأسرار العائلة المالكة فى بريطانيا وأسرار غريبة لا يصدقها عقل.

ثم تقرأ عن الكساد الاقتصادى العالمى والازمة الاقتصادية العالمية وكيف استطاعت الولايات المتحدة الأمريكية من سرقة أموال النفط العربى بإفلاس بنوكها الكبرى وضياع أموال العرب.

وتقرأ عن الكساد الاقتصادى العالمى وعلامات يوم القيامة وخروج الدجال والسنوات الشداد الثلاث التى تسبق خروجه كما جاء فى الحديث النبوى.

وتقرأ عن طغيان المال الذى يؤدى إلى طغيان السلاح وبداية الانهيار والامبراطورية الأمريكية والنظام الدموى العالمى وأضراره وخطورته على النظام الاقتصادى العالمى.

وتقرأ عن مليارات العرب التى ضاعت فى الأزمة الاقتصادية العالمية وذهبت فى جيوب اصحاب البروج.

إنه رؤية تاريخية وسياسية ودينية عن الأحداث العالمية الحالية يجدر بك أن تقرأه أكثر من مرة وتدعو غيرك لقراءته.



دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

W.Salama 010 15 17 873